

محمد حسن علوان

سقف الكفاية

رواية



دار الفارابي

محمد حسن علوان

سقف الكفاية

رواية

طبعة إلكترونية
www.alalwan.com

السقف
الكفاية

الكتاب: سقف الكفاية (رواية)

المؤلف: محمد حسن علوان

الموقع الإلكتروني للمؤلف: www.alalwan.com

البريد الإلكتروني للمؤلف: mohd_alwan@hotmail.com

طبعة إلكترونية

(منقّحة)

((إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ))

سورة يوسف، الآية ٦٨

ISBN: 9953-411-66-2

مكتبة الملك فهد الوطنية

الإدارة العامة للإيداع والتسجيل

رقم الإيداع: ٢٣/٣١٤٧

إصدار مخصص للتوزيع الإلكتروني فقط، يرجى عدم عرضه للبيع.

بسرعة، قبل أن تقلني في السماء كما يُفَلتُ الغيم.

كنتُ أكثر رجال الدنيا اشتهاً لك.

وكنتِ أنتِ، ببساطة، حدِّي الأخير الذي لا أتمنى بعده شيئاً، من كلِّ احتياجاتي الذكورية إلى الأنثى.

لذلك، لم يكن الحب قراراً أسعى لأخذه، بقدرِ ما كان قدراً يسعى لأخذي.

في تلك الحالة الابتدائية من المشاعر المتعلقة بجنون، كنتُ أشعرُ أن كلَّ محاولة للتفكير في ما أنا مقبلٌ عليه تُعتبر خريشةً يائسةً على خريطة تقودُ إلى مكانٍ واحدٍ في النهاية، كلُّ الاتجاهات تشيرُ إليك، كلُّ الكلمات، كلُّ التصرفات، كلُّ التفاصيل الصغيرة، والتشابهات الطفيفة، كلُّ الأشواق، والعادات، والأمنيات المتأرجحة على سنوات العمر، والأمل، والانتظار، ودوائرُ الترقُّب التي تنمو طفولةً، ومراهقةً، ونضجاً.

باختصار شديد جداً، لا تبقى بعده حاجةٌ للتبرير، كلُّ الأقدار.

قرأ الحب ماذا ينقصني، جسَّ الروح والجسد والإنسان، وأحصى الفراغات التي شحَّ الدهر عن ملئها في داخلي، والثقوب التي أحدثها بيديه في ثياب العمر، وعجن كلَّ أحلامي، وأدويتي، وخيوط وسادتي، وأسنة أقلامي مع بعضها، واختاركِ أنتِ، ليضعكِ في طريق حياتي الأول، دون أن أرى في منامي أحد عشر كوكباً والشمس والقمر.

جئتُ على بساطِ القَدَر، قالت لي أمي ذات مساء: ((السماء مليئةٌ بالنجوم يا ولدي، وكلها أساطير، هناك نجمةٌ واحدةٌ لك فقط، لا تلمع إلا ليلةً واحدةً في العمر.))، وكنتِ أنتِ نجمتي التي تعلم، قبل ليلة اللمعان، أيَّ رجال الأرض سيتبعها

الفصل الأول

لم تكوني أنتِ امرأةً عادية حتى يكون حيي لك عادياً، كنتِ طوفاناً يجرفُ أمامه كلُّ أشجارِ القلق، وجليميد الترقُّب والتروي، كنتِ قادمةً كوجه الفجر الذي يسقط رهبانية الليل الطويلة، كنتِ نازلةً على جبين الكوكب المهجور، وبين يديكِ ماء، وحياة، ومخلوقات، ودورة شمسية جديدة.

كنتِ حبيبي، ذلك الإتيانُ الأنثوي العاصف الذي لا يمنحُ الأشياء تفسيراتها، بينما يكونُ اتجاهات جديدةً على خريطة الحياة، يخلقُ أمماً وحضارات، يغيِّرُ تواريخ الميلاد، وعادات الليل، والأحلام المعلقة على جدار النهار، وقوانين الصمت والكلام، والنظام الأزلي لنبضات القلب.

نوعكِ هذا من النساء لا يرفقُ بي، أنا عاشقُ المرة الأولى، إنه يسحقني حتى آخر خلية تزورها الدماء، ثم يجمع فتاتي، ويللم ذرَّاتي، ويعجنني من جديد، رجلاً آخر، كما يريدني الحب.

رفعتُ المرساة، واتجهتُ إلى عينيك مباشرة، وفي داخلي يتشكَّلُ إيمانٌ جديد، ومبادئ أخرى، ولغات، وأساطير، وأقلام، ودفاترُ حكمة، كلها راحت تخلُق نفسها في غمرة المواجهة، وتتفاعلُ مع بعضها البعض بأفضل ما تستطيع، لتصل إليك

إذا نَزَلْتُ، ويموتُ إذا أفلَّتْ.

ولم أكن أعلم أن عشق النجوم صعب، لأنها لا تبقى.

ولكنه قَدَرِي.

لا يكون الحب قراراً أبداً، إنه الشيء الذي يختارُ اثنين بكلِّ دَقَّة، ويُشعلُ بينهما فتيلَ المواجهة، ويتركهما في فوضى المشاعر، دون دليل.

إنه يريدُهما بذلك أن يتعلما أول دروس الحب.

كيف يحتاج كلُّ منهما إلى الآخر.

يدي معلقةً على قلمٍ أبيض صغير.

القلم الذي أخذته منك لأكتب قصيدةً أحيَرةً تحتفظين بها، وأصررت أني على أن أحفظ به للذكرى، فعلقته في جيبي، وعدتُ به إلى البيت، وأنا لا أدري أيَّ دورٍ سيكون له في حياتي.

هاأنذا أسخَّرُ هذا الصغير لكتابتَي الكبيرة، بعد سنتين ونيف من رحيلك، بالرغم من أن قصره ونخافته البالغين يؤذيان أصابعي كثيراً، أنا الذي أكتبُ بخطِّ صغير، وأنعطِفُ بالقلم في مساحةٍ ضيقةٍ جداً، فأفقد كثيراً السيطرة عليه، فينحرف خارج السطر، أو خارج الفكرة.

ولكني اعتدتُ عليه بعد لأي، أو أنه اعتاد عليَّ.

الأقلام التي تأخذ رؤوس أحزاني وتكمل البكاء وحدها على الأوراق هي أقلامُ

تعودت على شكل يدي، تعودت على نوع كلماتي، وطريقتها في إثبات حضورها على الورقة، فأنا عشوائيٌّ جداً في بذاري، ألقى البذور ولا أهتم أين وقعت، وكيف ستنمو، ومن سيرعاها حتى تكبر، ففشلت مني كلمات، وتعضت أخرى فنجت.

لا أحب الكتابة التذيلية، تلك التي تلد وتتم بصغارها، بل أحبُّ أن أترك ما أكتبه ليواجه الحياة وحده، ويتعلم الصمود وحده، فلن أكون معه عندما يواجه قارئاً ما.

الوحيد الذي أشعر بانتمائي إليه، أو انتماؤه إليّ، أو تلاقحنا المشترك لتفريخ كلمة، هو القلم، دائماً أتساءل من خلال ما أراه من كدحه، أينما يمنح الآخر مجداً يا ترى؟ أنا الذي أنحتُ ذاكرتي لأمنحه تعباً، أم هو الذي ينحتُ روحه ليمنحني سطرًا؟

أنا وهو محورنا أنت، لم يكن ليتذمَّر من طول الركض على الأوراق، وهو الذي يعلم أن من كانت تملكه تستحقُّ هذا حتماً، مريحٌ أن أصور حزني بقلمك، كما شكَّته من قبل بحبك، تدهشي المرأة التي تتكفل بحزني كله، من البداية حتى النهاية.

كان جبينُ الشمس يلوح لي من وراء نافذتي المربعة، والرياض هذه الأيام هولوكوست حقيقية، تحشُرُ ملايينها القليلة في أتون الموسم الحار، وتنام مثل سفينة فضائية هائلة، جثمت فوق الصحراء منذ مائة عام، ولم تتحرك حتى الآن، ولكن حتى هذه القائلة القائظة لم تكن تُسكِت شوارعها المزدهمة عن الحركة، وأنا تأتيني صرخات السيارات المارقة من بعد، رغم أزيز جهاز التكيف المُجهَّد، وشعَب الأفكار المتحالفة مع ارتجالية ذاكرتي.

جلستُ أكتب، أو أكملُ ما بدأتُ بكتابته في فانكوفر، فقد جاء قَدْرُ عودتي طارئاً وإلا أتممتُ كتابتي هناك كما كنتُ قد قررت، في العزلة الباردة، ولكن يبدو أن أقدار كتابتي صحراويةٌ مهما حدث، ويبدو أن بعض الأحران لا تتناسل إلا في مواطنها الأصلية.

رحم الله حداثي التي قَصَصْتُ ولم أرها، وأقرأتني السلام على من حولها قبل أن تموت، وكأنها تبثني عتابها الأخير، فعدتُ إلى وحدة أُمِّي قبل أن تلوم هي انغزالي هناك دون بيتنا الذي بدأ يجفُّ، وحجراته التي بدأت نخوى.

يُطلُّ عليَّ وجهها لثوانٍ من فُرْجَةِ الباب الصغيرة التي أتعَمَّدُ تركها هكذا حتى لا ترعجني الطرقات، تبتسمُ بهدوء وأنا أرفعُ لها رأسي فرعاً ثم تنسحب، يكفي أن تراني أُمِّي أو حتى الخادمة في حالةِ كتابة حتى يتراجعا، لم أكن أطلبهما بهذا، ولكن علامات الإرهاق التي ترتسمُ على وجهي إذا قاطعتني إحداها كانت تكفي لجعلهما تشعران أنني أحتاجُ للعزلة.

أحتاجُ للتركيز حتى لا تهرمني الورقة.

طاولة المكتب تشبه ساحة حربٍ مأكرة، تمردي في طرفٍ وخنوعي في آخر، هنا الطريق الوعر الذي أشقُّه في حبيبي، المعول الذي أضربُ به بحثاً عن قعر مأساتي، أشياء لا يراها إلا أنا، ولكنها تتخايل لأُمِّي والخادمة، ويبدو لهما أنني في لحظاتِ الكتابة لا أجرُّ قلماً كسولاً فحسب، بل أشعلُ دفتراً مزاجياً، مصاباً بالصرع.

لم أكن أكتبُ هكذا، ولكنكِ امرأةٌ تُغيِّرُ أشكال الكتابة، تتحكم في أطوال الأقلام، وعاداتها في الاستقامة، والانحناء، ورش النقاط، وتتصرف في استواء الأوراق، وسلوكها في الانتعاش، والاصفرار، والذبول، والموت.

جامحةٌ هي الكتابة التي تستمدُّ مدادها من الذاكرة، التي تغمسُ يراعها في الوجع، التي تشربُ من ماء الروح الشحيح بنهم، التي تخرجُ إلى الحياة، قبل أن أحجز لها مكاناً فيها.

مؤقتاً، سيؤويها هذا الدفتر، وعدتها أن أحد لها مقعداً في قطارٍ تنتظرينها أنتِ في محطته الأخرى، ولكن، لا أحد يعيش في صالة الانتظار إلى الأبد.

ستبقى فيها مجبرةً، ريثما تكتمل إجراءاتُ هجرتها، إلى الحياة.

خواء البيت الذي تعودتُ أُمِّي على امتلائه يضايقها، ويضايقني أنا الذي لا أريد من أحدٍ أن يجرح عزلي.

منذ عدتُ من فانكوفر وعطاؤها ينصبُّ عليَّ وحدي، بعد أن كان مقسوماً على سبعة أبناء، وحدة عجوز، تفرِّقُ الأبناء، وماتت الجدة، وبدأ السكريُّ يزحف في عروق أُمِّي، وبدأ الأُنسولين يجد مكانه في صيدلية المنزل، وأوقات الأكل، وبدأت هي تشعر بالوهن، فراحت تعتصر كلَّ ما تبقى من عطائها لتصبه عليَّ، وكأنها تخشى أن تلقى الله وعندها بقيةً منه، فيعاقبها به.

أعرف أنه لا تقاس أعمار الأمهات بالسنين، ولكن بما استودعه الله في قلوبهن من خير العطاء، فإذا انتهى، أخذهن الموت، لهذا لم أكن أقلق عليها كثيراً، إلا أن جلستني وراء مكتبي الصغير طوال اليوم والليل، وبين أوراق المتناثرة هنا وهناك، وعلى ظهر كلِّ منها أشياء قصيدة مثقوبة لم تكتمل، أو أنها اكتملت ولم أعترف بها بعد، وشرذمة أفكار متفاوتة النمو، بعضها نطفة، وبعضها علقة، ومضغة، ولحم، وعظام، كانت تمنحني مساحة البوح الشاسع، أكثر من أُمِّي.

بوح الكتابة بريء، وجريء، تتلوّن فيه الهموم الرتيبة، يتمطى ظهر الحزن، ويطلق القلب أصابعه، بوحها يشبه حنظلة مرّة مغموسة في سكرٍ محروق، أو ربما يشبه موتاً يُبعثُ تحت قشرة الحياة، أو ربما مأتماً قائماً في ليلة عيد، أو ربما وجه مهرج ضحوك، تراوده الحياة عن دمعة.

فرقٌ بين الاعتراف المنهمر وبين سرد الذنوب فقط مثل محاضر التحقيق، من الإرهاق أن أكون، عبر قلم، قاضياً ومتهماً ومحامياً، ولا شاهد إلا ذاكرة صعبة، ولا جريمة إلا حبٌ شارد.

أَتَحَيَّلُ دائماً ردود الأفعال تجاه ما أكتب أثناء كتابتي، أَتَحَيَّلُ رَدَّةَ الفعل لدى أحدهم دون غيره من الناس أحياناً، ليستُ الكتابة مشروعاً انعزالياً أبداً، إنها لغة تواصل، وهذا قدر اللغات، إلا أنني عندما أنفعلُ تماماً مثل أعواد الكبريت التي تحملُ موتها فوق رؤوسها، لا أراقبُ أحداً، وأكتبُ كما أريد لا كما يُراد، لأنني أعرفُ أن ما سأحسبه بين جنبي لأتوارى من أحدهم، سيمزقُ أنحائي يوماً آخر.

ستناديني أُمِّي لقهوة الظهيرة بعد قليل، هذا ما كانت تعنيه إطلالتها الطيبة من فُرَجَةِ الباب في مثل هذا الوقت، وربما ستؤخرُ غداها قليلاً ريثما أنتهي من كتابتي، وأخرج من صومعتي الضاللية، كما تسميها، وهي تذكرني دائماً بقصة الراهب الذي سكت لصلاته عن جواب أمه، فأراه الله وجوه المومسات.

تحتلُّ مكثي معها من أوقات القهوة، ووجبات الطعام، وأنا مجبولٌ منذ صغري على البقاء وحيداً، ولم ألبث أن مارستُ تمريناً طويلاً على ذلك لعامين في فانكوفر، إنَّ عظامي تبرَّد إذا جلستُ مع الآخرين، لا بد أن أخلو بنفسني لأشعل حزناً، وكتابة.

بالأقدار الكاتب الضعيف، إنه لا يتخلص من قيود حياته إلا بقيود خياله، ولا يلبثُ أن يضع ثيابه من الليل حتى يلبس ذاكرته من النهار، وكأنه لا يستطيع أن يبقى عارياً أبداً وإلا تآكلَ جلده، أتذكرُ أن جدي كان يقول: ((كدتُ أن أكون شاعراً قبل أن يقسم عليَّ أبي أن لا أفعل))، تأملتُ رحيل عينيه إلى سرمد الماضي، لماذا ذلك التعهير المبكر للشعر؟ قال لي كهلاً آخر والثمانون تقرض أسنانه: ((حرمني أخي من الشعر، لأنه يضعف القلب، ويورث الحزن، ويجلب الهم، ويفضح السر))، ولم أفهم آنذاك كيف كملت كلُّ تلك الاتهامات لهذا المخلوق الطيب، ولكنني أشعر الآن بها حقاً.

الكتابة، نقص المناعة المكتسبة للروح، كما هو الإيدز، نقص المناعة المكتسبة

للجسد.

تخيلي أن تكون مناعتي ضعيفة إلى هذا الحد، وأمراضُ بامرأةٍ مثلك.

هذا إذن ما سيقى مني.

لم يُعدْ في البيت الذي كان عامراً بالأبناء والبنات من يشارك أُمِّي وجبةً ما إلا أنا، تزوّجوا جميعاً، وبنوا لهم أسراً صغيرة خارج أسوار البيت، وخارج أحلام أُمِّي الاشتراكية، حتى كانت عودتي من فانكوفر مبرراً كافياً لينسحب آخرهم، خالد، بزوجه وأبنائه إلى منزلٍ مستقل، ليُخلي لي مكاناً في البيت على حدِّ عذره.

لعلي أكتبُ قليلاً قبل أن أوافي أُمِّي، فلم يكن وقتُ الغداء بعد، بقي ساعتان على أذان العصر، ستجلسُ أُمِّي في الصلاة بلا جليس، وستفتحُ مذياعها ليخرج منه صوتُ المقرئ عبد الله خياط الذي يؤمني بتقادمه، ولن تسمعه طويلاً، تنشغلُ عنه بالتسيب، أو تقلبُ الجريدة الخاوية بين يديها لدقائق، مستنفرةً في سطورها قدرات القراءة المنحسرة، وبقياء الثقافة المتأكلة، قبل أن تعودَ إلى مصحفها وأذكارها مرةً أخرى، فتقرأ فيهما رغم ما تحفظه منهما عن ظهر قلب، أو تسعى إلى أمرٍ من أمور البيت التي لا تنتهي طبعاً، لأن أُمِّي لا تريدها أن تنتهي.

كتابتي صعبةٌ هذه الأيام، أنا لا أنفعل بقصيدة أرميها على الدفتر وأمضي، إنها روايةٌ تولد، وتقلبُ حرّاً في جيوب الذاكرة، أحتاجُ للخمول في بطن الصفحات أكثر مما أحتاج للنشاط، لا بد من المشي البطيء بعيداً عن ركض الأبيات الذي تعودتُ عليه، حتى لو مثَّلت كلُّ الأفكار في ذهني معاً، لا بد أن تحتمر تماماً، لا أحد يقرأ عجباً.

كم يؤرقني هاجسُ الرتبة، أنا الذي لم أكتب روايةً في حياتي، لأنَّ حبك الكبير هذا، حبك القاهر هذا، ما مرَّ عليَّ مثله من قبل، ولم تقفْ عليه حدودُ تخيلتي العذراء، ولا شغافُ قلبي البكر، ولم تتورَّد في فمي حلمةٌ حبٍ قبله أبداً.

لا بد من كلامٍ يليقُ بأول إنسانٍ على سطح القمر، وأول حبٍ يتلق في شِقِّ حياتي، ولا بد أيضاً من تأيّن يليقُ بسطح القمر الذي لم يعد إليه أحدٌ بعدها، وحياتي التي ظَلَّتْ مهجورةً بعدك، مثل وديان الجن.

يا لحبنا، كيف أتى، وكيف رحل.

التقينا كما يلتقون، جمعتنا الحياة في أزقتها، لكننا لم نتوقع أن تكون الملحوظة التي كتبته الحياة على هامش التقائنا هناك: ((سيقعان في الحب))، وعلقت الورقة الصفراء على لوح القدر.

دائماً أعتقدُ أن العلاقة التي نتوقع شكلها مسبقاً لن تكون حباً بطبيعة الحال، دائماً يأتي قَدْرُ الحب غريباً على نَسَقِ حياتنا، جديداً على أوراقنا وأحلامنا، دائماً يفرضُ نفسه كجملةٍ لحنيةٍ مُبهرةٍ في نوتة العمر.

ولأن وجودك في مداي كان فوق العادة، وانفعالك بي كان خارج حدود الطبيعة، وعلاقتنا بأسرها تَحْلِيْقُ علوي لا تحكمه قوانين الجاذبية، ولا اتجاهات الرياح، كان أن استسلمتُ له تماماً، مثل تائب.

دائماً هو الحب الأول خرافيٌ مجنون، حتى لو تأخر إلى آخر العمر، يجيء مراهقاً.

تذكري ما قال نزار..

((حبك مثل الموت والولادة

صعبٌ بأن يُعاد مرتين))

وآه لو كان يُعاد مرتين، لو كان يُنسخ ويُعرض مرةً أخرى في حياتي، ولكنها أحادية القدر الخالدة، تمنيتُ لو كان غرورك كاذباً عندما كنتُ أسألك: ((أين أحد مثلك؟))، وتقولين لي: ((مثلي تماماً؟ لا يوجد))، كنتُ أعلمُ أنكِ فُرادة الخالق على هذا الكوكب، ولكن يروق لنا أحياناً أن ننطق باليأس بعد أن تعرف منه أرواحنا.

عندما كنت هنا، كنتُ أفكر أحياناً وأنا ملفوفٌ مثل شرنقةٍ في المساحة الدافئة التي يمنحني إياها صدرك الحاني، وذراعاك السخيان، في أيّ الأماكن التي نلتقي فيها، إن كنتُ سأجدُ بعد رحيلك امرأةً أخرى تختصرُ مسافة حزنك عليك؟

هل حقاً سأجدُ بعدك من تصلحُ للحب؟

سؤالٌ هلوسيٌّ، ولكنه يليقُ بذهنٍ عاشقٍ مريض، كان يعلم أن حبيبته سترحل بعد حين، ومع رجلٍ آخر.

صحيحٌ أن بعض النساء أحياناً لا يَكُنُّ أكثر من منديلٍ نمسحُ به دموعنا على فراق امرأةٍ أخرى، ولكن منهنَّ أيضاً، من تمسحُ شريطَ الذاكرة بأكمله، لتترع عليها وحدها.

وأكثرُ النساء حناناً، وذكاءً، لأن حنانَ المرأة وذكاءها كثيراً ما يعملان جنباً إلى جنب، هي تلك التي تترك وراءها عندما ترحل، ذاكرةً غير قابلةٍ للطّي، ولا النسيان، ولا إعادة الكتابة.

وأنتِ وجدتِ عندي ذاكرةً لم تُمسَّ أصلاً من قبل، وقلباً خالياً لا يشغله شيء أبداً، فدخلتِ فيه بسلام، وعزّزتِ مكانك، ووطّدتِ ملكك، وسخّرتِ الدماء والشغاف والأوردة، تسبّحُ وتقدّسُ لك.

وإذا عجزنا عن إيجاد الدواء، لماذا نناقش بخرج مدى حاجتنا إليه أصلاً، هل نفعل ذلك لنبرر عجزنا عنه؟

أعني، ما دمتُ عاجزاً عن إيجاد بديلةٍ لك، فهل أنا حقاً أحتاجُ بعدك إلى حبٍ يأخذني بعيداً عنك؟، يا أنتِ التي رَحَلتِ مع زوجها إلى حيث لا يراك إلا عيناه العاريتان خلف شبابيكِ الغربية الخائنة، وأرصفتها الخالية من الوفاء.

هل أنفضُ يديَّ من حبكِ الذي جاء من حيث لا أدري، وراح من حيث لا أستطيع
اللاحاق به؟

حتى وإن فعلت، أيُّ امرأةٍ تلك التي ستكفيني بعد أن رفعتِ أنتِ سقْفَ الكفايةِ إلى
حدٍّ تعجزُ عنه النساءُ؟

هذا السقفُ الشاهق، معجزتكِ معي، ومأساتي معكِ.

عندما تنجح امرأةٌ في الوصول بسقفِ الأنوثةِ إلى حدٍ تتساوى تحته النساءُ،
وتستحيلُ فوقه النساءُ أيضاً.

لأني أتصنمُ أمام قدرتكِ الأنثويةِ الهادرة، أتكسّرُ على أرضيةِ المعبدِ الحجريةِ، أترمّدُ
حفناً حَفَنًا، وأتناثرُ بين أخشابِ التواييت، وحيوط المومياوات التي تصنّمت،
وتكسّرت، وترمّدت، وتناثرت قبلي، فالأسئلةُ التي تتركينها وراءك تشبهُ لغزِ النقوش
الغامضة على جدرانِ القبور، لها حُرقةُ الجرحِ المفتوحِ لقرون، دهشةٌ وعويلٌ، لأنها لا
تستطيع فهم الأسئلةِ المُحَنّطة.

لو أجبتني عن سؤال واحدٍ فقط ربما أستطيع فهم مرضي بك، أخبرني قلبي المتعب
كيف تستطيعُ امرأةٌ ما أن تغيّرَ ظروفَ رجل، ومقاييسه، ونظرته للحياة، وفلسفته
في الكون، ثم تتركُ توقيعها على كلِّ شيءٍ فيه، حتى صار يشكُّ في وجودِ امرأةٍ
أخرى تكفيه مرارةِ الوحدةِ التي يلعقُ فيها جراحه؟

كيف فعلتِ هذا به، ثم رحلتِ عنه هكذا، وقد انقلبتِ عقائدهُ، ومسلّماته، دون أن
تفكرِي في هذا الحرمانِ الصعب الذي تركته فيه.

حرمانُ القناعة.

لماذا جئتِ شبيهةً بي إلى هذا الحدِّ؟، ملتصقةً بإنسانيّتي إلى هذا المستوى؟، متوحّدةً

مع روحي مثل ذراعيّ صليب، وكأن قدرينا كُتبا في السماء على لوحين متعاقبين.

لماذا هو تعويضكُ أكثر إعجازاً من وجودك؟، وأيُّ امرأةٍ تربيها تعيدُ كتابةً أقداري
مرةً أخرى لأقع بين عينيها بعدك، فتنتشلي من واقعي المؤلم، ولا تتخلّى عني هذه
المرّة؟

أين أحدها في بلدٍ مثل بلدي، لا ينمو الحبُّ فيه بكثرة، في بيئةٍ صحراويةٍ جافةٍ تغتالُ
هذه البراعم الربيعية في لحظاتها الأولى، تلبّس بها، وتلبّسُ عليها.

ليس لدينا حبٌّ يولد حراً، وينمو حراً، ويعيش حراً، لا بد أن ينقلبَ عليه الجميع،
لا بد أن يُلقى أمامه بالجزور، لا بد أن تُزرع دونه الأشواك، ويُنفى إلى الشَّعبِ
الأجرد.

لا يوجد مولودٌ يولد بأغلاله إلا الحب، وهُنا فقط.

كذبةٌ أن أخصب أوراق الحب هي الصحراء، كذبةٌ كلُّ أساطيرِ العشق التي أخرجها
التاريخ من عندنا، عُذرة هذه قريةٌ خياليةٌ ضاعت مثل إرم، حصانٌ سافر عكس
اتجاه الحقيقة، الصدق الوحيد هو أن قيساً الذي قبضَ الجمر بكفيه أمام ورد، وعروة
الذي استفهم الحب من شيباتِ عفراء، كلهم كانوا نُطفاً خاطئةً، خارج رحم
المنطقة.

خطأٌ ما وقع، لا ندري أين، لا ندري متى، محاً الحب من قائمةِ المشاعر، وكتبه في
قائمةِ الفضائح، فصار هذا الحب منبوذاً قبل أن يفهم، مرفوضاً قبل أن يتكلم، ومنفياً
خارج حدود الوطن حتى قبل أن يفكر في التمرد.

في مثل هذه الظروف، كيف أصنعُ حباً؟، كيف أبدأ عهداً جديداً على القلب
الرازح تحت الكَلَم، كيف أرمي صوتاً في دوامة الصدى، كيف أجدُّ هديراً عائداً

للآلة التي أكلها اليأس، وأكلها السكوت، وأكلها الصدا؟

أنا ميتٌ حتى تقفي مرةً أخرى على أركان الروح، إما أن تعودى إلى البيت المهجور وإلا فلن أهدمه لأبني غيره، فطلُّ بال خيرٌ من بيتٍ خال.

فرعون يقتل أبناء بني إسرائيل، لن يعيش حبٌ هنا إلا إذا كان نبياً.

هل من السهل إنجابُ الأنبياء؟

وهل من الحق أن يكون عندي نبيٌ أصلاً، فأتحلى عنه، بحثاً عن نبيٍ آخر؟

عدتُ من عند أُمي إلى الأوراق السوداء الحائرة، والبيضاء الأشدَّ حيرة، مازلتُ أراهنُ على هذه البداية بمجموح ذاكرتي، ومساحة حزني، لعلها تكتمل ذات يوم، فأعيد بها قراءة ذاتي، ربما استطعتُ، في آخر المطاف، أن أكمل شيئاً من هذا الحب الناقص.

إنني أكتبُ فحسب مقدوحاً بما عشته من الحب والحزن، وكفى بهما، نصف أقدار البشر تدور حول هذين المحورين، نصف مآسي التاريخ انطلقت من عندهما، وروايي كذلك.

استويتُ على مقعدي الرمادي المعتاد على نخولي، وعلى حركتي الدائبة فوقه مثل قُنْدُسٍ موتور بيني سدّه وهو يُراقبُ السيل، تارةً أجلس عليه باعتدال، وتارةً أطوي قدماً تحتي وأنكمتُ على أوراقى بميلٍ شديد، وأحياناً أعودُ به إلى الوراء حتى ألنصقَ معه بالجار، وأمدُّ رجلي فوق المكتب، وأحتضنُ ما كتبتُه من أوراق، وأقرأ فيها حتى يستقرَّ فيّ داخلي أحد شعورين، الرضا أو عدمه.

هل أبدأ من مولد الحلم، أم من مأتمه؟

هل أجعلها رواية، أم رسالة؟

وإذا كانت رواية، من سيمليها عليّ، قلبي أم عقلي؟، وإذا كانت رسالة، من سيحملها إليك منهما؟

تداخلاتٌ كثيرةٌ في حياتي الماضية تجعلُ الكتابة عندي الآن عمليةً معقدةً جداً، كلُّ يومٍ تزدادُ هذه الأوراق سواداً بين يديّ، وهي لا تدري ماذا يُراد بها، وأنا لا أدري ماذا سأفعل بها.

تخيّلني أن أصرخ بهذا الصوتِ العالي، في مجلسٍ يُكره فيه الهمس بالحب، تخيّلني أن أضيع بين أمانة ما يجب أن أعلنه من حبنا، وما يجب أن أخفيه عن عيونهم.

ولماذا أكتبُ؟، هل هي حاجةٌ في نفس يعقوب قضاها؟، هل هو مرض الكتابِ المعتاد في فضح أنفسهم، وعادتهم الأزلية في كشف عوراتهم؟، أم أنني أحاولُ فقط أن أطردَ ما تبقي من حبك في هذا الدفتر الأخضر، لعل حيزاً من الذاكرة يخلو في رجلٍ تملئنيه حضوراً وغياباً.

أترأي أحاولُ غسل ذاكرتي معكِ بهذه الرواية؟

أترأي أنقضُ عهد وفائي لك إذا حاولتُ إخراجك من حياتي؟

لم أكن أتوقع أن معنى الوفاء سيكون نصاً مغلقاً إلى هذا الحد، ولم أكن أتوقع أن سؤالاً نسينا أن نجيب عنه قبل رحيلك سيعود معتمراً بقعة وجع، ماذا يعني أن نظل أوفياء؟

كيف يفني عاشقٌ أعزب لامرأةً متزوجة؟، هل يترهّب؟، هل يخصي نفسه؟، أم يعلّق عينيه في السماء، وينتظر حبيبته أن تنزل مع المطر؟

وكيف تفي هي له بعد أن تخلت عنه؟، هل تدعو له في ليلة القدر مثلاً؟، أم تتعمد أن تنام مع زوجها دون أن تستجيب له؟

باللسخريّة!

كيف يمكن أن أظلّ وفياً لحبك، وتظلينّ وفيةً لزوجك؟

أترانا تجاهلنا هذا السؤال عن عمد لنختصر من الفوضى التي كانت تشتت أفكارنا آنذاك؟، أم أننا بالفعل كنا أطفالاً في الحب؟،

بماذا أقنعنا أنفسنا تلك الأيام؟، وفاؤنا الضعيف كان يعني لنا آنذاك أن نتمسك بالوعود القديمة، سأذكرك، لن أنساك، سأشعل شمعةً كل أربعاء، إلى آخر هذه الكلمات الضالة، ولما رحلت، سقطت كل أيامي من تقويمك، وليس الأربعاء وحده.

ما كان ليماً في أسوأ كوابيس حياتي أنه سيمضي أربعون يوماً بعد رحيلك، قبل أن تأتي رسالةً مسجلةً قصيرةً جداً منك، تعلن عن وفائك الأول.

أنا الذي ظننت أن لا شيء في الدنيا أقرب لك مني، كما هو لا شيء في الدنيا أقرب لي منك، اكتشفتُ أخيراً أن الكلمات التي يقولها عاشقان في لحظة عناق، والوعود التي يقطعانها في غمرة بكاء، لا يجب أن تؤخذ بجديّة.

أربعون يوماً!

أي حب هذا الذي يحتاج أربعين يوماً كي تكتمل فيه دورة الحنين، ويُقرع فيه جرس الشوق؟

ماذا كنت تفعلن أيتها الفتاة التي بكت بين ذراعيّ طول الليل وهي تودعني؟، ما الذي أشغلك أربعين يوماً عن الرجل الذي قلت له ملء فيك: ((لم أكن أتصوّر أنني

سأعشقك إلى هذا الحد))، فهل تجاوز زوجك يا ترى هذا الحد، في أربعين يوماً فقط؟

كان كل يوم يمرّ ألتمس لك فيه عذراً بحجم ألمه، حتى إذا تجاوزت كلّ هذه المدة، لم أجد في قواميس الحب عذراً يغطي خطيئتك، ولا صبراً يكفي صدمتي.

كنتُ أجلسُ في معتزلي الحزين الذي اتخذته لنفسه بعد رحيلك الجديد، هضبةً صغيرةً تختبئ غرب المدينة، وتنام ليلاً في سباتٍ غاشٍ حتى لا يُسمع فيها إلا صرصره حشرات الليل المتناكحة، وحفيف الأشجار التي تؤويها أطراف الحي الدبلوماسي بالرياض، بعيداً عن ضوضاء المدينة.

آوي إليها إذا انتصف الليل وأصلبي، وأدعو في هذيانٍ أو أهذي في دعاء، ثم أنحني على التراب انحناء المفجوعين، أو أضطجع لأتأمل السماء في حسد، لأنها تظلك الآن كما تظلي، ويعصرني حبل الحنين، ويأخذني البكاء الهادئ.

كنتُ ساذجاً في حزني، كلاسيكياً في اجترار الأوجاع والتعاش معهما.

فجأة، نبضت في جيب رسالتك القصيرة، انتفض لها هاتفني الصغير وكأنا عاد إلى الحياة، كان رنيناً يُعتبر ضجةً على خمول الوادي، سمعتُ رسالتك، صوتك، وارتعدت في جفني دمةً أفزعته دهشة الأمل المسحوق.

((هلا عيوني، أنا الآن في سيدني، الساعة الآن السابعة والنصف، كل شيء على ما يرام، طمئني عنك، سأنتظر رسالة، مع السلامة))

وانتهت حروفك المتقطعة.

شعرتُ أن الليل فوقني انكمش، وتجمّع، وتكوّر، ثم دس نفسه في حلقي غصةً لم يشهدها من قبل حلّق رجل.

عيوني!

لماذا (عيوني)؟، لماذا ليس حبيبي، حياتي، كما تعودنا؟

ليس هذا ألي، ولكن..

أنتِ تستخدمين كلماته!

كلمات زوجك، سالم، وأنا ما زلتُ أتذكر رسائله المسجلة التي كان يتركها لكِ إبان الخطبة، كلها كانت تبدأ هكذا، (عيوني)، كيف لم أفكر بهذا؟، كيف لم أنتبه أن رجلاً يلتصق بكِ أكثر من ثيابكِ طيلة أربعين يوماً، في أكثر أوضاع الجسد حميميةً وشبقاً سوف لن يزرع في لسانكِ كلماته؟

لماذا كنتِ حياتكِ، ثم تقلّصتُ لأكون عيونكِ فقط؟، هل كنتِ بذلكِ تعلنين أن بقية جسدكِ لم تعد لي؟

هل كان انتظاري أربعين ليلةً يستحقُّ منكِ ألباً كهذا؟

كم كانت درجاتكِ في امتحان الوفاء الأول مزرية، وكم تعاقبت بعدها الانحدارات، وكم تضخّم العار.

تبقى المرأة متوازنة حتى تتذوّق رجلاً ما، فيخلطُ في داخلها كلّ الأشياء، بدءاً من لسانها، ومروراً بقلبيها، وماضيها، وحبيها، ووفائها، تدخل فراشه متماسكة، لتخرج منه وهي امرأة أخرى، لها سلوكٌ مختلف، وعقيدة أخرى، وذاكرةٌ جديدة.

كيف قررتِ أن تتركي لي رسالةً تلك الليلة يا ترى؟، ولماذا بعد أربعين يوماً تحديداً، وكأنّ فراقنا كان ولادةً متعسرة خرجتِ من نفاسها تواءاً، أترائي زرتكِ في منامكِ تلك الليلة، فتذكرتني؟، أم أن رجلاً مثل سالم أقام متاريسه على وسادتكِ أيضاً، كما أقامها على جسدكِ؟، من أين تسللتُ إلى حفّكِ إذن؟، إن امرأةً لم أمثل أمامها

بكل مصائي طيلة هذه المدة، هي امرأةٌ عمياء، لا أريد أن أكون (عيونها).

مكثتُ على الليل، أقلبُ في نبضة الحزن هذه، لماذا يجمعنا الزمان ولا يجمعنا المكان؟، لماذا يخترّف اينشتاين في النسبية إلى هذا الحد؟، هأنّتِ تسجلين رسالتكِ وأنا أسمعها في غضون ثوان، ولكن أين أنتِ، وأين أنا.

كم تبعدُ سيدني تلك عن هضبي هذه؟، يا الله، ما أبعدك، وما أشقّ الوصول إليك، وما أصعب إقناعكِ بأني أموت.

شعرتُ بالاختناق، أخذتُ نفساً كبيراً وتمددتُ على سجادي مبجلقاً في السماء، وفي جفني مصنعُ دموعٍ نشط.

لماذا يا مها؟ لماذا؟

أيُّ بلدان تلك التي زرّتها في شهر العسل جعلتكِ تنسيني بقسوة؟، أيُّ مدنٍ تلك التي تخدّرُ القلوب، وتصادر المشاعر، وتجردكِ من الوفاء قبل أن تتجاوزي صالة التفتيش في المطار؟

هل اكتشفتني جهاز كشف المعادن معك، فرميتِ بي على الفور قبل أن تُفضحي أمام سالم؟، هل انتزعني المفتشون من قلبكِ ثم أعادوني على أول طائرة، لأن جواز سفركِ لا يخولكِ أن تحلي معكِ حبيباً؟

أيُّ فنادق تلك التي تتجمدين أمام هواتفها عاجزةً عن تذكّر رقمي؟، أيُّ أفلامٍ تلك التي نسيتُ كيف تُرسمُ حروف عنواني؟، أيُّ امرأةٍ تلك التي أطفأت رجلاً في عقلها بهذه السهولة؟

هل يبيعون تعاويذ نسيانٍ خارج الوطن؟، اجلي لي بعضاً منها يا حبيبي.

شهرُ عسلٍ سعيد إذن أيتها القمر الغائب، شهرُ ألمٍ لم يعرف مثله في حياته الرجلُ

الطائي على بَمِ نَكَبْتَهُ، لا تعليق لديّ، لا تعليق لدى الحياة، ربما كان خلف جبينك أفكار امرأة متقلّبة، منحها الله مفاتيح أقداره في رجلين، فلم تعد تدري من تُحيي، ومن تُميت.

بدأ يشربُ منكِ سالم، بدأ يسلبكِ جمالكِ، وروعتكِ، ورواء جسمكِ، بدأ يمارسُ إقطاعيته الشرقية على الأرض الجديدة التي ضمّها إلى أملاكه، بدأ يتغامز وأصدقاؤه على شبيهه الزوجي الذي ارتوى، فهل تتصورين شعوري الآن؟

أربعون يوماً على قصبة الشنق، هكذا يموت المخلصون.

والرياض في شهر يوليو، وخمسون درجة متويزة توقّع عليها الشمس كل يوم.

كليتي تبسّمان للموت قريباً، تماماً مثلما تبسّمين لسالم عندما يستيقظ ذات صباح، ويسألكِ جنساً آخر يُكملُ به شبق الليلة الماضية.

عدتُ للبيت ونجوم الليل تستحي مني لفرط حزني، جررتُ الخطى جرّاً، دسستُ المفتاح في الباب البارد، تجاهلتُ أختي أروى تماماً وهي تناجي هاتفها في الحديقة، وتبحلق في بدهشة، صعدتُ إلى غرفتي، وليس في جيبني فكرة تشبه أختها لفرط ما كان يكتنفي من ظلمات الحيرة.

كتبتُ لكِ رسالتي عبر البريد الإلكتروني، كان يكفيني ربع ساعة فقط حتى أفي لكِ، ربع ساعة هي زمن استماعي لرسالتك، وبكائي عليها، بينما يمرُّ أربعون يوماً قبل أن يصل وفاؤك الضئيل هذا.

أيُّ عتبي ترضيني، وأيُّ عتابٍ يكفيك؟

عاتبتكِ في رسالتي على ترحيلكِ الموجه، وسردتُ أوجاعي، وختمت.

بعد هذا الموسم الخصب من الألم، حاولتُ ألفَ طريقةٍ لأتخلّص منكِ، ذاكرةً،

ووجعاً، وحلماً.

أنا الذي لا تقتلني أحزاني بقدر ما تقتلني أحلامي، آمنتُ أنه يجبُ أن أتخلّص من الأحلام الزجاجية التي انكسرت وإلا آذتني شظاياها.

حاولتُ أن أنساكِ، لأني لم أكن أعتقد أن بقائي معلقاً على عارضة الحب يُعتبر وفاءً، بينما تأوين أنتِ إلى فراش رجلٍ آخر كل مساءً، بمحض رغبتكِ واختياركِ.

ولكنّ نسيانكِ هذا تمنّع عليّ، وفشلت محاولة.

حاولتُ أن أكره بعض تصرفاتكِ الحادشة جذران الذاكرة، جمعتُ كل ما آذيتني به طيلة أشهرنا الأربعة عشر، علاقتكِ الماكرة بسعد، حبكِ القائم لحسن، خيالي الكبيرة عندما أطلقت عليّ عياركِ الناريّ الشهير: ((لست إلا مثلهم))، وارتماؤكِ في أحضان سالم بعد ضجة الحب معي، ثم أخيراً، هذا الوفاء الوضع الذي لم يستح أن يأتي بعد أربعين ليلة.

حاولتُ أن أعبر كراهيتي لتصرفاتكِ هذه جسراً إلى الرضا والتسليم بأن رحيلكِ لم يكن خسارةً كبرى، ولكنني اكتشفتُ أخيراً أنني كنتُ أرسم أفكاري على مساحة من الرمل لا تلبث أن تغمرها موجة قاسية، فتساويها ببعضها، فكففتُ يديّ عن هذه السخافات، وتوقفتُ عن محاولة العبث بالأوراق القَدَرية، وتعلّمتُ من هلوسة عاشقٍ محموم، أن ما تكتبه الأقدار لا يمكن أن تمحوه الأيدي، وفشلت محاولة أخرى.

لأن رحيلكِ، بالفعل، كان خسارتي الأكبر في بورصة الحياة.

لماذا أعلّقُ نفسي بكِ مثلما يتعلّقُ الجهلة بأولياء الله الصالحين؟، لماذا محوتُ بيدي كل ما كتبتَه على جذران المستقبل، ثم كتبتُ اسمكِ بطبشور الوهم، على كل زاوية،

وكلّ حائط، وكلّ قطعة طوب؟

يا امرأة تزرع الأسئلة في عقلي مثل السيوف، لماذا أنا مرهونٌ بيدكِ إلى هذا الحد؟ حاولتُ أن أسيء أدبي مع الحب نفسه، ما هو هذا الملعون؟، أليس إلا محاولةً يائسةً من الأقدار لتحسين صورتها القبيحة دائماً في حياتنا؟، الحب هذا قدرٌ ناقصٌ، لا يمكن أن يكتمل يوماً ما، إنه دائماً يجيء بما يكفي لنحترق، ثم ينسحبُ سريعاً ويتركنا في مواجهة هذه النار المتأججة.

أريد أن أفهم لماذا لا يُكْمَلُ الحب دائماً ما بدأه؟

لماذا يستغل دائماً دهشتنا به ليرحل؟

ولكن محاولتي هذه أيضاً جاءت فاشلةً، كان الحب في قصتنا هذه سخياً إلى أبعد الحدود، ولكن يبدو أننا لم نحسن التعامل معه، ففرّ من أيدينا.

قرّر لحظتها مذياع سيارتي أن يغني: ((يا لعب فيكم، يا فحبايكم))، في اللحظة التي كنتُ أفكر فيها فعلاً، هل العيبُ فيّ أنا الذي لم أكن بمستوى تضحيتك، أم فيك أنتِ التي لم تكوني بمستوى وفائي؟

لأن كلّ الأشياء، عندما ننهار، تسخر منا.

أن يكون الزمان والمكان مناسبين، هل هي مشكلة الحب، أم أنها قضيتنا نحن أن نجعلهما كذلك؟

هذا هو السؤال الغارق في وحلٍ مجتمعا.

مأساتنا أي عندما أحبيتكِ، كنتِ مخطوبةً أصلاً لسالم، ومنذ أسابيع قليلة فقط.

كانت الخطبة قد أُعلنت رسمياً على الملأ، بعد أن عاين الرجل بضاعته التي امتدحوها له مرتين، فجاءت على قدر المساحة الخالية التي بقيت من حياته، مناسبةً للماء أفكاره، وافق هو، ووافقت أنتِ، وليس في قلبيكما نبضة واحدة تبارك هذا القرار، والدليل على ذلك، حبنا الذي بدأ تماماً بعد هذه الخطبة البدوية بأيامٍ فقط.

وانطلقنا في هذه المتاهة الطويلة الحزينة التي لم أخرج منها حتى اللحظة.

شعرتُ أن الحب لص، اختلّسنا هكذا من غرفات الحياة، وعلّقنا في السماء، وهرب.

ماذا أفعل بامرأةٍ مرتبطة؟، وماذا تفعلُ هي برجلٍ لا يملكُ لنفسه من حبه دفعةً ولا اتقاءً؟، رغم أننا بدأنا ونحن على درايةٍ بكلّ ما يتراءى أماننا، نعلم أننا سنفترق، سنحترق، إلا أنني لم أعد أدري أين كانت تلك الفجوة الزمنية التي عبرناها ساهمين، فإذا بنا قد عشقنا، وغرقنا، دون أن نعرف لهذا الحب معنى، أو نلتمس له أملاً، في وسط ظروفٍ كهذه.

منذ البداية كان حيي لك قلقاً، مشوباً باليأس، كنتُ أتعامل معه كما أتعامل مع رجلٍ ميت، تروعي صفرةً وجهه، وشحوبٌ ملامحه، وحفّاتُ الرماد التي تتساقط من جسده النحيل، أنتِ مسجلةٌ في دفاتر الحياة باسم رجلٍ آخر، رجلٌ لم يكن اعتباره لك، وأهميتك عنده تتعدّى كونك امرأةً تحملُ شهادةً تزكية من إحداهن، فقط.

ضالة القلب عندما تبيع امرأةً حبها العظيم بهذا الزهد.

وقلة البصيرة عندما تظنّ أن من يحبها يقلبُ الموازين، ويخترع هذا التمرد، ويكتب، ليحرّضها فقط، بينما الحب الحقيقي لا يحتاجُ إلى تحريض ليجعلنا نغير شكل حياتنا بأسرها، من أجل من نحب .

حقيقة لا ظناً، بدا لي سالم برميلاً صدئاً، نُسخةً مكررةً من آلاف الرجال الذين يدبُّون في مجتمعنا بلا فائدة، ويعيشون نفس النمط، ونفس الفكر، ونفس الغباء، الفلسفة الطَّبَقِيَّة تُغْلَفُ إطار حياته، بمقدار لا بأس به من الانتفاخ الفارغ الذي لا يحوي شيئاً، غرورٌ مهجَّنٌ بالجهل، ولؤمٌ مثير للشفقة، يظنُّه هو ذكاءٌ وقدرةٌ على إغراء امرأةٍ مثلك، وهو يحاول أن يبدو وسيماً، ولبقاً.

لستُ أدري أيُّ الأشياء كان يَمْنَحُكِ حداً أدنى من الانجذاب إليه أو الرضا به، كان يكبركِ بعشر سنوات تقريباً، وعقلكِ أنتِ يكرهه بعشرين سنة على الأقل، هو رجل السطح دائماً، الطافي على الماء مثل الطحالب الميتة، وأنتِ اللؤلؤة النائمة في محارها العميقة.

هل يُعقلُ أن تتزوَّج أميرة البحر، من ضفدع الضفة.

أُتَذَكَّرُ تماماً ليلة العقد، قبل أن يُفتح عليك الباب ليدخلوا دفتر النكاح في انتظار توقيعكِ، كان صوتكِ يأتيني عبر الهاتف خائفاً مرتعشاً بالدموع، قلتُ لي: ((ابق معي حتى آخر لحظة))، ظلمتُ أناجيكِ والهَمَّ قائمٌ فوقنا كسماءٍ سوداء كالحة، حتى إذا جاءت اللحظة المؤلمة، وجاء دفتر النكاح، وأغلقتِ سماعة الهاتف، شعرتُ أن نصلاً حاداً يخترقُ جسدي بكلِّ عنف، ويجولُ في أرجائه ممزقاً اللحم والعروق والأعصاب، وناثراً الدماء في كلِّ مكان.

على أوراق ذلك الدفتر، وقَّعتِ بيدكِ المرتعشة قرار إعدامي.

عاد الدفتر إلى الجمع الرجالي، هنؤوه جميعاً بكِ، ولم يعزني فيكِ أحد، وتحولتِ إلى امرأةٍ متزوجة في نفس اللحظة التي تحولتُ فيها أنا إلى رجلٍ ميت.

الحياة ملأى بهذه الدفاتر المزدوجة التي تصلحُ عقد نكاح لرجل، وشهادة وفاة لآخر، فهل ترى علمت الأيدي التي توقَّعتُ عليها عن هذا الوجه الأسود للورقة التي تبدو

بيضاء؟

صرتُ الآن زوجته شرعاً، لن يكتفي منكِ بصوتكِ هذه المرة، لن يترككِ لي كما كنتِ طيلة أشهر، سيطرق بابكِ متى شاء، ويصحبكِ معه متى شاء، ويتسلَّى بكِ بطول يديه حتى تأتي ليلة الزفاف بعد شهر آخر.

كنتُ أجلس على نفس الكرسي الرمادي الذي أكتبُ من فوقه سطوري هذه، رعبُ تلك الليلة لم يبرح ذاكرتي حتى الآن.

لأول مرةٍ أشعر أن الله يظلمني.

أبكي وأستغفر، ثم أطرق في صمتٍ والفكرة الرهيبة تقبضُ على دماغي بقسوة، ولساني يخشى تماديه، ودبابيس الأسئلة تدمي أفكاري: لماذا كتب الله لي هذا القدر؟

لماذا أحبيتكِ دون أن أعي ما أنا فيه من هوانٍ وضياح؟، ودون أن أحاول اتخاذ قرار ما بشأن الهاوية التي تقترب؟، لماذا أجَلَّتْ كُلُّ الأشياء بقيتُ أختلس حبكِ اختلاساً طيلة سنة؟، تتخللها لحظات أفيق فيها من خَدري، لأجلس معكِ جلسة مبتهل، أتوسَّلُ إليكِ بدموعنا معاً، وليس دموعي وحدي، أن تفعلي شيئاً لهذا الحب الذي ينتظر إعدامه.

لا بد من تضحيةٍ ما، لا بد من ضجَّةٍ ما، فالأقدار لن تمنحنا كلَّ ما نريده دون سعي.

رغم كلِّ وعودِ الصمود التي وعدتكِ بها قبل أن ترحلي، فقد توقَّعتِ حياتي تماماً، أصبحتُ أحيا خارج الزمن، وخلف المدار، وقبل الشمس بأمطارٍ قليلة، أخذتُ أفلسف هذه الحالة، أحاول أن أبصر في البلقع الذي تركته لي شيئاً أعيش لأجله، ألتفت بمئة ويسرة، وأركع وأسجد، وأرشو مخدتي كلَّ ليلةٍ بألف دمةٍ لعلِّي أنام،

ولا أجد إلا الأمل الخافت الصعلوك، الأمل بأن تكتشفي يوماً أنك فرطت في الحب الكبير الذي لا يتكرر في الحياة، وضيّعتَه إلى الأبد.

يبدو أن البداية البسيطة كانت مضللة فعلاً بالنسبة لرجل مثلي، أنا الذي لم أنزل في الحب من قبل حتى أدرك أنه يجب أن أنتبه جيداً أين أضع أقدامي، وأنت التي تصرّفت بعفوية أنثى شرقية تدرك أنه ما من قوة في الدنيا توقّف نبضات قلبها عندما يقرر أن ينبض.

* * *

للقائنا الأول هربُ مني ذاكرتي.

صباحُ الخامس من أبريل، اليوم الذي وجدتكَ فيه غارقةً في قراءة قصيدة لي، علّقْتُها في جريدة، ووجدتُ نفسي غارقاً في إطرءِ امرأة رقيقة، ووجدنا الحب فجأةً في هذه الفرصة السانحة، فألقى علينا شباكه، وهرب.

مرّت دقائق قليلة فقط ونحن نتحدّث، ذهبتُ بعدها لأنام، بينما ذهبتِ أنتِ إلى الجامعة، هذا ما كنتُ أعلمه، أما ما لم أكن أعلمه فهو أن هذه الفتاة التي تركتني في لقائنا العابر ذاك سوف تعود لتعيش معي قصة حبٍ بيضاء، تزين فيها شعرها كل يوم بثلاثة عصافير تخرجُ من قلبي.

بكل هذه البساطة التي تكاد تخرج عقولنا من جماجمها تقلبُ الأقدار حياتنا.

بعد ستة أيام فقط من هذا اللقاء العابر، كنتُ أناديكِ عبر سماعتي..

آلو..

وتصمتين، أكرر بصوتٍ أعلى..

هل تسمعين؟

ويأتيني صوتك والحياء ينقّطه حرفاً حرفاً..

أسمعك، لكن أرجوك لا تصرخ.

لم أكن أصرخ.

أكاد أبكي حياءً منك، قلبي ينبض.

وتنتفخُ رجولي بسذاجة، بعد أعوام من الأمنيات الرغبات، وسنواتٍ من الرحولة المعطلة الصامتة، هاهي أخيراً فتاةٌ تكلمني، وتنجّلُ مني.

أحشدُ ثقتي حشداً، وأغيّرُ نبرتي، وأرحلُ معكِ إلى حيثُ تأخذنا الكلمات.

بعد بُرهة من حديثنا الذي كان يُقطّعه الخجل تارةً، وازدحام الأفكار تارةً، يرنُ بجوارك هاتفٌ آخر، ألتقطُ رنينه بأذنٍ لهفي، تتركيني لدقائق، فيكسوني فضولٌ نرّق، ثم أتسرّبُ بالشوق الأول إليك، تعودين، وأتخذُ أنا قناعاً مازحاً.

من تكون؟

قل: من يكون.

أبتسمُ بقلق، أصطنع الالامبالاة محاولاً كسب ثقتك.

- اتصال عاطفيّ إذن؟

- حرام عليك، كان خطيبي.

بعفويتكِ إذن، وقبل أن نخطو خطوةً واحدة، كنتِ تفصلين تماماً بين سالم وعاطفتك إلى حدّ التحريم، ولكني لم أنتبه لهذا في خضم خيبة أملٍ صغرى أخذتني لوهلة، بينما عمر علاقتي بكٍ يحبو نحو دقيقتة الخامسة تقريباً.

أنتِ مخطوبةٌ إذن، خيّل لي أي سمعتُ قلبي يتثائب، ويعود للنوم.

ولكني سأبقى معكِ على أي حال، ليس هناك ما يمنعنا من الحديث.

وليتني امتنعت.

شوقاً بعد شوق، صرتُ أجِدُ في صوتكِ ملاذاً للهِلّ الشاعر الهادئ، وطريقاً آمناً أسلكه في ردهاتِ الليل قبل أن أنام، وصباحاً بارداً ممتلئاً بالغيوم، أستقبلُ فيه صوتكِ الطريّ، وأنتفضُ في فراشي مثل طيور البحر.

صرتُ، قبل أن أنام، أدقُّ أرقامكِ بأصابعٍ سكرى، وأنتظر، جفافاً، صمتاً، جفافاً، صمتاً، ثم تَطِرُ السماواتُ دفعةً واحدة، وتولدُ في غرفتي مظاهرةً كبرى، تتجمّعُ فيها النجمات صفوفاً، وتزل الطيور ألواناً، وتختشد الأقمار، وتزحف الأشجار، ويصغي الجميع إلى خطابِ القائدِ الملهم، الذي قرّرَ في غمرةِ انهماره العنيف أن يؤمّمَ هذا الليل في قرارٍ جمهوري، ليلاً خالداً سرمدياً من أجلكِ أنتِ، وحدكِ.

بدأتِ همسين باسمي، ناصر، فتنبهتُ الأوردة التي احتفّنت شوقاً من أول الليل.

لم يعد بابُ غرفتي صامتاً أمام أهلي، منغلقاً على أوراقِي وانطوائي، الآن صار عندي صوتُ امرأةٍ حنون، أحبّته تحت الحافي، وأنزلُ معه مسحوراً بكلّ نبراته ودرجاته.

يا الله، كم تحلّب ريقِي أيام المراهقة على رغبة، على أمنية شاردة، أن تكون عندي أنثى أناجيها، فقط أناجيها، لا أطمع في أكثر من ذلك.

يوجّلُ الله أمنيّاتنا، ولا ينساها.

منذ الطفولة وأنا أستعذبُ اللهو مع الفتيات، بعيداً عن عنف الصبيان ومشاكساتهم،

أمكثُ طويلاً معهن بين العرائس والمرايا، وما أن يتغامز عليّ الأولاد، أو تتأمر الفتيات على وجودي بينهن، حتى يبدأ التنازب والإهانات التي لا تتحملها ذكوري الناشئة، فأنزِعُ نفسي من بينهن، وأعود إلى مجتمع الأولاد.

لا عجب، في الرياض يعلموننا أحياناً كيف نكون ذكوراً قبل أن يعلمونا كيف نكون إنساً، تكتمل ذكورتنا قبل إنسانيتنا، ويجهّد الجميع في تلقينِ هذا الدرس، حتى النساء أنفسهن، يرين أولادهن على الذكورة الصرفة، ويوحين للابن منذ طفولته بأنه رجل، لا يجدر به اللعب مع البنات.

لا أفهم كيف يمكن لأُم أن تربي ابنها على انتقاصِ بناتِ جنسها دون أن تدري؟، فيكبر الفتى وهو مستعلٍ على النساء، وتكبرُ الفتاة وهي خائفةٌ من رجلٍ لم تعرفه، لم أفهم أبداً لماذا يعلمون الأولاد دروس التفاضل على النساء، ولا يعلمونهم دروس التكامل معهن من أجل معادلة صحيحة.

يأتيني كوبُ الشاي ساخناً تحمله الخادمة، تطرُقُ الباب بجيئة، وتستأذن بأدبها المعهود، وتضعُ الكوبَ بين يدي، تطفو على سطحه وريقات من النعناع، أبتسمُ لمراي أوراقه الطافية بوداعة، وأنا أسترجع معكِ ذكرياتِ الكلمات ومدلولاتها، وأرشفُ رشفةً أجاملُ بها عائشة قبل أن تذهب، وأتأبّعُ خروجها على استحياء كأنها رسالة الشيخ إلى موسى، آخذةً معها كوبَ الحليب الصباحي الفارغ من فوق مكتبي، وساحبةً وراءها الباب إلى حيث كان.

قالت لي مرةً: ((أنت تشبه ابني))، كانت أعوامها الخمسون جليةً على ملامح وجهه لم يعرف إلا الكدح طيلة العمر، ابنٌ وخمس بناتٍ وزوجٌ سكير، وعمرٌ يقترب من

نمايته قبل أن يومض فيه الفرح، كيف تُراها تملك حتى الآن قدرةً على تدليلي لأني أشبه ابنها؟

عائشة أحياناً تأتيني بكوبِ الشاي دون أن أطلبه، ما أن تنتبه لوحدي في الغرفة حتى تحمله إليّ بسعادة، أو ربما بأمومة من تحمل إلى ابنها شرابه المفضل.

منذ أحببتك وأنا استلذُ الشاي كثيراً، اندهشتُ كثيراً لهذا الوحم العاطفي الذي انتابني أثناء حبك، وبعده.

هل كنتُ أحاول تقليدك في ما تحبين وما تستهين؟، ولماذا صرتُ أشتهي مثلك حالياً من السكر تماماً، وكأن حلماً التذوق أصبحتُ مربوطةً برغباتِ القلب؟

أتذكرُ عندما قلتُ لي مرة: ((لا تكن رائعاً إلى هذا الحد))، وكانت عينكِ بركتي دموع، ولم تعرفي أنني كنتُ أكرّسُ كل قطرةٍ من دمي لإرضائكِ، أحاولُ أن أشتري بهذا عودتكِ، قبل رحيلكِ.

ولم يجدِ ذلك شيئاً للأسف، لم يُجِدني أني كنتُ رائعاً إلى هذا الحد، بنيتُ غروري، وحطمتُ بنفسي اليد، لا عجب، حتى الأنبياء أنفسهم تخلّو عنهم الناس.

احتسيتُ الشاي بسكينة، وتعلّقتُ عينايَ على الجدار المقابل، ودارت ساقية الذاكرة ببطء.

لا أدري لماذا تذكّرتُ تحديداً، دون كلِّ سقطاتِ الذاكرة، اعترافاتنا الأولى الغارقة في حياتها عن دهشاتِ البلوغ، ربما هو النعناع الطافي ذكّرني بذلك، أنا الذي عرفتُ منكِ التفاصيل، وتفاصيل التفاصيل، وأنتِ التي كنتِ أول كتابٍ أقرأه في علم الأنوثة.

كيف انتابتنا حالات البلوغ؟، وكيف لوّحت لنا تلك المرحلة السنّية الحاسمة فجأة،

وكيف بُحنا بها لبعضنا للمرة الأولى.

قطّرتُ لكِ حكايتي بخجل، كيف أخذني بلوغي على حين غرة بينما كنتُ أشاهدُ فيلماً كرتونياً في الثالثة عشرة من عمري، وأضحكتكِ كثيراً على هذه الهجمة الفسيولوجية على الحالة البريئة التي ينتابني فيها الشبق.

واعترفتُ بدوركِ بعد تردّد قصير، وحياءٍ كثيف، أنكِ فوجئت، أو فُجِعتِ، في الحمام بدمائكِ الأولى.

يبلغُ الذكور بلذّة، وتبلغُ الإناث بآلم.

كم من الناس تمنى لو ظلّ طفلاً قبل أن يكتملَ لباسُه البشريُّ الكامل؟

لكي نكون بشراً كما خلق الله البشر، لا بد أن تنمو في بطوننا شهوة الجسد، وفي عيوننا حبّ الدنيا، ونظلُّ نلبسُ فيها ومنها ضَعْفاً فوق ضَعْف، مقترين أكثر وأكثر، من حقيقتنا البشرية الأولى.

عندما كنا أطفالاً، كنا أقوى.

أعودُ إلى دفتري، وأحاولُ أن ألتقطَ فيه السطورَ الأخيرة.

تفاضل، تكامل، بلوغ، نعناع، اضطرابٌ واضحٌ لكاتبٍ لا يستطيع السيطرة على انفعالاتِ ذاكرته.

لن أمحو شيئاً، فقلمك الأبيض الصغير بدون ممحاة.

سأعود من حيث انخرفت، وأترك انخرافتي شواهداً على كتابةٍ حائرة، مثلما هي آثار الإطارات المنحرفة في صفحة الشارع، شواهدُ قيادةٍ متهورّة.

من السماء حقاً نزلت عليّ عطاءً إلهياً لا يُردّ، في صغري، وقف خوفي وانطوائي في

وجه وصولي إلى فتاة أخرى تجلس معي على كرسيّ بوح، لأني كنت أنطفيئ خجلاً فلا أسمى كما يفعلون، كنت أسلي نفسي، وأتعزّي بالصمت والكتابة وأصنام الخيال، أتمت في خواء الروح: ((سأنتظرها، ستجيء وحدها مثل أقدار الله))، ولكن المراهقة قضت مني وطراً، ونسيت الشأن، حتى طرقت أنتِ بابي، على غير موعد.

أتذكرُ في طفولتي إغفائي الخادع الذي كنت أمثله بجوار أخي عمر، وهو يسحبُ صوته خافتاً ليناجي فتاته، ويظنُّ أن أعوامي الخمسة لا تعي ماذا يفعل، وأنا أدركُ أنه يمارسُ ممنوعاً وإلا لما اختبأ، ويعشقُ بسعادة وإلا لما أرتجف، ثم ألمحهُ يُقبلُ سماعة الهاتفِ عشرين مرةً قبل أن يعيدها إلى مكانها، وينام.

تعلمتُ آنذاك أن للحب ثلاثة ملامح: ممنوع، وجميل، وللكبار فقط، وقررتُ أن أرتكب الحب عندما أكبر، وكبرتُ، وبعد العشرين بسنوات، جاءني حبك، وأخيراً، قلّدتُ عمر فيما فعل تماماً تلك الليلة التي نمتها معه في غرفته.

كنتُ أتسلّقُ صوتك حرفاً حرفاً، وأنزلق، لأعيد المحاولة، مثل غملةٍ جائعةٍ تتسلّقُ جبلاً من السكر، كنتُ أتشبّهُ بالكلمات التي أخشى ألا تعود، وأدورُ حول المعنى الذي أحلمُ به كثيراً، وأهربُ بعيداً بعيداً عن كلِّ ما قد يجعلُ المكالمة الليلية تنتهي.

منذ البداية كنتُ ضئيلاً إزاءك، ومنذ البداية اعترفتُ لك بالعلو والمنة، وتنازلتُ لك بحق القوامة كأول رجلٍ يفعلها في التاريخ، وقلتُ لك بحرفٍ وحيد: ((لك الفضل في كل ما نفعله، وليس لي منه شيء))، وجاءني صمتك المغرور جميلاً، وكنت قد عشقتُ فيك الغرور كما يعشق الآخرون التواضع.

أعلمُ أن ما أكتبه الآن لو قدّر لي أن أخطئه على ورقٍ شفاف، لوجدتُ أن في الدنيا ملايين العشاق أستطيع أن أضع ورقتي على أوراقهم، فلا أجد فرقاً بارزاً، ليس

الحب مفارقةً كبرى، ليس حادثةً كونيةً غريبة، إنه انسياقٌ فطريٌّ لنواميس الطبيعة، لذلك يتكرر ملايين المرات، ويأتي عادياً، سهلاً، بينما تتجلى أسطوره في ذواتنا، وليس على السطح من حيواتنا.

بدأ الحب يتسرّب من حيث لا ندري، وبدأتُ أمرضُ بك يوماً بعد يوم.

أبقى في مناجاتك حتى تسقط السماعه من يدك وتنامين، ويوقظك عند الغد صوتي، حتى أظفر قبل الجميع بلذّة سماع صوتك المغموس في خدر النوم. إذن، بين حدّي اليقظة، بين النعاس والفواق، ثم صوتي.

كان استيقاظك دائماً ما يبعثُ في عروقي اشتهاً لا أفهمُ كنهه، الصوتُ الضعيف الواهي الذي يسألني ساعةً أخرى ينام فيها، والتأوهات الخفيفة التي تخرجُ من فمك لتدخل في دمي، وتمطّيك الفاتن في سماعة الهاتف، وأنا أكاد أسقطُ في غيبوبة الرغبة عندما تأتيني أول قبلة بعد الاستيقاظ.

حتى تكوني قريةً من سلكِ الهاتف البعيد عن سريرك، كنتُ تنامين على الأرض، ليتسنى لك النوم على صوتي حتى ولو أورتك هذا آلام الظهر عند الاستيقاظ، هذه الآلام الطفيفة التي يبررها الشوق، كانت تجعل استيقاظك أكثر إغراءً ودلالاً، وأبقى أعالجها معك بحنانٍ لا أملك غيره، حتى تقومي أخيراً من فراشك الأرضي البسيط، وتبدئي يومك.

حتى وأنت تغتسلين صباحاً هناك بحالٍ لحديث، تجول الفرشاة في فمك فتبعثر الحروف دون فهمي، وأنا معلقٌ على الطرف الآخر من الهاتف، مبتسماً كطفلٍ أبه، وفي عينيّ دوار الحشّاشين في جغرافيا النعاس، وورائي ألف عملٍ ينتظر إنجازهُ وهو يموتُ في أدراجي وأوراقي، وأنا أهملُ كلَّ شيء، وأتناسي كلَّ شيء، وأقضي معك اليوم كله على هاتفني، أمزجُ الظنّ باليقين، ولا أدري ما الذي ستغيّره في حياتي هذه

الفتاة التي لا يشبهها شيء في الدنيا.

مرّت أيام فقط على هواتفنا الأولى، قبل أن أراك لأول مرة.

خرجتُ من البيت مدعوًا لغداءٍ عائلي في منزل عمي، كُنّا على أعتاب صيفٍ يشبه هذا الصيف، ((هذا الفصل من السنة يؤرقني كثيراً، فيه عرفتُك، وفيه تخلّيت عني، وفيه بدأتُ في كتابة روايتي، مع اختلاف السنين))، وجدتُ نفسي أقود سيارتي تلك الظهيرية إلى حيث لم أتوقع، تنكّبتُ شارع التخصصي شمالاً، اجترتُ نفقاً، انعطفتُ يميناً بعد إشارتين، ووقفتُ عند ثالثة مزدحمة.

بدأتُ أهاتفك من هاتفني المتنقل، كان الانعطاف يميناً يقودني على بيت عمي، أما يساراً فيقودني إلى بيتك، كنتُ أعرف أين تسكنين لفرط ما كنتُ تتقين في هذا العابر منذ ليالٍ فقط، فكُرتُ أن أقصد بيتك لعلني أرى من عيون رغبتني الغريبة ذلك الجدار الذي يأتي بصوتك من خلفه، تملكيني الفكرة، أدركتها في رأسي سريعاً ريثما تمنحني الإشارة ضوءها الأخضر.

ماذا لو أغضبك هذا؟، ماذا لو أدى بك إلى التراجع عن علاقتنا التي تبدو شقية من بدايتها؟، ولكن ماذا لو أن المفاجأة تروق لك، وتغمرك السعادة عندما أخبرك أنني الآن أقف تحت شباكك مباشرة؟

كنتُ أتمنى لو تقع عيناك على هذه الفتاة التي تحملني كل ليلة إلى فراشي، وتعتني بي كثيراً، وتغمريني بخنائها وودّها، قبل أن تتركني أنام، ترى كيف تبدو؟، كيف هي ملامحها، عيناها، شعرها؟

ولكنني قلق.

الرياض مدينة كبرى، نصفُ هواتفها عشق، ونصفُ هذا العشق مرادة، وأنا أخشى

لبساً كهذا تتبرئين به مني، أعلمُ أن أنوثتك مختلفة، وطورك الواثقة أعلى تحليقاً من كل طيور المدينة، غير أنني لم أكن أثق تماماً آنذاك أن هناك امرأةً ناجيةً من أسطورة الخوف في بلادنا، كلهن يخشين الألسنة، ويحذرن التماذي، وأنت فوق هذا مرتبطةً برجل، فأنت حمافة أرتكبتها عندما أستغل معرفتي بك، ومن تكونين، وأين تقطنين، لأتصرّف بثقة، وأمنح نفسي حق الوقوف أمام أسوار البيت، دون إذنك؟

استرجعتُ كلماتك الأولى لعلني أستشف منها ردة الفعل، من أول الحلم وأنت تبدين لي واثقةً من جنابات نفسك، لك أنوثة راقية جداً تقطر حضارة، منذ اليومين الأولين كنتُ أعلم من تكونين، ومن أي أسرة أنت، بينما قد يتطلب الأمر شهوراً مع فتاة أخرى في مجتمع الألسنة هذا.

لا شيء مما عرفته منك ينذر بانزعاجك إن أنا أتيت.

كنتُ تقريبيني من أسرارك رويداً دون تحفظ، وأنا لم أكن أسأل كثيراً، بينما تنهمرين عليّ أنت بكل ما يحيط بك، حتى ظننتُ أنك لا مبالية، والحقيقة أنك كنت شديدة الذكاء حين اكتشفت من صوتي أنني رجل أشبه البشر التي تحير فيها الدلاء، و تعجز عنها متحاً وسقياً.

هل كنت تتقين بي، أم تشكين بقدرتي على الكلام أصلاً؟، هل كنت تتكين على قوتي، أم ترتاحين لضعفي؟

ربما كنت محتاجةً للكلام، فتكلمت، وتكلمتُ أنا أيضاً عن كل حدود حياتي، كان الكلام مثل البحر الذي لا يحده الجرى كالأنهار، لا يوقفنا عن الحديث إلا الحياء أحياناً، أو النوم، أحرقنا كل الساعات، واستنفدنا كل البوح، والتصقنا توأمين على حدّ الليل، حتى لم يعد لدينا الكثير مما نخفيه، لفرط ما كانت شهية الكلام عندنا على أشدها.

لم أبدأ بهذا العُري أمام شخصٍ آخرٍ في حياتي، حتى وإن لم يكن عندي ما يحتملُ
الستر، ولكن الصمت رفيقي منذ طفولتي، عيًّا، كما أظن، وليس حكمة.

قدتُ سيارتي إليك أخيراً، حتى وقفتُ مثل الملاحِ التائه تحت شباككِ الجميل، وبِ
قلقٍ عميق، أَلقيتُ نظرةً سريعةً على المرأةِ الداخلية في السيارة، أصلحتُ من
هندامي، ثم حملتُ هاتفِي، وأخبرتُكِ أُنِي هنا، على مرمى أمتارٍ من جدار منزلك.

جاءتني صرخة دهشتكِ الممتزجة بالجلد السعيد، ولم ألبث بضع ثوانٍ حتى كانت
إحدى شبابيكِ القصر تُفتح، وبطلُ منه طيفُ امرأةٍ تحمل في يدها سماعة هاتف،
وتبعثُ إليَّ نظراتها من بعيد، تنفستُ الصعداء عندما علمتُ أُنِي لم أتجاوز، ولم أتر
ضيقتُ وأنا أسعى إلى بيتكِ في وضح النهار، وكأنكِ صرتِ لي، رأيتكِ سعيدةً بهذه
المفاجأة، وكأنكِ كنتِ مثلي مشتاقةً لرؤية هذا الذي يناجيكِ كلَّ ليلة منذ أيام،
وهو واقفٌ هذه المرة تحت جدار القصر.

كنتِ تلوِّحين لي من الشباك، وأنتِ أجمل من بياض الشمس التي تنعكسُ على
الطلاء الأبيض، وتحرمني التفاصيل، كنتُ أجاهدُ لأميِّز ملامحك، واملاً ذاكرتي من
أعشابٍ وجهكِ، فقد لا أراكِ ثانية، الأمتار عشرون تقريباً، بين مكاني على رصيف
المنزل المقابل، وشباككِ المعلق في جدار القصر، وأنتِ بين حدوده تطلين عليَّ بوجهٍ
مشرق، وفي تلويحكِ جَدَلُ طفوليٍّ رائع، يشوقني إلى المزيد، المزيد منك.

كنتُ لا أدركُ أن الحب ينسج لنا قصةً ما في خفايا قَدَرٍ قريب، كلُّ ما يدور حولي
لم يبدُ كأكثر من شقاوةٍ طفلين يتلذذان بكسرٍ بضعةٍ مبادئ، أن أهاتفكِ، أن أقصد
بيتكِ في وضح النهار، وأن ألمح عن بعد، ومن بين القضبان الحديدية المتقاطعة على
شباككِ، كتفيكِ العاريين اللذين نسيتهما في غمرة المفاجأة، ثم تداركتِ ذلك
بعد قليل.

كتفان رائقان كنهري لبن.

حتى الآن، ومن وراء السنوات التي خَلَفَتْ، وحتى بعدما عرفتكِ، وعشقتكِ،
والتقيتُكِ مئاتِ المرات، مازلتُ لا أدري إذا ما كنتِ عمدتِ إلى كشفِ كتفكِ
عن قصد ذلك اليوم، أو أن الأمر كان نسياناً حقيقياً.

ربما أردتِ أن تبقي هذا الذي جاء من منزله في هذه الظهيرة العابثة قليلاً من اللذة
يتأملُ فيها هذين الجدولين الساحرين، ربما أردتِ أن تكتبي له على الصفحة الأولى
من كتابكما: ((كلُّ لَدَاتنا مؤقتة))

ربما أُوحيِتِ لي أنكِ ستغيين عني يوماً ما، مثلما غاب كتفكِ.

دون أن أدري لماذا، شعرتُ لوهلة أن اشتغائي لهما تضاعف فجأة، بعد أن تناولتِ
قميصاً، وارتديته على عجل.

ألأني ظننتُ أُنِي قد لا أراهما بعد اليوم؟

أو لألأهما كانا فانتين حقاً؟

أو لأن الأكتاف بالذات تثيرني، أنا الذي لم أجد منذ طفولتي كتفاً أبكي عليه؟

أحياناً، أو دائماً، يغري المرأة في الرجل، آثار إغرائها عليه، قلتُ لي بنفسكِ ذات
يوم، أن استمتاعي بكِ يُمتَعِكِ أيضاً، وذكرتي بمقولة قديمة ((أشهى رغبانا نراها في
مرايا الآخرين)).

انتهى اللقاء، وانغلق الشباك، وانصرفتُ أنا تخوفاً من جارٍ قد لا يفهم معنى وقوفي
هنا، أو ربما يفهمه، وكنتُ أتساءل وأنا أقود سيارتي إلى منزل عمي الذي تأخرتُ
عليه إن كان الأمر بعد ذلك سيأخذ شكلاً تصاعدياً، أم أُنِي علاقتنا التصقت
بالسقف فعلاً، ووصلت إلى حدّها الأخير.

قبل أن أُلج على ضيوف عمي، أخرجتُ مفكرتي، واخترتُ ورقةً جديدة،
كتبتُ عليها: ((الثاني عشر من أبريل، إن مها تبدو جميلة))

لم أكن أدرك أنه في نفس اليوم سيصبح ظني هذا يقيناً.

لِقَاؤُنَا الثاني كان أقرب مما تصورت.

بعد ساعاتٍ قليلة، هاتفني أنتِ لتقولي بكلماتٍ عوّجها الحياءُ أنكِ ترغبن في رؤيتي
عن قرب، وفي مكان عام.

لستُ أدري ما الذي أشعله حضوري النَّائِه عندكِ؟، أيُّ أشواقٍ تسلّقتِ السور،
وتسربت من نافذتكِ، وجعلتكِ تسعين للقائي بهذه السرعة؟

أجبتكِ طائعاً، مدهوشاً، وفي قلبي ينتفض هرٌّ صغيرٌ بلّله المطر.

لا أدري كيف تدحرج الزمن ذلك اليوم.

لا أدري كيف خرجتُ من بيت عمي مسرعاً دون أن أودعه، لا أدري كيف
حلقتُ ذقني في عشرين ثانيةً فقط، لا أدري كيف أخذتُ حماماً، وارتديتُ ثياباً
في ثلاث دقائق على وجه التحديد، لا أكثر.

وقفتُ في لحظة قلق، أنعقد حاجبائي أمام المرأة وكأني أسأل الصورة التي أمامي
جواباً ما، أطرقتُ في توتر، حرّكتُ أصابعي في الأشياء المبعثرة أمامي، أجتاحتني
رهبةٌ غريبة.

لأول مرةٍ في حياتي ألتقي فتاةً ما.

هل سيرانا أحد؟، هل سيشي بنا أحد؟، هل سأبدو أنيقاً، وسيماً، واثقاً، لبقاً،
ذكياً؟، أتركّ أخذتُ معي هذا الموعد لتختبري جاذبيتي فقط؟، أترائي سأنجح في
اختباركِ، أم أنه سيكون اللقاء الأخير، وستعللين بعده بصعوبة اللقاء، بينما

الحقيقة أنني لم أكن جذاباً بما يغري للقاءٍ آخر.

فرشتُ سجادتي، وصليتُ ركعتين وجَلّتين.

وخرجتُ من البيت، وقدتُ سيارتي بشروءٍ عجيب لا يشي بألفٍ رحيّ تطحن
حباتِ القلق في عقلي.

قلتُ لي في الهاتف أنكِ ستكونين هناك بحثاً عن كتاب طاغور، ولم أشعر بالضيق
طويلاً، بالطبع، كان من الضروري لكِ كأنتي أن تفعلني هذا حتى لا يبدو مجيئك من
أجلي فقط.

كان عليكِ أن تفسدي غروري، حتى تحافظي على غروركِ، بينما تُجبر كلُّ أمجاد
اللقاء الأول لحساب طاغور.

عندما سألتني قبل موعدنا إن كنتُ قد سمعتُ بهذا الشاعر، أجبتكِ باختصارٍ مجحف:
((شاعرٌ هندي))، لم أشأ أن أخبركِ المزيد عنه، رغم أني قرأتُ له الكثير، كانت
غيرةٌ لم أملك لها تبريراً آنذاك.

لم يكن لديّ ما يشفع لي عندكِ إلا قصائدي، كيف سأحشر معي شاعراً آخر، أياً
كان، ليزاحمني في هذا الإعجاب الوليد؟

قبل سنةٍ فقط من لقائنا ذاك كنتُ مختاراً بين روايته (جورا)، ورواية تولستوي (آنا
كارنينا)، بأيهما أبدأ، اشتريتهما معاً في نفس اليوم، وأخذتُ أقلبهما بين يديّ بحيرة،
فتحتُ رواية طاغور، قرأتُ في مقدمتها سيرته كاملة، مختومةً بقصة فوزه بنوبل
١٩١٣.

الدهشة الكبرى عندما علمتُ أنه انتزع الجائزة من تولستوي نفسه تلك السنة، لم
أدر كيف تشكّلت هذه المفارقة الصغيرة، وكيف عاد الكهلان إلى الحياة ليتصارعا

مرةً أخرى على مخدة شاعرٍ مبتدئ؟

قررتُ عندها أن أقرأ جوراً، وخلال أسابيعٍ قليلة، قرأتُ الكثير من آثاره، وتوثقتُ عرانا، واتفقت رؤانا، وصار صديقي.

ولكن عندما وقف ذلك اليوم جوارى أمامك، دفنتُ صداقتي معه في تراب المصلحة، لن يضيره أن يموت في جبين فتاة، من أجل أن يحيا فيه شاعرٌ آخر، ليترك لي فتاتي، فعنده من الأجداد ما يكفيه، هو الذي اتخذته الناس في البنغال إلهاً يعبد.

ماذا كان سيقى لي من مجد الشعر لو قلتُ لك ذلك اليوم أن البرلمان الهندي برمته يجتمع في جلسة استثنائية، بعد ستين سنةً من وفاة طاغور، للتصويت فيما إذا كانوا يملكون الحق البشري في غناء قصائده المقدسة؟، أكثر من ألفي قصيدة اتخذوها ألواحاً مزلّة، إن كاتباً نال كل هذا المجد لن يغضب إذا أحفيتُ شمسهِ عنك، حتى يبقى قنديلي الصغير مضيقاً.

رغم هذا، حاولتُ أن أبحث عن أحد كتبه في المكتبة، لعلي أهديه لك، فليس من اللباقة أن تفصحي لي عن رغبتك في البحث عن الكتاب، ثم أتركك تشتريه بنفسك.

على مضض، سألتُ المشرف أين أجد كتبه ليجيبني أنها غير موجودة، شعرتُ بالارتياح، هاهو ذا طاغور ينسحب وحده.

بقيتُ أسرّحُ أقدامي في المكتبة، وأراقبُ الساعة المنتصبّة في وسطها.

كان بي عُثار مغناطيسٍ غرّ، لم يتعلم بعد الفرق بين التجاذب والتنافر، التصق ظفر إبهامي بعمي، وأخذتُ أسلخُ لحم توترتي حتى جاء هاتفك أخيراً، ليخبرني أنك صرتَ معي، تحت سقفٍ واحد.

كان يتبعك شابٌ يبحث في وجهك الجميل الذي لم يختفِ وراء خمار عن مستقر لتزوته، ظل يلاحقك في أرجاء المكتبة، وأنا أتابعك من بعد، وألغنه سراً.

هل كنتُ عنيفاً في قتالي عليك ذلك اليوم؟، لماذا أبدأ معاركي الأولى مع الذكور الذين يزاحمونني عليك بالبراءة من طاغور، والملاعنة لهذا الشاب؟

ولكن ما دام العنف سمةً بدايتي، فلماذا إذن وقفتُ عند هذا الحد مع الرجال الآخرين في حياتك، فلم أفعل إزاء اقتراحهم منك شيئاً يذكر؟

هل كان وجود هذا الشاب يرسم منذ البداية حدود قدرتي على الاحتفاظ بك لنفسي؟، اللعن سراً فقط؟

لماذا يجبُ أن أنتظر حتى يفرغ من سخافاته، حتى أبدأ بالكلام معك؟

لماذا كان مقدوراً عليّ دائماً ألا أردّ من برك حتى يصدرَ منه الرّعاء؟، لماذا كُتبتُ عليّ دائماً أن أنتظر انصراف الرجال عن حياتك قبل أن أتقدّم خطوةً واحدةً نحوك؟

لماذا انتظرتُ حتى رحل حسن قبل أن أبدأ حي؟

لماذا انتظرتُ حتى يتلاشى سعد من حياتك حتى أستعيد كبريائي؟

ولماذا ما أزال حتى الآن أنتظر متى تفرغين من سالم هذا أو يفرغ منك، حتى تعودني إليّ؟

ولماذا لم أتبه لهذه التخلخلات في رجولتي إلا الآن، بعد رحيلك؟، لماذا لا تتضح لي هشاشتي دائماً إلا وأنا أكتب؟، أخلو وجه حياتي فلا أجد في تاريخي إلا الضعف، والفقر، والتخاذل.

لماذا أُلقت الأقدار ضعيفاً مثلي في وجه قوتك؟، لماذا أنا دائماً أمام التحديات الصعبة، أمام الأحلام المستحيلة، أمام الطموحات السرابية؟

رجلٌ أنا أم كيسُ رملٍ تدرُّبٌ عليه الحياة؟

هل حقاً ما تقوله الحكمة التي قرأتها قديماً: ((لا توجد امرأة قوية، هناك فقط رجلٌ ضعيف))

بين لعناتي، حاول الشاب أن يكلمك بنبرة أرستقراطية سمجة، وترك وريقته الحمقاء التي تحمل رقمه على مرأى منك، وأخيراً أعياه صمتك، وتجاهلك المتقن له، فرحل يجرّ الخيبة مروراً من حوارٍ، وظلّت الوريقة معلقةً في مكانها.

وقفت أنت أمام المشرف الذي سأله قبل قليل، وسألته بدورك عن كتاب طاغور، ليتمتم في تعجب: ((ما قصة طاغور هذا اليوم؟))

وكان خوفك ربما هو الذي جعلك تحييينه بسرعة: ((إنها ذكرى وفاته))

ابتسمت عندما سمعتُ اعتذارك الملقق، منذ متى يحتفلون في الرياض بذكرى طاغور؟، كم ثورتنا اللقاءات العابرة توتراً كبيراً في مدينة مثل الرياض، هنا الجميع رقباء، حتى هذا المشرف تحيّلناه رقيباً يجب أن نغافله، بل يجب أن نقتل في داخله بذرة الشك، حتى هذا الشاب العابث كان رقيباً علينا رغم عبثه، واضطررنا أخيراً أن ننتظر انصرافه.

حتى الخادمة التي تتبعك كان علينا أن نغافلها.

فجأةً مررت أنت بنفس الممر الذي كنتُ أقف فيه، لم ترفعي عينيك إليّ أبداً، بينما اخترقتك أنا بنظرة عفيفة، ولم أتمالك نفسي،

لفرط جمالك، كنتُ أشعر أن الكلمات التي كتبتها قبل ساعة في مفكرتي تغيّرت وحدها في جيبي، دون أن ألمسها.

نسيّت تماماً وجود الخادمة، وألقيت وراءك كلماتي بسداجة العاشق الأول: ((كم

أنت حلوة))

بعد شهرين قلتُ لك: كم أنت رائعة، بعد ثلاثة قلتُ لك: كم أنت حنونة، بعد أربعة، عندما جاء سعد، قلتُ لك: كم أنت قاسية، بعد أربعة عشر شهراً، وأنت تحزمين حقائبك استعداداً للزواج، قلتُ لك: كم أنت ظالمة، بعد ستة عشر شهراً، وأنت تقتليني كمداً ولا تتصلين، قلتُ لك: كم أنت جاحدة، وبعد أن انتهت الرواية، اختصرتُ علامات التعجب كلها في واحدة: كم أنت أنثى.

سمعت الخادمة غزلي الأول، وتبعت حياك الهارب مني بعيداً، وهَمَسَتْ لك كما أخبرتني أنت فيما بعد: ((أرأيت يا عمتي؟، حتى ذلك الصغير كان يكلمك))

كانت تسخرُ مني هذه البسيطة، تتعجبُ من ملامحي التي تجعلني أبدو أصغر من عمري الحقيقي كثيراً، ولكني لم أشعر بالإهانة لقولها، فلم تكن تدرك بسذاجتها أن هذا الصغير هو من جاءت سيدتها إلى هنا من أجله.

ربما عليّ الآن بعد سنوات أن أتوجّع لإهانتها، ألم يكن صغر سني من ضمن الأسباب الصغيرة التي جعلتك ترحلين عني، وإن لم تبوح لي بذلك؟

أدركتها الخادمة إذن منذ البداية، البسطاء تجري على ألسنتهم النبوءات أحياناً ما دامت عقولهم لا تصنع الحكمة، تعرفُ مستوى سيدتها، وتعرفُ من يليق به أن يتناول إليها، ومن يجدر به أن لا يفكر في الأمر من الأساس.

أخيراً، تركتها في الطابق السفلي امرأةً إياها بالملكوث ريثما تعودين، واخترتُ أنا ركناً قصياً لا يرتاده الكثير في هذا الوقت من العصر، ووقفتُ خلف الأرفف الضخمة وأنت على بعد خطوات قليلة إلى مكاني، رحتُ أحتلسُ النظر فأراك مقبلةً عليّ، تقترين، وتقترين، وقلبي يدقُّ بعنف، حتى وصلت عندي أخيراً.

ليتني لم أكن هناك.

أشياء كثيرة كانت ستتغير في حياتي لو لم أقف هناك، لو لم أنتظرِكَ وراء الأرفف، لو لم أعشقكَ بصمت خلفها.

لو لم أكتشف مثل أرحميدس كيف تصنع امرأة لها شفةً عليا بارزة أروع ابتسامات الدنيا.

سألتُ ربي امرأةً أعشقها، ولكني لم أسأله إياها جميلةً إلى هذا الحد.

إن يداي ترتعشان، وحلقي يجف.

هل كان ريختر مقياس زلازل حقاً، أم آثار امرأةٍ على رجلٍ؟

لماذا وقفتُ يا إلهي؟، لماذا لم أهربُ من قَدْرِ جميلٍ مثل هذا ما دام سيلاحقني طوال حياتي، ما دام سيورثني بعد ذلك غبن الدنيا، وقهرها، وظلمها، وغيرها، وحسدها، ويأسها؟

لماذا كان عليّ أن أكتشف ملامح كهذه، ما دامت سترتسم يوماً ما على مرآةٍ غيري؟

لماذا أنظر إلى شفةٍ لن تبتسم لي وحدي، وعينين لن تتعلقا بي وحدي، وخصلات شعرٍ ستطير ذات يوم على متن قاربٍ فينيسيٍّ برفقة سالم؟

لماذا صافحتك، لأتخذ بعدها هذه الكف التي ارتعشت في كفي لثوان بيتاً، سيسكنه رجلٌ آخر؟

لماذا تسلّقتُ أزرار القميص الوردي لأصل إلى قمته المنفرجة عن مثلثٍ يكشف نحرًا، وأنا أعلم أن سالماً لن يكتفي بهذا المثلث فقط؟

لماذا لم أتأملك بفضولٍ فحسب، كما نتأمل حدران الكنائس الإيطالية ثم نخضي ونتركها؟، لماذا توضأتُ، وصليتُ، وتبّلتُ، ومارستُ طقوساً لم تسمع بها حدران معبد، ولا خرافات كاهن؟

لماذا كنتِ جميلةً جداً ذلك اليوم؟، هل لأنك أنثى، أم لأني رجل؟

ولماذا كانت عيناكِ تختصران قصة الحب، من أولها إلى آخرها؟

ولماذا كلُّ هذه النظرات الحية التي تزرعين بها أقدامي في الأرض؟

ولماذا العباءة ناقصة؟، ولماذا الخصلاتُ غافية؟، ولماذا الشفة العليا بارزة؟، ولماذا الحذاء أبيض؟، ولماذا أنا محاصرٌ بكلِّ هذه التفاصيل المنفجرة؟

ولماذا ديوان الشابي بين يديك؟

ما قصة الشعراء الذين لم يجدوا إلا هذا اليوم ليزاحموني فيك؟، لماذا انقلب وفؤهم القديم معي في أول حبٍ أعثر عليه إلى جحودٍ صارخ، وتكالبٍ حقيرٍ على عينيكِ الجميلتين؟

لماذا يسرقونك مني هم الذين طبّقت شهرتهم الآفاق، وافتتنت بهم آلاف النساء من قبل؟

لماذا يدوسون عليّ بقضيتهم وأنا أتسلق ببطء حدران إعجابك بي؟

ولماذا أنتِ تجمعين حولك منافسيّ منذ اللقاء الأول شباباً عابثين، وشعراء ميتين؟

ثم لماذا اخترتِ الشابي بالذات دون غيره؟

لماذا هذا الشاعر مثلي، اليتيم مثلي، المريض مثلي، الضعيف مثلي، التبعس مثلي، الجريح مثلي، النحيل مثلي، المغلوب مثلي، الفقير مثلي، والمولود في فبراير، مثلي؟

بقي أن أموت في السابعة والعشرين، مثله.

أخذتُ منك الديوان، قلبته بين يديّ وأنا أتطيرُ من أحزانه.

كنتُ أحاول أن أشتت ارتباكِي في تقليب الصفحات، فكرتُ أن أكلمك قليلاً عنه، لماذا لا أعبر الشابي جسراً لنظرة إعجابٍ أخرى منك؟

وقبل أن أنطق بكلمة واحدة، جاءني صوتك الشفاف ليبد المحاوله، ليقول لي والكتاب بين يديّ: ((اكتب لي عليه)).

شرعتُ في الكتابة عليه كما أردتُ وأنا أختلس النظر إلى صورة الشابي في مقدمة الكتاب، تراي كنتُ أستاذنه في ذلك؟، أو ربما كنتُ أشعر بالحيرة مما يمكن أن أكتبه فوق كلماته؟

فكرتُ أن أهرب من هذا الحرج، سأضعُ غيري في مواجهة الشابي، فكرتُ في طاغور، لقد كان حاضراً في ذهني قبل دقائق، من الطبيعي أن يكون هو أول من يطرأ عليّ إذن.

لشدة ارتباكِي كدتُ أكتب مقولةً له على الكتاب، أنا الذي تبرأتُ منه جهلاً قبل نصف ساعة فقط، لتتكشف أمامك كذبي الأولى مبكراً.

أتذكرُ تحديداً أني كنتُ على وشك أن أكتب: ((إن الله حين أراد أن يخلق حواء من آدم لم يخلقها من عظام رجله، ولا من عظام رأسه، وإنما خلقها من أحد أضلاعها، لتكون مساويةً له، قريبةً إلى قلبه))، كنتُ أريد أن أتقرب منك بهذه الكلمة، أنا الذي عرفتُ جيداً خلال أيام مدى اعتدادك بأنوثتك، غير أني كتبتُ بدلاً منها كلماتٍ لستُ أذكرها.

كنتُ أتكى على الجدار، وأنت تتألميني من الخلف، تتألميني حتى جاء خطي

مرتبكاً كتوقيع مريضٍ على إجراء عمليةٍ مميتةٍ.

كان هذا قبل ثلاث سنوات.

أتساءل إذا ما كنتُ حتى الآن تحتفظين بديوان أبي القاسم الشابي ذاك؟

أين تحتفظين به؟، وكيف؟، وأين ستخفيه من عيون سالم؟، هل ستخفيه وراءك في بيتٍ أهلك؟، ماذا لو تصفّحه أحدهم ليجد إمضائي في صفحته الأولى؟ حتى وإن لم يفعلوا، ماذا يفيدني أن تظلّ كلماتي ملتحفةً بغبارها وأنت في آخر الدنيا؟

دعي عنك أمر ذكراي، ليس ثمة قاتلٍ يفتشُ في مذكراتٍ قتيله، ولكن فكري لماذا أخذتُ أنا ذكرى قاتلي معي؟، لماذا طرأت لي الفكرة فجأة، فتركتك للحظات، وعدتُ بكتاب سيرانو ديرجراك، لأسرق منك بضعة كلماتٍ عليه، أحتفظ بها حتى آخر العمر، وأمشطُ بها شعث ذاكرتي يوماً من الأيام؟

تركتُ مكتبي الصغير، وقمتُ إلى حقيبةٍ يملأ ظهرها الغبار، عاجلتُ قفلها مرتين حتى استجاب، واستخرجتُ من صمتها كتابي الأصفر الصغير، فتحتُ صفحته الأولى، لأجدك ماثلةً أمامي، كما كنتُ ذلك اليوم، الثاني عشر من أبريل، قبل أكثر من ثلاث سنوات.

((عزيزي..))

لا أدري ماذا أقول، ولكن كل ما أستطيع قوله هو أنك تصنع بصمةً مميزةً في

حياتي، لا يمكن نسيانك أبداً. - مها -))

تري، هل كنتِ تتبينين؟، أم كنتِ ترسمين المشوار من أوله كما سيكون، بهذه

الكلمات الغامضة؟

كيف كتبتِ عليّ منذ البداية ألا أكون أكثر من بصمة في حياتك؟، ما أكثر الذين يضعون البصمات في حياتنا ويرحلون، فأيهم كنتُ أنا؟

هل ظننتِ أنكِ تنقذين نفسك من هذا السؤال إذا أضفتِ كلمة (مميزة)، لتصفيني بها بصمتي إلى جوار بصماتهم، وتمنحيني غروراً صغيراً؟

تعلمنا منذ الطفولة أن البصمات لا تتشابه أبداً، كل البصمات مميزة أصلاً.

ألقيتِ بي في اللجة إذن، منذ الكلمات الأولى كنتِ تكتبين عليّ أن أكون ضائعاً في زحام من حولك.

هاأنا أتحوّل من رجلٍ إلى بصمة، وهأنتِ تلقين بي بين ملايين البصمات في الدنيا.

كان لقاءنا ذاك تمزقٌ أول جرح لم أشعر به في خدر السعادة، ولم أنتبه إليه إلا بعد أشهرٍ طوال، وقد غرقتُ في نزيفه.

عندما عدتُ إلى البيت، قبلتُ أمي قبلةً عظيمة من تلك القبلات التي تشي لها بنتيجة اختبائي أيام الدراسة قبل أن تسألني عنها، كنتُ أشعر بالفعل أنني اجتزتُ اختباراً صعباً، ولكني لم أعرف أنني رسبت فيه، رسبت بمجدارة.

خرجتُ رجلاً كاملاً، له يدان تنتهيان بعشر أصابع، لكلٍّ منها بصمة، وعدتُ وأنا بصمةٌ واحدة في حياة امرأة.

والأوجعُ أنني عدتُ سعيداً.

أويتُ إلى غرفتي، وفي قلبي تميلٌ يشبه اقتراب العشق، ارتقيتُ على السرير، هذا الذي يعرف أسراري أكثر من دفاتري، اضطجعتُ عليه بجنون رجلٍ وافق الله أن يدخله الجنة.

حملتُ ذاكرتي، ورحتُ أهزها بعنفٍ لأسقطَ ما تجمّع فيها من لقائنا هذا، وأخذ في تأمله، وتقليبه بين يدي، وتركيبه مرةً أخرى مثل قطع البازل.

كتبتُ في دفثري تلك الليلة:

((.... كجدولٍ ورد، كسربٍ عنادل، كنقرةٍ بيانو، كخجلةٍ كرز، كنتِ تتسرّين إلى داخلي، وتترسّين في العمق الأخير مثل رُكام السُكر في آخر الفرجان، أشعرُ أنني أعشقتُ منذ زمنٍ بعيدٍ جداً، وأنّ سنواتٍ كثيرةً من الحب نسختَ نفسها بيننا فجأة، وراحت تتجدّد معنا، وتعيشُ حاضراً، وفاءً، ومتعةً، وسعادةً.....))

أغمضتُ عيني ذلك اليوم على فكرة الحب، واستيقظتُ عليها، وأنا لا أعلم أنني ذات يومٍ سأغلق عيني على دمة الفراق، وأستيقظ عليها أيضاً.

لم يكن هذا عادلاً، أنا الذي يتباني الحب لأول مرة، كيف لي أن أنظر إلى ما هو أبعد من عتباته الأولى حتى أخاف من الفراق، كيف لي أن أبيع إيمانه الأول، وجنونه الأول، ولذته الأولى، اتقاءً لأمٍ مستقبليٍّ لن يكون إلا بعد أشهر.

لم يكن هذا عادلاً.

خرج وقتُ الفجر قبل أن أصلي، قبل نصف ساعة فقط، كانت أمي تُطلُّ عليّ من فرجة الباب المعهودة، لا تتراجع هذه المرة، بل تُردّدُ بصوتٍ عالٍ بين دعواتها الفجرية: ((الصلاة يا ناصر، الصلاة، إنَّ قرآنَ الفجر كان مشهوداً، رحم الله المشائين في الظلم))، رفعتُ رأسي قليلاً من بركة الورق، كان وجهها الأبيض يستدير في حجاب الصلاة الأزرق، افتعلتُ حركةً توحى لها أنني على وشك

النهوض ريثما استدارت وتركتني، فعدتُ أطارِدُ آخرَ كلمةٍ شاردة، معترِماً للحاق بالصلاة بعد قليل، ولكنَّ الكتابة أخذتني في لجَّتْها حتى فاتني الفرض، وضاع صوتُ الأذان.

ضاع في صراخِ الذاكرة.

هل عندي حكمة الأنبياء حتى أمزقَ أوراقَ روايتي كما أهلكَ سليمان الحكيم حياته عندما شغلته عن الصلاة؟

تذكرتُ، وأنا أويحُ نفسي بصمت، أنَّي سمعتُ حديثاً يقول من صلى الفجر في جماعة فهو في ذمة الله حتى يمسي، أطرقتُ ورأسي ثقیلاً من بیداء السهر وصهيل القهوة، كم أحتاج أن أكون في ذمة الله هذه الأيام.

ولكني ضيَّعتُ الفرصة، وسأظلُّ هذا اليوم حتى المساء خارجَ ذمَّته.

روحانية صلاة الفجر ساعدتني كثيراً إبان الأيام الأولى بعدك، كنتُ إذا فرغتُ من ركعتيها الطويلتين، عدتُ إلى البيت ماشياً أدبُ في الظلام الأخير، وأتأمل السماء التي بدأت تتمزق قليلاً بنصل الضوء، همستُ مرات: ((رب أعد إليَّ مها قبل أن يفنيني الهم))، تتم أشيبُ حولي: ((آمين...))، وحثَّ خطاه ليتجاوز ارتباكِي وجفولي وعلى شفتيه نصف ابتسامة، لم أنتبه لوجوده في محيط صوتي، أما وقد مضى، فلعل الله يستجيب له.

توضأتُ وركعتُ وسجدتُ على سجادة غرفتي التي ما زالت في مكانها منذ رحلتُ إلى فانكوفر حتى عدتُ إلى الرياض مرةً أخرى، هذه السجادة التي كنتُ أمارس عليها توبيتُ كلما عدتُ من بين يديك، صرتُ أمارس عليها ابتهالي حتى تعودني إليَّ، صارت بعدك أنيسة وحشيتي، ورفيقة رحلتي السَّحَرِيَّة البائسة إلى معتزلي الذي اتخذته، أفرشها وأحلامي، وألعن فوقها كلَّ صباحٍ سيأتي لا تعودين فيه.

سميتُ ذلك المكان غيبوب الوجع.

لم أكن أدري لماذا أطلق اسماً على مكان لن أخبر عنه أحداً، ولن أضطر لتمييزه يوماً ما؟، هل إلى هذا الحد أصبح حزني مدلاً حتى أطلقُ أسماء على الأشياء التي أناديتها في داخلي فقط؟، هل قرر الحزن أن يقيم فيَّ طويلاً حتى بدأ في إرساء لغةٍ جديدةٍ يتخاطبُ بها مع ذاكرتي؟

لماذا الذهاب إلى هناك؟

منذ طفولتي وأنا أبالغ في انفعالاتي، مس تنغل تسمي هذا: ((Overacting))

لماذا أمارس هذا الاعتزال مثل عاشقٍ قديم، هذه العادة احتفت منذ مائة سنة، إنهم لا يهيمون في الفلوات هذه الأيام، ما هكذا يتصرف عشاق هذا الزمن.

ربما يتلعبون بحبب النوم، أو يدخلون في جنون الشوارع، أو ينتقمون من حبيباتهم أو أي امرأةٍ أخرى، أو يلقون بأنفسهم فوق جنسٍ عابر، كلها عاداتٌ يتخذُ معها الحب.

وأنا لا أريدُ أن أخدُرُ الحب، أريده أن يبقى مشتعلًا كما هو ولو أطعمته أضلاعي، لم يزل في داخلي أملٌ لم يحتضر بعد.

الأشياء في غرفتي ظلت كما هي طوال غيابي، وفاء الأوراق التي تنتظرن في غرفتي الصغيرة الفقيرة، تدخلها أُمِّي كلَّ أسبوع، تنفض الغبار عن أثاثها القليل، تأخذ الأوراق التي كانت على يمين الطاولة، وتضعها يسار الطاولة، وفي الأسبوع القادم، تأخذها من يسار الطاولة، إلى يمينها، ستنان والأوراق تتأرجحُ بين اليمين واليسار على نفس برود الطاولة.

تأمل أُمِّي صورتي المزوية، تمسحُ شحوبها، تهمسُ فيها: ((الله يردك، الله يحفظك،

الله يوفئك))، ثلاثية الأم والابن الغائب، ثم تتحسس سطحها البارد، وكأن برودتي في فانكوفر تخرق الأميال والأزمان وتدخل في صوري، فتركها أمني قبل أن تتماذى الدمعة في غيها.

تذكرتُ يومَ أفصحت لي ليلةً عن رغبتك في رؤية غرفتي كيف تبدو، حملتُ آلة التصوير، ودرتُ بها في أنحاء الغرفة، السرير والحيطان ودفتر الشعر، وأهديتك الشريط الصغير لتحفظي به، ثم ليصلي منك بعد ذلك شريطاً آخر، صوّرتُ لي فيه غرفتك الواسعة بكل ما فيها، حتى خزائن الملابس لا أنسى أنك فتحتها، وصوّرتُ ما فيها درجاً درجاً.

أنا وأنت، وليس لأحد في الرياض أن يحُدّ من نزواتنا، والأشكال الغريبة التي يتخذها شوقنا أحياناً، كنّا نتبادل أشياءنا هذه في أماكن عامة، نختارها حيث العيون أقل، والرقباء أكثر انشغالاً، ومازلتُ أحتفظ بهذا الشريط، كما يحتفظ البوذي بتمثال بوذا، أخفيه مع تذكاراتك الأخرى في حقيبة الأسرار.

كم من لعنات المدينة ستتهمر عليك لو قدّر لهذه الحقيبة أن يفتحها أحدٌ غيري، وينشر ما بداخلها؟، صورك العديدة، رسائل الحميمة، عطرك المقدس، هداياك الثمينة، أشياءك التي لا تتصورين أي ما زلتُ أحتفظُ بها.

سيكون أول ما يجده فاتح الحقيبة من بعدي، وصيتي أن يحرقها بما فيها، قبل أن تحترق بها أنت.

أعودُ إلى مكنتي بعد الصلاة، منذ ساعات وأنا أحاور هذا الصداق الذي يُلهب رأسي، أمني أنكرت عليّ مجلس الأوراق وهجران مجلسها، حتى الآخرين الذين صرّت أغلق هاتفي أمام إلحاحهم لرؤيتي، وعائشة التي صارت تعدّ لي أكواب الشاي والقهوة بالجُملة، حتى أعفيّتها من ذلك، واتخذتُ لي إبريقاً صغيراً في غرفتي، يدقُّ

على باب عقلي طوال الليل.

عكفتُ على الكتابة ليل نهار، أنام على أوراق، وأصحو على مسودات الأمس، أخلو بنفسي في الغرفة مثل راهب، لأني أريد أن أكتب لك ما أحتاج أن أكتبه، فقد رحلت عني طويلاً وأذايني الحزن، وأنا منعزلٌ عن الكتابة إلا من بقايا شهقات على ورقة تشبه الريح، أتركها كما هي، دون تغيير، أما في كندا، فلم تنقش أصابعي حرفاً عربياً واحداً طيلة سنتين، فتضخّمت ذاكرتي بالأوجاع.

هأنذا أطلقها الآن، على غير موعد.

ويصهل حصان الذاكرة..

الفصل الثاني

لماذا انهرتُ إلى هذا الحد؟

هل هي قوالب جاهزة في حياة العشاق؟، هل هي ثيابٌ مفصّلة تماماً على مقاس رجلٍ فقد حببته؟، هل هي سيناريوهات مكتوبة مسبقاً على عباد الله العاشقين؟

ربما كان جلدًا للذات ذلك الذي مارسته مع نفسي تلك الأيام التي أعقبت رحيلك، ولكنني كنتُ مريضاً جداً، وفي قلبي حُرقةٌ حقيقية، لو أنها تَرَكَتْني هادئاً، ما حملتني على التفكير بمثالية الأمس.

هجرتُ الكتابة منذ فارقتني، قررتُ أن أتناسى فجأةً كوني شاعراً، وتخيّلْتُ أنني ولدتُ بدون هذه الرئة الثالثة في صدري، وانخذتُ من صدمتكِ حجةً أمام احتجاج أصابعي على هذه البطالة، فمنذ أن بدأ شعري يتحوّل إلى هلوساتٍ ليلية، وأنا أخافه.

وحدي أنا، والليل، وهذا اليأس الجامح، وقلمي يتأرجح في يدي، أليس مخيفاً حقاً ما يمكن أن تنتهي به ليلة كهذه؟، كلما سوّدتُ صفحة طارت أمامي مثل خفاشٍ قبيح، وتعلّقتُ بقدميها في سقف الغرفة، كان لا بد لي أن أتنازل عن الكتابة، فلا يمكن لغرفتي أن تظل كهفاً للخفافيش، بررتُ خسارتي هذه بإقناع نفسي أن من يخسر امرأةً مثلكِ، فلن يعنيه أن يخسر شعره ومجده وطموحه أيضاً، وأن فقدك يستحق حداً كهدا، وفهمتُ أن الصداً بدأ يعلو عظام يدي، وأن الكتابة بعد الفاجعة، فاجعةٌ أكبر.

تشبه الكتابة العدسة المكبرة التي تجمع الأحران، وتركّزها في شعاعٍ واحدٍ حارق يسقط على قلبي، وأردتُ آنذاك أن أوفرّ على نفسي الوجد الذي أصنعه لها، فلم أكن بحاجة إلى هذا الزيف الإضافي، وكل ما في روحي يتزف، بكل ضعف، أغلقتُ دفترتي على آخر كلمة كتبتها فيه: ((لم يعد العائد من الكتابة أكبر من الحزن الذي

وراء السنتين اللتين غيّبك فيهما الفقد..

في أيام الحزن الأولى..

يُفتحُ ستار الحياة ويُسدل كيفما اتفق، لا شيء يتغيّر في حياة الرجل.

لا أحد يتفرّج أصلاً.

أعيش كيفما يريدُ اليأس على اختراع الأوهام فقط، كل يوم اخترعُ وهماً جديداً أفنأتُ به حتى المساء، وأعجن كآبتي بيدي، لأجعلها خبز صباحي التالي.

لماذا جاء نصيبي الإلهي من الحزن بهذا الشكل؟

لماذا انخرفتُ عن الاعتياد؟، لماذا تركتُ الطعام؟، لماذا هجرتُ الآخرين؟، لماذا التقطتُ من الأرض حصي حقارتي، وجلستُ أمصُّ ترابه كالجذوبين؟

لماذا تسليّتُ بتجميع الأشكال العاتبة في صدري، تجاهك، تجاه الآخرين، وتجاه الله؟

لماذا لم أكن أسعِفُ نوبات اكتسابي كما ينبغي؟، لماذا لم أكن أُلجأ إلى الصبر بأسرع مما أُلجأ إلى أغنية حزينةٍ أحملُ عليها حطامي الواهن، وأبثُّ في آهاتها تباريح صدري، أو أبحث في ذاكرتي عن أقرب صورةٍ مخزنةٍ فارقتني عليها، لأبكيك من خلالها مرةً أخرى؟

أبذله أثناءها، ولم يعد لدي من أكتب لأحله، بعد أن رحلت معها، سيدة دفاتري))

لأول مرة أشعرُ أن حزني أكبر من أوراقي، كنتُ دائماً أصرُّ على أن الورقة عندما نحسن استغلالها تكون قادرةً على الاحتواء، أياً كان حجم الجرح، وشدة البرد، ولكني عاجزٌ عن مناقشة حزني معها الآن، هي تتكلم لغة الكتابة، وأنا أتكلم لغة المنكوبين، المفجوعين، والمطعونين بقسوة في صميم أحلامهم ومشاعرهم.

((إنَّ منها ضاعت، إنَّ منها حلمُ حياتي الأكبر منذ لفظتني أمي خارجها، إنَّ منها لن تضيع وحدها، لا بدُّ من خسارةٍ ما، لا بدُّ من ثمنٍ لكلِّ شيء))

معكِ أنتِ تعلمتُ كيف أكتب وأنا في حالة حب، لأن الكتابة دون حب ليست إلا حرفة، وكنتُ أمارسها بعشوائية، أمسك القلم وأرسم الخطوط، ومع نهاية كل خط أتخذُ قراري بالانعطاف يمينا أو يساراً، ارتجالية تتسع لنكوّن فوضى منسقة بإطار فكري الشاردة، الآن، اتخذت هذه الفكرة مداراً حول امرأة، بعد أن كانت تائهة في علم الله.

قبلكِ، كنتُ أنظم كلماتي على سطوري بحذر محاولاً أن أخرج بقصيدة، ثم أعطيتها عنواناً، وأذيلها بالتاريخ، وأضعها بجوار أخواتها حتى تجف، كما يفعل الخزاف بأوانيهِ الفخارية.

ومنذ أحببتكِ، بل منذ عرفتكِ، أصبحتُ أكتب على الهواء ولا أحتاج إلى أسطر، أستطيع أن أكتب بلا حدود ما دمتُ سأقرأ عليك ما كتبتُ حالما أنتهي من كتابته، أستطيع أن أطارد الأقمار الشاردة حتى تختفي، أستطيع أن أستخرج الكنوز المدفونة تحت حدي قوس قزح، أستطيع أن أخبر الجميع أنني أحبكِ في أول القصيدة، أو آخرها، أو أترك الأمر لتقديرهم، وأجعل الخبر ضائعاً بين مبتدأ الشعر ومنتهاه.

أستطيع أن أسجل اسمكِ في سجل النساء التاريخيات اللواتي غيرن أقدار الرجال،

ولكن لا تتركيني أفكر فيكِ دون أمل.

اتركي لي دائماً فجوةً صغيرةً أمرُّ من خلالها قلبي، فأنا لا أكتب وأنا يائس.

الكتابة أثناء اليأس تشبه آلام الروماتيزم، عندما يملكني هذا القنوط، أكتب بطريقة مختلفة عن كل أساليبي، ألقى بأصول الكتابة عرض الحائط، لا أكتب كلمات ذات معنى، لا أضع النقاط على الحروف، لا أصل الخطوط حتى تكتمل، ولا أحترم بدايات الأوراق ولا نهاياتها، أكتب طويلاً أو عرضاً، لا يهم.

والكلمة القبيحة أضغطها بقوة على الأوراق حتى تتألم، وأسمع أنينها بسادية يائس، أحفرها حفراً حتى يصبح لها شكل آخر، أو أشردّها بين سطرين متعاقبين حتى يتمزّق فيها المعنى، هكذا أركض على أوراقي بجنون، وألعن كل شيء، وأبكي عليه.

لا تجعليني أيأس، لأن اليأس دائماً شعورٌ فوضويٌّ هدّام، كم مرة أنقذت قصائدي من فم النار، وكم مرة جمعت أجزاءها من سلة المهملات، وكم مرة أعدتُ كتابتها في ورقةٍ أخرى بعد أن شوهتها بخريشات كثيفة تشبه الظلام، الكتابة اليائسة تشبه زنا التقى إذا استيقظ قلبه، وأنا أكره أن أفعل ذلك، ولكنه القلم، عصاي التي أتوكأ عليها، وأهشُّ بها على ألمي.

أفقتُ من النوم وأنا كتيب.

ذلك الصباح تحديداً، قررتُ أن أرحل.

كان صباحاً لم أدرك معناه، تقلّبتُ فيه على سريرٍ اشتعل أرقاً، ثم راح يأكلُ نفسه في تعب، قُمْتُ إلى نافذةٍ حمقاء تُوعِدُ الصباح في شروقٍ آخر، وقد حمل شعاعُ الشمسِ رائحةَ احتراقِ الغلاف الجوي، وصداعُ السماء الأولى، والغثيان اليومي لهذه

الأرض الحبلى.

ليلة أمس تزوّجت أروى، البنت الأخيرة في بيتنا، قبلَئُها بشحوبٍ وهي تطوي ذيل فستانها وتستعدُّ للركوب في سيارة زوجها، كانت عيناها تفضحان سعادتها المحتقنة في وجهها بقوة، وعلى جبينها رضا الدنيا بأسرها.

أعلمُ وحدي دون عائلتي التي تشارك في وداعها أن زواجها هذا لم يكن إلا نجاحاً أخيراً في قصة حبٍ جميلةٍ ظلَّت تطويهما معاً لأكثر من سنة، وأنا أشمُّ رائحة الأشواق في بيتنا وأتجاهلها، وتتفتّح شهيتي للحب معكِ، تكبرني أروى بسنة، ماذا عساني أن ألوم عليها؟

لا أحب أن أترك آثارني على قلبها كما تركتها من قبل على جسدها، يكفيها مني تلك الندبة في ظهرها منذ طفولتنا عندما سحبت قميصها ونحن نلعب ليغرز مشبكه في جلدها، وينسحبُ دامياً عشرة سنتيمترات، ويبقى أثره حتى الآن، وأنا لا أدري إن كان زوجها سيغفر لي هذا التشويه عندما يكتشفه غداً في جسد زوجته.

أروى، توأمي الأثنوي الأول، ضحكاتُ طفولتنا متشابهة، نومنا الدافئ في فراشٍ واحد قبل أن نفرّقنا أُمي ما زال صاحباً في الذاكرة، لم تُجدِ معنا أصوليتها وتمسّكها بالتربية الشرعية، ((فرقوا بينهم في المضاجع))، عادت أروى إلى النوم معي وهي كبيرة إذا كانت مريضة، وأنام معها إذا كنتُ أنا مريضاً، وبيننا تواطؤٌ في شغب الطفولة لم تفسده حدود الذكورة والأنوثة.

سرُّ عشقها الجميل لم يتطلبي كثيراً لأحدس بداياته، كان هذا واضحاً لأخ مثلي لا يعوزه أن يطرق باب غرفتها إذا أراد منها شيئاً، بل يلج بلا حجل، فلم تكن أروى تستر مني إلا القليل، وفي مراحل متأخرة من الطفولة أيضاً، بدأ بيننا ابتسامة غامضٌ ثم تحول بعد ذلك إلى بوحٍ جريٍّ، أخبرتني قصتها معه، وعينايَ تتسعان مع عذوبة

الحكاية التي تخرجُ من فمها التويّ الصغير، لم تكن أروى فتاةً عاديةً حتى يشتعل في قلبها حبٌ مزيفٌ، وكان حدسي في محله، وكان حدسي هذا أيضاً هو ما جعل خط الهاتف يخرجُ من نافذتي ليدخل في نافذتها، بعيداً عن عيني أُمي، وتحت ستار حصانتي الذكورية في المنزل.

لم أكن أتخيّل، قبل أن أعرف قصة أروى، أن يحتل بيتنا عاشقين تحت سقفه، كان خالد قد تزوّج قبل أشهر، ولم يبق سوانا، حيناً كان في أوجه، وكان جبهما في أوجه أيضاً، ولكن ثمة فرق في درجات الأمل، ومستويات التضحية.

لم تعلم أروى عن قصتنا شيئاً رغم حي لها، ولكنها كانت تشعر به حتماً، بل كانت تتكلم عنكِ بصفة الغائب أحياناً محاولةً أن تحترم كتمان ما استطاعت، هي التي تعرف عاداتي أكثر مني، مرّت أيامٌ على هذا الازدواج العاطفي في بيتنا، أنا وأنتِ، وأروى ومحسن، وأخيراً، هاهي تركب في سيارته، بينما ركبتِ أنتِ سيارة سالم للأسف.

كأن الذي منح هذا البيت تذكيري عشق، لم بمنحه إلا رخصة سعادةٍ واحدة فقط. للأسف يا مها، كنتِ جميلةً في كلِّ شيء، ولكن أجديتكِ كانت ناقصة خمسة أحرف، كان ينقصها (تضحية)، ولم تكن الأحرف الثلاثة والعشرين الباقية لتبقيكِ معي رغم كل ما كان بيننا.

ربما ضحيت، ولكن في الاتجاه الخاطئ، ربما بعث واشترت في سوق الحياة، ولكن بخسران مبین، تأملي بضاعتكِ التي بين يديكِ الآن، سالم، وتأملي طائر الحب الذي فرَّ بعيداً، قاري بينهما، وسجلي في دفتر حساباتكِ، صفقة فاشلة.

طفرت من جفني دمعَةٌ وسيارتهما تبتعد، لحنِي أخي عمر وأنا أحاول جرفها على جفاف الوجه الباقي حتى لا تبدو، ربت على كتفي ومضى، وبقيت واقفاً عند عتبة

المزل، وفي رأسي شبه دوخة.

أويتُ إلى فراشي مصحوباً بحبتي أسيرين، تقلّبتُ فيه حتى الفجر، قمتُ في وهن، دخت سيجارة وشربت شايًا، انتابني لوهلةٌ وسنٌ طفيف، استيقظتُ منه على صباح الكآبة الأنف الذكر.

صباح الحزن أيتها الرياض الخاوية، الرياض التي لا تعد بشيء، ولا تفي بشيء، أروى الآن في بلدٍ آخر، وأنتِ في بلدٍ آخر، والجميع مشغولٌ عني هنا، حتى أمي لديها ما يشغلها، إنها تقيسُ انتفاخ بطن زوجة عمر، تُقطرُ الدواء في عين جدتي الرمداء، تسمعُ النشرة الزوجية لسارة وندي، تُعدُّ الأيام الباقية ليعود خالد من انتدابه الأخير، حتى يوسف كان يأخذ من وقتها نصيباً رغم أن الموت غيَّبه عن عينيها منذ سنواتٍ ثلاث.

رحمك الله يا يوسف، كم أحتاجك هذه الأيام.

كان موته أغنيتنا العتيقة..

خمسُ سنواتٍ وهو بيني شهادته الأولى، وأدركه الأجل قبل اللبنة الأخيرة.

من قال إن الموت يعترفُ بالشهادات، ويفكر في الطموحات، ويحترم الأحلام، ويؤمن بالآمال التي تستهلك العمر؟

هذا هو العزاء الثاني في بيتنا بعد أبي.

كان حادثاً دموياً، شهد على دمويته باب الجامعة الذي كان المكان، وصباح السبت الذي كان الزمان.

أظلتُ على قلبي غمامةً سوداء ثقيلة، ولكنها بلا مطر، تركنا المقبرة ملتائين بالفجيعة الصباحية، ازدحم الناس في بيتنا ظهراً، تسللتُ إلى غرفتي متجنباً أيَّ طريق

يضعني في مواجهة أمي.

ستحرقني رؤية وجهها الباكي ثلاثة أشهرٍ على الأقل.

أغلقتُ باب غرفتي، وانهرتُ على السرير، ورفعتُ بصري لأتأمل الصورة التي تجمعنا معاً قبل عشرة أعوام، وهو يستذكر لي دروسي.

حاولتُ أن أبكي، ولكنني اصطدمتُ بأعنف عنادٍ عرفه جفني.

حاولتُ أن أكتب له، أن أفي له كتابةً، هو الذي علمني كيف أضع حرفاً جنب آخر، لأصنع كلمة، ثم حزناً جنب حزن، لأصنع قصيدة.

أخذتُ قلماً من مكثتي، شرّعتُ الدفتر، وتشكلت أبياتٌ فقيرة تتوسّل دموعي على قارعة ورقة.

واصطدمتُ بنصيحته لي عندما نشرتُ أول قصيدة: ((لا تفاجأ عندما تكتشف ذات يوم أن أوسع قصيدة في دفترك، أضيق من أضيق حزن في صدرك))

بالفعل، من المححف أن أرثي يوسف بقصيدة، وهو الذي علمني كيف أكتبها، ماذا قدّمتُ له إذن؟

أغلقتُ الدفتر على الصمت المخجل، كوّرتُ نفسي تحت الفراش، وبدأتُ أشعرُ بالملل من هذا الاستدرار اليائس للبكاء.

فقد بيتنا إنساناً آخر.

بقي عمر، الأخ الذي لبس عمامة الأب مبكراً، ندى وسارة، ثم مكان يوسف الخالي، ثم خالد، فأروى، فأنا.

سبقي يوسف إلى الكتابة، ثم لما أبصر في أعراضها المرّضية أيضاً، تبّنى كلُّ مطلع

قصيدة خجول حتى أوقفني على قلبي.

أيقظني من نومي ذات ليل، كان وجهه يضيء، وعيناه تومضان، أخذ بيدي، وتسللنا معاً خلف الحياة، حتى أوصلي إلى كهفها العميق، جلستُ معه على الأرض، وضع يده على هامتي، لقنني عشرين طلسمًا، وبعث أمامي دخانًا كثيفًا، وتتم بالحروف المقدسة، ثم قلدي قيمة الشعر، وأوصى بي نجوم السماء، وأعشاب الأرض.

خمس سنوات بيننا، إنما مسافةٌ حائرة، أمارس معه احترامه ويمارسُ معي شقاوتي، لا أدخل فيه مثل أروى، ولا أتخفظ معه مثل خالد، ولكني ألتصق به كثيرًا، صديقٌ في حبة أستاذ، لم أكن أفارقه إلا لمامًا، يصحبي أينما ذهب، حتى قالت سارة ذات مزحة أني أكاد أتعل حذائه معه.

كلهم بكى عليه بدموع صادقة، فلماذا أنا لا أستطيع أن أبكيه معهم؟، لماذا هذا الإحجام الفظيع في حزني عليه؟، لماذا تخونني حاسة البكاء عندما أحتاج أن أرى بها مصري؟، لماذا كان كلُّ ما يمكن أن أوارى به جثمان يوسف، ترابٌ وقصيدة فقط؟

وقفتُ بالعزاء لعل البكاء يشتهي، صافحتُ مائتي رجل وليس إلا الغمامة السوداء الثقيلة نفسها، مضى الناس، وأجن الليل، نام مع أمي نساءٌ كثيرات، نظرتُ إليها من شباك غرفتها وهي تصلي في خشوع رهيب، شعرتُ بالطمأنينة، دخل عمر عند زوجته، ونام خالد مع زوج ندى على الأريكة في مجلس الرجال، واختفت سارة وندى في زحام اللون الشاحب الذي أُنشحت به كلُّ النساء.

عرجتُ إلى غرفة يوسف.

كان ضوءها مُشعلًا، يتسرَّب من عقب الباب، ويتسرَّب معه أيضاً صوتُ بكاءٍ خفيف.

لم أندھش عندما وجدتُ أروى منكفئةً على ملابسها التي كان قد خلعها عنه ذلك الصباح، ولبس أخرى جديدة، وكأنه يستقبل الموت بأناقة، كما عاش طيلة حياته أنيقًا، آخر قطرات عرقه كانت أروى تدفن وجهها فيها بقوة، وتشمُّ رائحة جسده بحرقة أحت تعرف أن هذه الرائحة لن توجد في الحياة مرةً أخرى.

أوقفتها على قدميها، واحتضنتها بقوة، لوَّ الكحل الطفيف في عينيها بياض ثوبي عند الكتف بعد أن أذابته دموعها، غزيرةً دائماً دموع أروى منذ الطفولة، لها مساربٌ دمعية ثرة، تملأ كفها دموعاً لو أرادت.

رحتُ أرتب معها فوضى الغرفة، أخرجنا الملابس من دواليها، وحشرناها في حقائق قليلة استعداداً لإخراجها، جمعنا كلَّ حاجياته، وأغراضه، ومتعلقاته الشخصية، واقسمناهما، أنا، وأروى، والفقراء الذين ستصدق عليهم بملابسه، كان نصيب أروى كل صورته، ونصبي أنا كل دفاتره، والبقية لهم.

كنّا نسعى لإخواء الغرفة قبل أن تدخلها أمي، هي التي تعيد شحن نفسها بكاءً بعد سنواتٍ من رحيل أبي كلما رأت شيئاً من أشيائه، ربما مارست العادة نفسها مع أشياء يوسف، يكفي أمي بطارية بكاءٍ واحدة، ستحترق إذا اشتعلت فيها أخرى.

ساعدنا يوسف كثيراً، لم يخلِّف وراءه إلا حقيبي ملابس، وحقيبي كتب، ورزمة دفاتر، ثلاثة ألبوماتٍ صور، وأشياء أخرى بسيطة.

قبيل الفجر، كانت غرفته خاوية، وعَدَّ خالد أن يحضر من يترع عنها أثائها في الصباح، ولكن من يترعه هو عن ذاكرة بيتٍ بأكمله؟

إننا لا نتجنب الحزن، إننا نتجنب المرور فوقه فحسب، نقبل أنفسنا من عثرات الأقدام بتسوية الطريق، من يقلنا من عثرات القلوب؟

شيعتُ أروى إلى غرفتها، تركتها وفي ثغرها شبح ابتسامة قانطة، ومضيتُ إلى غرفتي.

تَقَلَّبْتُ ولم تأخذني سِنَّةٌ، وما زال حدي جافاً مثل صحراءٍ إفريقية.

لم أكن قد عرفتكَ آنذاك، ولم يكن ليدور بظني أن امرأةً في هذه المدينة، اسمها مها، لن أواجه معها مشكلة انحباس البكاء هذه أبداً.

امرأةٌ ستضعني عند خط الاستواء، حيث لا يتوقف المطر.

خلا بي البيتُ تماماً بعد رحيل أروى، كلُّ الأشياءِ صارت تأخذُ طابعاً استهتارياً، وأنا أشعرُ وكأني مريضٌ نفسي، يتنصّلُ من كلِّ المسؤوليات، ويتقلّبُ على يومِهِ وغَدِهِ مثل الحيتانِ التي تنتحرُ على الشاطئ.

لأن رحيلها يذكّرني برحيلك، ولأني رجلٌ يكره المترادفاتِ الموحدة، ويكره أن يُلدغ من حزنٍ مرتين.

تعوّدتُ قبل أن أنام، أن أتحدّث قليلاً مع أروى، أن ألهو معها بأي ألهية، أن أركض إلى غرفتي وهي تلحق بي، أن أضممها برفق، وأتركها تبكي وهي تستعد لفراقنا، أن أسمع معها آخر أغنية، وأرّبي معها آخر لوحةٍ تبدعها أناملها.

ليس من السهل تغيير هذا، آلاف الأيام مرت من حياتي، كان آخر ما ينغلق عليه جفني قبل أن أنام وجه أروى.

هاهي الليلة الثانية بدونها، صعبةُ الحل، مثل سابقتها.

تتناوبني فكرةٌ محبطة، ماذا لو أحصل على حبةٍ من تلك التي يصفها الأطباء النفسيون لمرضاهم، أليست الكآبة مرضاً نفسياً؟، لا ريب أن دواءها يمنعها إذن، فلم لا أجرب، فكأبتي قاسية هذا الصباح، حتى أي أتنازل أمامها عن عقلي

وصداعه، من أجل قلبي وهمومه.

فنجانُ الشاي يجيئُ طعمه عني، وفي المرث يسجن، حتى الآن، سيجارةُ الفجر الحزينة، تلك التي دحنتها على الدرج الصغير، عند باب منزلنا الواجم أمام وجومي، وورقةُ الثاني من أغسطس تتأرجح على التقويم، ونسماتُ الفجر الأولى تحمل إلى البيوت المجاورة في حيننا، رائحةُ رجلٍ لا يستطيع أن ينام.

هل هؤلاء النائمون سعداء إذ ناموا؟، أنا أو من أن بعض الهموم يولّد أرقها معها، وبعضها يولد بأسها معها، ربما هذا الهمُّ اليائسُ يجعلهم ينامون.

لماذا يتهلّم في داخلي مفهومُ السعادة هذا الفجر؟، لماذا يتشّخّ ويتداخل مع بعضه كخيوطٍ سرايةٍ كثيفة في نسيج الغبار الذي يلفُ الرياض هذه الأيام؟

هل أُمي التي يتناهى إليّ صوتُ قرآنها الفجريّ سعيدةٌ هذا اليوم؟، أم أن حزنها الأرمِلُ القديم أصبح عجوزاً مثلها، وراح يأخذُ شكلاً معقداً لا نفهمه نحن الذين ما زلنا في أبجديةِ الحزنِ الأولى؟

هل جدتي، التي يكفيها من الليل ساعتان فقط تنام فيهما، تستطيع أن تقضي الاثنين وعشرين ساعةً الباقية دون أن يداهما الحزن؟، إن في ذاكرتها ثمانين جداراً، فما أكثر الشقوق التي يمكن أن تتسرّب منها السعادة، وتختفي.

هل إخواني الذين يتوسّد كلٌّ منهم زوجته في هذا الوقت من الليل قرّرون بهذا الكهف الأثوي الذي يحتمون به كلُّ ليلة؟، وهل أخواتي البنات سعيداتُ بأزواجهنَّ، بخلاف أروى التي بالتأكيد تتلوّن سعادةً الآن، أم أن هموماً لا نراها يخفيها عن أعيننا؟

كم أودُّ لو أنام في غرفة أُمي الآن.

كم أتمنى لو أعرفُ لذاكرتها حداً لا يبقى بعده شيء، أبكي عنده على رجليها حتى تنطفئ عيناها أو يبرد صدري، أيهما يحدث أولاً.

ولكن أُمي لن تتركني أبكي طويلاً عند هذا الحد.

هي تخشى عليّ من كتمانٍ يقرضني، وأنا أخشى عليها من بوحٍ يؤلمها، ستستجوب دموعي حتماً، وهذا ما يمنعني من اللجوء إليها.

ماذا لو علمت بأمر حي؟، ماذا لو علمت بأمر مرضي وصحتي التي تتدهور؟، ماذا لو قرأت ما يدور في صداعي من قلقٍ، وبأسٍ، وطموحٍ خائب؟

ياليتني أعقد معها اتفاقاً خفياً أسكب بموجبه العبرات، وأحتفظ بالأسرار، آخذ منها دفأها، وأمنحها بدلاً منه دموعي فقط.

ولكنها أُمي، لن تتغير.

أبداً ستظنُّ أنها قادرةٌ على حلِّ جميع المشكلات، ولن تحتمل فكرة أن مشكلات أبنائها الذين أنجبتهم أصبحت أكبر منها، ستظلُّ حتى آخر نبضةٍ من قلبها تدافع عن أمومتها لأحزانهم، كما تدافع عن أمومتها لهم.

ربما كان ذلك شعوراً منها بالمسؤولية لما يتعرضون له، أليست هي التي أخرجتهم من رحمها إلى حزنٍ ما يتلقفهم في هذه الدنيا؟

وأنا أيضاً، لن أنغير.

سأظلُّ أبداً أتأبط فكرة الصُمودِ الواهي، الشجرة التي تصفرُّ فيها الريح، وتظلُّ واقفة، ولا تشكو إلى أحد.

أمارسُ هذا التهريج، ولا أنتبه إلى أنني قد أموت وحيداً ولا يعلمون.

حتى أنتِ قد لا تعلمين، رغم رسالتكِ المسجَّلة الثانية التي تركتها لي في هاتفي قبل ساعة، خاويةً من أيِّ كلمة حبٍّ أرَّمُ بها قلبي، ما عدا اعتذارٍ ملفقٍ عن حشر تعبير عيوني في الرسالة السابقة، حتى يضيع التذكير والتأنيث في العبارة، فلا ينتبه سالم أنك تسجلين رسالةً لرجل، ثم اختلطت الحروف ببعضها، فلم أسمع شيئاً.

كأنكِ تتحاشين الكلام، شهرٌ وزيادة ولم تجدي دقيقةً واحدةً تهاتفين فيها قلقي واحتراقي ولهفتي، يبدو أن سالماً هذا لا يدخل الحمام أبداً، يبدو أنه لا يتركك في مكان وحدك ولو ليشترى أنفه شيء، يبدو أنك لم تتزوجي رجلاً، بل علقَةً طبيةً من تلك التي تلتصق بالجلد.

إذا كان ما أمضاه معكِ حتى الآن يتجاوز الأربعين يوماً، فهذا يعني أنه أخذ منك مليوناً وأربعمائة وخمسين ألف ثانية، بكلِّ ما فيها من الحب، والحنان، والدفء، والجنس، وأخذتُ أنا عشر ثوانٍ فقط، هي طول مكالمة مسجَّلة، ولم تخلُ من آثاره عليك أيضاً.

كيف ستعوضيني عن كلِّ هذا؟، عن ألف جزءٍ احترق في قلبي قهراً ولم يعد صالحاً للحياة، عن الكلبيتين المريضتين إلى الأبد، والذاكرة السوداء التي لن تنمحي، وآلاف آلاف الدموع التي ضاعت، وخط حياتي الذي انخرق، وسقف طموحي الذي انهار، وسعادتي التي فقدتها تماماً بعدكِ؟

رميتُ الآلة الحاسبة بعيداً عني، وذرفتُ دموعاً عابرة، واستحضرتُ مرةً أخرى فكرة أن أموت، ولا يشعر أحدٌ بما يدور في صدري.

حتى جبين أُمي، وسجادتها المسافرة في أوراق الله..

حتى قصائدي التي يَسِسْتُ على مكنتي ولم تكتمل..

حتى سيجارتي التي تحترق في انتظار الموت..

حتى نسلماتِ الفجر التي تفضح أرقى بين بيوت الحي..
حتى هذا الباب الواجم..

شوارعُ الرياض الخاوية صباح يوم الجمعة ستأخذني إلى وهمٍ ما أفطر عليه، أو
منديلٍ قد سمحُ به دموعي الثقيلة.

لا أحتاج إلا إلى سيارتي، وسجائري، وموسيقى ياني القديمة الهادئة التي عرفتنا معاً،
وذاكرةً من وحلٍ وغبار.

ياني يستثمر في أحزان صدري، بساطٌ يونانيٌ منبسطٌ فوق هذه الهضبة النجدية
الباردة، سمعت موسيقاه أول مرة في غرفتك، ثم رحلت، وظل هو معي.

يؤلمني أن كل الأشياء ظلت وفيّة، إلا أنت.

تعلمت لغة روحه بسرعة، بفطرة الحس، تماماً كما تعلم هو موسيقاه الأولى في
السادسة دون أن يحضر درساً واحداً، لأنه إغريقيٌ موغلٌ في عصاميته، كان ينقر في
جدران الروح، وأنا أمتصُّ فوضى سجائري، يختلط الدخانان في صدري، ويدور
محرك الذكرى بقوة البخار.

أتذكر سلوكك الغريب في استماع موسيقاه، ما أن يبدأ عزفُ ياني حتى تبدئين في
تقبيلي حتى وأنا أتكلم، تختلسين القبلات بين كلمةٍ وأخرى وكأنني طفل، وأشعرُ
بالضيق لأنك لا تصغين إليّ، ثم أنتبه إلى أن العائد أكبر من المضحي به.

سأصمتُ إلى الأبد ما دامت هذه الفتاة الجميلة تشتهي تقبيلي مع عزف ياني، إن
لنا أساليب كثيرة للتفاعل مع الموسيقى، غير الرقص.

الآن، ما أن يبدأ ياني في مقطوعته حتى أبدأ في الإدماغ مثل أشجار الصمغ، وحتى
ينتهي.

أحرقني يا ياني، أريد أن أترمد، أريد أن تنثري الريح وأتلاشي، اغزلي وتراً مشدوداً
في ظهر البيانو الكبير الذي تعزف عليه، جردني من المسؤوليات تجاه نفسي قبل أن
أستسلم لهذا الكلية المريضة، في جسدي.

سأرحلُ في هذا الفجر النجدي العتيق إلى آخر مدى يدفن فيه المتعبُ تعبهُ، سأتحوّل
بين حدّ الصحراء والعرمان، كما يفعل ثلاثة أرباع العشاق في هذه المدينة، وحدهم.
مادمتُ قد عدتُ إلى ممارسة الوحدة مثلهم، بعد أن قضيتُ شهوراً طويلة كانوا
يتسكعون فيها على أرصفة الليل، بينما أسمى أنا إلى غرفة حبيبي.

يا الله..

لماذا اكتشف نيوتن أن لكل فعلٍ ردة فعل؟

فجرٌ كهذا الفجر، كان يحملني إلى غرفتك، ويطوّق بيدك عنقي، ويأخذُ كلَّ
همومي، ومشاكلي، وسُهدي، ويرميها من الشباك، ويقيك لي، ويقيني لك، دون
غيرك من نساء الأرض ونجوم السماء.

ستبقى همومي في الفناء، أسفل هذا الشباك، حتى أنزل وأحملها معي.

ها أنا الآن في ردة الفعل، بعد أن مارستُ فعل الحب أشهراً طويلة، وهي كما قال
فعلاً، مساوية له في المقدار، معاكسة له في الاتجاه.

بقدر ما استمتعتُ بك، هاأنذا أتعدّبُ بك الآن.

وبقدر ما كان فعلُ حنانك جارفاً، بقدر ما جاء فعلُ جحودك مؤلماً.

أتساءلُ، وأنا أهيّم على وجوه الوحشة، إن كان من حقّي على هذه الحياة كإنسان، أن أجد فيها ما يؤويني؟

حتى الحشرات التي تدبُّ فوق الأرض ستؤويها جحورها الصغيرة وإنائها.

حتى هذا الشارع الصامت، لن يموت وحيداً، فقبل أن ينتهي سيدركه شارعٌ آخر حتماً.

حتى الموتى لهم قبور.

ربما لم يعد هناك ما يمكن أن يؤوي رجلاً مثلي، يرفضُ كُلَّ الأشياء، وكُلَّ الأوضاع، وكُلَّ النساء، ويتمادى في التذمُّر والمقارنة هو يبحث عن مأوىٍ لجبينه، ولحبّاتِ العرق التي ينضح بها.

حاولت أن أصلَ هذه الطريق المسدودة بأمي، وآوي إليها، نمتُ على رجلها قبل أيامٍ خلّت، وتركتُ رائحة حنائها تمسّطُ غربة رثي، ووددتُ لو أنام فحسب، كانت حصلاتُ شعري تلثم أصابعها بقوة، وكانت أنفاسُها تنبّه ذاكرتي، إلى أي منذ سنوات لم أتم على فخذها، وهي أخبرتني، وكأنها قرأت جبیني، وعلمت ما يدور فيه من الأفكار، أنني منذ طفولتي، لم أكن أنام على أي عضوٍ من جسدٍ آخر.

كنتُ دائماً، كما تقول، أنكفي عند النوم، وأتوقع على نفسي، وأتوسّد ذراعي النخيلة، وكأني أبحثُ عن دفء وسادة لها نفس خلایا جسدي، لأني أخاف الغربة، وأكره التغيير، وأرفضه بشدة في أكثر لحظاتِ الطفولة احتياجاً للأمان، النوم.

الآن، صارت أشدُّ لحظاتِ الغربة عند النوم، وصرتُ أحتاج كثيراً إلى هذا الجسد الآخر، لأنام عليه.

ولكنه النوم..

ميثاقٌ قديمٌ لوفاءِ الذاكرة.

وجوهُ الناس، وأصداءُ الأشياء، والأحلامُ المرتعشة، كلها تتجمّع على الوسادةِ المرهقة، لتشوّه وجهها الناعم، وتبعثَ بين خيوطها برودةَ اليأس.

لذلك نُشعلُ الوهم في أفكارنا قبل أن ننام، لنشعر بالدفء.

لنشعر أنّ في آخر هذا الظلامِ السرمديّ الذي ننامُ فيه، ثمة أملٍ قد يجيئ به الصباح القادم.

صباحُ نافذتي الكسلى التي كانت تواعدُ الشروق، قبل أن يهجرها، ويذرّها حبلی.

راحت تضيقُ شيئاً فشيئاً، أمام حُلُمٍ شاردٍ، لا تملكُ أن تُجهّضه، ولا تملك أن تلده.

بعد أسبوعين، تنغلق هذه النافذة تماماً، ويلتحمُ الجدار على مكانها كأن لم تكن، وتحملني طائرةٌ هاربة مع حقيبي، إلى سطحٍ آخرٍ للكوكب.

تركتُ خلفي أوراقی اليابسة على المكتب الذي يغصُّ بجراثيمك، وتركتُ أقلامی تجوع وتعري، وودّعتُ حناء أُمي بقبلةٍ طويلة، وحملتُ شهادتي إلى أرضٍ أخرى، لعلی أخترع فيها حلماً بنفسی، وأحلم به، ثم أسعى لتحقيقه، لأن الأحلام التي تجيء وحدها تشنقني، ولا تتحقق.

قديمٌ أنت في دفتر اليأس يا ديار، يا صديقي البعيد، أتذكرُ رسائلک:

((عندما لا يمكن للحياة أن تستمر، لا بد أننا نحتاج إلى وقفةٍ طويلةٍ للحزن، الحياة تكره أن تتجاهل ضرباتها لنا، وترفض أن نستمر فيها دون أن نقف عديداً، لنعلن انهزامنا أمام سلاحها القَدري.

إننا نقدّم لها شيئاً من الحزن كلما احتجنا مزيداً من العمر، وعندما تنتهي أحزاننا، أو تتجمّد في أضلاعنا، نموت، بين الموت والحزن تواطؤٌ وتناقض، الموت الذي نظنه

بداية حزننا هو نفسه نهاية حزنه، لذلك لسنا في حاجة لأن نخشى الموت، ولكننا نخشى أن تستمر بنا الحياة ونحن حزان))

لبثتُ بعدك أعمى عدّة أشهر، مارسْتُ فيها حماقات كثيرة، وأدواراً عدة، كلها تنتهي بالفشل، وتضاعف من رصيد آلامي، وتختزل كثيراً من ثقتي بنفسي، شعرتُ أن الرياض التي تعبت معي لن تمنحني أكثر من زحام الناس الذين لا يشعرون بي، وآلام الكلى التي تستفحل في خاصرتي، وأنين الذاكرة التي تستنطق حينا في هذا المكان وذاك، والمزيد من التعجب الذي تشي به عينا أُمي، وأهلي، إزاء الانطواء المريب الذي آل إليه أمري.

عدة زياراتٍ تلد القرار، أولاهما للسفارة الكندية، والثانية إلى رصيف بيتك الذي صار يضاجع نصف الليل بقرفٍ بعد رحيلك.

شباكُ غرفتك مظلمٌ جداً كأنما من وراءه العدم، تتراءى لي خلف ستارها الثقيلة أشباح الأيام الطويلة التي قضيناها فيها، ضحكاتنا، همساتنا، ارتعاشنا، وحكاياتنا الرائقة التي ننام قبلها، ونتوسّد بعضها خلالها ولا نشعر بحدود الجسدين.

صمتُ الجدران تعيسٌ جداً، والشارع موحشٌ حتى البكاء، وأنا أتهادى بين عمودي إنارة، مثل قطٍّ مُشرّد.

أتذكرين عندما اعتنقنا بعضنا تحت الغطاء، في الظلام الدامس، ورحتُ أحكي لك ما قرأته في رواية نجيب محفوظ (عبث الأقدار)، وأنت تقاطعيني فيها، وتستيقين الأحداث، وتتوقعين النهايات، حتى نمت أخيراً على عنقي، وخصلاتُ شعرك تداعبُ فمي، وأنفاسك تتسلل إلى أذني، ولم أنه الرواية، نمت قبل أن أخبرك كيف تروّج ددف بن رع من الأميرة مري سبي عنخ، وجلسا ملكين على عرش خوفو العظيم.

قرأتُ مرةً بحثاً علمياً يقول بأن الأصوات التي تخرجُ منا لا تنعدم، إنها تأخذ في الخفوت تدريجياً فحسب، حتى لا تعود تدركها أسماعنا، بينما تستمر مسافرةً في الأثير إلى الأبد، وأهمّ ربما اخترعوا جهازاً يعيد تضخيم هذه الأصوات النათية من حولنا.

ماذا لو وضعوا جهازاً مثله في غرفتك؟، أيّ الكلمات سترجم نفسها أولاً؟، وهل ستكون كلمةً يا ترى، أو رجع آهةً، أو نغمة أغنية، أو صوت ضحكة، أو ربما ضجة ارتطامك بالسرير، يوم أفلتت يداي فجأة بعد أن تخاذلتا عن حملك؟ ربما سمعوا حديثك مع سعد، أو سالم؟، ربما كان صوتي هو أكثر الأصوات خفوتاً.

في معمعة الرحيل، كان طيفُ المرأة التي أحرقتُ أوراقها برعوني يهرشُ عقلي بعنف.

امرأةٌ لم تكن أنتِ، ولكن سوء حظها جعلني أفكر بها بديلةً عنك.

هي تقبّع في بيتٍ آخر، على رصيفٍ آخر، وأنتِ تقبعين خارج نطاق الليل والنهار في بلدي، إحداكما قتلتنِي وَجَداً، والأخرى قتلتنِي ذنباً.

كدتُ أن أضمدُ جرحك بها، ثم توجّستُ فجأة من ضمادٍ يسمّم الجرح ولا يشفيه، فتراجعتُ في أناية، وأنا أجُرّ ورائي أحلامها، وآمالها، وأمرفها على قارعة الطريق، وأذرّها ورائي حزينّة، مهمومة، لا تفهم كيف صارت بين ليلة وضحاها مُطلّقة، وهي لم تمسّ بعد.

بعد العقْد عليها بأسابيع، طلّقْتُها، قبل موعد الزواج بأسابيعٍ أخرى، تماماً، في

منتصف الحلم هذا، كانت طعني لها محكمة جداً، وفي صميم كبريائها الذي تناثرت دماه على وجه ذنوبي، ولم أفهم لماذا فعلتُ هذا، ولكنني شعرتُ أن قلباً تملئنيه أنتِ إلى هذا الحد، لن تجد فيه امرأةً أخرى مساحةً كافيةً لسعادتها.

كم تُراها تكرهني الآن؟، ربما كان قدري وقدرُها أن أكون أنا أسوأ رجلٍ في حياتها، كما هو زوجك سالم أسوأ رجلٍ في حياتي، هاأنذا هاربٌ من ذنبها الحارق الأليم، بينما ما يزال هو يقطفُ من شفتيكِ كلَّ يومٍ تفاحةً، أو عنقود عنب، كما يشاء.

طلقتها قبل أن أدنّسها بحزني، ليس في قلبي شيءٌ يُمنح إلا وقد منحته لكِ أصلاً، كان الذنب يصهرني صهراً، وكنتُ أتخيل حجم الألم الذي أرسلتني به الأقدار إليها، ولكنني لم أكن أملك شيئاً، ارتبكت، وأفقت يوماً فوجدتني عاقداً على امرأةٍ لا أدري من هي، ولا على أي غيمةٍ تنام، ولا من أي قمرٍ تقات.

مشاعرُ كهذه، هي التي خبأتها في حقيبة ملابس، وتواريتُ معها خلف تذكرة سفر، وتركتُ مدينتي إلى ضمادٍ آخر، لا أدري ماذا في قطنه ولفائفه.

لو أستطيعُ أن أستنشق رائحة السعادة التي كدتُ أنساها، ربما تتغيرُ الأشياء، ربما يتحوّل حلمي بكِ إلى وهمٍ لا ييكيني، وربما يبلغني أن مطلقي لم تحترق تماماً، وأنها تزوّجت بعدي رجلاً ما، وأن فصلاً مختلفاً قد يحلُّ، وأن رجلاً قديماً مثلي، قد يتحوّل، ويتجدّد، وينمو، ويعيش.

هذا ما حملته معي في حقبيتي، بالإضافة إلى بعض الملابس.

أما ما حملته في قلبي، فأنتِ.

حملتُ عينيكِ الضاحكتين..

شفتكِ العليا البارزة..

ونهديكِ المستديرين كقرصين شمسين..

ورائحة العطر على جانبي عنقك..

وقصيدي القديمة التي كتبتها لكِ، انتشلتها وحدها من بين رفيقاتها، وحملتها معي،

لعلي أتكى عليها، أو تتكى عليّ..

وحملتُ ألبوم صور، ودفتر خواطر، أيضاً..

ورحلتُ إلى فانكوفر..

إلى شتاتٍ دافئٍ يساعد على الحزن بتركيزٍ أكثر.

* * *

كانت أُمي لا تدري لماذا أرحل، أنا الذي تركتُ ورائي علاماتٍ استفهامٍ كبرى، وامرأةً نصف محترقة، ووظيفةً لا بأس بها، وبيتاً كانت أُمي تظنّه يوماً سيحتضن أبناءها وأحفادها معاً، وحزمتُ حقائبي إلى بلدٍ لم تسمع عنه من قبل، مدينةً تختبئ خلف مئات الأميال، وبضع السنوات.

بطيبة أم لا تفهم ماذا يعمل في داخلي، كانت تخاف عليّ من ملامحي الكثيرة هذه، ربما ظنّت بأمومتها أنني أشعر بالوحدة بعد أن تزوجت أروى، وأني أحتاج إلى أنثى ما.

كانت أُمي قريبةً من الحقيقة، ولكنني لم أكن أحتاج إلى أي أنثى والسلام.

عندي وطنٌ بأكمله احتله سالم، وراح يبني فيه كلَّ يومٍ مستوطنةً جديدةً.

كلُّ يومٍ يكتبُ فوقكِ سطرًا، ويمحو سطرًا كتبتُه أنا من قبل، سبّرعني سالمٌ من عينيكِ شيئاً فشيئاً دون أن تشعري، النساء دائماً أوراقٌ قابلةٌ لإعادة الكتابة.

ألم أكتب أنا فوق حسن؟ ألم يكتب حسن فوق عبد الرحمن؟

اقتربت مني أمي كعادتها عند التأنيب والتحذير، همست بنظرات لها لون رجاء، وشكل قلق: ((يا بني، إياك أن تتزوج؟))، ضحكت من قولها قليلاً، اقتربت منها، وقبلت وجنتيها، وهمست بنبرة الصدق التي تخرج مني أحياناً ولا أستطيع احتلاقها: ((صديقي يا أمي، آخر ما أفكر فيه الآن، النساء))

أومأت لي أمي برأسها، تركتني وهي بين الفهم والحيرة، وخرجت، وعدت أنا إلى فوضى السفر.

منذ آلاف السنين، المنفى هو مكان آمن للحزن.

وأنا كنت أريد أن أنفي نفسي بعض الوقت، ريشما أعود إلى الحياة.

بيات قلبي بحجم غصّة.

عادت أمي لتجلس بجواري وأنا أرثب حقائب السفر، كانت تراوح بين الضحك والبكاء، وتحاول أن تساعدني، لم تدرك لماذا أعدت بلطف دفاتري التي أخذتها هي من فوق المكتب، وراحت تبحث لها عن حيز خالٍ داخل الحقيبة، ظننت في البداية أني سأحملها بيدي، فراحت تذكرني بها عند خروجي.

لم يكن رحيل كهذا يحتمل الكتابة، لأن تقاربها اللفظي مع الكتابة يؤرقني كثيراً، أنا الذي أصبحت أؤمن بالخرافات، وأنطير حتى من شكل كلمة، أو غلاف دفتر.

حملت أمي الدفاتر، ولحقت بي عند باب البيت وهي تصيح: ((ناصر، نسيت دفاترك))، توقفت عن الحركة، والتفت إلى وجه أمي الذي يبدو على شفا دمعة، تلك اللحظة شعرت حقاً بألم فراق أمي، ودفاتري، اعتنقتهما معاً في الوقت نفسه، وأخذت أمي في البكاء، وتركتهما، ورحلت.

عندما تبكي أمي، أحترق مثل الأغصان الجافة، لا أفكر في أسباب منطقية، فقط أكتشف أننا شخص واحد، يبكي بعيون أربع.

تودعني بصوت يكاد يختفي: ((ودعك الله، احفظ الله يحفظك))

أبتعد عنها خطوتين، وأردد بصوت أحاول أن أجعله يبدو واثقاً: ((أشوفك على خير يا بيم، انتبهني لنفسك، وصحتك، وتوكلي على الله))

أبتعد أكثر، وأسمعها تردد خلفي: ((احفظ الله يحفظك، احفظ الله يحفظك))، ثم تتحول إلى دعاء خفيض: ((الله يسر أمرك، ويسمح دربك، استودعك الله الذي لا تضيع ودائعه، استودعك الله الذي لا تضيع ودائعه))

إن في صوغها حرقاً وحيرة، سكنها منذ القدم، كلما ألمت بها نائبة، نشطاً في قلبها، واستنهضاً حزن الماضي لحزن الحاضر، أشعر أنها تبكي أبي على ظهري المبتعد، وأشعر أنها ظلت تبكيه عشرين سنة في كل ملة أنشبت ظفراً جديداً في قلبها المتخن بالألم، هي التي فقدته شابة، ثم علمتنا كيف نبقيه معلقاً في قباب ذاكرتنا من الداخل، مثل ثريات المساجد، حتى عدت أكتب له الرسالة تلو الرسالة حالما تعلمت الكتابة، وواجهت أحزاني الأولى في الحياة.

لم أفقد أبداً لغة حوار مريحة بيني وبين أبي، كنت دائماً ما أصطدم بوجوده داخلي كلما ركنت للواقع، وتظاهرت بالسلوى، صوته الحر ما زال يجول في أرجاء نفسي، أنا الذي عرفته طفلاً، ولم تلتقط ذاكرتي منه سوى القليل من حنانه، وصورة جسده المسجى على فراش الموت.

عاشت أمي زمناً تدندن بذكراه مثل الراهبات، لاسيما وأنها لم تتزوج بعده، لم تترك لنا فرصة لنسيانه، كانت تشعله قديلاً في كل مجلس تتخذة حولها، وتحيي الليل على أضواء سيرته وطباعه، وتعاقب به ضمائرنا كلما حُذنا عن الطريق المستقيم، علمتنا

أمي كيف نُذمن ذكراه، فلا نكون بدونها إلا رماداً بشرياً لا يستحق الذكر، علّمتنا كيف نتخذة قضية، نجاهد من أجل إبقائها قائمة بين أفكارنا وخطواتنا، وجعلت حزننا عليه ممدوداً إلى الأمام، لا يطويه السير في الورا، ونحن نسعى إلى حيث لا ندري.

كما صرت أنت قريبة مني كأبي، فكأنني أشعر أن المسافة بينك وبين أمي تتداخل دائماً، بالكاد أميز بينكما فرقاً صغيراً، طيلة وصالنا كنت أقسم بحواسي الخمس أنك أمي لفرط حنانك، وأن امرأة تختصني ليلاً كما تفعلين، هي امرأة يتداخل جها وأمومتها في دائرتي.

وأمام ازدواجية الأمومة تلك، كانت أمي تشعر أثناء علاقتنا أني لم أعد ابنها الذي تعرفه، لم أعد ألقاً إلى سريرها ليلاً كما كنت من قبل، ولم أعد أطرق بابها وأنا أحمل فراشي لأضطجع حوار سجادتها، وأشم رائحتها الحبيبة التي تعلمني كم هي دافئة غرفة أم.

منذ أن فقدت غرفتها ساكنها الآخر، أبي، لم تعد أمي أنفاس أحد أبنائها يشاركتها الغرفة، مهما كبرت أمي، مهما انحنى ظهرها وصارت قصيرة، فإنها تظل الملجأ الآمن الذي تعرفه خطاي جيداً، كلما توغلت بعيداً عنها في أدغال الحياة.

ولكني آنذاك، كان عندي ما يشبعني من الحنان، كان حبك يمنحني كل ما أحته من عاطفة، فلم ألق إليها، هكذا الأبناء، لا يصلون أبداً إلى سقف البر بالديهم، أتخلّى عنها دون أن أدري، ولما تخلّيت أنت عني، وجدت أمي تنتظري، وليس في عينيها ومضة عتب.

كنت أشعر بأمومتك السرابية لي عندما أشتاقك ذات نهار، فأدق أرقامك، وانتظر ردك، وعندما لا تردّين، يتحوّل الشوق في داخلي إلى خوف خفي يتدنّر بثياب قلق،

أواصل الاتصال بتوتر، وبعد برهة، إما أن أثار على صوتك، أو على بكاء لست أدري كنهه ولا سببه.

ولكني أبكي، أتألم لهذه الحاجة الملحة إليك لأنني أعلم أني ذات يوم سأبحث عنك فلا أجلك، وذات يوم سير هذا الهاتف في غرفتك الخاوية في نوبة يأس مجنونة تدفعني لأن أتصل بك وأنا أعلم أنك في آخر الدنيا، وأن لا أحد يلتفت لرنين هذا الطفل الباكي في غرفتك، سير كثيراً، سير رأسه، يتأمل الغرفة التي كانت مسرح حياة وقد صارت مقبرة صغيرة، كل الأشياء صامتة، السرير الوردي، والأكواب الفارغة، وبقايا الأثواب القديمة، والشموع الداوية، والأوراق، والكتب، يتحبّ طويلاً، ثم يخبو، ويموت.

أبرّد لهذا العرّي الفاضح الذي تركني فيه حبك أمام الدنيا.

صرت أعتقد أن فقداني للكتابة، وللوطن، ولأمي، لم تكن إلا محاولات مني لفقد أشياء أخرى غيرك، أردت أن يجتمع الحزن على الحزن، فيمتزج بعضها مع بعض حتى تندثر معالم حزنك الأول، ربما صدّقتي بعضهم وأنا أقول له هذا فيما بعد، وربما ظنّني مجنوناً ذهب الحب بعقله، ولكني أؤمن أن الطعنة الواحدة أشد إيلاماً من الطعتين، والجرح يكون أكثر وجعاً عندما يكون بقية الجسم سليماً، وأنا أردت أن أشتت أفكارني بين عدّة أحزان حتى لا ينفرد بي حزن واحد، فيقتلني.

* * *

والدي البعيد،

المطر الذي عرفته مهذباً، لم يعد ينتظر إذناً للهطول، أصبح ينهمر بشراسة على المدينة

الملقاء تحته كالمغتصبة، غرقت الطرقات والشوارع في ليلة لم أشهد مثلها منذ وصولي إلى فانكوفر، إنه الشتاء الأول لي في مدينة الشتاء هذه، منذ أسبوع لم أر وجه الشمس الخائفة، السماء ملتحفة بغيومها، والمطر يختزلها اختزالاً وهي تتركب بعضها فوق بعض حتى خلعت كآبتها الرمادية على زجاج النوافذ، وواجهات المحال المغلقة، وسحبت وشاحاً من الحزن الشفيف على الأرصفة المطعونة بأعمدة الإنارة، الملتحفة بأوراق الشجر، الغارقة في حد الصمت الأخير.

منذ أن مات السيّاب، وفلاسفة المطر حائرون في تركته..

((أتعلمين أي حزن يبعث المطر؟

وكيف تنشج المزاريب إذا أغمرو؟

وكيف يشعر الوحيد فيه بالضياء؟

بلا انتهاء،

كالدّم المراق، كالجياح

كالحب، كالأطفال، كالموتى، هو المطر))

رحل السيّاب، وأبقى وراءه حيرة هذا المطر الذي تقطر معه بقية من روحه الحزينة، واستنطاقه اليأس لأرض العراق المتعبة بالسياسة، تذكرته وأنا أراقب ليلة المطر هذه، وأتمطى في حدّ الذهول التي تركتني فيه الأمطار محبوساً بين جدران الشقة، مستغفراً كلّ المفارقات الذهنية الماطرة، أنشط دماغي المتعب قبل أن يعتريه الذبول، وأجمع المتناقضات والمترادفات أمام النافذة التي يغيّر المطر ملامحها كلّ ثانية.

مات السيّاب حزناً، وظلّ المطر يهطل بعده دون توقّف.

كم هذه السياسة ملطخة بدماء شعرائنا، ليتها تركتهم لنا واكتفت بالشعوب التي تلوّك شعاراتها الكاذبة منذ عشرات السنين، ولم تبصقها بعد، ولكن، يبدو أن قدر

الشعراء أن يعجنوا بعناء شعوبهم حتى الموت، وأن ييکوا عنهم ما داموا مشغولين بالهتاف، وأن يسيروا في جنازة الوطن ما دام الشعب يسير في مظاهرة ما.

((ومنذ أن كنا صغاراً،

كانت السماء

تغيم في الشتاء

ويهطل المطر

وكل عام حين يُعشّب الثرى نجوع

ما مرّ عامٌ والعراق ليس فيه جوع))

بعد السيّاب، حاولت كثيراً أن أفلسف المطر، كنت أخرج إذا هطل في الرياض إلى حيث أبقى أنا وهو وحيدين، وإذا عجزت عن الخروج، كان سطح بيتنا يشهد الإرهاصات الأولى التي أحاول فيها أن أشرح المطر على مسودته، الآلاف من النقاط الصغيرة تقذف جبين الأرض الزائفة، هذا العناق السماوي الأرضي العنيف، لقاء توأمي الأزل، اللذين يحملان على عاتقهما مصير المخلوقات والحياة.

الرياض لا تغيم كثيراً، ومتى غامت انتابت الجميع رغبة عارمة في الفلسفة المطرية، الجميع يهذر حسب فهمه، الشاعر بدفتره، والأشيب بذاكرته، والأنثى بقيودها، والعاشق بسهومه، والأحمق بحفائه، والفلكي بأنوائه ونجومه.

في فانكوفر، فتحت مسودة جديدة، كانت دورة المطر فيها تبدو لي مثل عملية جنسية شاقة، بحجم الغيوم الكثيفة المليئة بالشبق، واتساع البحار التي تصعد بشهوها إلى السماء، وارتعاشات اليابسة التي تنتظر الرزق والأطفال.

هذا المطر الغريب يُلحّ كل شيء، حتى ذاكرتي العقيمة صارت تضطجع تحت انهماره القاسي اللذيذ، لأجدها بعد حين حُبلى من جديد، وفي أحشائها طفل يختلط

في دمائه ركودُ السماء التي لا تُعدُّ بشيء، وجيناتُ ذلك الماضي التعتيس.

الأشياء هنا تبعثُ في حزنها على الكسل، خلا الشارع إلا من مُشاةٍ قلائلٍ يسحبون ذبولَ معاففهم على بركِ المياهِ الصغيرةِ المتآمرةِ على استواءِ الطريق، وأغلبهم يرتدون معاففَ سوداء، وكأن بعض الألوان يتفقُ عليها الجميعُ في هذه المدينة، أو كأن نهاراً شتائياً كهذا كان لا يستحق في وجومهم إلا السواد، يعاقبون السماء باللون الأسود، يطلقون مظاهرةً سلميةً ضدها، ويشيرون غضب الغيوم التي تُطلُّ من فوقهم، وتكره هذه النقاطُ السوداء المتناثرة أنحاءً غسيلها البشري.

أشعرُ منذ وصلتُ إلى كندا أن المطر هنا لا يبالي بوجودي، إنه يواصلُ أهماره منذ ساعاتِ بنفسِ مستوى الرتابة، وأنا أتقلبُ تحته بألفِ طقسٍ وطقسٍ دون أن يلقي لي بالاً، أنا لستُ مجنوناً يا أي، ولكني تعودتُ أن أمطار بلادِي، إذا جاءت، تكلمني قليلاً، كانت تشاركني التزول بكاءً، أو البكاء نزولاً، وكأن القطرات التي تسقطُ على كفتي لا تشبه الأخرى التي تسقطُ على الرصيف.

هنا المطر شيءٌ آخر.

شيءٌ بارد، سخيف، يهطلُ ببلادةٍ من ممارسِ المطول نفسه منذ آلاف السنوات، ليته يعلم، كلما لفظته السماء، أن بعض البشر يحتاجون إليه كثيراً، ليس للحياة فحسب، ولكن لطبيعته الالهامرية التي توقظُ في أعماقهم كوامن الرغبة في السقوط الطويل في هاويةِ آمنة، كما يفعلُ المطر.

وأنا أحتاجُ أن يربّتَ على كفتي أيُّ شيء، ولو كان قطرة مطر، إذا كانت السماء التي تُطلُّ كلَّ شيء لا تشعر بوجودي، فمن سيشعر به؟، هكذا سأبدو وكأني فائضٌ عن الحاجة، زيادةً بشرية لا قيمة لها، كأن السماء هنا لا تمطرني، بل تمطر المكان الذي أقفُ فيه فحسب، هكذا، بلا ذنبٍ، أراها تتحيزُ ضدي، لأني طائرٌ

مهاجرٌ في غير موسمهِ، جاء يرفرفُ بجناحيه خارج منطقة الأمل، أو لأني غريبٌ عن هنا، وإن كان نصف من في هذه المدينة غرباء مثلي، أو لأني جئتُ حزينا أكثر من اللازم، ودخلتُ البلاد بتأشيرةٍ سوداء، وهربتُ في جيبي حبوب الكآبة، فمن أجل هذا ترفضني السماء، وتتجاهلني، بكلِّ جمودها الذي اعتاد على وجوه البائسين.

بكلِّ سواد الدنيا أشعر بالوحشة، بكلِّ اصفرار الحياة أشعر بالكآبة، القلق يلتفُّ عليّ كثيفاً مثل طبقاتِ الظلام، وأشعر بالتوجُّس من كلِّ الأشياء، وأراها تتعامل معي بعدائية مريبة، ينتفُ الخوف شعراتِ جيبِي وحاجِي، شقتي تقبُّ تعباً هذا المساء، وأنا أرتجفُ في جوفها مثل المحمومين.

لو كنتُ أعرف فقط كيف أجدُ من توتري؟

وقفتُ أراقبُ حباتِ المطر التي تتوزعُ عشوائياً على زجاج نافذتي ثم تبحلقُ في وجهي بغباء، فكُرتُ: عندما يسقطُ المطر على شيء، فإنه يفقدُ ألقهُ المطري الذي استمدّه من السماء الكبيرة، ويصبحُ مجرد قطرة ماء غبية، وفي جفني، فقَدَتِ الدموع ألقَهَا ذاك الذي أخذته من كبرياء الحزن، إذن، شيء ما يجمعُ بين القطرتين.

شيءٌ اسمه بكاء..

أو غباء.

شيءٌ يتسلَّلُ إلى قلوبنا صغيراً، ثم ينتفخ فجأةً مثل صدر ضفدع، ويضيّقُ به المكان، فيتسرَّبُ عبر عيوننا حتى لا ننفجر.

ليني أستطيع أن أسدَّ منافذ قلبي أمام هذه الأشياء، كلُّ يومٍ يتسلَّلُ منها الكثيرُ إلى قلبي اللاهت، عانيتُ لسنواتٍ من هذه الثغرةِ القلبيةِ المكشوفةِ أمام جرثومةِ البكاء، تعبتُ جداً من كثرةٍ ما أغلقتها كل ليلة، كما يُغلقُ الرعاةُ أكواحهم ليلة الريح،

ولكني أتخاذل دائماً أمامها، وأفتحها بنفسي، آمنتُ أنه من الصعوبة على مثلي أن يتخذ قراراً كهذا، قراراً بالأ ييكي، كم هي محرجةُ الوعود التي كنتُ أقطعُها أمام شحوبي في المرأة، ألا أعاودُ العبثَ بالدموع ليلةً أخرى.

هذه الليلة، أشعرُ أني واهنٌ جداً أمام هذا الوعد، حرارةُ الدموع بدأت تُدغدغُ المنطقةَ الحساسة خلف جفني، وتثيرُ شهوتي للامهمارِ مثل هذا المطر، ذلك الشيءُ العائبُ المظلومُ ينتفخُ في داخلي بشدة، يتضخمُ لا شعورياً، ويزدادُ ضغطاً على تماسكي الذي أزعمه خلف زجاج النافذة.

ليلةً كئيبة، تدفعُ بعجلة الذكرى إلى ليلتي الأولى في فانكوفر قبل شهر، ظَلَّتْ حقائي فيها محزومةً كما هي، وكلُّ ما في داخلي يؤنّبني، ويصرُخُ في وجهي من أجل العودة، كانت ليلةً تشبهُ هذه الليلة، ولا تقلُّ عنها حقارةً، كلُّ شيء في جسدي كان منقبضاً مثل بزاقةٍ خائفة، أضعُ خطواتي الأولى خارجَ بوابةِ المطار، رصيفُ الغربة الأول، أشعرُ بالقلق، والتوتر، والرغبة في الانتقام من كلِّ ما يضايقني، أعقدُ حاجي قليلاً، أرسُمُ الصرامة على وجهي، أحاولُ أن أبدو قاسياً وحازماً، وأديرُ حواراً ساخطاً في نفسي مع كلِّ الأشياءِ السخيفة التي تبعثُ في الضيق، ليلتها كانت كلُّ الأشياء كذلك، البردُ الذي يتمدّد بسرعة فوق جلدي، والمطرُ الذي يلعني بصوت عال، ووجوهُ الناس الذين يعبرون حولي مثل الجمادات، والحقائبُ الثقيلة التي تخلعُ كتفي، والمعطفُ الذي بلّلت الأرض أطرافه، وصداعُ الساعات التسع على مقعد الطائرة الرخيص، والصفُ الطويل الذي خلّفته ورائي أخيراً، ويدي المتعرّقة التي تنقبض على جواز السفر بقوة، والسؤالُ العنيف الذي لم يجد إلا هذا الوقت ليطرح نفسه، ماذا أفعل هنا؟

لماذا اخترتُ مدينةً مطريةً كهذه، أنا الذي أفتقدُ الدفء كثيراً؟، ولماذا المدينة التي لا أعرف فيها أحداً، ولا أحفظ فيها شارعاً، ولا أدرك حتى إلى أين تأخذني سيارة

الأجرة التي شقّت بي جسراً عملاقاً لا ينتهي، لماذا بدوتُ وكأني أتحدّى نفسي المرهقة أصلاً، وأدخلُ معها معركةً قاسية، لا أنا أقدرُ على تحملها ولا هي.

هل هذه هي العزلة التي أقنعتُ نفسي بضرورتها وأنا أتقلبُ ذات ليلٍ على فراشي في الرياض؟، كيف تُراي راودتُ نفسي عنها، وأقنعتُها بضرورتها، وبحاجتي الماسة بعد رحيل حبيبي إلى الهدوء، والراحة، والحزن؟، كيف يا ترى يمكن أن يشعر يتيمٌ مثلي منذ طفولته بالحاجة إلى الحزن؟، وكيف استطعتُ أن أنزع من كلِّ ما تبقى من الأشياء الدافئة في حياتي، لألقي بنفسي خلف ألف إعصارٍ وجبل تلج؟

الآن فقط أنقضُ فكري، وأنا قابعٌ في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة، وقد بدأت معالم المدينة الخاوية في ليلةٍ ماطرة كهذه تتضح، وبدأت سخافة أفكاري أيضاً تتضح هي الأخرى، وأيقنتُ أن عهداً كئيباً سوف يبدأ، أنا الذي لا أملكُ شجاعة النكوص مرة أخرى إلى بلدي، بعد أن حملتُ معي شهاداتي، وأقنعتهم، وأقنعتُ أمي، أي مقبلٌ على إكمالِ دراستي.

كالأطفال، تنقصُهُم الواقعية في تخيل الأشياء.

كيف بررتُ لنفسي أني أحتاج للحزن الآخر، وأنا غارقٌ في أحزاني منذ أن حملتُ مها حقائبها، أو حملها لها زوجها، وتوارت في ضباب الغياب؟

ثم ما هذا الحزن الذي صارت تُشدُّ له الرحال، وتُقَطِّعُ إليه الأميال؟

لماذا عرّيتُ نفسي من كلِّ شيء، حتى الوطن، وجئتُ إلى مدينةٍ باردةٍ مثل هذه، وذلك الوطن القابع خلف المحيط يتعجّب مني، وهو الذي رأى كم شرّدتني شوارعه ليالي لم يكن لي فيها نديمٌ، إلا بقيةً من دموعي، وذاكرتي، وسجائري، ورأى كم أبكاني رصيف بيتها، وكيف كنتُ أراقبُ الباب عن بعد، حتى إذا خرج أحد إخوتها إلى شأنٍ له تبعته بسيارتي في شوارع المدينة، لا لشيء إلا لأن امرأةً مثل مها

لا يكفي أن أحبها فقط، بل وأن يفيض حيي لها على أسرتها وأهل بيتها أيضاً.

عجيبه هي أحوال العشاق يا أبي، لاسيما أولئك المقترين من شفير الجنون مثلي، لم يبق في الرياض منها إلا بيتها وساكنوه، فهل كان شكلي وأنا رابضاً أمام بيتها ألاحق إحوتها في المدينة كالأبله يبدو عاشقاً؟، هل كان سهومي لساعاتٍ على إبريز نافذتها أراقب كلَّ حمامة تبيض، وكلَّ فرخ يطير، وأنا أعلم أنها في آخر الدنيا يبدو لهفةً واشتياقاً؟، وهل كان احتفاظي بعلبة المشروب الخاوية التي ألقيتها أختها أمام الباب قبل أن تدلف إلى المنزل لشهرين كاملين في خزانتي يعتبر خبلاً أم حباً يا أبتاه؟

يا أبي،

في الوطن يوجد حزنٌ حتماً.

حزنٌ هادئٌ، بسيط، ينسحبُ على جدران قلبي كما تنسحبُ الأمواج الصغيرة على الشاطئ العجوز، يتزلُّ بخشوعٍ متقن، يؤدِّي صلواته بهمس، لا يتمادى، لا يُبعثرُ الأشياء، لا يصرخ، لا يُمزق، لا يُحطم.

يعرف أننا قد نحتاج إليه، فيجئ تماماً كما نريده، خالصاً، صافياً، لا تشوبه شائبة أخرى، ليس معه قلق، ليس معه خوف، فقط، حزنٌ طاهرٌ مثل شعاع الفجر الأول، يغسل آثار الليل.

كنتُ ولا أزال أراه متحفاً للفن، هذا الحزن، هذا المخلوق الطيب الذي يجيء في موعده، ويستأذن بأدب، ثم يضطجع في حجرة قلبية ما، وينكمش على نفسه ببراءة الأطفال، وينام في دعة، ولا يبقى منه إلا انتظام أنفاسه التي يدفع بها شقاءنا، وينظم دقات قلوبنا، وخلصات مشاعرنا، وييقينا أحياء.

ما الذي جعلني أبحثُ عن الحزن الآخر خارج حدود وطني؟، لماذا خرجتُ إلى فانكوفر لأنقب عن حزنٍ غريب بهذه الحماسة؟، لماذا وصفتُ لنفسي الدواء، أنا الذي لم أتعلم بعد كيف أقي نفسي من لفحة حب؟

سبعة آلاف ميل إلى الشمال الغربي، وكان حزنُ فانكوفر صعباً جداً، لا يَألف قلبي ولا يَألفه، يتعالى عليه كثيراً، يتمادى على انكساره، ويحجى عنيفاً، غامضاً، أسوداً، مثل ثقبٍ فلكي، ويصحبُ معه ثلَّة من الأشرار، وزحاجة من الخمر، ويجمعون في صدري، يصرخون، يدمرون، يخربون كلَّ شيء، وأنا عاجزٌ عنهم، لا أملك لدفعهم حيلة.

حزنٌ ثملٌ يا أبي، دائماً في يده كأسٌ مائلة، وتقتلني في فمه رائحة اليأس والضياع، ثقیلٌ جداً، كأنه قطارٌ عديد العربات، يمرُّ بكلِّ أطنانه على أضلاعي، ويحطمها ضلعاً ضلعاً.

الحزن الذي أبحثُ عنه، ليست هذه أخلاقه.

في ليلتي هذه، أشعرُ بازدحام كلِّ المخاوف التي يُمكن أن تتجمع في غربة ما في صدري أنا، اللا أمان، واللامعنى، واللا أمل، تجوَّلتُ في الشقة، تكوَّمتُ في غرفتي مثل قنفذ، كنتُ أرتجفُ بقوة، وأشعرُ ببوادر حمى تجوس في عظامي وأجهاهلها، أركمُ الثياب على جسدي، القميص، والمعطف، والحذاء، والكوفية الثقيلة، وأتناولُ مظليتي، وأخرجُ إلى الشارع، لا ألوي على شيء، ولكني أهربُ من جدران شقتي التي أعرف سوء نواياها جيداً في لحظات الضعف، مشيتُ حيثما يمكن أن تستوي خطي، وتطأ قدم، غصة البكاء تكبرُ في حلقي، وفي داخلي يتفلسفُ مبدأ الضلالة، كم أنا تافه، وضميل، أرخصُ رجلٍ في هذه المدينة، أي هؤلاء المارة يا ترى يملك وقتاً ليفهمي؟

شعرتُ أن المسافة بين الموت والحياة تنكمشُ حتى تُصبح بعرض هذا الطريق، وأن

المسافة بين الحلم والواقع تتمدد، حتى تصبح بطوله.

كأنّ الاختيار كان يوقّع كلّ تصرفاتي في هذه المتاهة، صباح الأمس بقيت ثلاث ساعات نائماً على كرسيّ خشبيّ في حديقة عامة، أدركني التعب وأنا أمشي فيها ساعات منذ الفجر، جلست أراقبُ ابتداء الصباح، والعصافير التي توقظُ صغارها، والبراعم التي تولد لتموت، ونمتُ على الكرسي، ولم أكن قد نمت طوال الليل.

هل كان أحدهم يتساءل لماذا يلجأ هذه الشاب إلى هذا الشتات، هذا الهارب من حزن الوطن إلى حزن المنفى؟، هذا المستجير من ضياع بضياغ، هذا الذي صار يشكُّ كثيراً في قدرته على اتخاذ قرارات صائبة في حياته.

هل كان أحدٌ غير الضائعين اللذين جمعوا أحلامهم في سلة واحدة، فضاعت جميعاً، وبقي على قيد الحياة دون أحلام، هل كان أحد غيرهم سيمرُّ بي وأنا نائم ذلك الصباح على الكرسيّ، متوسداً لساني الأخرس الذي لا يوح، ولا يشكو، حتى إذا رأي في حالي هذه قال صادقاً: ((يئست، فأمنت، فنمت))

لا ينام هكذا إلا العادلون أو اليائسون.

ولكن وحدة، كذلك التي تقاسمني نصف شقتي، أجبرتني على هذا، كلُّ زاوية فيها موبوءة بجراثيم الوحشة حتى الاختناق، الأريكة الصغيرة ترفض أن تستمرّ دورة الدماء عندي في الجريان، والمكتب البسيط يربي أفراس القلق في أدراجة المعلقة على ماضٍ تعيس، والسرير الوثير يتحوّل بمجرد استلقائي عليه إلى علبة سردين، تعتصّر ذاكرتي هاجساً هاجساً.

كم أتمنى العودة، للصمت هنا، رغم البرودة، شكلٌ حارٌّ خائق، كنت أعلم قبل سفري أنني لستُ رجل غربة، ملامحٌ وجهي تتأكلُ بسرعة خارج جدران الوطن، ومزاجي تنمو له زوائد حادة في جميع الاتجاهات حتى يصير جارحاً، متمرداً على

كلّ شيء، وكنتُ أظنّها نقطة ضعف، وأنا منذ مراهقتي أرفض الاستسلام لنقاط الضعف هذه، لاسيما تلك التي تأخذ شكل العادة المزمنة، أتحداهما عشرين مرة، حتى أجبرها على التخلي عني، فإن هزمتني زادتني رهقاً، وإن هزمتها كانت خسائري مؤلمة.

يا أبي،

أكتبُ لك اليوم من خلفِ ذاكرتي التعيسة، أتلَمّسُ بيدي تلك الشقوق الصغيرة التي أغفلتُها معاولُ الحرمان في جدارِ ذكرياتي معك، ألاحقُ بصيصَ الضوء الذي يشرّد من خلالها ضعيفاً واهياً غيرَ فاقِدِ قدرته على الانتشار بِخَطّين متباعدين يرسمان زاويةً صغيرةً على أرض الصمت، والوحدة، أجلسُ فيها جلسة اليُثم التي تعودتُ عليها، وأجمع أوراقِي، وأقلامي، وأكتبُ لك.

أكتبُ لك يا أبي كلما بدأتُ في الاحتراق، أسألكُ ألسنةً اللهب قبل أن تبلغ أصابعي وأكتب، أنثرُ على بضعة أوراق ألمي، وخوفي، وقلقي، وصداعي، وغثياني، ونهاري، ولا أخشى عليك يا أبي، لا أخشى عليك مما لن تقرأه.

ابنك/ناصر

هكذا كنتُ أكتبُ لهذا الرجل الذي مات منذ عشرين سنة وخلفني ذليلاً، لأن بعض البوح لا يليق إلا بالأموات وهم غائبون في عالمهم السرمدى، كتابتي كثيراً ما تشبه الاعتراف، لذلك أُلجأ إلى أبي، لأنه يمنحني منطقة من الاحتواء تغري بالبوح، ولأنني لا أخشى إنكاره علي، ولا سوء فهمٍ لكلماتي، هو الذي لا يستطيع أن يعبر عنها

بأي حال، وليس في ذاكرتي القديمة ما يُمكنني من تخمين ردة فعله المحتملة على ما أكتب، لأنني لم أقضِ معه أكثر من سنوات الطفولة الأولى، ثم كان لليتم معي بقية العمر.

الطفل الذي يستيقظ من النوم على بكاء بيت بأكمله كان أنا، وأنا الذي احترت طويلاً في تفسير احتضان سارة لي وهي تبكي على ذهولي، وأنا الذي وقفت طويلاً أيضاً أمام ثياب أمي السوداء لعلني أفهم لماذا تُراها تتجنب النظر إلى وجهي بعينيهما الباكيتين.

لم أكن في حاجة لأن يخبرني أحدهم أن أبي قد مات، ولكنني كنت وقتها في أشد الحاجة إلى من يشرح لي بإيجاز يناسب عمري الصغير، ودهشتي الكبيرة، ماذا يعني هذا الموت الذي يُبكي الجميع هنا إلى هذا الحد؟

كان عليّ أن أنتظر ثلاث سنوات أخرى لأفهم أنه لم يعد لي أب، وأنني أصبحت شذوذاً على القاعدة العامة، وهي أن لكل أسرة أب، ولكل يوم أسود قامة رجل يلوذون بها، ويشعرون بالأمان، كان ينقصني الكثير من الشجاعة حتى أتوقف عن الكذب على زملاء المدرسة عندما يسألونني عن أبي، ليس لأني أكره نظرات الإشفاق فقط، بل أيضاً، لأني أكره أن أكون مميزاً بينهم باليتم.

عندما يجرمني الموت من أن أكون مثلهم، فإنه يمنحني وحدي حرية اختيار أبي، كما أريده، وبشكل يناسب حاجتي له كل مرة، كم ستكون الصدمة أكبر لو أنه عاش فلم يفهمني، لمن تُراي عندها سأماس الاعتراف عشرين سنة على الأوراق؟

تمنيت لو أني أبقيت هذه الاعترافات المكتوبة معي يوم كبرت، ولم أطعمها النيران ذنباً بعد ذنب، من أين تعلمت إحراق الأوراق؟، كنت أعبرُ الكتابة جسراً لحوار أبويّ أفنقده، فلما فرغت من ذلك، رأيت أن النيران أولى بالذنوب من الأدراج

وغفرانها.

ومنذ أحببتك لم أعد أكتب لهذا الرجل.

تماماً كما استبدلت الابتهاال إلى الله كل سجود ليرحمه، بالابتهاال إليه أن يقيقك لي، ويقيقك معي، ويقيقك من أجلي، قالت لي أمي: ((ادع لأبيك يا ناصر، إن دعاء الصغار مستجاب))، وأومات علامة الفهم، واخترت أن أدعو له في سجودي فقط، لأني لا أريد أن يعلم من يصلي بجواري أي يتيم، وسألت لأبي الرحمة خمسة عشر عاماً، قبل أن يقتحم فقدك خلوة سجودي، فتحولت إليك، لأني كنت أشعر أن ما يُمكن أن تعطيني إياه من الاحتواء إذا صرت لي، قادرٌ على شطب سنوات اليتيم من عمري تماماً.

بعد أن اعتادت شفاهي على اسمك في السجود، رأيت في منامي ذات ليلة أنك تشربين من كوب كبير، ما زلنا نحتفظ به في بيتنا، هو كوب أبي الذي لم نكن نسقيه الماء إبان مرضه إلا فيه.

لم أحرك بهذا الحلم كما لم أخبر أحداً، ولكنني فهمت أن لحظات السجود التي كنت أسخرها لأبي قد صارت لك، وأن توبة الكتابة التي كنت أرفعها له قد صارت لك أيضاً، وأنا ليس عندي أغلى من هاتين، فليتكما اقتسمتماها على الأقل، بدلاً أن يؤنبي بقسوة هذا المنام الشارد.

ولكن حبك كان من القداسة حتى أنه أبطل كل تعلقي بالآخرين.

صار الاعتراف لك بالحب، أكثر إغراءً عندي من الاعتراف له بالذنوب الأخرى، وصرت أشعر أن ليس بعد الذنب ندمٌ فحسب، بل هناك أيضاً لذة اعترافٍ ما.

لست أدري كيف صار واقعك هذا يتقاطع مع ذكرى والدي، ففي خيالاتي الهاربة، أصبحت أتصور أحياناً أن شيئاً ما يجمع بينكما، وهو أن حي لكما ليس مشروطاً

كما هو مع الآخرين، إني أحبكما فحسب.

قبل أن أعرفكِ، عشقتُ في والدي كلَّ ما أتذكره منه، وأسمعه عنه، وأراه في صُورِهِ المتناثرة هنا وهناك، وبعد أن عرفتكِ، عشقتُ فيكِ كلَّ ما رأيتهُ منك، دون أن أستثني شيئاً من دائرة هذا الحب إلا تخليكِ عني.

أبي تخلى عني مجبراً بإرادة الموت، وأنتِ تخليتِ عني هكذا فقط لأنَّ سالماً كان أجدرك بكِ مني، ولأنكِ لم تقدّمي أمام ظروفنا أيَّ محاولة تُنقذين به هذا الحب الذي عرفناه عظيماً، من أن يموتَ حقيراً.

صار حبنا عادياً ونحن الذين كدنا أن نجعله إلباذةً مقدّسة، ظللنا طيلة الحب نراه مترهاً ليس فقط من عيوب العلاقات الأخرى، بل حتى من أن يكون تقليدياً، عادياً، يولد ويموت مثل البشر، ولكن يبدو أن القدر، حتى الآن، يصرُّ على جعله مجرد علاقة لا أكثر، نشأت بين اثنين، واحترقا بها بضعة أشهر، ثم قرّرت هي أن ترحل مع غيره، وظلَّ هو كما تركته أول يوم، يعتصره الهمُّ والكمدُ كلَّ ليلة.

كم من الإلحاد أحتاج يا ترى حتى أتخلى عن تقديس هذا الحب كما فعلتِ أنتِ؟

بي كمدُ الأسير في سجون العدو، وهو يؤمن أنه لن يتوانى عن تفجير نفسه من أجل قضيتِهِ، ولكنه عاجزٌ مقيدٌ، لا يملك لذلك سبيلاً، فأَيُّ حُطامٍ نفسيٍّ صار إليه، بعد أن دَكَّ العجزُ أركانَ روحه، وثار بركائهُ الصغيرُ في داخله، فاحترق به وحده.

سأدعو لو تشتعلُ في جنبيكِ هذه القضية، لعلَّ حصانكِ يسهلُ يوماً ما، ولعلكِ تمنطين سهوته لتعبري هذا الحاجز الذي حاولتِ كثيراً أن تقنعي بارتفاعه، وأنا لا أقنع بذلك، لسببٍ بسيط، أنكِ حتى لم تحاولي.

مع أبي، كم كنتُ أتصوّرُ لو أبي أحببتكِ وهو على قيد الحياة، كنتُ أخبرته كم

أنتِ جميلة، وحملتُ إليه صوتكِ الحبيب عبر الهاتف، ليتكلّم معكِ، عندها، سأشعر بمساحةٍ واسعةٍ من الأمان، والسعادة، والجلد، سأكون مندهشاً أمام روعة أن أبصر أمامي كيف يتفاعلُ أقربُ رجلٍ إلى قلبي، مع أقربِ امرأةٍ إلى قلبي أيضاً.

أتخيّلُ لو أجلسُ معه يوماً لأحكي عنكِ، كما جلستُ معكِ مراتٍ لأحكي عنه، كنتُ اعترفُ لكِ بأني قصيرٌ جداً إزاء قامته، وتافهٌ جداً جوار سيرته، ولو حكيتُ له عنكِ، لأخبرته كم أنا ضئيلٌ بحبك، ضعيفٌ بدونكِ، وتافهٌ أيضاً، ولكن مع زوجكِ.

لأنَّ زوجكِ يا حبيبي كان اختياريكِ أنتِ، ولأنكِ كنتِ اختياري أنا، حدّثَ أن تزوجتما، وسافرتما، وبقيتُ أنا هنا، أحاول أن أبتلع بصعوبة فكرة أن لا يكون لاختياريكِ أيّ قيمةٍ في اعتبار الحياة.

الفصل الثالث

بأي نظريةٍ من هذه النظريات أحببتكِ؟، لأنكِ مثلي أم لأنكِ أفضل مني؟

أشعر أن تشابهنا أخطبني إليك أكثر.

إذا كانت مراقبة النمل في طوابيره المنتظمة عادة طفولتي القديمة، فقد تجاوزت أنت عادي قليلاً لتصلي إلى حدّ إطعامها نصف نصيبك من الحلوى تحت شمس القائلة، أو إنقاذها غملاً غملاً من الغرق في فيضان الحمام اليومي.

تتضح قدرتنا على العطاء منذ الطفولة أحياناً، بعض الحشرات تكسب ودناً أحياناً بشخصياتها، والنمل منها، أتذكر سؤال الأستاذ في الصف الرابع:

- من منكم يضرب لي مثلاً على حشرة مفيدة؟

انبريت بين الجموع بصوتي الحاد:

النمل.

يضحك أستاذي، يحاول دفعي للاستدراك، يسألني أخرى:

- وماذا يمكن أن يفيدنا به النمل؟، إنه يأكل طعامنا، ويوسخ

بيوتنا.

ركب فوقني خجلي، خفت حدّة صوتي وأنا أواجه قوّته الكلامية، وسلطته العلمية.

آسف، قصدي النحل، وليس النمل.

نعم، أحسنت.

فكرت كثيراً أثناء الحصة، لماذا يكره أستاذي النمل؟، لم هذا التآمر الكبير على هذه

الحشرة الدؤوبة؟، من قال أنها غير مفيدة؟

ألسنا نضرب بها المثل على العمل والنشاط، وعدم التكاثر والتراخي؟

ألسنا نتعلّم منها كيف ندّخر قوت الشتاء أيام الصيف؟، أو كيف ندّخر نبضات

انتهى أبريل، غيّر وجه حياتي ورحل، خربش على لوح أقداري، ثم امتطى صهوة الزمن، وخلّف غبار الحقيقة الصاخبة، وعندما انقشع، وجدتكِ أمامي، مغموسة في دمي كزهرة تيوليب.

وقعنا في الحب، ولم نعترف.

لم يصبح واقعاً نعيشه بكلّ ما يفرضه علينا من حدود البوح، مازلنا نتأرجح بين مشاعر لا تكفي لتفسير علاقتنا.

غير أننا بدونا متشابهين، طيبين، نفهم بعضنا جيداً، نتكلّم نفس اللغة، ونفس الإحساس، نندهش من تشابهات الماضي، نفس الصفات، نفس العادات، نفس دمي الطفولة، نفس الرؤى والأفكار والظنون، ننطق أحياناً نفس الكلمة في آن واحد، تطرأ لنا نفس الفكرة في جبيننا المشترك، نعترف في قرارات أنفسنا دون أن ندخل في جدل مع الحياة أنّ ثمة شيئاً يوحد ما بين أقدارنا.

أحياناً يقود التشابه إلى الحب، أحياناً يقود التنافر إليه، الشخصيات الحنونة تحب أشباهها، وتلك التي تفقد توازنها كثيراً أثناء الحياة تحب أضدادها، دائماً.

أحياناً يحب الرجل العاري المرأة الكهف، وأحياناً لا تحب الغيمة إلا أختها، نادراً ما تعازل القمة السفح، ولكن السفح لا ينفك معلقاً بها.

القلوب لحب أكثر أماناً، لا يتخلى عنا فيه من أحبيناهم؟

أليست النملة هي التي أوقفت جيوش سليمان الهائلة، و أضحكت سنه، ودفعته لأن يشكر الله، ويسأله الرحمة؟

إذا دفعت غملة نبياً إلى مثل هذا، فكيف لا تكون مفيدةً لنا؟

لماذا يحرق المعلمون دماغى دائماً بهذه التناقضات بين كلامهم وأفكارى؟، ربما من أجل هذا استفحلت في عادة الصمت، حتى تعلمت الكتابة.

سكينٌ قديمة قدم المعرفة عندي.

كان مللي أحياناً من رتبة الدروس يدفعني إلى أن أخترع ما يسليني، أبحث في أذهان الطلاب عما قد يستعصي على فهمهم، وأطرحه كسؤالٍ مكرر على سبورة الأستاذ المملوءة.

يفهمني أحد الأساتذة يوماً، يهمس لي بإعجابٍ أبوي لا يخلو من ضيقٍ عابر:

- أنت فاهم، ولكنك تسأل لتساعد أصدقاءك على الفهم.

لا حاجة لي لذكر هذه القصة هنا، لم يكن ذلك نبوغاً مني، بل همماً في ابتلاع المعرفة حتى سبقت أتلادي، ولكن غصصتُ بها قبلهم.

الذي يدفعني لكتابة هذه القصة هو أنها تكررت معك أنت تماماً، تأملتُ من شدة الدهول وأنت تحكيها لي، لماذا هذا التطابق المثير للغرابة في كل هذه التفاصيل؟

يومها لم أخبرك بقصتي هذه، خشيتُ أن تطني أبي اختلفتها لأدعي هذا التطابق معك.

بداياتنا الأولى كانت مثل هذه، دهشةً وتشابه، أما الحب، فما زال يُطلُّ خجولاً من

نواذير العلاقة، ويحشُرُ رأسه الصغير بين أسلاك الهاتف بفضول الأطفال، وكنا نراقبه، نداعبُ معاً خصلات شعره بابتساماتٍ خجولة، ولا ننظر إلى بعضنا أبداً.

أشعرُ بعدم الرغبة في مثل هذا النوع من الكتابة كلما تذكرتُ مس تنغل وهي تُطلق حكم الرتبة على قصتي البليدة: ((بمجرد عاشقٍ آخر))، قالتها بالإنجليزية لتبدو أكثر إحباطاً: ((oh.. just another lover))، لا أدري أي الأساطير كانت تبحثُ عنها في ذهن القادم من وراء المحيط.

كرهتُ هذه الكتابة لأني شعرتُ أنه لا حاجة لي أن أخبرهم كم أنا معجبٌ بك مثلاً، كل هذه المقدمات المملوءة تختزلها كلمة الحب أخيراً، منذ آلاف السنين والعشاق يحذو بعضهم حذو بعض، منذ ملايين السنين لم تتغير المعادلة الكيميائية للاحتراق، لا داعي للأسطر الزائدة، يكفي أن أحيلهم للتاريخ.

أما تاريخنا الصغير، فملكٌ لنا نحن الاثنين فقط.

في منتصف مايو أزف لقاؤنا الثاني.

أوتنا طاولة صغيرة ومطعم هادئ، تنفض الشمس أشعتها الأخيرة عصر ذلك اليوم، وتسري في أوردتي رجفة اللمسات الطويلة هذه المرة، تتمرّدُ الحقول في جسدي، يثمر الجوز قبل أوانه، يسقط التوت على أوراقه فيتشخّح احضرارها بدمائه الحلوة.

كلُّ ما في وجهك الحاضر أُمامي يشبه الدفء، يشبه الحنان، يشبه الحب.

جاءت يدك أولاً، زحفت فوق فحالة الصمت المائل بيننا، لم يكن عندي جرأة الابتداء، يكفي تسبيح الروح في محراب وجودك، تشابكت أصابعٌ وداخت طاولة، ارتكبت يدك جرائم لا تحصي فوق يديّ، تحريضٌ عنيفٌ لمراهقتي الجلدية الأولى، ثار الإصبع على الكف، والكف على المعصم، تعرق طفيفٌ في يديك يترّ عطراً من

مسامة شوقٍ مفتوحة، أنا لا أقاوم نعومة كهذه، شغباً كهذا، توقفي عند حدِّك يا مدن الرغبة، استئذانٌ مهذبٌ، وأنقذني النادل من سكتة شوق.

تلعثمتُ في الرشفة الأولى، كلُّ شيءٍ يندفع للخروج من فمي، لا شيء يعكس التيار، ولو كان قطرة عصير، أعدتُ الكأس حائبة.

- استيقظتُ متأخراً هذا الصباح، فاتتني المحاضرة.

ابتسمتُ أمامي بجذل، أقمتُ سبابتيك فوق رأسك على شكل قرنين دلالة الشر.

- ربما لأن شيطانتك لم تدعك تنام.

ضحكتُ، واستحاح جذلك حياءً، حاولتُ إطفاءه في كأسك، تأملتُ شفتيك وهما تتجمعان على طرفه لترشفاً منه، تتناول العليا قليلاً، تأخذني رغبة امتلاك هاتين الشفتين، يمتطياني حمق الفرسان، يصله الترق بداخلي كجلمود صخرٍ، حطَّه السيل من علٍ.

للمرة الثانية، وكأننا لا نملكُ فيما قبل الحب إلا هذه الحركات الأثوية، أخرجت لي دفتركِ الصغير وطلبت مني أن أكتب لك أيَّ شيء.

كتبتُ ((إن وجودك يفتحُ شباكاً للأحلام والعصافير الملونة والحب))

دسستُ الكلمة الأخيرة بحذر، مثل جهازٍ تنصتٍ صغير، أتجسسُ به على نبضات قلبك.

قمتُ للرحيل..

وعدتُ أدراجك، مرتين متتاليتين.

لم تستطعي أن تذهبي، ولا أن تخلفيني وراءك وحيداً.

عدتُ تَتمسِّكين بيديَّ في لفة، ترفضين التنازل عنهما لسلطة الوقت الذي داهمنا، غيابُ الحب حتى الآن يجعلُ الأشياء تبدو غير منطقية، لماذا هذا العمقُ الظامي في نظرتك؟، لماذا هذا الشوق المحروق بين أصابعي؟، لماذا فتيل الدهشة المشتعل، ونظراتُ المكان الحائرة؟

أتأملُ بذهول هذه الفتاة التي تمشي عشر خطوات باتجاه الباب، ثم تعود الخطوات العشر لتمسك بيدي عدة ثوان، قبل أن تذهب مرةً أخرى.

أُجنونةٌ هي لغة الأيدي، أم أنها طريقتك في الوداع فقط؟

ساعةٌ من الكلام، فارقتني بعدها بصعوبة.

وأربعة عشر شهراً من الحب، وفارقتني بعدها، بشيء من المارة حتى لم يخترعوا له اسماً بعد.

جاء المخاض إذن.

قفزتُ للحظة الحاسمة إلى مستوى الحدث، تسلَّقتُ أحلامي الغيبية التي لا أفكر فيها لفرط ما ظننتها مستحيلة، اقتربت المعجزة، وانشق القمر.

وأعلنت عليَّ الحب.

بعد ساعات، بضع ساعاتٍ فقط من افتراقنا ذلك اليوم.

أنا الذي لم أفقُ بعد من صدمة المناوشات الأولى، جاني صوتك هذه المرة في هاتفي، ليقول بكل حرارة الأرض: ((ناصر، أحبك))

واتخذتُ الأشياء أماكنَ عشوائية، لم تنتبه كثيراً إلى كونها مناسبة بقدر ما كانت حريصةً على أن يبدو المكان أنيقاً، رحباً، أمام هذا المولد الجديد.

فكرت لحظتها: ترى هل قدحت كلمتي المدسوسة في دفتركِ زناد الحب؟

قمتُ من مكثتي إلى حقيقتي مرةً أخرى، أخرجتُ منها دفترًا بنياً أنيقاً، فتحتُ صفحته الثانية، أتأمل في خطكِ المبعثر، وأقرأ لكِ تلك الكلمات الأولى التي أعلنتِ عليَّ بها الحب لأول مرة، لم يكلفكِ الشوق إلا ساعتنا تلك، لتنظمي مشاعركِ على الورق، لتلتفتي لطفل الحب العاثر، لتنتهي إلى دقات الناقوس الكبير.

جاءني اتصالكِ بعد أن خرجتُ من المطعم، نيرةُ الحلم التي تقفز كوكباً فوق كوكب، وتزل في أذني، بينما كنتُ أنا أذرُعُ المدينة بحثاً عن أطول شارعٍ فيها، أوزُغُ فيه غرور أصابعي، وانفعالاتها المشتتة.

كانت لمساتكِ، تراجعكِ مرتين من أجل يدي، تصرفاتٌ تكفيني جداً، لستين على الأقل، قبل أن يفرغ مخزون حناي، ولكنكِ امرأةٌ تأتي جميعاً أو تذهبُ أبداً.

- ناصر، أتذكرُ سؤالك؟

- كانت كلها أسئلة، أيها يا مها؟

- ماذا يعجبني فيكِ؟

- أجل.

- أظنُّ أن لديَّ جواباً الآن.

- ما هو؟

- لحظة.

شعرتُ بانعطافات الورقة بين يديكِ، خشخشة الصفحات التي تسافر بين أصابعكِ بحماس، قبل أن يرجع صوتكِ مرةً أخرى، وفيه ارتعاشٌ شبه واثق.

((تسألني ماذا يُعجبني فيكِ؟، وتظنني أبحثُ عن الإجابة، ولا تدري أن إجابتي مزروعةٌ في داخلي، تُعجبني لأنكِ حنونٌ جداً، تُعجبني لأنكِ هادئةٌ رقيق، لا

تستطيع ولا تعرف كيف تجرح إنساناً، رقَّتكِ تغزو جدران مناعي، تدغدغ أحاسيسي، تملِّكها، تشعَّبُ في أعماق أعماقها، تُعجبني لأنكِ عظيمٌ بفكركِ، وبروحكِ، وبسموِّكِ، وعظيمٌ في كلِّ ما تقول وتفعل.

تُعجبني لأن الحبَّ داخلكِ سخيٌّ، وكريم، ومعطاء، يُسبغ عليَّ من نعم الدنيا، كبحرٍ من المشاعر لا يهدأ، يغدِّي أنانيتي، ويُشبعها، ويدللها، ويجعلها ملكة الموقف، وصاحبة القرار.

أخيراً..

تُعجبني، لأنكِ حبيبي))

أسلوبٌ أنثويٌّ جداً في الكتابة.

تدرجُ موفقٌ يجعلني أفهم كيف يتكون الحب في قلب امرأة، الحنان، الهدوء، السمو، العطاء، نكران الذات، ثم الحب.

لا أدري كيف ترثت صفاتي هذه في داخلي، الذي فهمته فقط أنها كوَّنت داخلكِ معجون الحب، ولم أكن أملك إزاء امرأةٍ يمثل اعتباركِ إلا أن أكون كما قلت.

لم أملك إلا أن أكون حنوناً إزاء امرأةٍ ورثت الأمومة وحدها، من حواء.

لم أملك إلا أن أكون هادئاً أمام طوفان من الأنوثة العارمة.

لم أملك إلا أن أكون عظيماً ما دمت ترينني كذلك.

لم أملك إلا أن أحتلب من ذاتي لأغذي أنانيتكِ كما تريدني.

مدهشة، لقد قفزت فوق رتبة الابتداء، كلهم يقول في البداية: أحبك، أما أنتِ فقلت: حبيبي.

لم يكن همسنا دافئاً بقدر ما كانت عفويتنا في تسلُّقِ جدران الحب دافئة، كانت الأشياء من حولنا تبدو متواطئةً مع هذا الحب القادم، وكانت مشاعرنا تنمو بهدوء، وبجدٍّ مناسبٍ من الرواء كلَّ ليلة، حتى تكتمل يوماً ما.

قبعْتُ تلك الليلة في غرفتي وأنا أفكر في إجابتكِ الكبيرة.

آذيتُ سريري ومكتبي، وأكلتُ دون اشتهاٍ نصفَ الجلد الميت فوق أظافري، فترَّت دماً.

حملتُ الهاتف، لا بد من دليل، إذا كنتِ أحببتني فعلاً فلا بد أن يتغيَّر صوتك بعد اليوم.

- مها، أقرأ الآن لفتاة رائعة، موهوبة.
- ماذا؟، من تكون؟، ماذا تكتب؟
- لماذا أنت منفعلة؟
- ألا تدري؟

شعرتُ أن شبح ابتسامةٍ لا أراها تتزيَّياً فمكِ.

- ربما اتصلتُ لأسمعها منك.
- لأني أحبك، هل تفهم؟

ودَّعتكِ، وأغلقتُ الهاتف، نجح اختباري التقليدي، اختبار الغيرة.

تغيَّرَ فلكيُّ ضحكِ يقترب من حياتي، بدأتُ أقشُرُ جلدي بدءاً من أظافري، غداً سينمو لي جسدٌ جديد.

((حدَّثتِ الغرفةَ المُرَهَّقةَ بصدايح الفجر سربَ نسائم عابر، أن شاعرها الوحيد لم

يسكن في صدره نَفْسٌ على نَفْس، ولا رَبَضَ في جسمه عِرْقٌ على عِرْق، ولا هجع تلك الليلة إلى النوم، حتى ظهيرة اليوم التالي))

* * *

حسن، رجلٌ طارئٌ جداً في دائرة البوح.

نزل قبلي بأشهر..

رحل بعدي، بأيام..

انسكب سرُّه عليَّ من فمكِ كالحميم، لم يكن ذلك ضرورياً على امرأة تبوح، لأنه كان يعرفُ حقاً كيف يترك آثاره عليكِ مثل الوشم البدوي، ليحرق من سيأتي بعده.

حسن، خط بارليف الطويل، من مرسيليا إلى الرياض، قبلةً ناصعة البياض فوق جبين التكنولوجيا، جاء بعد المراهقة، وبعيداً عن الخيانة، وجميلاً حتى في كبرياته الذي دفعه للرحيل، لذلك، لم ينته.

حسن، كان عاصفةً مقلقةً، من الحب، رجلُ الحضور الصاحب، والغياب الأكثر صخباً، رجلٌ يعرفُ تماماً كيف ينهمر عليكِ بكلِّ رجولته فجأةً، ثم ينسحبُ إلى ظلِّ ما، ليترككِ حائرةً بين الحالتين، أيهما أكثرُ جمالاً؟، أيهما أكثرُ تحريضاً على الحب؟

عاش طويلاً في فرنسا، وهو لا يدري أن في حياته قدراً خفياً، سيجعله يقطع يوماً ما، آلاف الأميال إلى الرياض، ليتزل بين يدي فتاة اسمها مها، صارت تحبه.

أنتِ التي تدبِّرين المكان والزمان، كريمةٌ جداً في الحب، حتى معي أنا، كان لقاءنا

دائماً مشكلتك أنتِ.

اكتفى حسن بالحضور فقط، لترك بين أصابعك عطره، ويرحل.

إنه يفهمُ كم ينبغي له أن يكون متواجداً تحديداً، وكم ينبغي له أن يكون غائباً، حتى تكتمل قداسة حضوره، وحشوع غيابه.

يفهم كيف يجعلك تخلقين حبك له بنفسك، بينما يرتاح هو من هذا العناء، ويكتفى بصوته التي ينقله لك الهاتف، وعطره الذي يتركه لك فوق الذاكرة.

جاء وانتهى، قبل أن أغرق في حبك إلى هذا العمق، كان خيراً لي أن ظروفاً كنتك التي يفرضها مجتمعنا هي التي أغلقت الأبواب أمامكما، كما ستغلقها في وجهي من بعد، وأن كبرياءك ككبريائه جعله يرحل ساخراً من أعرافنا، فتظلين لي.

نحن الرجال ندرك قوة بعضنا البعض أحياناً، ولو أنه ما زال موجوداً، لنظرتُ إليك كما ينظرُ الفقراءُ إلى قصور المترفين، ولكنه غاب في أيامنا الأولى، لترك خلفه امرأة لم تُفق بعد من رائحته، ولا يزال في يديها حكاية طويلة من الشوق، بطول ما أبقتهما في يديه.

لا أدري لماذا كنتُ أشكُ دائماً أن تعلُّقك الغريب بعطر سكايتشر، واحتفاظك بقارورة كبيرة منه في غرفتك، بالرغم من أنه عطرٌ رجالي، كان وفاءً لعطر حسن؟، هل حقاً كان هذا عطره؟، ربما لما يكن إعجابك بالعطر خالياً من الأسباب كما يَينَت لي، لم أجروُ على سؤالك، كنتُ أفرُّ من الكلام معك عنه مثل فرار الضعيف من القوي، وكنتُ أقلبُ قارورة العطر بين يديَّ بحذر، وأخشى أن يخرج عليَّ حسن من زجاجها المعوج.

كنتِ تتحدثين عنه واثقة أن شيئاً من الغيرة لن يُحرقني، أنتِ التي لم تعلني عليَّ

حبك بعد، ولكني كنتُ قد أعلنته عليك سراً قبل ذلك، تتحدثين كما تفعل الأنثى التي وَجَدَتْ أخيراً حبها الضائع، رجلها المفقود في كلِّ الحكايات القديمة، والاسم الباقي من بين الأسماء المتساقطة.

وكنتُ أصغي بهدوء، كما تحترقُ الجمرة.

لم يمنحني الحب بعد تأشيرة شكوى، أو حقَّ احتجاج، كان هذا قبل مايو، قبل أن تقول لي: أحبك، للمرة الأولى، ليتني لم أكتُم شكواي، لم أقتل احتجاجي، تعلمتُ بعدها بأشهر، أنه حتى كوني حبيبك لن يمنحك أن تتصرفي بالرجال كيفما تشائين.

مجنونٌ هو الصياد الذي يزعم أن يقبض سمكة ما بيديه العاريتين فقط.

لم يمنحني حياتي منك عندما كنتِ تتحدثيني عن حسن بلسان عاشقةٍ ولهى، إلا دمعةً كلَّ دقيقة، دمعة من وراء سلك الهاتف، في أعماق ليل ساكنٍ مثل المحيط، لم تريها قط.

هأنذا أعترف لك بها.

حسن الذي رحل، كان الأب الأول، لدمعتي الأولى معك، ولكني لم أشعر بالندم كثيراً عليها بعد أن رحل تماماً، وبعد أن وجدتُ نفسي بعد قليل أقرب إليك من أقرب موقفٍ كان معك فيه، شعرتُ أنه يستحقُّ تلك الدمعة، يستحقُّ هذا الاعتراف بقوته، هو الذي لم يؤذني فيك كثيراً، بل تركك لي، وإن كان لا يدري، ولكني أشعر بالعرفان لهذا.

هذا التقاطع الوقفي بين بدايتي معك ونهايته هو، ترك في داخلي أثراً ما، أنا الذي ما زلتُ أكتشف في نفسي كلَّ يوم أثراً لسلطة أنوثتك عليَّ، كنتُ أحاول التماسك أمام كلامك عنه، أمثل دور الصديق الذي يمنحك كنفاً تبكين عليه، وفي داخلي

يتوجّع عاشقٌ محبوس، ورحتُ ألوم قلبي الذي تصوّر يوماً أنكِ قد تكونين حبيبته،
هأنثِ الآن تطلقين رصاصة الرحمة على وهمه.

وبقيتُ طويلاً بعد هذا الرجل أتوجّسُ من شكلٍ علاقتي معكِ.

كنتُ أخشى ألا أرتقي معكِ إلى أكثر من دور الحائط الذي تستندين عليه بعد
التعب، أو كرسيّ الحديقة الصامت الذي نبثه تباريحنا ودموعنا ثم نتركه، أو ربما
محطة الوجود الذي يخلفه حبٌّ في أيامه الأخيرة.

خشيتُ أن أكون آخر قصة تقفلُ بها امرأةٌ كتابَ الحبِّ المورّق، قبل أن تتزوج.

خشيتُ أن أكون حكايةَ العشق ذاتِ المنفعة الحديّة السالبة التي لا تجدي شيئاً.

قرأتُ مرةً في كتاب فرنسي قديم: ((الانفعال العاطفي الكامل، لغة إقليمية، يتكلمها
بطلاقة رجلٌ جرّب الحب، وامرأةٌ لم تجربه))، قلتُ نفس الكلمة لديار ذات هاتف،
حشاها لي باروداً، وأعادها إليّ مرةً أخرى: ((كلُّ حبٍّ جديد، يترعُ من عيني
الرجل غشاوةً ما، ويلبس على عيني المرأة غشاوةً أخرى))

- يا ديار، حبُّها كاد أن يقلع عينيّ من محجريهما.

أجابني بعد يومين، وهو يتكلم كجزيرة نارٍ تنطفئ في محيطٍ كبير..

- تلك النجمة اللامعة التي تراها في السماء، إنما أقربُ إليك من أن تفي

لك امرأةٌ عشقت رجلاً قبلك.

- ديار، لا تبني أحكامك على الإطلاق.

- قلوب النساء تشبه غرف الفنادق، يتناوب عليها التزلاء، ويقيى

الفندق بأسره ملكاً لشخصٍ واحد.

أبتلع الصمت وأطرق، أفكر: لو كنتُ أنا هذا الشخص الواحد الذي يملك قلبك،

ترى متى يرحلُ هذا التريل الثقيل، سالم؟

يستطرد ديار:

- لدي استثناءٌ وحيد، لكنه لا يعينك.

- ما هو؟

- إنَّ امرأةً تحترم حبَّ الرجل الأول، هي الوحيدة التي تستحقُّ أن

تكون حبه الثاني.

هل أفهم ديار بالعكس؟، هل عليّ أن أحترم حسن من أجلك؟، كان هذا ما فعلته
حقاً قبل أن ألتقي ديار بعد سنة، بقيتُ على احترامي لحبك القديم، كان صمتي إزاء
كل حضورٍ كلاميٍّ لحسن فيما بيننا يشبه الانحناء الكبير أمام رجلٍ كبير مثله، أتى
ورحل، ولم يفعل ما يستحق أن نذريه به.

حتى مشاويرك الصغيرة التي تقضيها برفقتي كنتُ أشمُّ منها رائحة حسن، أخذك
لمكتب البريد، أتركك تترلين وحدك، تعودين بمظروفٍ كبير، تدسّينه في حقبيتك
وتسكتين، ولا أسألك عنه شيئاً، وأنا أكاد أقسم أن على هذا المظروف أصابع
حسن.

هل هي صورتكِ أنتِ أعادها إليك؟، أم صورته هو أرادها أن تمارس دوره الغائب؟

هل كان يدري حسن أن من سيحملكِ إلى مكتب البريد لتستلمي رسالته هو
عاشقكِ التالي؟

ربما لم تكن رسالة حسن على أية حال، غير أن صمتكِ إزاءها لم يزل يعكّر جبيني،
امرأةٌ مثلك تشبه الوطن الكبير، كلما ازداد اتساعاً أرهقنا أكثر في حماية حدوده.

أقلّبُ في فاتورة هاتفكِ التي وجدتها مرميةً فوق سريركِ، الملح أرقاماً في بلادٍ لا يمكن
أن يسكنها أحدٌ تعرفينه إلا حسن، خوفي منه يروّض أسدً غيبي، فأموء لكِ مواء:

((هل اتصلتِ عليه؟))، يأتيك كذبك المرتعش: ((لا.. لم يكن هو.. كانت صديقتي.. كان سالم.. كان.. كان..))، وأبتلعُ سُؤالي ولا أكرره.

هنيئاً لك الحب الذي يبني نفسه بنفسه في غيابك يا حسن.

لماذا تعكسُ الأقدار قصتنا هكذا، أنتِ تقعين في الحب أكثر من مرة، وأنا أطأ على عتبته الأولى في حياتي معك، فإذا بي الرجلُ الساذج، الذي يتعلم منك أبجدية الحب، بعد أن كان أجدر به أن يحمل بين يديه شيئاً من فلسفته، يغريكِ بما على الأقل.

لست أدري كم علمك حسن من الحب، ولكنه بلا شك قدرٌ كافٍ لإبقاء صُورِهِ في أدراجك، ورسائله على مكتبك، ورائحة عطره في ذاكرتك.

أحبته هو لطول غيابه عنك، وأحبتي ربما لشدة التصاقك بك، لست أدري كم كان ينقصني من الظروف حتى يكون لغيابي كلُّ هذه الجاذبية؟ شيء من شتاتِ هذا الرجل كان مغرياً لامرأة مثلك، لم تعرف من قبل كيف هي الحياة خلف جدران وطن، هناك، حيث يصبح للحب معنى آخر، تختلف معه رائحة أجسادنا، وشكل كلماتنا، وطقوسنا في الحب والكبرياء.

هذا رجلٌ تعلم من غربته الكثير، وتعلم من حبيبته الأولى التي لفظت آخر أنفاسها بين يديه الكثير أيضاً، ثم جاء بكل هذه الأحزان التي تُغري بالحب، ليقف على باب قلبك بعض الوقت، ثم يتركه، ويتركني وراءه عاجزاً عن اللحاق بعينيكِ المعلقتين بأطراف معطفه.

هل كانت الحياة ل تمنحني بُعداً درامياً كهذا الذي يجعل امرأة في الرياض، تشتهي رجلاً في مرسيليا، ربما، ولكني أذكر أن حزني جاء شاحباً، عادياً، لا يمكن أن يثير أكثر من شفقة.

بعض الأشخاص، حتى أحزانهم تجيء كما يشتهون.

تعاقبُ رجالي سريعاً على حياتك، ومازلتِ تتراءين لي كلما أمضيتُ معك يوماً آخر كامرأة تعتدُّ بأنوثتها حتى الحد الأخير رغم الانخياز المحف، والامتيازات الهائلة الممنوحة للذكور في البيت الكبير، كانت دهشتي واسعة جداً وأنا أسمعُ منك هذه الكلمة لأول مرة: ((لا تحتاجِ أنثى إلى رجل في حياتها، إلا لتنجب منه))

أذهلني انقلابك الداهم هذا على أساساتِ الفطرة الكونية التي تحمل الحياة، أنا عهدتُ نفسي منذ هو طفولتي مع الفتيات منحازاً إلى الأنثى في كل اصطداماتها الحياتية مع الرجل، لذلك لم أقف يوماً على طرف نقيض معك في محاولة إثبات أو تنفيذ حول هذا الأمر، لم أؤمن في حياتي بمبدأ الأضعف والأقوى، ولكني كنتُ أؤمن أن رجلاً قادراً على حماية أنثاه مما قد يؤذيها، هو يفعل ذلك بدافع حاجته إليها أولاً.

الرجل درعُ المرأة الواقية ضدَّ كل ما هو خارجي ومؤذ، والمرأة درعه الداخلي من انقلابات روحه على جسده، كلاهما يحميان بعضهما، وإذا كانت المرأة قادرة على الاستغناء عن الرجل، وحماية نفسها استناداً إلى المجتمع والقانون، فقد لا يجد الرجل ما يغنيه عنها، فليس في قوانين الدنيا ما يحمي أرواحنا من الانهيار والتفتت لشح الحنان.

المرأة هي الأقوى دائماً في معركة الحياة، ولو نشبت هذه المعركة يوماً، لرفع الرجال الرايات البيضاء قبل النساء.

كان اعتدادك بأنوثتك يوافق في داخلي اعترافاً قديماً عندي بكل ما هو أنثوي، وانقياداً خفياً تجاه الأنوثة كمشروع حياتي أكثر اكتمالاً من الرجل، وأن الإناث هن أساس الحياة وأمها، لذلك هن أكثر تعداداً من الذكور على الأرض.

تساءلت الآن فقط، وأنا أكتب هذه الكلمات، وأتذكر منك تلك الكلمة، إن كان زواجك من سالم إذن كان لتنجي منه فقط.

كم علامة تعجب يكفي لتغطية حيرتي؟، لا أدري بالفعل، هناك جوابٌ خفي في قرارة نفسك، وأنا أؤمن أنك لن تبوح به لي مطلقاً وأنا على هذه الدرجة من العتب.

نحن نبوح بالأسباب الكبيرة، المقتعة، الدامعة، بينما الأشياء الصغيرة قد نخفيها خجلاً أو هروباً من صعوبة تحليلها، هذه الأشياء الصغيرة قد تكون هي المسؤولة عن صنع القرار برمته.

دعيني لا أحتار أكثر في الأسباب الصغيرة التي دفعتك للتخلي عني، والارتباط بسالم، يكفي صدام الأسباب الكبيرة وجراحها.

بلغت فانكوفر في شتاء دميم، لم أنتظر حتى تتراكم علي ثلوجها، فزعتُ ببقية حرارة تجوس في دماي من الرياض، وحملت أوراقاً في الأيام الأولى إلى سايمن فريسر، الجامعة التي قبلت بشهادتي المليئة بعلامات الرسوب، وجيوي الممتلئة بقوت سنة تقريباً، لا أكثر.

أخذت خطاب القبول الرسمي حتى يتسنى لي استخراج هوية لإقامتي هنا، حملتُ

أوراقاً مرة أخرى، وفتحتُ مظلتي التي لم أعود عليها بعد، وخرجتُ أفتش عن عمل.

ما جئت لأرئي شهادة أخرى، إنما مشجبُ الأعداء الذي علقتُ عليها أسباب رحيلي، كان يتأرجح بين عيني بندوق غزلة، يحشني داخل قوقعة دافئة، في صمت لا يأخذ شكل الموت، يمر من فراغات شوكة تمشط شاطئ الذاكرة، وتأخذ الحصى والأحجار وآثار الأقدام، وتعيد الرمل ناعماً، كما كان قبلك.

من يُقنع أُمي بأسباب كهذه؟

ما أسهل أن يقنعها طموحي، وما أصعب أن يقنعها حزني.

وما أصعب أن ألق حزني بالطموح أمامها.

سمعتُ بفانكوفر قبل سنوات، وخبأت اسمها في عقلي حتى احتجت إليه يوم قررت الرحيل، ففترت إلى سطح أفكاري التي ما زالت هلامية بالبحر، لا أدري ماذا كان يسوق أقدامي إلى مكانها البعيد، رحلتُ إليها دون رأي مبرر، لم أفكر كثيراً، كل المدن تتساوى إذا دخلناها بتأشيرة حزن.

كان علي أن أجد عملاً ما حتى لا أبقى خاوياً إذا ما انتهت دروسي، وطاوياً إذا ما انتهت مدخراتي، لم يكن ذلك سهلاً على مدينة تستقبل آلاف المهاجرين كل عام، كلهم يبحث عن عمل، وأمل، وكلهم حزين مثلي على وجه الجزم، فلا شيء يدعو إلى فراق الأوطان إلا حزن ضال، أريد أن أحشو أوقاتي في هذه المدينة بكل الأشياء، قبل أن تحشو ثلوجها عظامي غربةً ووحدة، ليس في كوفية الصوف دفء لمهاجر، لا بد من فوضى أدفن فيها وجعي، لعله يتوه بين دراسي وعملي، أو لعل ساعات اليوم تنتهي قبل أن يجد البكاء له بينها ساعة شاردة.

بدأت دراستي بعد أسبوع لا أكثر، حملتُ الحقيبة الصغيرة، وقلمك الأبيض الصغير، وتعلّقتُ مع المئات ذلك الصباح الماطر في عربات القطار العلوي الذي يقوم في فانكوفر مقام الميترو في مدن أخرى، كان يقطعُ بنا المدينة وأتفرّجُ على كلِّ ما يمرُّ تحتنا من شوارع وأماكن لم أرها من قبل، بعد عدة محطات توقّف القطار في بيرني، حيث حرم الجامعة، مشيتُ المسافة الباقية من المخطّة، ودخلتُ المبنى الجامعي، طويتُ مظلي واجتزت البهو بخطى غريب، فُتشتُ عن قاعة الدراسة، سلكتُ ممرين، ووجدتُ نفسي أمام أستاذ شاب، وحولي ما يقارب العشرين طالباً آخر.

تصفّحتُ وجوههم على عجل، كانت ملامحهم موزّعة على أقطاب الأرض في تنوع بيولوجي عجيب، ربما يحيرُ القادم من الخارج في أي بلد هو، إنها كندا، أكثر الأذرع اتساعاً في العالم، ملايين الكيلومترات الشاسعة، ولا بشر كافون للمثاء.

ملامحُ آسيوية طاغية، صينيون وربما يابانيون مازالوا يكرهون أمريكا، على وجوه أخرى ملامحُ هندية تتراءى بوضوح، أحدهم يعتمر عمامة السيخ وله لحية متوسطة الطول، على المقاعد الأخرى توزّعت ملامحُ كأها من أمريكا الوسطى والجنوبية، بدا واضحاً أنني العربي الوحيد في هذا المكان.

انتابني الشرود الأول في هذا المكان، أنا الذي لم أكمل في حياتي درساً واحداً لم أشرد فيه بعيداً، ولو دقائق قليلة.

تُرى، في أيّ جامعة تُراكِ تدرسين الآن؟

أعلم أنك لن تقبلي بجوار سالم في الغربية مثل لوحة، إن دور الزوجة المكتملة لحياة زوجها لن يدور في أكثر أفكارك خنوعاً، أنت امرأة تدور من حولك الأشياء، وليس في الدنيا بعد ما يمكن أن يجعلك تدورين حوله إلا نفسك.

قلتُ لي مرة: ((أكثر الأشياء التي أثقُ بقدرتي على النجاح فيها دراستي))، المعجزة

الصغيرة التي مرّت على قسم الأدب الإنجليزي في الجامعة كانت أنست، تخرّجت بتفوقٍ يدهشُ شكسبير وديكتر وإليوت أنفسهم، في عينيك يلمع طموحٌ ضخم. ربما كانت فرصة إكمال دراستك خارج الوطن من الأسباب الصغيرة التي أقنعتك بسالم.

بالنسبة لي، كانت دراستي الجامعية هي الأكثر عُثارةً في تاريخي النبيل، منذ عرفتُك والأمور تندرجُ نحو الأسوأ، في البدء انبهاراً بك، ثم تحسراً عليك، كنتُ أهاوى فشلاً بعد فشل، وأوهمكُ أنني أحقق النجاح الذي يرضيك.

كذبي كان صعباً، ولكني لم أرد إيذاءك.

الفصل الدراسي الذي عرفتُك فيه خسرتُ جميع مواده، وعدتُ بخفي حين.

الفصلان اللذان أحبيتكُ أثناءهما، كسبتهما جميعاً للدهشة، كنوعٍ من إثبات الذات، حتى لا يصرفك فشلي، وتأخري عن التخرج، عن أمر الزواج مني يوماً ما. كنتُ أرصفُ طريقكُ إليّ بحماس طفل، وأحاول أن أجعله مغرياً بالمشي فيه.

الفصل الذي رحلتُ فيه كان الأخير، كسبته استجداءً واستعطافاً، أحملُ ورقتي المريضة، أستاذُ إشفاق أستاذ وآخر، حتى ساعدوني جميعاً على تجاوز المواد، تعاطفاً مع كليتي الضعيفتين.

وتخرّجتُ كقذاةٍ حقيرةٍ من عيون العلم، مهندساً وضعياً لا يصلحُ لشيء، إلا الحزن.

الحزن علمٌ بمجدِّ ذاته، من قال أنه لا يحتاج شهادة؟

من يستطيع أن يستقطر حزناً شفافاً لا تخالطه مشاعر أخرى تغير لونه وطعمه ورائحته؟

أنا أستطيع ذلك بعد سنتين من رحيلك، هاأنذا أكتبُ في حالة حزن فقط.

سقط من خلفي القلق، سقط الإحباط، التوتر، الخوف، الوجع، الريبة، الكآبة، الجنون، الهم، الشتات، اليأس، المرض، الضياع، الأرق، التشرد، الوهم، الحبوب، السحائر، البكاء، الغثيان، الضلال، السهوم، القيء.

كلها سقطت، وبقي الحزن وحده، صارياً مزروعاً في صلب السفينة.

لقد غيّر ديار في حياتي عادات كثيرة.

لم يلقنني، تعلمت أن السلّكين إذا توازيا، ربما تنتقل شحنة أحدهما إلى الآخر.

هكذا غيّرني ديار.

جاء الخريف بعد أشهر، تركت شقتي الأولى لأستأجر أخرى تملكها سيّدة عجوز، رأيت فيها انحناءً من أجل الزمن يشبه غابات فانكوفر التي تنحني هذه الأيام لتبكي أوراقها، ففي هذه المدينة يقف كل فصل عند حده تماماً، ولا يتجاوزه، المطر وحده هو الذي لا يتوقف.

على الجسر العملاق الذي يربط نصفَي المدينة النائمة على قطعتين من اليابسة، يفصلهما مضيقٌ بحريّ، كانت شقتي الجديدة تمنحني حلم الطيور الوادعة التي تطير بين الضفتين، لتنزل على شرفات بعض المنازل التي يترك لها أصحابها كل صباح، إفطارها من الحبوب وبقايا الطعام.

أدمنتُ الحنين في هذه الشرفة كل مرة أتخلّلك تجلسين معي فيها، كم كان هذا المكان جديراً بنا، كأنّ الجمال سينتهي من فرط سخائه، ولكن القبح كامنٌ في داخلي أنا الذي جررتُ حزني كل هذه الأميال، لعلّي أجد في هذه المدينة تعويذة

للنسيان، وملاذاً من الوحشة التي باتت معلقةً على جدران ذاكرتي مثل رؤوس الأياكل في بيوت الصيادين النبلاء.

يصبح وجه الحياة أصفر إذا شحّ الأمل في أسواقها، فانكوفر باردة، ولكن عظامي ترتجف برداً قبل أن أرحل إليها، كم هي صغيرة المدن التي نسكنها إزاء المدن التي تسكننا، في طريقي إلى فانكوفر، قضيت ثلاثة أيام في باريس، وحيداً.

إجازة قبل المنفى.

كنت أفكر في مدينة تشبهها، أفكر في حمامٍ ضخم أغتسل فيه من ذاكرتي، قبل أن أدخل على فانكوفر العذراء.

أطلقت قدمي في شتاء باريس، وسمائها الصفراء المتحفظة مثل مدرسة داخلية، بعض المدن تقلب الأشياء على نواميسها، تخترع جمالها، تبهرج بطريقتها أمام زوارها، ولا تحرك في داخلي شيئاً.

سكنتُ غير بعيد من شارعها الشهير، فندقٌ لا يكلفني الكثير في موسم الشتاء، عند بابه عجوزٌ فرنسيّة تبّيع الحلوى بفرنكات، وتبتسم دون مقابل، ابتعتُ منها كيساً، وبدأتُ يومي صباحاً فوق الأرصفة.

على ضفاف السين، شابٌ يجرّ عجلات كرسيه بأمل، ويعلّق على ظهره لوحةً قرأها بصعوبة: ((لا تشفق عليّ، أنا أسعد منك)).

هذه الأرواح الطفولية يصعب أن نجدها في أيّ مدينة.

في مقهى، جلستُ أمام رسام من المغرب يرسم العابرين مقابل مبلغٍ زهيد، فتح صفحة نظيفة على كراسٍ واسعٍ يحمله، وبدأ ينقش وجهي، يترع الأفعنة المتراكمة، ويحاول أن يعرّيني رسماً.

انتابني سكوتٌ عميق وأنا أتأمل المطر الناعم الذي يرشُ الرصيف، قال لي.

ما بك يا صاحبي؟

لا شيء.

عاشق؟

أعدتُ عينيَّ إلى وجهه، كنتُ أفكر في أن ألقى عليه نظرةً تزدري سؤاله غير المهدب، لا أدري لماذا برزت لي فجأة من ثنايا سؤاله وكأنه ذكر اسمك، أو كأنه يرسم الآن في لوحته جسدك عارياً.

أغار عليك من سؤالٍ يطلقه رسام عابرٌ في مدينةٍ غريبة، يكبر حجم غيرتي ليشمل الأسئلة المبهمة.

طوّحتُ بنظرتي بعيداً عنه بعد أن اكتشفتُ أنه مشغولٌ بلوحته، وأنه لا ينظر إليّ، وكأنه لا يبالي إذا كان سؤاله راق لي أم لا. قلتُ له:

- كان هذا قديماً يا صديق، في أول الحب فقط يأخذنا السهوم، أما في حزنه فما يأخذنا هو الاستسلام لسطوة الحياة حتى بنظراتنا.

- كلها استسلامٌ على كل حال، هذا للحياة التي تأخذ شكل الحب، والآخر للحياة التي تأخذ شكل الحزن.

اتخذت عيناه لون حزنٍ لا مبال، وراحت ضرباته على اللوحة تصدر صوتاً أعلى:

- من أين؟

- طنجة.

- لماذا تركتها؟

- حتى لا أعمل قواداً.

- هناك أعمال شريفة أخرى تستطيع ممارستها.

- نعم يا سيدي، ولكني أخاف المال.

تركني في صمتي قبل أن يستطرد:

- أبحثُ في وجوه الناس عن لقمة عيشي، ولقمة عقلي.

- كيف ذلك؟

- عشرون سنة وأنا أرسم وجوهاً، أستطيع الآن أن أخبرك أنك أكثر شبهاً بأمك.

لم أدهش، تصورتُ أن الرسامين يكتشفون مثل هذه الأشياء بسهولة.

- هذا صحيح، أنا أشبه أُمي كثيراً.

- لم تأكل جيداً طيلة الأشهر، ولم تنم جيداً كذلك،

أنت محبٌ بعنف يا سيدي.

- كيف عرفت؟

- عيناك يا سيدي، العينان دائماً فتحتان كبيرتان في

صندوق النفس.

تركته يتفرّس في ملامحي، وأطلقتُ عيني بعيداً.

- ضايقتك؟

- لا يا صديقي، إنني أتأمل باريس قبل أن أتركها غداً.

- عيناك في السماء، ما الذي يعلقهما هناك؟

- أليست سماء باريس؟

- السماءُ كلُّها لا يتجزأ، هذه نفسها سماء بلادك وبلادي،

الأرضُ فقط يقطّعها البشر.

- كيف تجزم بهذا؟، أليس لكل بلد أجواؤه الإقليمية؟
- نعم، ولكن هل رأيت عصفوراً يأبه بالحدود؟

صمتُ لوهلةٍ لأفكر قبل أن أسأله..

- والمشاعر؟
- ماذا عنها؟
- هل تأبه بالحدود برأيك؟
- ماذا تعني؟
- لا شيء.
- أنت تريدني فضولاً، قل ما لديك ولا تخف، لن تراني بعد اليوم.
- لا شيء يا صديق، كنتُ أفكر فقط إذا ما كانت مشاعرهم تتغيّر إذا تجاوزوا حدود الوطن.

طوى لوحتي مثل رسالةٍ رومية، وأعطاني إياها، نقدته أجر رسمه وفضوله، تركتُ فرنكاتٍ أخرى على الطاولة، وقمتُ أمشي، مررتُ على مكتب بريدي، دسستُ اللوحة في مظروف، وأرسلتها إلى عنوان أروى في لوس أنجلوس.

ألم ترفض أروى دائماً أن ترسمني؟

لأنها قبل وفاة يوسف بأسبوع فقط كانت قد أتمت لوحةً له.

كانت توقّع على موته دون أن تدري، وعندما أفاقت ذلك الصباح من نومها ولوحته معلقةً على الحامل الخشبي، مرّت من جوارها وهي لا تدري أنّها أصبحت

لوحة رجلٍ ميت.

لم تجرؤ أروى أن ترسم أحداً منا بعدها قط، ولم تلوث ريشةً بلونٍ طيلة سنتين كاملتين.

أتذكّر ذلك الرسام الصيني الذي اعتزل الناس، وعاش وحيداً في كهفٍ مع جماعةٍ مترهبة، وراح يرسم عائلته فرداً فرداً، هو الذي لا يسمع عنهم خيراً، وبعد سنوات، حمل لوحة أبيه ليحرقها أمام دهشة الجماعة، وعندما سأله أحدهم، كان جوابه: لقد مات، إن السواد يكتنف اللوحة.

وعندما أرسلت الجماعة من يستطلع الخبر كان أبوه قد مات فعلاً.

أروى هي الوحيدة التي يمكن أن تعني لها صوري شيئاً هذه الأيام، حتى أنا لم يكن يعنيني هذا الشاحب في بياض اللوحة، لم أرحل لأنسخ نفسي نسخاً أخرى، بل رحلتُ لأتوحد مع مخلوقاتٍ كثيرة، عاشت في صدري متنافرة طوال فترة حبك.

أحياناً أفتشُ في حياتي عن شيءٍ أعيش لأجله، ولا أعود بشيء، ومنذ أن فتشتُ عنه آخر مرة قررتُ ألا أعود إلى هذه الحماقة مرة أخرى.

أحياناً يعدُّ الماضي، بخرابٍ القادم.

إنه لا يموت، يظلُّ ينعقُ كالغراب في حجراتِ الذكرى، حتى يلفت الأنظار.

إننا نشتهي الموت، عندما نشعر أن موتنا سيحدث انقلاباً ما في الكون، ونستمي الموت، عندما نشعر أننا أتفه من أن يغير موتنا شيئاً.

فرقٌ بين الاشتهااء والأمنية.

أويتُ إلى شقة، وبدأ يأخذني جهدٌ دراسيٌّ ضئيل، وعملٌ بسيطٌ وقُتُّ في إيجاد، يأكل مني نصف ساعات اليوم، الشقة التي استأجرتها من مس تنغل بدت كافيةً

لإيوائي تماماً، وزَّعتُ فيها أثاثاً أفقر من أثاث غرفتي في الرياض، كتبتُ قليلة على الطاولة لهيمنجواي وغيفيك ودستوفسكي، أريكةٌ عميقة نمتُ عليها ليالي قبل أن أبتاع سريراً، أدوات مطبخ، وتلفازٌ مستعمل ابتعته من مس تنغل نفسها.

شعرتُ أن خصوصية هذا المكان، وانفرادي فيه، يتيحان لي أن أضع صورتكِ التي حملتها معي في بروازٍ هادئ، وأسندته على ركنٍ سريري الأيمن، قميصكِ الأبيض المفتوح، وجهكِ الوضاء كشمسٍ هربت معي، وحياءِ جلستكِ الذي يقطر من ورق الصورة.

هذا الطرقِ العالي على باب الذاكرة لم يكن يزعجني، كان يمنحني أملاً.

ولم أكتفِ بطارقٍ واحد، فعلى تسريحتي الخالية، تركتُ قارورة عطركِ الأثير "جان بول" على مقربةٍ من إدمان الليل والنهار، وصهيل الشوق الموحع.

لم تكن رائحة هذا العطر بالذات تضوع، وتنتشر، ثم تختفي بعد زمنٍ مثل كل العطور، كانت تخترق أنسجة النفس، تبني مخيماتٍ وملاجئٍ تقسيم فيها الروح الضائعة، ويتكى عليها الجسد المتعب.

ذاكرة الرائحة أشدُّ ضراوةً في إلحاح الشوق، وأكثر احتكاكاً بجدران القلب، كأنكِ كنتِ تدركين هذه الحقيقة التي تعلمتها من حسن، وأنتِ تتركين لي هذه القارورة المتلفة قبل رحيلكِ، أدركتِ بحس أنثى تقيس دوحتي دائماً أنَّ هذا العطر يذيبُ صمودي تماماً، يجمِّدني في مكاني حتى لا تبقى إلا الأنفاس التي تسحبه إلى الداخل.

إنه عطركِ الذي تمنيتُ أن يكون لي وحدي، وتمنيتُ ألا تكوني قد اخترته أيضاً في جملة زينتكِ المكرَّسة لجسد سالم.

ليتكِ تفين لي بهذا العطر على الأقل ما دام هو سيأخذ كل الأشياء.

قلَّبتُ مس تنغل قارورته بين يديها ذات يوم، كانت تبتسم لشكلها الذي يبدو كجسد امرأةٍ عارية، قالت:

- هل تستخدم هذا العطر؟، لا يبدو لي رجالياً.
- أستخدمه يا سيدتي، ليست كلُّ العطور تُستخدم للجسد.
- لأي شيء تستخدمه إذن؟
- للذاكرة.

في يومٍ آخر، كان لديار تعليقه المغموس في جنونه، لمح القارورة على تسريحتي، لم يلمسها، فقط اقترب منها بهدوء، وقرب أنفه من قممتها البارزة، ثم رفع رأسه وهو يبتسم دون اهتمام قائلاً:

- تبدو أنيقة.
- تظاهرتُ بعدم الاكتراث:
- من تقصد؟

أجاب وهو يغمز بجفنه المائل، ويبتسم بحبث:

- ذاكرتك.
- ولم أكن قد أخبرته عنكِ بعد.

* * *

لقد ألفتُ مس تنغل طيبة جداً.

أحياناً أفكر: أيهما أكثر نقاءً، وأكثر نفعاً لنا، الطيبة المنعكسة عن سداجة، أم الطيبة المستمدة من فهم عميق لهذه الحياة؟

بعد أشهر طويلة من جبرتي لها، استطعتُ أن أجزم بشيء، كانت مس تنغل من الشكل الثاني للطيبة، صنو عطاء.

ظَلَّت تلاحقني بكرسيها العتيق محاولةً أن تخرج من رضائي المسالم بأيّ عيب يضايقني في شقتها، كان سكوتي يُرهقُ رغبة امرأة طيبة في العطاء، راحت تعتذرُ لي عن شقوق طفيفة في الدهان، شَعَلَتْ جهاز التكيف مرتين، باب غرفة النوم يصدر صريراً خافتاً، ونافذة الحمام تنام خلفها بعض الطيور أحياناً.

لم أسألها إلا ما كانت تلبيه هي من عند نفسها، كاد أن يكون التلفاز هدية، لولا أن تمسكتُ بحياء رجل، ودفعتُ لها ثمنه.

سلفي في الشقة رجلٌ ميّت، خلت لي الشقة بعد أن خلت منه الحياة، اُفارت فوق رأسه شجرةٌ مثقلةٌ بالثلوج في الشمال، بعض الأشجار هناك يتجاوزُ طولها الثلاثين متراً، كَتَبَتْ عنه الجرائد أخباراً صغيرة، كان نحاتاً جيداً، ينحتُ تماثيل سكان كندا الأصليين ويبيعها للسواح في متجرٍ له عند جسر كابيلانو، إزميله وأدواته ما زالت في مخزن الشقة، وبضعة تماثيل قصيرة نصف منحوتة، سألتني مس تنغل أن أبقها عندي في ركنها ذاك احتراماً لذكراه، وافقتُ خجلاً وأنا أتوجّسُ من السكنى مع أصنام.

مرَّ شهرٌ وهي جارتني، قبل أن يتجاوز عطاؤها حدود الجيرة بكثير، بيننا تحياتُ الصباح وحكايات المساء القصيرة، كلما ذَهَبَتْ لتسوّق عادت معها شيء لي يتغيّر كلّ مرة، كانت تمرُّ من وراء شرفتي نحو السيارة التي تخدمها يوماً واحداً في الأسبوع، تملكُ السيارة بسائقها هذا اليوم فقط، الأيام الأخرى يملكها مقعدون

آخرون، تخرجُ صباحاً، تشتري ما ينقصها، تجلسُ في مقهى مزدحم، تحضر جمعية الأيل، تزور متحفاً، معرضاً، مسرحية، أوبرا، وتعود مساءً إلى ستة أيامٍ من الوحدة أمام المضيق الهادئ.

لم تكن تتطفّل عليّ، أخبرتني بعد أن صرنا أصدقاء أنها كانت تشعر دائماً أنّ ورائي حكايةً طويلةً بطول الساعات التي تراني فيها أجلس وحيداً في شرفتي، منكفئاً على البيانو الصغير الذي اشتريته بجمّس ما تبقى معي من مال بعد أن نقدت الجامعة ومس تنغل أموالهما لستة أشهر قادمة، كنتُ أحاول تعلّم العزف بسرعة، ليس عندي ما يعوّضني عن كتابتي التي هجرتها تعسفاً رغم احتياجي لها إلا الموسيقى، لم تعرف أصابعي سكوناً قاتلاً كهذا من قبل، لا بد من نقرٍ ما يسلي الروح.

قرأتُ السلم الموسيقي ولكني لم أتقنه تماماً، كنتُ أتطفل على الأسوار، وأتطاول على المحاذاة المتواضعة، والتدرج البطيء، أحاول منذ الشهرين الأولين من تعلم الموسيقى تقليد ياني في مقطوعته To The One Who Knows، أصنعُ شيئاً يشبهها بعض الأمسيات، ولكني غالباً ما كنتُ أشرّدُ بنشازٍ بطيء، حزين، يشبه انطفاء سيجارةٍ قدريةٍ في صدر بطل.

شيءٌ واحدٌ كان يجمع بيني وبين مس تنغل، الوحدة، أنا الذي ما زلت ألتحفُّ بها منذ وصولي قبل ثلاثة أشهر، وهي التي ما ظَلَّت تسكُنُ في جسدها الضئيل منذ ثلاثين سنة.

على هامش الحزن، صرنا أصدقاء.

دعّني مرةً للعشاء في شقتها المجاورة، لم يتجاوز الأمر كونه دعوةً تعارفٍ لساكينٍ حديد، ولكني اكتشفتُ في منزلها مساحةً واسعةً من دفءٍ كبير، ربما كان ينبعث من ملايحها، عيناها طبيتان عفويتان، فمها دقيقٌ تحاصرُهُ تجاعيدُ العمر، شعراتها

تنقسم بين الشقاء والبيضاء، وصوتها هادئ، ووجهها تَرَكَت عليه الحياة آثار عمرٍ من الخيبات المتتالية.

أكثر الأماكن دفناً أحياناً وجوه المسنين، إنها تريد أن نخبرنا، نحن الذين ما زلنا نتسكع أول الطريق، عن الكثير من خبايا الحياة، ولكن صمت هذه الوجوه يترك لنا تنوعاً ثرياً للاعتبار.

خلف كل جعدة من وجهها العجوز، ظَلَلَتْ زمناً، أحتبئ من ألم ما.

بعفويتها التي تدهشي أحياناً، كانت تسألني، وبين كفيها كوب كبير من الشاي تحتضنه، وغيل بجسمها إلى الأمام قليلاً، وكأنها تستعد للإصغاء.

- لماذا أتيت إلى هنا؟

دراسة أم عمل؟، ليس عندي رغبة في الكذب على إنسان جميل مثلها، ليس عندي أيضاً رغبة في البوح لأحد.

انسحابات عديدة كنت لأختار منها باب هروبي لو أن سؤالها جاء أقل وضوحاً.

- لا أدري يا سيدتي، بعض الأسئلة، من فرط ما كررنا إجاباتها

على أنفسنا إلحاح لم تعد تقنعنا.

مطت شفيتها قليلاً أمام إجابتي المتحفظة، وهزت رأسها بفهم، وعيناها مرميتان على الأرض، ابتسمت بمكر طيب، وكأنما راق لها ما قلته، أو شعرت بتحدٍّ غريب إزاء هذا الذي يفلسف إجابته الأولى، رفعت رأسها إليّ، قالت بهدوء:

- دائماً نحتاج أسئلة كهذه يا بني، أليس كذلك؟

- بالنسبة لي لم أعد أدري بماذا تفيدني إجابة لم أكتبها بيدي؟،

لماذا نسأل ما دامت الأقدار هي التي تجيب في النهاية؟، أسألتنا كلها غثياناً فكرياً لا معنى له.

- نحتاجها لنقف في وجه فوضانا، كل الأشياء المحيطة بنا تتأمر أحياناً على خداعنا، إن الغثيان الذي نقضيه مع بضعة أسئلة، يقينا من صدمة متأخرة من تلك التي تحترق الحياة مفاجأتنا بها، إمعاناً في إهانتنا.

- لن تعجز عن إهانتنا يا سيدتي ولو وضعتنا أمامها جيشاً من الأسئلة، أليست هي نفسها الحياة التي تصوغ أسألتنا هذه، وتررعها خلف عيوننا؟، هي نفسها الحياة التي تلد المتاهة.

- هل تريد أن تعيش في فوضى؟

- لم لا؟، بعض الفوضى يشبه الإضراب عن الطعام، في سجن الحياة، احتجاجاً على الأقدار السيئة.

- ولكنها لن توفر عليك أحزانك.

- إنها تشتتها على الأقل.

- ستبقى معك.

- خير من أن يذهب كل شيء.

في قصتها تلك، كنت أصغي بحذر..

لم أكن واثقاً من قدرتي على احتواء حزنها لو أن ما ستقوله حزن، ولست أدري لماذا توهمت أن امرأة بهذا العمر قد تتكى على شاب مثلي ما زال يرثي حزنه الأول، رغم أنها ترسم على فمها ابتسامة رضية، إلا أن الحزن القديم كان يتسرّب بين كلماتها، يغمر الأرض والجدران، ويتحسّس جلدي.

كنت قد تحرّجت من المكث طويلاً بعد العشاء، تأبطت حيائي وهممت بالانصراف

المرتبك، أخبرتني أنها لن تنام قبل أن تتناول دواءها عند العاشرة، كانت الساعة وقتها تجبو نحو الثامنة، وافقتُ على البقاء، لبثنا نتكلم كلاماً صافياً، كان العمر بيننا كبيراً جداً على انتقاء الألفاظ، فهي ستقبلُ من الشاب الصغير كلَّ ما يقول، وأنا سأقبلُ من السيدة العجوز أيضاً كلَّ ما تقول، كلانا يُشفقُ على الآخر من حيث لا يدري.

حدثتها عن حدود حياتي الطافية على السطح، لم أحمل لها أعماقي المظلمة، قلتُ لها في معرض الكلام أن الحياة أحياناً يأخذها نرق العناد، كانت تبتسم بعمق، تنهدت قليلاً بينما لم يزل شبح ابتسامتها قائماً.

لديها أحزانها هي الأخرى، الحزن عنصرٌ ضروري لتكون بشراً، أما السعادة فشيءٌ استثنائي، وجوده أو عدمه لا يؤثر في إنسانيتنا.

راحت تسرده بطلاقة امرأةٍ لم تعد تخفيها الحياة، وعفوية من قصّت نفس القصة مراتٍ عديدة في عمرها.

أخذتني رعدة ترقبِ المحور الفاصل الذي تركها هكذا، وحيدةً، ومقعدة.

تابعت حديثها:

- بعد شهرين، لم تحتمل تربةُ الأرض ثقلَ المبنى، كان هناك خطأ ما في تصميم الشابين الصغيرين، فاهارت أجزاء من طابقه الأول، الذي أنجزناه ونمنا تحته تلك الليالي احتفالاً به، فوقنا معاً، ليدفنه هو وحلمنا إلى الأبد، وبقيني أنا كما تراني الآن طيلة هذه السنوات.

أتأملُ كرسيها المتحرك الذي يحتضن جسمها الضئيل مشلولاً منذ ثلاثين سنة، كم

من الخطواتِ كان يمكن أن تمشي هذه العجوز لولا تلك الحادثة القديمة؟، كم من الأخطاءِ كان يمكن أن ترتكب؟، كم من التأمّلات كان يمكن أن تُضيع؟

الحبُّ الذي مات في بدايته، والحلم الذي قضى في مهده، وقدمها للثان أبقاها الشلل هكذا، ياله من محورٍ حاد.

ربما كان المحور الواحد هذا هو الذي جعلها تفهمني فيما بعد، هي التي قلبت حياتها إصابةً عمل، وأنا الذي قلبَ حياتي حباً يائس.

أليس الحب أيضاً إصابة حياة؟

تَشَقَّقُ قليلاً جدارٌ سكوتي، أشعر أني أرغب في الكلام عنك بعد أن بقيت مدفونةً في شريان العمر منذ عرفتك، مس تنغل حميمةً جداً في كلماتها، ربما سمعتُ منها كلمةً آمنة، ربما منحتني تأشيرة عودة إلى الحياة، من يدري؟

استفزني هذا القلب الجديد الذي قفز إلى أفكاري وهي تتكلم، المحور.

هل كنتُ أحاول التنبؤ بشكل محوري بعد ثلاثين سنة؟، هل كنتُ أحاول فهم كهولتي قبل أوانها؟

بالغتُ في أحلامي.

جاء كلامها محبباً، يشبه النصائح التي تموت دائماً في الهواء قبل أن تبلغ آذاننا، لأنها تأتي دائماً في الوقت الذي نتوق فيه لسماع شيء آخر.

يتشابه كلامهم أولئك المسنون.

- حاول أن تلتفتَ على محورك يا عزيزي، ما زلتَ صغيراً.

وكنتُ صغيرةً أيضاً يا سيدي، فهل ترك لك الحزن مساحةً كافيةً

لالتفاف عليه؟

أحياناً تحكمنها وعورته الزمن يا بني، أنا أعلم أنّ تضاريس الألم لن تخنفي إذا تركناها وراعنا، ولكننا إذا فعلنا، فقد نخلس، على الأقل، مجالاً أوسع للرؤية.

-

يُحَفِّزُها صمّي، يتخهد في كلامها بعد سعالٍ خفيف:

- لن يمسحَ أحدٌ خيبتك، حاول أنت أن تعتبرها مجرد حقيقةٍ لم تتوقعها فحسب.

لعلّي أستفيدُ من خبيتي يا سيدتي، لقد تعلمتُ أن الاستسلام للحزن أحياناً أشجعُ من مقاومته، بعض الأحران لم تأتِ لتقاتلنا، بل لتعصم حول جراحنا أمام الأقدار.

- استفد من خبيتي إذن، أنا الذي أُخذتُ لسنوات بهذا الاعتصام الذي تسميه، ومازلتُ منذ اليوم الذي انهار فيه ذلك السقف أجرعُ عجالاتي الأربع، لقد رفضتُ حتى جلساتِ العلاج، لا شيء في الدنيا يستحقُّ أن نتحوّل إلى جماداتٍ يا بني.

- لم أجد حتى الآن قبراً يليقُ بحلمي بها.

- أوه، مجرد عاشقٍ آخر، في هذه الحياة التي نعيشها لم يجعل الله مصائرنا في أيدي الآخرين، ولكنه منحنا ضَعْفاً كافياً لنسلم مصائرنا لهم.

- سيدتي، هل كان حزنك صافياً أم مشوباً بالقهر؟

- لا حزن يأتي وحده.

- ولكن في قلبي جمرة، وهي لا تزال بين ذراعي ذلك الأبله.

- حاول أن تنساها، كم هي الأحزان الأولى صغيرة.

قالت مس تنغل كلمتها الأخيرة، وانتزعت سداة الدواء لتزلق من العلبة حبةً واحدة، ثم تبتلعها بحدوء دون أن تشرب معها كأس ماء، لوهلة، ندمتُ أي أخبرتها عن محوري، صرتُ أسمىك فيما بعد تلك الليلة هكذا، حتى أوقفتني سخرية ديار عندما صار يسميك دائماً: ((Ms.axis))

لم أجد منها ثمناً كافياً لبوحي، ألا يتقنُ المسنون غير إسداء النصائح؟، ((حاول أن تنساها))، كم هي كلماقم سهلة، ألم تسأل نفسها قبل أن تتكلم إذا ما كنتُ أريد أن أنساها أم لا؟

أنا لا أستلذُّ بحزني، ولكن نسيان حبيتي حزنٌ أكبر.

استأذنها في الخروج وقد التحم العقران عند الحادية عشرة إلا خمس دقائق، وأتركها تطفئ الأنوار، وأمضي.

خرجتُ من عندها وأنا أشعر بضيقٍ خائق، إنها طيبةٌ جداً، لا أشكُ في ذلك، ولكني أنا المغرور بأحزاني، من يأبه بي وبها؟، لماذا أطلبُ الجميع بفهمي كما يفعل الأطفال، أليس من الأجلر أن أفهم نفسي أولاً قبل أن يفهمني الآخرون؟

وهمُ سقراط القدم ((اعرف نفسك))

لو عاش حتى اليوم ما عرف نفسه.

أنفسنا، أوعية الزئبق التي نولد ونموت فيها، إننا نعيشُ مدفوعين بغريزة الغرور، نظن أننا سنعرفها ذات يومٍ قبل غيرنا.

خلَقنا الله بشراً كي يفهم بعضنا بعضاً، فلا أحد يفهم نفسه.

لم أكن أرغب في العودة إلى شقتي، ما زال أمامي ساعاتٌ قبل أن يزورني النوم، وقبل أن أتناول حبة دوائي كما فعلت مس تنغل، وآوي إلى فراشي، بقيتُ أمشي

على ضفة المضيق الذي نقيم عليه أنا ومس تنغل، كان الشارع خالياً وأنا وحدي
أدسُ يديّ في حيوي، وأمشي.

ضبابٌ كثيفٌ يكتنف دهاليزي الداخلية، كلُّ وريدٍ عندي محشوٌ قلقاً، يطرد دمه
خارجاً.

أتوجسُّ خوفاً من صمتِ المياه التي تُصغي إلى حفيفِ أفكاري، تلك التي تتحركُ
معي من أول الطريق، وتسقطُ خلفي، فأمضي وأتركها، بعضُ الأفكارِ لا تستحقُّ
إلا السقوط.

لو كتبتُ لك رسالةً، وصلتك صباحاً، هل سيلبسكِ سالم في المساء؟
الرسائلُ التي لا تعرفُ كيف تدافع عن كبرياتها أولى بها أن تبقى أوراقاً بيضاء، لأن
في عالمنا الصغير هذا، مثل العالم الكبير، أزمة ورق.

يقولون: ((تجاهل حاجتكِ إلى ما تفقد))، وأنا لا أعتقدُ أنني أحتاجُ لكتابة، ما دام
الحزن راكداً، فشأنه ألا يُعكِّره ارتعاشُ الذاكرة.

تمرُّ الأيام على دهشةِ ابتدائنا، ونحن نبحثُ عن لقاء تلو آخر، صار الشوق أكثر
شقاوةً، والحنين أكثر صخباً، ولذّةُ مغافلةِ الجميع من أجلِ الحب كانت تسعدنا معاً،
وكلما تركتك بعد أن نلتقي في مكانٍ عام، ضاعت في ذاكرتي ملامحك الجميلة،
وصرتُ عاجزاً عن تذكُّرها متى أجنّ الليل، وصَهَلَ الشوق، ورحلتُ مع هاتفكِ إلى
فردوسِ الحب الأعلى.

أعجبُ كثيراً لبرود الذاكرة تلك الأيام، كنتُ أسحبُ غطائي ليلاً، أغطي وجهي
من الأشباح المترائية، وأجتهدُ لرسم وجهكِ مرةً أخرى في جفني فلا أستطيع، أنظرُ
إليكِ كصورةٍ مغبِشةٍ بنقاط المطر، أما التفاصيل الطازجة، فشيءٌ يرهقني ولا يأتي.

صباح الأول من يونيو منحتني باسم هذا الحب الوليد، أول قُبلةٍ في علاقتنا.

بكلِّ حياتك المتماذي طبعتها بسرعة على النُدبة التي خلّفتها شفرة الحلاقة في ذقني،
لأشعر أن نفساً من أنفاسكِ تسرّب إلى رئتي، ليورثني سُكرَ هذا الصباح وعربدته.

شهران مرّاً بين اللقاء الأول والقبلة الأولى، لم أكن أعلم إذا كان هناك معدلٌ ثابتٌ
تأتي بعده القبل الأولى في قصص العشاق، أو أنها لا تأتي أصلاً، ولكنني شعرتُ أنّ
قبلتنا تلك جاءت في وقتها.

لأول مرةٍ نلتقي في مكان لا يرانا فيه أحد، اخترنا فندقنا هذا بعناية، في قلب المدينة
التي تحاصر عشقنا، وفكرتُ في ألف خدعة، وألف طريقةٍ ألتوي بها على عيونهم،
وأخيراً جلسنا معاً في غرفةٍ جميلة، وحدنا بعد أن أرهقنا اللقاءات المتوترة في
الأماكن العامة.

جلستُ في انتظاركِ داخل الغرفة، كلُّ ثلاث ثوانٍ كنتُ أقفز أمام المرأة، أيتها
الفضيّة اللامعة التي تمنحنا كلَّ يومٍ غرورنا أو إحباطنا، لا تخذليني أمام مها، ثم أعود
لأتأمل الشارع الصاحب من الطابق السادس، تأخرت قليلاً على ميعادنا هذا،
فهمتُ بعد أشهرٍ أنها عادةٌ شهيرةٌ في عاداتكِ، لا تكسرُها إلا هواتف سالم إذا
خفتِ استيائه.

تناهت إليّ طرقاتكِ خافتةٌ وخائفة، فتحتُ لكِ بيدٍ ترتجف سعادةً ونشوة، جاءني
وجهكِ الجميل، ابتسامتكِ الشقيّة، تحتكِ الخجولة، شفتكِ البارزة، و "جان بول"
بنفسه اعتصر من دمه عطركِ ذلك الصباح.

جلستُ معكِ مأخوذاً باقترابكِ مني إلى هذا الحد، اختلطت أصابعنا العشرون
ببعضها، واختلط ريقنا في الملعقة الوحيدة التي تتناولُ بها الآيس كريم معاً، ونحن
نتحدّثُ عن كلِّ شيء، كلِّ شيء، بحماس طفلين يلتقيان بعد إجازة الصيف، في

أول يوم دراسي.

أخيراً، توقفتنا عن الكلام وبقينا في تأملٍ عميقٍ لمساحتي الوجهين.

لماذا حاولتُ أن أكون أنا صاحب القبلة الأولى؟، لماذا يجبُ أن يتمادى الرجل أولاً؟، لماذا دائماً أنتن اللاتي تغرين، ونحن الذين نعصي؟

رفعتُ يدكِ بارتباك وأنا أهمُّ بتقبيلها، لم أكن أعرف كيفُ تُمسكُ أيدي الإناث، قاومتني أنتِ بضعفٍ حييٍّ، وزادتكِ المقاومة الضعيفة إغراءً، انخبتُ أخيراً لأول مرة، وزرعتُ قبلي الأولى على ظهرِ كفكِ، مؤذناً ببداية لم أفكر في نهايتها.

بعد أن منحتكِ أنا ما يكفيكِ حرج الابتداء، قُبَلتِ بدوركِ جُرحَ ذقني.

لماذا كانت أولى قبلاتكِ لي فوق جرح؟

هل لأنكِ كنتِ تعرفين من قبل كم من الجراح سوف تتركين في جسدي؟، أم لأنكِ كنتِ تعرفين أنَّ هذا الجرح في ذقني كان بسببكِ أيضاً حتى لا أتأخر عليكِ؟، أم لأنكِ اشتبهتِ أن تطبعي شفتيكِ فوق دمي مباشرة، بعيداً عن حاجز الجلد؟

قبلةً فوق يدكِ، قبلةً فوق ذقني، بدايتان خجولتان لتمردٍ بلشفيٍّ ضخم، تاريخُ القبلاتِ هذا لن أنساه.

كم كانت شهيةً وهي تنزلُ عليَّ مثل طائرٍ مسحور، وتتركني معلقاً بين الخرافات، متأرجحاً بين الأساطير.

لأول مرة أفهمُ معنى أن أكون واحداً، فتبعثرتني امرأةٌ حتى الفوضى..

ولأول مرة أجربُ الإحساسَ بالرضاء المطلق من الحياة..

ولأول مرة أعرفُ كيف يمكن أن أشتعل، ولا أحترق..

وأتشقق، ولا أنكسر..

وأدخلُ في غيبوبةٍ، ولا أموت..

كنتِ مندفعَةً وجريئةً، وكنتُ هادئاً خجولاً، بيننا صباحٌ يُطلُّ من شباكِ خلوة، وأريكةٌ تحملنا ولا تشعر بنا، ثم جاءت هذه القبلة، وتبدلت الأدوار، سكنتِ أنتِ مثل البحيرة، واندفعتُ أنا مثل الإعصار.

كم هو معقدٌ هذا الحب.

نحن لا ندركُ أيُّ أوراقه تحملُ الشفرة السرية التي تفتح الأبواب، ولا نعرفُ صفحة البداية في كتابه الخالي من الترقيم، ولا ندري من أين يبدأ، وأين ينتهي.

تقبيلكِ مدهشٌ لدرجة أني كنتُ أبقي عينيَّ مفتوحتين حتى تختصر القبلة، وبين موتٍ ما وميلادٍ جديد، كانت خصلاتُ شعركِ متراميةً على ضفافِ الوجه، وكنتِ تقولين لي:

- قرأتُ يوماً: لا تتقي فيمن يقبلكِ مفتوح العينين.

- لا تتقي بي إذن.

تأخذنا وهلةً من صمتٍ حنون، ثم همسين:

- ولكني أثق بك، ألسنتِ حبيبي؟

فكرتُ فيما بعد، إننا لا نشق في من نحبهم دائماً، في الواقع نحن نتجاهل مسألة الثقة معهم تماماً.

كنتُ أو منُ أنه لا يوجد رجلٌ في الدنيا يمكن أن يشتهيكَ أكثر مني.

قررتُ لحظتها أن أقبلكِ حتى نهاية هاتين الشفتين.

عقدتُ معهما حواراً طويلاً، لم أكن أجيده بادئ الأمر، ولكني تعلمتُ، وقررتُ

بعد دقائق فقط أن أفتح مدرسةً أشرح فيها أن مجموع شفتي مع شفتيك ينتج أربع شفاه، ودوخة..

وأن عناقنا المحموم يفرز أربعة أذرع، وظمأ..

وأن احتضان الأكف يترك عشرين إصبعاً، وحيرة..

وقلبين، ورتنين، وصدرين، ولسانين، وشهوة..

وانتحرنا حباً ذلك الصباح، نجرعنا كأس الرغبة حتى الثمالة، وأكلنا، وشرينا،
وركضنا، ركضنا، ركضنا، ولم نتعب..

وبقي لنا العناق الطويل، الطويل..

لغة غامضة، يتكلمها كل ما يتماس من جسدنا، وكل الأنفاس المفقودة من رثينا،
وكل النظرات التي أخفيتنا عني حياءً، ونقشناها بالإزميل في قلبك.

الدهشة، دائماً، هي قطرة الحليب الأولى في فم أي حب ولید، وأنت أدهشتني هذا
الصباح كثيراً، كل انفعالاتك كانت حكايات قصيرة، وكل كلماتك كانت مواسم
خصب، ولمساتك كانت محاولات طفل على كراسه الأولى، وعيناك كانت ثورة
فرنسية صغرى.

انسحقت تماماً تحت عجالات روعتك ذلك الصباح، دخت كثيراً مع أصابعك
المتجاوزة، وشفتيك المرتجتين، وكتفيك اللذين عادا إليّ مكشوفين تماماً، عارين
أمامي، بعد أن ظننتهما بعيدين كل البعد عن أن أراهما مرة أخرى.

سكنت كل شيء، وحركت كل شيء، في طقسنا المتقلب تحت سقف الغرفة.

كم كنت تجيدين العزف على أعصابي حتى يصيبي الدوار، كم كنت تجيدين الرقص
في المساحات الخالية، والأزقة المغلقة، والمناطق التي يحظر فيها التجول، ويمنع منها

الاقتراب.

كم كنت رائعة في سكون بعد ثورة، وهدوء بعد انفعال، وحنان بعد وحشية
أنثوية عارمة.

أي امرأة تشعل كل هذه الحرائق، وتبعث كل هذه الثلوج، وتغير الأوقات في
مفكرة الليل والنهار، والروتين في حركات المد والجزر، ثم ترتدي ملابسها ببساطة،
وترحل.

حالما ركبتي في السيارة عند الظهر، قلت لي في الهاتف وأنا ما أزال ألمم نفسي في
الغرفة:

ناصر

لبيك يا حبيبي.

أشعر أنا سعيدة بك.

وأنا أيضاً.

وأحبك.

!.....

أنا أيضاً أحبك أيتها الملاك الراحل.

لبست نظارتي الشمسية استعداداً للخروج، كانت ياقتي البيضاء تفضح بعض آثار
حمرتك، طويتها للداخل، وخرجت.

كنت أعلم أننا سنفعل هذا.

عندما تلتقي أرواحنا بهذا الجنون، فلن تقف أجسادنا بعيداً عن حفلة الحب هذه،
يوماً ما، لا بد لها أن تلتقي هي الأخرى، لأن ذلك الميلا العنيف الذي نروي به

جهة الروح الظمأى، لا بد وأن تقابله أيضاً أحساداً تظماً هي الأخرى من أول الطريق.

كم هي محيرة فعلاً سلام الحب، دورانية وتثير الدوخة، بدءاً، كنت أتمنى أن أهاتفك، وهاتفتك، ثم تمنيت أن أراك، ورأيتك، ثم تمنيت أن أصافحك، وصافحتك، ثم تمنيت أن أقبلك، وقبلتك، ولم يتوقف هدير الأمنيات، هناك دائماً من يرفع الأسقف.

بكل مهارة، كنّا ندخل أيدينا في جيوب الزمن، لنسرق منه ساعةً للحب، في مكان آمن أو غير آمن، يحتضن شوقنا المبعثر، ويخفي خلف جدرانته وأسقفه انفجاراً مكتوماً من الرغبة، لا يشعر به أحد.

التقينا غداً وبعد غد في نفس الغرفة من فندقنا الحنون، تسرقين ساعةً من ناديك الرياضي القريب، وتترلين عندي هنا، قبل أن تذهبي إليه بعد ذلك، لم نرحم ستارة تبكي، ولا مصباحاً يشهق، فلم تكن ترحمنا هذه الأشياء عندما كنا نقف أمامها بائسين، ينحت الشوق عظامنا، ويصيرنا تماثيل باردة.

الآن، جاءت لحظة احتضنك فيها حتى يفقد السرير عقله، ويفغر الشباك فاه، وتندب المرأة حظها، لأني قررت أن أنتقم من الأشياء، بقوة جسديك.

كل ما يدور في ذهني الآن هو أن أراك بقدر ما تسمح به ظروفنا المغلقة، وقبل أن يأزف رحيلك القريب، هذا السقف الزمئي المولم الذي أجبرني على الانحناء أوجع حي كثيراً، لأنه كان آيلاً للسقوط، والأيام من أمامه تتلاشى بسرعة، وأنا تحته أنتظر لحظة الانهيار الموعودة.

ربما كنت أسعى تلك الأيام إلى أن أمل منك بالإصرار على رؤيتك كل يوم، ربما تصورت أن هذا هو البر الآمن الوحيد الذي يمكن أن ألتجأ إليه حين يعصف بي

فراقك ذات ليل، لم أعرف إذا ما كنت بهذا الشعور أحاول الانسحاب من حبك بحين وهو في أيامه الأولى، ولكن كل الأشياء أثبتت لي يوماً بعد يوم، كم كنت سخيلاً، وكم أكون دائماً سخيلاً عندما أحاول أن أرسم حدوداً لعلاقتي معك.

كنت من شدة الحب بحيث تغير في قاموسي معنى الملل، وكنت أنت من شدة الروعة، بحيث أبقيت عيوني معلقة في سقف انبهارك بك دائماً، لا تترلين إلى مستوى الرتبة، فضلاً عن أن تصلي إلى حد الملل.

كم كنت أحتاج من ثلوج الدنيا حتى أطفئ شمعتك الساحرة؟، أنت المرأة التي تطيل عليّ النهار، حتى ييكي الليل، وتطيل عليّ الليل، حتى أصبح والشمس عاتبة عليّ كثيراً.

كل يوم كنت أعشق امرأة جديدة، وأقبل امرأة جديدة، وأغسل نفسي على جسد امرأة جديدة، لم تكن إلا أنت، وكأنما كانت تزل على جبينك كل ليلة ألف نجمة، لا تعود في الليل التالي، وتزل نجماً جدد.

ولكن أين أراك؟، مكاننا الآمن يتمرّد علينا، أنت لا تستطيعين الخروج كل يوم، ولا كل يومين، ولا كل ثلاثة أيام، وأنا أشعر أن الأعين في الفندق توجّست قليلاً من مرآنا معاً، فلم أغامر بك، مللنا اشتهاؤنا الصامت في الأماكن العامة المحفوفة بالفضائح، أين يمكن أن أحلس مع حبيبي في مدينة كلها تخنق الحب وتحبسه في عروقنا؟

صرت ألتقطك وجلّ من عند باب منزلك، وأهرب معك خارج المدينة، نقي وحيدين في متاهة الرمل والتراب، أترجل من السيارة، وأخذ مكانك، وأتركك خلف مقودها في جذلک الطفولي، أتأمل انبهارك البريء بحركة السيارة البطيئة، ويديك الحميلتين على المقود، وعينيك المعلقتين على الطريق المهجورة.

هل ستستسين يوماً أنني أول من علّمك القيادة في حياتك؟

كان وجهك فائق الجمال فعلاً، وأنا تذبجني حصلة شعرٍ كانت تنام على كتفيك مهدوء، نترك الليل يتسلّل فوقنا، توقفين السيارة بعيداً عن الطريق، وأديرُ بيدي وجهك إلى ناحيتي، ألتقطُ شفتيك تحت الظلام المُسدّل، وأتركُ أنفاسك الدافئة تتشعّبُ في رئتي، وأحتضنك بقوة خلف المدينة التي تبدو أنوارها على بعد أميال.

تنامُ يدك اليسرى على رجلي في طريق العودة، ويأخذنا السكوت، ونحن نتبادل النظرات كلما سمحت لي قيادتي بذلك، ونظّلُ هائمين طوال الطريق الذي نتمنى ألا ينتهي، ما دام في عينيك هذا الشعاعُ القَمَرِيُّ الحنون، ومادام صديقتنا، لوينلي ريتشي، يهمس عبر المسجل بروعة في غناائه الحزين.

Hello

Is it me you're looking for..

I can see it in your eyes..

I can see it in your smile..

You're all I've ever wanted,

And my arms are open wide..

أقفُ عند باب منزلك، تزلقين من جوارِي بحذر، تمشين خطواتٍ خائفة، تختفين خلف الباب، وأرحل.

سمعتُ من أخي عمر ذات يوم، أن جاراً لأحد أصدقائه ما زالت دماء عاشق ابنته قانيةً على عتبة المنزل، منذ أن أوصلها إلى بيتها للمرة الأخيرة، أرتعشُ للفكرة وأنا أُلقي نظرةً على المرأة الخلفية لأتأكد أن أحداً لا يراني، لم تكن ردّة فعل أهلك لتصل إلى هذا الحد طبعاً، ولكنني كنتُ أخشى أن يقتلونا حرماناً.

بين شتاءين، أبحثُ عن فصلٍ آخر ألقاك فيه، أنت التي صار لقاؤك فرضي السادس، وأول ضرورات شعوري بالأمان والسكينة، أعجبُ كيف تكون لقاءاتنا التي تغصُّ بالترقُب والقلق بواعثَ طمأنينة في قلبي الهائم، وكيف تصيرُ عيناك اللتان تحسّان الطريق ألفَ مرةٍ في كلِّ ميلٍ تقطعه بنا السيارة، واحتِ هِدوءُ أَلْجأ إليهما دون خوفٍ من الآخرين.

* * *

تفهم مس تغل بصعوبة كيف يمكن أن يعيش الحب محاصراً في مدينةٍ ما، رغم أنها قالت لي ذات مرة: ((بعض أنواع الطيور لا تتناسل في الأقفاص المغلقة))، كنت أفكرُ في قولها هذه دائماً، تُرى لو تسنّى للزوجين أن يطيرا قليلاً خارج القفص، هل ينسلان؟، لماذا فكرتُ هكذا؟، لأني شعرتُ أن حرية كهذه، قياساً بما أنا فيه، قد تبدو ترفاً مبالغاً في تخيله، لشدّ ما أتمنى لو يجمعني بكِ قفصٌ ما، فحسب.

كانت تسألني بليل: ((هل كنت تراها كلَّ يوم؟))، وكنتُ أجبُ بحرجٍ أجده في نفسي: ((ربما))، لكنني لا أتمادى في الكذب، لأن هذه العجوز كانت تعرفُ حقاً كيف تحنو على إجاباتي الحائرة، فتسكّطُ عنها بعض الوقت، حتى تنهمر بين يديها كلُّ الأمطار السريّة في ليلةٍ ما.

كنتُ أعلم أن لقاءاتنا كانت أكثر بكثير من المعدل الذي يمكن أن يلتقي به شابٌ بفتاته في مدينة مثل الرياض، ولكن ظروفنا كانت سخيةً جداً، وكانت تمنحنا دائماً المكان والزمان بكلّ طيبة وتواؤم.

أحاول أن أرسم صورةً مفهومةً لشكل الحب في بلادنا أضعها أمام مس تغل ..

كم هو الحب في الرياض عنيف أحياناً، لأنه مدفوعٌ بالثورة على كبتٍ متوارث، وكم هو خائف أيضاً، لأن مصير الثورات التي لا تنجح هو الإعدام.

بين عنفه وخوفه، ثمة فتيةٌ وفتياتٌ يحاولون فرض لغة جيلهم، يتقدمون كلما آذاهم الكبار، ويتراجعون كلما أحسوا أنهم ساروا خطواتٍ طويلةٍ وحدهم، وشعروا بالقلق.

ويتزيفُ الحب كثيراً هناك، كل شعورٍ مبهمٍ يؤول حباً، الشوق حب، والرغبة حب، والشهوة حب، والتمرد حب، وكلُّها مشاعر منفصلة عن بعضها، تأتي وحدها وتختفي وحدها أيضاً، ولكن ثوب التبرير الداخلي الأكثر اتساعاً أمام الضمير، هو الحب.

الدونجوانية هاجس الكثيرين، وبعضهم يزحفُ نحو رومانسية وحيدة ولا يعود بشيء، تتصارع النظريتان في مدينة الأسرار، امرأة واحدة لا تكفي، ومؤخراً، رجلٌ واحدٌ لا يكفي، ولكن دائماً، هناك امرأةٌ ورجلٌ يكفيان بعضهما لو سمح لهما الآخرون بذلك.

هل قلتُ دون جوان؟

يالانزلاقات الذاكرة المولدة.

إنه اسم حسن في لوحة التشنات التي التقيتما فيها..

أرأيت كيف يتركُ بعض الرجال حفرهم العميقة في طريق الآخرين؟، وكيف تدهن بعض النساء طريقنا بالحزن، حتى نترلق فيها بدون رحمة؟

فكرتُ أن أبحثَ عنه بهذا الاسم يوماً ما، لا بد أن أجد سلفي، لا بد أن أجلس معه على مقعد الحرمان المشترك الذي صنعه لنا معاً.

أريدُ أن أعلم فقط هل شُفي منك؟، أريدُ أن أعلم إذا ما كان من الممكن الشفاء من امرأةٍ مثلك.

ما دمنا مصابينِ بنفس المرض، فمن المفيد لي حتماً أن أطلع على ملفه الصحي معك. ولكن حتى لو تماثل هو للشفاء فعلاً، هذا لا يعني أن أشفى أنا بالضرورة.

إن بُنية حبه أقوى، وأنا الذي هدَّ حبك عظامي.

وخبرته في الحب أعمق، هو الذي استطاع أن يقي نفسه منك بالانسحاب.

كما أنه لم يلبث معك إلا ساعات، وأنا احترقتُ بك أربعة عشر شهراً كاملة، حتى تمكَّنت عدواك مني تماماً.

هل سيعلمي حسن إذا التقيته كيف ألقى امرأةً وراء ظهري قبل أن تفعل هي؟، هل سيعلمي كيف أبقي جراثيم الحب بعيداً عن جسد كبريائي؟، هل سيفلح ذلك معي أم أنني تأخرتُ كثيراً؟

هل فكرت يوماً ما أن لعبك مع الرجال كان خطيراً جداً؟، إن المرأة كوكبٌ رقيق، له القدرة على تغيير مداره بسهولة، أما الرجل، فأصعبُ الحوادث الكونية لا تستطيع زحزحته من مداره أحياناً.

لهذا كان تغيير أقدار الرجال صعباً، وعواقبه وخيمة أحياناً.

ليتكَ غيّرت أقداري فحسب، أشعر أنّك تصرفتِ بي مثل يويو، فتأرجحت حياتي كلها على إصبعٍ واحدٍ من أصابع أنوثتك.

يأبى انفعالك المتمرد أن تبقى بعيدةً عن صفحات الرجولة الممنوعة، لم تقفي أمام الكتاب صامتةً حتى يفتح لك زوجٌ ما، لم تجعلك النظرات الصارمة والوجوه العابسة تحمين عن التطفل عليه، رحتِ تختلسين أزماناً من الحياة، وتسررين في أوراقه قصةً بعد قصة، وتترين على الصفحات رجلاً بعد رجل، وكان أسهل شيء عندك قلب الصفحات.

لأن فضول الصفحة الجديدة، كان مغرياً حتى ينسبك دائماً صرخات الصفحة التي قبلها.

لم تعترض حتى الآن أي صفحة على ما سرقته من سطورها، لم تكن لتشكوك أمام الملاء، لم يكن رجل ليفضح نفسه فيعلم الجميع أن امرأة تخلت عنه.

وعندما تملين لعبة التقلب، تفتحين صفحة جديدة عنوانها سالم، وهو يظن أنه صفحتك الأولى فينباهي في استعراض رجولته، لا يدري أنك قديمة جداً في هذا الكتاب.

أتساءل إذا ما كانت كل الصفحات التي مضت ستلتزم الصمت، وتتركك تمرين عليها مرور الكرام أو..

مرور الإناث.

تتحول مس تنغل إلى ملاذ لي من العيش وحيداً في فانكوفر، صرت أوافيها كل مساء بعد أن اكتشفت أنني إن لم آت، فلن يأتي أحد، وحيدة هي منذ أن مات زوجها، ولست أدري كيف اخترقت وحدتها كل هذه السنوات وظلت حية.

خرقت نخيل انطوائي سريعاً، وبعد أسابيع من الألفة، اكتشفت أن انزعاجي الذي كان في ليلي الأولى عندها لم يكن إلا غرور رجل حزين، كانت تفهمني بينما كنت أنا الذي لم أفهم أنها تمارس عليّ طباً أثناء تشخيصها، بدأت أرتاح للمكوث معها طويلاً، قد لا نتكلم، يكفي أن أتابع معها برامج التلفاز قليلاً لأشعر بدفء الأسرة التي أفقدت، كانت تحذرن من البقاء وحيداً إذا كانت هي موجودة، تقصّ أجنحة

حيائي بلطفٍ وذكاء، حتى صرتُ أحيى بيتها وكأنه بيتي.

بيتها الصغير لم يفقد أبداً طابعه الكلاسيكي الأنيق، نصفُ الجدار نافذةٌ تُطلُّ على المضيق الصغير، تدفُّها السناجب كلَّ صباح، رأيتُ ذلك بنفسي وأدهشني، كان السنجابُ يحملُ معه حبة جوز أو حصية صغيرة، أو يكتفي بأسنانه، فيطرقُ بها زُجاج النافذة طرْقاً خفيفاً، حتى تخرج إليهم مس تنغل بكرسيها المتحرك، وفي يديها غذاؤهم من الخبز وبقايا الطعام.

ألا تكفي كلُّ هذه السنوات الطويلة من الجيرة لتغيّر مس تنغل سلوك السناجب مثلما غيّرت أقدار رزقها؟، كأنها كانت تشتري إطلالة هذه المخلوقات الصغيرة ببعض الغذاء، كما تشتري ميني دموعي، وحكاياتي الصغيرة، ببعض الدفء.

منذ أن بدأتُ أبكي أمامها دون حجل، أنا الذي لم أعود على البكاء أصلاً منذ طفولتي، كانت تعني حقاً بكل دمعة، أحياناً لم تكن تواسيني بقدر ما كانت تمنحُ دموعي مكاناً يناسبُ حضورها، ومناحاً يجعلها تتزلُّ دون مورا، ربما كانت لا تُشعرني أنني أتجاوزُ كثيراً حدودَ علاقتي بها عندما أبكي، وتجعله يبدو انفعالاً طبيعياً، بعيداً عن الغرابة.

نصفُ الجدار الآخر كان مدفأة، تصطَفُّ إلى جوارها حوامل معدنية مطلية، تحملُ أكوام الخشب الذي تشتريه مس تنغل من بعض الباعة المتجولين، أو تطلبه أحياناً بالهاتف، وأمامها كانت أريكتان لم تجلس عليهما قط، لأن الكرسي المتحرك كان كافياً لجسدها الضئيل منذ ثلاثة عقود، هاتان الأريكتان هما لطالبي الدفء من أمثالي، أولئك الذين يزحفُ البرد في أوصالهم، ويحتلُّ أنسجتهم وعظامهم، وتهبُّ العواصف في صدورهم، ويتمادى ربوهم في رئاتهم كلَّ ليلة يقضونها بعيداً عن الوطن، أو بعيداً عن الحب، فلا يوجد فرق.

كانت لي أنا وديار.

لن أكابر، كانت مس تنغل قد بَلَعَتْ من صدري ما لم يبلغه صديقٌ أو قلم، ولم تكن خبيرةً في ذلك الشأن بقدر ما رأيتها حنونةً فيه، تفهمُ كيف تجعلُ من عينيها اللتين تحيطُ بهما التجاعيد، منتجع احتواءٍ وأمان، لها بساطتها في فهم الأمور، وأحياناً عمقها في فهم ما وراءها، وهذا كثيراً ما يجعلني أستسلم لها سريعاً، وأستكشفُ عن تحديدها دون طائل، أنا الذي أجتازُ فعلاً أضعف أيام حياتي، في مدينة باردةٍ مثل فانكوفر.

لم تبد لي مس تنغل من صنف العجائز اللواتي يبحثن عن الحكايات فحسب، بل بدت من أولئك اللواتي يزرعن الدنيا خيراً، قبل أن يرحلن عنها.

أتذكرُ كيف كنت أنتِ وحدك تملكين المفاتيح السريّة لهذا القلب، وهذا أمرٌ لا يتضمّنُه الحب دائماً، كثيراً ما نحب أشخاصاً نخفي عنهم الكثير، ولكني كنتُ إذا أخفيتُ عنك أشياء لا ألبث أن أذبحها بقسوة، ثم أحملها بين يديّ إليك، وهي غارقةٌ في دمائها وإثمها.

ذلك لأني قررتُ منذ يوم الحب الأول أن لا أخفي عنك شيئاً، فكلُّ ما نخفيه في آخر المطاف سيتحوّلُ إلى ندباتٍ في وجه الحب، ولم أكن أريدُ له أن يتشوّه بها، الآن أنتِ بعيدةٌ جداً، رحلتِ عني وفي ذاكرتكِ كتابٌ كبير، أُمليته عليكِ بأمانة عاشق.

مس تنغل تريد أن تفهم قليلاً كيف يُمكن أن يُحاصر الحب أحياناً، معنى أن أعشق امرأةً لا أراها إلا لماماً بين الأسابيع، لم أكن أحجّلُ من وطني، ولكني كنتُ أدركُ ما وراء سؤالها، ربما ظنّنتُ أن ما أعانيه هو حالةٌ من الظلم ليس إلا، والكثيرُ من العشاق لا يكون عشقهم أكثر من حالةٍ ظمأٍ فقط، وينطفئ عشقهم هذا حالماً

يرتوون من عيون حبيباتهم طويلاً، كأنَّ حرمانهم منهم يُوجِّعُ العشقَ وينفخُ فيه ليس أكثر، فلمّا نزل القَطَرُ، خمدت النار.

هل هو الجنسُ إذن محرّكُ الحب، كما هو محرّكُ الحياة؟

سيؤذيني فرويد كثيراً لو حَشَرَ نفسه في حيي هذا، سيزرُعُ التناقضاتِ في عمقِ اليقين، حتى ينصدع، وأنا لستُ بحاجةٍ إلى جدلٍ يخرجني من كهف الحب.

عبر أشهر، جرّبتُ الجنس معكِ وما جفَّ من حيي قطرةً واحدةً، وحتى قبل أيامٍ معدودةٍ من زواجكِ كنا نرتوي من بعضنا، وكان فرويد معلقاً على قوائم سريركِ بجبلين، مصلوباً على فقر نظريته، أمام حبنا.

سألتكِ يوماً هذا السؤال، في بداياتِ اكتشافنا لبعضنا:

هل تظنين أن حبنا يتأثّرُ بالجنس؟

أخذكِ الحياء قليلاً، أجبتُ وفي كلماتكِ التواء الحروف في فم طفلةٍ حجولة:

لستُ أدري، ولكن ..

لكن ماذا؟

أشعرُ أنه يُحدث فرقا.

أنا كنتُ أوّمن بذلك أيضاً، أو أُنِي آمَنتُ به أثناء حبنا، ذلك أن الجنس الذي يحفُّه الحب ليس جوعاً، إنما هو نداءٌ جسديٌّ يحاول أن يشارك في حديث الأرواح.

ولكن ماذا عن ذنوبنا؟

هذه الصفحة الغائبة في كتاب الضمير، وأنا أقرأ فيه أثناء حبنا، لماذا لا يحرقني الذنب وأنا أشرب منكِ إلى هذا الحد؟، لماذا يبدو ما نقوم به طبيعياً جداً كلقاء الأزواج؟

صديقي فكرتُ طويلاً في هذه النكسة التي سبّبتها حبكِ في مبادئي، حتى شعور

الفصل الرابع

الذنب لم يكن يعتريني.

كنتُ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ خَفِيَّةً مِنْكَ كَلِمَا انْتَهَى التَّحَامُنَا، لَمْ يَكُنْ يُورِّقُنِي إِلَّا أَنْ يَعَاقِبَنِي اللَّهُ عَلَى عَدَمِ تَعَفُّفِي عَنْكَ، بِحَرَمَانِي مِنْكَ.

حَتَّى مَعَايِيرُ الْعُقُوبَاتِ اخْتَلَفَتْ.

أَبْقَى فِي مِرَافَعَةِ الضَّمِيرِ الَّذِي رَبَّنُهُ فِي أُمِّي مِنْذِ الطُّفُولَةِ بِحَذَرٍ دِينِي وَاعٍ، وَأَتَعَلَّلُ بِأَنَّكَ رَاحِلَةٌ يَوْمًا مَا، فَلَيْسَ عِنْدِي الْإِصْرَارُ عَلَى الْمَعْصِيَةِ، وَأَتَعَلَّلُ بِأَنِّي لَمْ أَلْ جَهْدًا فِي الزَّوْاجِ مِنْكَ وَلَكِنَّهَا الْأَقْدَارُ، وَأَتَعَلَّلُ أَنْ مَقَامِي فِيكَ يَقِفُ قَبْلَ الْحُدُودِ الْأَخِيرَةِ لِلْمَعْصِيَةِ بِحُكْمِ عَذْرِيَّتِكَ، وَأَتَعَلَّلُ، وَأَتَعَلَّلُ، بِالْكَثِيرِ مِمَّا أَلْقِيَهُ أَحْيَرًا خَلْفَ ظَهْرِي، وَأَسْجُدُ لِلَّهِ سَجْدَاتٍ حَائِثَةً كَلِمَا خَرَجْتُ مِنْكَ، لَعَلَّهُ يَغْفِرُ لِي.

سَأُجَاوِزُ بَعِيْنِي الْآيَاتِ الْأُولَى مِنْ سُورَةِ النُّورِ، سَتَجْرَحُنِي يَوْمًا مَا فِي دِفَاتِرِ الْقَوَانِينِ الَّتِي أَمْلَيْتُهَا عَلَى نَفْسِي قَدِيمًا، وَالْإِسْتِقَامَةَ الَّتِي اعْوَجَّتْ فِيَّ وَأَخْشَى أَلَّا يَقِيمَهَا الْإِسْتِغْفَارُ، وَالْحَسُّ الدَّقِيقُ بَيْنَ جَنِيِّ الَّذِي يَتَمَزَّقُ بَيْنَ سِحْرِ حَبْكِ آيَاتِ مُوسَى.

لَنْ تَفْهَمَنِي مَسَ تَنْغَلُ فِي هَذَا، هِيَ أَنْجَبَتْ طِفْلَهَا الْوَحِيدَ قَبْلَ أَنْ تَتَزَوَّجَ مِنْ أَبِيهِ، فَإِذَا بِإِرَادَةِ اللَّهِ تَحْرِمُهَا مِنْهُمَا مَعًا، فَيَقْضِي زَوْجَهَا تَحْتَ أَنْقَاضِ مِنبَاهِ، وَتَمْنَعُهَا الْإِعَاقَةَ مِنْ حَقِّ حُضَانَةِ ابْنِهَا فَيُودَعُ فِي دَارِ عَامَةِ لِرِعَايَةِ الْأَطْفَالِ، حَتَّى كَبُرَ.

قال..

- دُعْ عَنْكَ الْجُلُوسَ عَلَى الْبَحْرِ، مِنْذِ سَبْعِ سِنَوَاتٍ وَهُوَ لَا يَظُنُّنِي إِلَّا جُزْءًا نَاتِمًا، لَهُ سَمَةٌ مَا، يَبْرُزُ مِنَ الشَّاطِئِ الَّذِي يَقِيئُ عَلَيْهِ مِنْذِ الْقَدَمِ.

سَتَدْرُكُ بَعْدَ حِينٍ أَنْ آخِرُ مَا يُمْكِنُ أَنْ تَحْتَرِمَهُ الْأَشْيَاءُ الْآخَرَى عَلَى الْكُوكَبِ، هُمُ الْبَشَرِ.

كَانَ مَسَاءً يَنْتَظِرُ وَخِزَةَ اللَّيْلِ الْأُولَى، ذَوْتَ الشَّمْسِ قَلِيلًا وَانْزَوْتَ دَافِقَةً فِي آخِرِ الْأَفْقِ، كُنَّا فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنَ الْمَسَاءِ الَّذِي نَشْعُرُ فِيهِ بِرَغْبَةٍ فِي الْبُكَاءِ لَا نَعْرِفُ لَهَا سَبَبًا، عِنْدَمَا تَأْخُذُ الشَّمْسُ طَرِيقَهَا ذَلِيلَةً نَحْوَ مَغْرِبِهَا.

تِلْكَ الَّتِي تَحْقِنُ فِينَا الْحَيَاةَ مِنْذِ الصَّبَاحِ، هَاهِي تَحْمِلُ حَقَائِبَهَا لِتَشْرُدَ فِي الْكَوْنِ.

دَائِمًا أَكْرَهُ الْغُرُوبَ، لَا أَرَاهُ إِلَّا تَأْمَرًا عَلَى النُّورِ، يَقِفُ الْبَشَرُ أَمَامَهُ عَاجِزِينَ كُلَّ احْتِضَارِ يَوْمٍ، إِحْبَاطٌ كَوْنِيَّ مُتَكَرِّرٌ، يَبْعَثُ فِي أَجْسَادِنَا الضَّعْفَ، مِثْلَمَا يَبْعَثُ فِي الْأَفْقِ الظَّلَامَ.

كَانَ دِيَارِ يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ خَفِيفٍ، وَسِيَّجَارَتُهُ تَتَأَرَّجُ مِنْ فَمِهِ، وَعَيْنَاهُ مُنْتَصِبَتَانِ عَلَى الْأَفْقِ، مُنْغَلَقَتَانِ تَقْرِيْبًا إِلَّا مِنْ شِقِّ صَغِيرٍ يَنْظُرُ مِنْ خِلَالِهِ، يَمُرُّ بِنَا كَيْسٌ وَرَقِيٌّ

صغير، تتقاذفه الريح، ينتبه ديار، يسحب نفساً من سيجارته، ثم يتكلم من بين الدخان المندفع مع هواء البحر.

- تأمل هذا الكيس يا صديقي، اتبعه ببصرك لدقائق، تراه ينسحب على تراب الأرض، يرتفع أمتاراً، ثم يهوي، ينتفخ بالهواء، ثم تُفرغه الريح من كل شيء، فتلتصق أطرافه ببعضها، ويطير إلى مكان آخر، منذ الصباح وهو يجاهد عذابه هذا، صباحه الأسوأ منذ أخرجه آله، تحيل ضعفه وهوانه وهو لا يملك حتى القدرة على السكون، تحيل أنت أن تفقد يوماً ما كل شيء، حتى قدرتك على الموت.

أتأمل الكيس معه بدهشة، أذكر فيلماً فيه شيء كهذا، ربما رأيته معك، ولو كنت أعلم أن ذاكرة الأفلام التي رأيته في غرفتك طيلة سنة ستولني فيما بعد، ما رأيته معك أي فيلم.

ينفض ديار دخان سيجارته، ويهمس في ذهولي ببطء خفيف:

- ذات يوم ستكون مثله، فاترك البحر.

يرحل الكيس بعيداً، وتنطفئ الشمس، وسيجارة ديار معها، في منفضة البحر الضخمة، تدهمني غربة شديدة، فأطوي قدمي، وأضمهما إلى صدري بقوة، وأسند ذفني على ركبتي، ويخرج من عيني نور قلقل.

تركت ديار يتكلم، وقررت أن أتكى على كلامه أياً كان، ما دمت لا أملك في داخلي كلمة يمكنها أن تنتصب واقفة في وجه الريح التي تتربص بي بعد أن أوجعت الكيس، سأصمت قليلاً، وسيقول:

- قضيت خمس سنوات منذ أتيت، أسلم نفسي لأشياء أخرى، وكل ما كنت أؤمن به أنني في آخر المطاف شيء مثلها، ولا بد أن نفعل مع بعضها لنشكّل لنا حياة، ولما كنت أشعر أنها أقدم مني في المكان، فقد تركت لها كل شيء، وبقيت تحت رحمتها، تحركني، وتتحرك داخلي، وأنا أعيد لها زمامي كلما انفلت من عقاله في لحظة تمرّد.

فهمت، بعد سنوات، أنها لم تكن تشعر بي في مداراتها اليومية، أشياء لصيقة جداً بي، البحر هنا، والتلج هناك، الأرصفة التي تمشي ونحن واقفون، مقود السيارة الذي يُشكّل الطريق، شرفة المنزل التي تغرب عن الشمس، ملابس التي تبتل فوقها السماء، وأنا أيضاً لم أكن أشعر بنفسي.

وأنا أيضاً لم أكن أشعر بنفسي مع ديار، كانت أعصابي ترتجف في داخلي، أشعلنا سيجارتين معاً هذه المرة، وانسحب الدخان إلى رتيه بقوة، وظلت لفافتي تأكلها النار على مهل، لم أكن أستعجل موتها، ربما كرهت أن أسلم للريح ضحية أخرى. قلت له بهدوء قلقل:

- لن تترك الأشياء واجباتها الكونية من أجلنا يا ديار.

- أدركت هذا متأخراً للأسف، وبقيت لستين أهرب من وجه لا أراه، ولكني أظنه يطاردني منذ لفظني العراق، حاولت أن أستعيد نفسي من هذه الأشياء، ولكنها كانت تجهل أين تركتني آخر مرة.

وقفنا لنمشي، سبقني هو بخطوات، ووقفت أنا لأتأمل قامته من الخلف.

هذا الصاري الملقى هنا منذ انتفض الجوع، كم من الأعاصير تقاذفته موجةً بعد موجة حتى وصل إلى هذا الشاطئ؟، وكم من صهوات الحزن كان عليه أن يمتطي حتى يقف هنا يوماً ما؟

مشيتُ معه، ربما كنتُ أحتاج ذاكرةً أخرى، وبلداً آخر، أنا الذي التحفتُ بالغربة قبل أن يفقدَ قلبي حزنه، وقبل أن أحفَّ في صحراءِ بلادي، قررتُ أن أركُمُ كلماتي على بعضها قبل أن يستحلَّ الصمتُ في جسدي.

يقول:

- صار حزنكم أيضاً ترفاً تستمتعون به، كأنك لم تفارقِ وطنك يوماً وأنت تعلم أنك لا تقدر أن تعود إليه، ستحملك الريحُ بعيداً، قبل أن تجرَّبَ حداً من الألم، وقدراً من البرد، يُعلمك كيف تنسى هجرتك المترفة هذه، وتعودُ إلى وطنك.

في عينيه ثمة عطف، ولكنَّ كلماته قاسية، تعودتُ عليها قليلاً، لأن هذا ليس هجومه الأول، لعدة مراتٍ التقينا في مقهى كبير خلف شارع روبسون في فانكوفر، وفي كلِّ مرةٍ كانت تهاجمني عيناه، حتى تعارفنا، فالتَّخذَ لهجومه أسلحةً أخرى.

كان عربياً بنظراته، يتوجَّسُ الحذر، ويغلِّفه بحفاوةٍ تشبه التحدي، وكان لا يحتاجُ إلى أكثر من نظراتي ليفهم أني وحيد، أجلسُ في هذا المقهى لأكتب درساً أو أنجز عملاً، هارباً من شقتي التي تلبسني ثوب الوحدة، لاجئاً إلى من لا أعرفهم، ولا يعرفوني، ولكني أرى فيهم مجتمعاً بشرياً يبعثُ حداً أدنى من الأمان على الأقل.

كنتُ أتأمله وهو يُفرِّغ أكياسَ السكرِ في قهوته، ثم يجرِّكها ببرود، ويحملُ الكوب بين يديه، وتنقبض ملامحه وهو يرشِفُ رشفةً كبيرة، ثم يترك الفنجان المنهك، ويشعلُ سيجارته ويعتدل، ليكسرَ نظرتي البلهاء.

يبدو صلباً، وأنا فقدتُ هذه الحالة الفيزيائية منذ أتيت، عينه اليسرى تنكسرُ قليلاً لتترك في نظراته ازدواجاً ما، يظهر أكثر وضوحاً إذا نظر إلى ما هو أدنى، مثلي تقريباً، وسامته مُرهقةً جداً، بذقنه التي لم تُحلِّق منذ أيام، وخصلات شعره الكثيف المتناثرة على جبينه، وشفتيه السمراوين من أثر التبغ.

ذلك اليوم، شعرتُ أنَّ معركة النظرات ليست في صالحِي، هَرَبْتُ من تحدِّيه، وتركتُ مكاني ذاك، وعُدْتُ في المساء التالي لأجده في نفس المكان، ونفس الهيئة التي تركته فيها البارحة، كأنه نام هنا، شعرتُ تلك اللحظة أني بهيئتي الجديدة التي أتيتُ فيها، والطاولة الأخرى التي اخترقها أبعد من طاولة الأمس قليلاً، أبدو نشازاً في ثبات اللوحة.

مساءاتُ التقينا فيها دون أن نعرف بعضنا، ألفتُ ملامحه، ودخانَ سجائره، ونظراته القاطعة، ولهجته العراقية التي يرحَّبُ بها بصديقٍ عربيٍّ عابر.

وعربُ فانكوفر قليلون، منذ وصلت، لاحظتُ أنَّ أغلبَ الفئات العربية لبيبة، ربما لأنهم لا يستطيعون الدخول إلى الولايات المتحدة، أما المدن الشرقية من كندا فتغصُّ باللبنانيين المهاجرين، والسوريين، والفلسطينيين، حتى صار لحضورهم أثرٌ شاميٌّ وجبليٌّ بارزٌ في مونتريال وتورنتو وأتوا و غيرها من مدن الشرق.

لم أعد أدري في هذا الزمان من الذي ضُربت عليه الذلة والمسكنة فعلاً، لا نريد أن يكون لنا أثرٌ بارزٌ في بلادٍ غريبة، نريد أوطاناً لا يطردنا منها أحد، فحسب.

كلُّ إنسانٍ عربيٍّ يظأ لأول مرة هذه الأرض مهاجراً من وطنه، إنما يؤرِّخُ لظلمٍ ما.

كم من المحاكم نحتاج حتى نعيد كل مهاجرٍ إلى وطنه؟، وكم من العمر سيكفيهم انتظاراً لهذه القضايا الأبدية؟

هو ديار، متظلم آخر في المنفى.

ذلك اليوم، تجاهلت وجوده أمامي في المقهى، وأسندت رأسي على يديّ الملتقيتين
بزواوية حادة عند طرفي جبيني، ضاغطاً على أعصاب العين، وغارقاً في فوضى
الطاولة.

بعد أن رفعت رأسي كان لا بد أن أنتظر قليلاً حتى تسترد عيناى القدرة على
الإبصار، أثناء ذلك، سحب هو الكرسي المقابل، وجلس أمامي، قبل أن أفيق من
إغماءتي الصغيرة.

- ديار، من بغداد.

- ناصر، من الرياض.

إنه مثلي، يشعر أن انتماءه لمدينة أشمل من انتمائه لوطن.

* * *

تحدثنا طويلاً، وشمنا كثيراً، كثيراً..

الشيء الوحيد الذي عجزت عنه قمعه كل الأنظمة العربية تقريباً هو السنة
مواطنيها، ولو زرعوا المقاهي رجالاً، ولو جعلوا الكراسي والطاولات نفسها
جواسيس على روادها، ستبقى سخريتهم أكثر المسكنات الشعبية تداولاً.

عندما يلتقي الغرباء، قلما يتحدثون عن غير الوطن، إنهم يتبادلون الجراح خفية،
ويستعيدونها عند التفرق، حتى يلتقوا مرة أخرى.

المدهش أن جراحات الغربة حجمها ثابت، ربما كان أفضل ما تفعله الغربة بنا أنها
توقف تمدد الجرح، أما الشفاء، فمعضلة مستحيلة.

والمدهش أيضاً أن جراحات الغربة هي الجراح الوحيدة في الحياة التي يمكن أن يرثها
الأبناء من آبائهم، دون أن تدرج تحت قوانين الوراثة، لن ينسوا أبداً أنهم منفيون،
مهاجرون، هم الذين لم يروا سماء بلادهم أصلاً، ولا وطئوا ترابها.

كيف ورثوا المأساة؟، إنها حتماً قوانين الحزن الوراثة، تلك التي لم يضعها مندل.

رغم هذا، لم أكن متأكداً أن كان ديار يستطيع أن يفهم حزني، غير أنني جهدت منذ
البداية أن أجعل هذا الفهم معقداً قدر استطاعتي، لأنه كان قاسياً جداً في انتقاد
مشاعري، متسرّعاً في أي حكم يطلقه، وقاطعاً فيه لا يتراجع، ولم أكن أجد في
نفسى الرغبة في جداله، وتحدي قناعاته.

كان ثورياً بعض الشيء، بل كل الشيء، من أولئك الذين نفكر أحياناً قبل أن
ندخل معهم في معارك صغيرة.

قال لي مرة قبل أن يقوم:

- لا تكن يائساً كرجل، كن طموحاً كامراً.

لم أفهم لماذا يُصرُّ على أن تكون كلماته قاطعة إلى هذا الحد؟، لماذا يملأ الجمل بأفعال
الأمر، وحروف النهي، ويتحاشى حروف العلة ما استطاع، ثم يطلقها ساخرة شيئاً
ما؟، لو كلمه رجلٌ غربي لجادله طويلاً، ولو أنني صادفته قبل هذا الزمن، لكنت
معه على غير ما أنا عليه الآن، من ركون وهدوء.

جبروت لسانه يُعجزني كثيراً، وأنا لسانی فَقَدَ العديد من مهاراته الحوارية لطول ما
احترف الصمت، ولم يكن لي بدٌّ من ذلك.

ربما نسيْتُ الجدال العربي، في جملة ما ضيّعتِ الغربية من مآثري العربية الأصيلة، ولكن غريته هو كانت أولى بذلك وقد طالت سبع سنوات، كان رجلاً يُعجزني ببساطة في تكلمه، أطلبُ أنا كوبَ ماء في عشر كلمات لشدة توتري، بينما يختصرُ هو حياته كلها بجملة واحدة..

- في الشرق وطنٌ يحترق، وأنا بعض هشيمه المتطاير.

يدي تحملُ له كوبَ شاي، وترتعشُ في زلزال نبرته، ويُلجِمني السؤال، كم من الجمر خلّفه هذا الرجل وراءه في وطنه ذاك؟

رُبع قرنٍ والعراقُ يحترق..

ولا تفنيه النيران، هذا المارد السومريُّ القدم، إنها تأكل طغاته لتُثبت الأرضُ غيرهم، ويموتُ الناسُ ثورةً بعد ثورة، وحاكماً بعد حاكم، ويدفعُ الشعبُ ثمنَ شاطئٍ مليوناً من أبنائه، ليتنازل عنه الكبير بعد سنوات قربان سلام، ثم يبدأ موتٌ آخر.

قال ديار..

- صارت بغداد مدينةً تعبدُ الموت، وتقدّم إليه كلُّ يوم قرايينها من الأطفال والثائرين، في الشوارع كلابٌ كثيرة، وفي المدن الأخرى، ودجلة ما زال صامتاً حتى الآن، والفراتُ الذي عرفناه ثائراً، أصبح حاسوساً للنظام.

ديار ينتهذُ، لأول مرة منذ عرفته، ثم يُكْمِلُ حديثه:

- دكّتنا ثلاثون دولة، لم يجتمع في تاريخ البشرية هذا العدد من الأمم على أمةٍ واحدة، حتى الحروب الصليبية كانت أكثر اعتدالاً من هذا الإسرافِ الحربي الشَّقِيق، مات في نيرانهم من

مات، أما من نجا، فلم يَنْجُ من وطأة الجوع والمرض.

أعادني ديار إلى الورا.

كانت حربُ الخليج حربَ طفولتي، استيقظتُ صباح الخميس أحاول أن أفهم، بمنطق الثانية عشر، أن دولةً أكلت دولة، وأنها الآن في طور المضغ، كنتُ أراوُحُ النظراتِ في وجوه الكبارِ المستكبرة، والمندهشة، وأحاول أن أختلس منهم ملامح أستطيع أن أكسو بها وجهي معهم حتى لا أبدو صغيراً على الفهم.

ولم تستمر حالة الحيرة هذه طويلاً، جرائدُ الغد كَفَتْنَا البحثِ عن الشعور المناسب تجاه الأزمة، وزَّعت علينا أقنعة الموقف كما وزعت أقنعة الغاز فيما بعد، إذن، كان علينا أن نستنكر، ونغضب، ولنعلن كلُّ ما هو عراقي، قبل أن ننتبه بعد سنوات، أو نتظاهر بالانتباه، أن شعب العراق كان الضحية الأولى لحماقة رجلٍ مغرور.

اندفع الآلاف من الشعب الهارب، تدفَّق سبل الكويتيين علينا عَرِماً ومع كلِّ دفعٍ منهم مأساة ما، ارتسمت على وجوه الجميع علامات ذهولٍ حفر نفسه في ملامحهم، لم يفهموا لماذا جاء القدر محورياً إلى هذا الحد؟، لماذا لم تسود السماء قبلها؟، لماذا لم تعصف الرياح سبع ليالٍ؟، لماذا لم يأثم نبي؟

هل ابتلى الله مؤمنينهم، أم عذَّب عصائهم؟، أم أنها مجرد حكاية سوداء في سياق القدر، كان هامشها مؤلماً؟

كان السؤال الذي يخشون جميعاً إجابته: هل سيعودون؟

لأنهم خرجوا جميعاً مثل فلسطينيي ٤٨ الذين كانوا يرددون: غداً نعود.

أربعة وخمسون عاماً، ولم يعد الفلسطينيون حتى الآن، رغم الحروب التي خاضها العرب مع إسرائيل، ورغم الجهود التي بذلها العالم أثناء ذلك، ورغم الجازر التي

شاهدها الجميع في الأراضي الفلسطينية، لم يعودوا.

فلماذا كان يمكن أن يعود الكويتيون تلك الأيام؟، ليس في أرضهم حرمٌ يهفو إليه المسلمون مثل القدس، وليس من يواجههم عدوٌ أزيّ مثل اليهود، بينما يتفجّر تحت أقدامهم نفطٌ يجعل الخيانة السياسية من الدول الصديقة مبررةً جداً، إذا اقتضى الأمر.

في ظرف أسابيع، امتلأت الإسكانات العامة، والمدارس المعطّلة، والمباني الحكومية الخالية، بأسرٍ كويتية لم يعد لديها وطن إلا صدور الناس، صهرت النار التي أشعلتها المأساة القلوب معاً، وتلوّنت عيوننا بلونٍ عربي واحد، هبّ الجميع لم يد العون لهذا اللجوء الكبير، وبعد أيام، كانت دولةٌ ما، تستضيف دولةً أخرى، بأكملها.

مشاهدٌ ما كان أروعها لولا الخلفية السوداء للحدث، لا زلتُ أتذكّر الرجل الذي وقف بأسرته أمام متجرٍ صغير يحاول أن يشتري لهم شيئاً وليس في جيبه إلا دنانير كويتية لم تعد ذات قيمة، فطفرت من عينه دمعَةٌ لم يكدها بمسحها حتى كانت أمامه رزمةٌ من المال، ألقي بها عابراً أمامه، وتوارى وهو يخفي وجهه.

العشرات الذين كانوا يقفون أمام أبواب الفنادق ليعرضوا على القادمين بيوتهم وقلوبهم بدلاً من الفندق، والآخرين الذين تجمعوا شيئاً وشباباً ليسهموا في تنظيم الجموع، وتوزيع المأوى، والإعاشة بأسرع وقتٍ قبل أن يتسلل الشعور بالهوان في نفس أي منهم، وكانت أياماً كل ما فيها يُكي، إما تأثراً، أو حزناً.

ارتفعت أسعار أجهزة الراديو بجنون، ليبرهن ارتفاعها على شكوكٍ متأصلة في نفوس الجميع حول مصداقية الإذاعات الحكومية، هنا جيلٌ بأكمله من البشر لم يسمع بالحرب من قبل، سنواتٌ مرت عليه من الأمن، والسلام، ورغد العيش، ولأول مرة يقف عدوٌ ما على حدوده، بجيوشه الجارية.

وانقلب الشارع على بكرة أبيه إلى أفواه لا يخرج منها إلا السياسة، حتى الأطفال بدأوا يتشدّقون بما يسمعون من آبائهم، وعُطّلت المدارس، وتمددت إجازة الصيف شهراً آخر، والجميع ينتظر إشارة البدء في الحرب.

وانتشرت موضة الملابس العسكرية الموهة بالخاكي في أوساط المراهقين انتشار النار في الهشيم، وتأججت في النفوس حميةٌ مجهولة، وتدافع الآلاف من الشباب إلى مراكز التطوع، وتحول الوطن بأسره على خيمة تردّد بصوت واحد أغنية الحرب التي اشتهرت بشدة تلك الأيام:

هَبَّتْ هبوب الجنة وين انت يا باغيها
عدونا خاب ظنه والروح .. نفديها

هل سيستخدم صدام سلاحه الكيماوي؟، وانتفض السؤال بقوة في عروقتنا ونحن نسمع الحكومة المتحفظة دائماً في تصريحاتها تؤكد إمكانية ذلك، وخلال أيام، كانت الملايين من الأقنعة الواقية قد وزّعت على المواطنين، وبدأ الجميع في إعداد ملاحئ في بيوتهم متبعين الإرشادات التي ظل التلفاز يبثها ليل نهار، وارتسم على جميع الشبابيك خطان متقاطعان من الشريط اللاصق تحسباً لتهشمه في غارةٍ محتملة، وتغيّرت العادات، وتلممت الأشتات، وجلس الجميع يترقب صفارة الإنذار الأولى.

ولأول مرة ينفجر في الرياض صاروخٌ ما في تاريخها، منذ أن كانت قريةً منسيةً تدعى حجر اليمامة، قبل آلاف السنين، وجاء الثاني ثم الثالث، بعد الأول بدقائق، وفي الصباح التالي، كان العشرات من أهل المدينة يترحون عنها غرباً وجنوباً، مخلفين وراءهم الملاحئ التي أعدوها، وأقنعة الغاز التي اشتروها، وثياب الشجاعة التي تسربلوا بها.

وطنٌ اعتاد الأمن، حتى أصبح الأمن مرضاً.

تتابع القصف الناري على العراق، دكوا مئات المواقع، وهو يرد على استحياء صواريخ قليلة، على الرياض، والمنطقة الشرقية، وتل أبيب، ولم يكن ليدور في حسابنا أننا سنكون يوماً ما مع إسرائيل عدوين لدولة واحدة، إن هذا لا يحدث إلا في الحروب التي يديرها الحمقى.

سنة أشهر، وانتهت الحرب واهزم صدام بجيشه، مشعلاً النيران في آبار النفط كالأطفال، وساعياً إلى كسب معركته الإعلامية مع شعبه، الذي غلب على حزنه، وأجبر على أن يرقص باكياً، ابتهاجاً بالنصر الموزر في أم المعارك.

وخرج العرب من ذلك كله بأغسطس الأسود، لينضم إلى أخويه الكبريين، حزيران الأسود، وأيلول الأسود.

لأننا عندما لا نستطيع أن نضمد الجراح، نسودّ الشهور.

بقي عندنا تسعة أشهر تنتظر سوادها، ما دامت فرشة العرب لا تلد إلا السواد، ربما اخترعنا هذه التسميات حتى نوهم أنفسنا أن ما تلتطخ بالأسود بضعة أشهر فقط، وأننا لسنا متسربلين بالسواد منذ عشرات السنين.

ستمرّ قرون قبل أن يصدر قرار عربي بتغيير أسلوبنا في الرسم، وقبل أن يتوقف الزعماء عن توريث اللون الأسود مع صولجان الحكم إلى من يخلفهم، لأن مآسينا العربية متشابهة دائماً، لا أدري لماذا لا يغيرون شكل طغيانهم حتى يصبح تاريخنا أكثر تنوعاً على الأقل، ربما نمنح أحفادنا كتب تاريخ غير مملة.

يقول التاريخ: ((القعر دائماً، هو المكان الذي يتساوى فيه الضحك والبكاء))، ربما هي نهاية العهد إذن، هاهي حبة تفاؤل صعبة تلقي بنفسها في طريقنا.

لم أكن في حاجة لأن يخبرني ديار بما حدث في حدود بلده بعد حرب الخليج، لم

يكن هو في حاجة لأن يخبر أحداً أيضاً.

بعد هذه السنوات، بدأ صدام يبتز بأفواه الأطفال عواطف العالم، يشتري بجموعهم وأمراضهم أنابيب تنقل نفطه، وتغرس قدميه في الكرسي حتى صار كرسي سلطته ذا ست قوائم، ونحن نجوع ونعري ألماً مع الجوعى العراة، وكل شيء ملتبس في دهاليز السياسة، وما زال التحقيق جارياً، وما زال المجلس منعقداً، وما زال العراق باكياً، وما زال الأطفال جوعى.

ديار فقد ابناً، قال لي ذلك..

- كان رضيعاً في مهده، عيناه غائرتان بشدة، ورأسه الكبيرة تثقل،
وتثقل رقبته، يفتك الداء بأمعائه ليقى دماً في وجه الحصار،
ودماً في وجه النظام، كنت أتمنى لو يكبر، مات قبل أن أخبره
أنه كان ضحية، ولم يكن معي أحد يوم دفتته، وحدي أنا
وجسده الصغير، وقبره.

- وأمه؟

- كانت قد ماتت بعد ولادته بأيام.

يا لهذا السيناريو السخيف الذي رميت به سؤالي، أتراني سألته بكل هذه العفوية، لأسمع منه هذه الإجابة تحديداً؟، بدا لي سؤالي وكأنه محشور في الحديث فقط ليبرر الإجابة التي بعدها، أطرقت، مؤنباً فشلي في أن أكون بمستوى بوحه.

سألته محاولاً الإقالة من عثرتي سريعاً:

- أمن أجل هذا رحلت؟

خرَجَ سؤالي مرةً أخرى قبيحاً أمامه، تمنيت لو أني تركته منذ البداية يواصل هدهوء دون أن أقاطعه، أعلم أن مثله لا تستفز الأسئلة للمزيد، بل ربما تحمله على التراجع.

كان أسئلتي أصغر بكثير من حزنه، لو كنتُ فُلَسَفْتُها له قليلاً ربما بدت أكبر، ولكني كنتُ أصغي لديار كطفل، وكانت حكايته خفيفة، فَوُلِدَتِ الأسئلة مرتجفة.

ما حييت، لن أنسى نظرتَه تلك الليلة.

رَفَعَ إليَّ عينيّن ذابلتين، تنسدلُ من خلفهما مرارة عميقة، وكأن دموعاً جافةً كانت تملأ عينيّه، بقيتُ أياماً أَقْلَبُ نظرتَه تلك في ذاكرتي، وكلمته التي أخرجها من الجحيم، وألقى بها في وجهي، مثل شيطانٍ يتلوّى.

قال:

- عندما يعجزُ الوطنُ أن يمنحنا أكثر من صدوعٍ ضيقة لدفن أبنائنا،

هل نبقي؟

صَمَتْنَا معاً دقائق، قبل أن يتنهّد ديار، وَيَنْفُضَ جُرْحَه، وهو يقول:

- مقابرُ جديدةٌ تفتحُ أبوابها وتدفقُ سيلُ الموتى، في الرصافة، في الكرخ، في الكاظمية، في البصرة، في الرستمية، في كلِّ مكان، ذات يوم، دَفَنْتُ أمَّ أمام عيني طفلها الرابع في شهرين، وَبَقِيَتْ وحيدة، صَدَّقَنِي، لم تُبَقْ قامةٌ عاليةٌ في وطن الخوف إلا قامةُ الموت، وقامةُ المهيب.

أتذكّرُ السياب مرةً أخرى في فانكوفر، ما زال وطنه جائعاً، خائفاً، ومريضاً أضعاف ما رآه هو، أتذكّرُ بكاءه القديم:

حيثُ التفت، رأيتُ شعباً جائعاً

عريان، يملأُ جوفهُ بالماءِ

يسقي الزروعَ دماً.. لتثري طُغمةً

تبني سعادتها على الأشقاءِ

وإذا تضجّرَ أطعمته رصاصةً

وكَسَتَهُ بالأكفانِ.. والبوغاءِ

ربما كان خيراً للسياب أن يموت، هو الذي اختار الموت بنفسه وهو يصرخ في فراشه: ((أريدُ أن أموت يا إله))، كان الموت خيراً له من أن يبقى بعد موته ليرى أن من حملوا جنازته إلى بيته اكتشفوا أن البيت خالٍ، طُرِدَ منه أهله.

هل يعيشُ الشعراءُ في العراق؟

لماذا الشعراء، منذ سنين، هم أكثرُ صادرات العراق إلى المنفى؟، ماذا يبقى من شعبٍ بدون شعراء؟، ولماذا يدفع الشعراء دائماً فاتورة الألم؟

لماذا يموتُ الجواهري، والحيدري، والسياب، والبياتي، وغيرهم، في منافيهم خارج الوطن، بعيداً عن هضبات العراق، وشطّيه، والجرف، والمنحنى؟، من ثراه سيغني لحيكور إذن، وينشدُ للمطر؟، ولماذا يموت رجلٌ مثل البياتي، وهو يكي:

لماذا نحن يا ربي..

بلا وطن، بلا حبّ

نموتُ.. نموتُ في رعبٍ..

لماذا نحن في المنفى..

لماذا نحن.. يا ربي.

مبتورةٌ دائماً أسئلةُ المنافي، وقليلٌ أولئك الذين وصلوا إجاباتها بحزنهم، وفهموا لماذا يستأثّرُ طغمةٌ بالوطن ويطردونهم منه، أسئلةٌ تقطعهم عفويتها، تخرجُ الأطفال الذين وُلِدوا حيث لا ينتمون، وأرادوا أن يتسلّقوا ذاكرة آبائهم، ليعرفوا من أين أتوا.

هل يعيشُ الزعماء أنفسهم في العراق، أياً كان انخياز الشعب إليهم؟، سواءً كانوا

ملوكاً أو رؤساء؟

لا شيء يرتفع فوق هامة النخيل في العراق إلا مات، لا يوجد زعيمٌ عراقيٌّ منذ فيصل الأول مات ميتةً عادية، خرج فيصل الأول من وطنه للعلاج، وكانت رحلته الأخيرة، أخرسته حقنةٌ جبانةٌ لم تكن لتشهّر في العراق، ولكنها شهّرت بسهولة في سويسرا، وبكى ابنه غازي، وبكى ابن أخيه عبد الإله، دموع التماسيح، وسُجِّل في دفاتر التاريخ زوراً، وفاة طبيعية.

غازي جاء بعده، وانتفض على الإنجليز رعونةً لا حميةً، وأهلب تمرده المستمر على سلطة المستعمر عواطف الشعب، ورأوا فيه الملك الحلم، والعربي الأصيل، ولكن أحلامه وأحلامهم ماتت كلها في حادثة السيارة الشهيرة التي قُتل بها في وضح النهار، وأهموا عمود الكهرباء، رغم أن دمه سال من قفاه كما قال شهود عيان، وخلف كل ذلك تختفي أيدٍ ليست بريئة أبداً، نوري السعيد، رجل الإنجليز، وعبد الإله الذي يبحث عن الكرسي، وخرجت الجماهير المغلوبة على (عقلها) تنسجُ في الشوارع، وهي تشند:

الله وأكبر يا عرب غازي انفق من داره
واهتزّت أركان السما من صدمة السيارة.

ويستمرُّ الدم الزعامي الرخيص، جاء الأمير عبد الإله ليتولى الحكم بدون تنويع وصاية على ابن غازي (ضحيته)، فيصل الثاني، بعد أن زوّرت الأميرة عالية زوجة الملك القتل غازي في وصية زوجها لتقول إنه أوصاها قبل وفاته أن يكون عبد الإله (أخوها) وصياً على عرش ابنهما.

وتعلّم الشعب أن الملكية فشلت في تبني أحلامه، فالتفّ بسرعة حول الفيالق

العسكرية التي تحركت من الأردن، وصوت عبد الكريم قاسم الذي جاءهم عبر الإذاعة، يعدمهم بالديموقراطية، والعزة، والتقدم.

تلك كانت ثورة تموز ١٩٥٨، والتي حاصر فيها الجيش العائلة المالكة كلها في قصر الرحاب، وأيدت عن بكرة أبيها تلك الليلة، وعلى رأسهم وصي العرش عبد الإله، والملك الصغير فيصل الثاني.

وعندما حُملت جثثهم في سيارة عسكرية إلى وزارة الدفاع، اعترضتها الجماهير، وسحبت منها جثة عبد الإله لتمثّل به، ثم تسحبه في شوارع بغداد، قبل أن تضرم النيران في ما تبقى من جسده، ولم يبق منه إلا صِغٌ واحد.

نوري السعيد، الداهية الذي هيمن على العراق سنواتٍ طويلة، وتسلم رئاسة الوزارة عشر مرات، انتحر أخيراً بعد أن فشل في الهرب من عبد الكريم قاسم متكرراً بزي امرأة، وقيل أنه قتل.

ثم اغتيل عبد الكريم قاسم نفسه بعد ذلك في ثورة البعث ١٩٦٣، وعُرضت جثته مرمياً بالرصاص في التلفاز، بأمر من "بروتس" العراقي، عبد السلام عارف، صديقه الذي قاد معه ثورة تموز.

وانفجرت الهليكوبتر بعبد السلام عارف بعدها بثلاث سنوات، ليتولى الحكم بعدها أخوه عبد الرحمن عارف، الذي ثار عليه البعثيون أيضاً عام ١٩٦٨، وأجبر على الاستقالة، ليتولى بعده أحمد حسن البكر، الذي أجبره صدام أخيراً على الاستقالة أيضاً عام ١٩٧٩.

وبين مصارع الزعماء، تسيل دماءٌ أخرى، لتطهير الثورات المحيطة، وغسل شوارع الفتنة، وتوطيد دعائم الحكم.

إنها لعنة العرش العراقي.

زمن الموت المجيد.

لدهشي، كان ديار يعرف مس تنغل.

التقى بها في جمعية الأيل، وإن كنت أفهم أن مس تنغل يمكن أن تشارك في مثل هذه الاجتماعات أحياناً بدافع الوحدة، فإني بالطبع لم أكن أفهم ما الذي يمكن أن يربط بين ديار وحيوان الأيل، عدا أن مزاج ديار أحياناً يشبه قربي الأيل المتشعبين.

علمتُ فيما بعد أنه كان سائق الشاحنة ليس إلا، وأنها تعارفا في الصف الأخير، حيث يجلس المقعدون، وحيثُ يجتسي ديار كوب قهوة ريشما ينتهي الخطاب، فيعود بآلات العرض والتصوير إلى حيث أتى بها، تعارفا على هامش خطاب ممل، وكانت بينهم زيارات انقطعت بعدما غادر ديار إلى ريتشموند القريبة، ثم عاد ليحدها قد تركت منزلها، فلم يحاول البحث عنها طويلاً.

ولكنني أعدتُ لها، أخذتُ معي ذلك المساء البحري بعيداً عن جرحه، خفتُ عليه من جرثومة ما تحطم قوته أمامي، أنا الذي بدأت أتكئ عليها بدون شعور، وأحاول أن أتماسك من خلال أعصابه هو، وأتعلم اللامبالاة المتوازنة، التي لا تجعلنا نبدو بلهاء، ولا حزان.

أخذتُ إلى منزلها دون أن أخبره من تكون، ولما التقيا، جثا ديار على ركبتيه وأعتنقها طويلاً وهو يضحك في سرور بالغ، كانت سعيدة به أيضاً، وإن كانت أخبرتني من قبل أنها تعرف بعض العرب القلة في فانكوفر، ولكني لم أكن أظن ديار من بينهم.

صبرنا اثنين، على أريكة مس تنغل الحانية، أمام مدفأتهما التي ترسم ظلالنا على الجدار المقابل، أصبح جلسائنا طابع آخر، وأنا أتماسك أمام مس تنغل حياءً من ديار، وأتماسك أمامه حياءً منها.

البوح ليس دائماً أذنأ أخرى بقدر ما هو مكان، وزمان، ولذة اعتراف، وأنا أفضل الآن أن أتوقف عن هذا البث السخيف الذي زادني عياءً أمامهم، حتى اقتنعا تماماً بأنني لست سوى رجل ضعيف يثير الشفقة.

عندما أصطدم بأقوياء لا تختلف ردة فعلي عن اثنتين، الانطواء، أو الارتواء، طالما كنت ضعيفاً، وطالما عاجلتُ ذلك بفكرة أنني كلما كبرت صرتُ قوياً، وأنهم لم يولدوا أقوياء، والذي ولد قوياً هو حصيلة انتفاخ فارغ.

طالما كتبتُ في حالة ضعف، ولا أدري كيف شكل الكتابة في حالات القوة.

لأن ضعفي شيء صعب، إنه طبقات متغاشية، طبقتها الأقدار والظروف والمجتمع في خزانة الروح مثل الملابس التي ثبلينا ولا تبلى، سئمتُ من تكرار محاولة استيلاء القوة من ضعفي، تربية العضلات في الجسد الواهن، من الصعب أن نعيد تشكيل الأشياء التي جفت.

أشعر بالدفء فقط في غرفتي، تتابني شجاعة العزلة، حتى إذا خرجتُ في أول اصطدام مباشر بالريح أشعر أن البرد لا يغمري فحسب، بل يمزق أوراقاً شاسعة في دفاتري الداخلية.

لا أعرفُ لساناً يخون صاحبه كما يفعل لساني، إنه يتأمر على الأشياء التي يضعها عقلي على طرفه، فيطوِّحُ بها بعيداً ترتفعُ يدي في محاولة يائسة لالتقاطها، تفلتُ مني، تعروني الرجفة، صار ارتباكاً واضحاً، في المرة الثانية، سيصير ضعفي واضحاً.

الأماكن الكبيرة لا تشعرني بالفخامة، بل بالضآلة، الأشخاص المهمون لا أدري كيف أتخيلُ سحناتهم دائماً وهي تزدريني، كمن يعبر الأعمى بعماه، والعليل بعلته، والفقير بفقره.

المواسم الخصبة تشعرني بالتخاذل، كثرة السنايل تستهلكُ جهد الطواحين، لن يبقى لي شيء.

الليل، سروالي العاري الذي أوارى به عورتِي، فيه أجلسُ مثل حائكِ هرم، أحيكُ أفعتي النهارية، لأنني أحجلُ من شكل وجهي.

أمنتُ بعد سنواتٍ من المعاشية، أنْ سموم ضعفي من النوع الذي لا تستمدُ أمصالها من نفسها، لا شيء في داخلي يكفي لرقع كلِّ هذا الفتق الذي خلفه الزمن.

كنتُ أتمنى أن تفهمي شكل حاجتي إليك، دون أن أضطر إلى هذا الكلام، كنتُ أتمنى أن تنجحي في تشخيص عليّ قبل أن أخلع ملابسي إلى هذا الحد.

أحتاجك لأنك شعرتُ أنكِ الشيء الوحيد الذي يمكن أن أكمل به حياتي بسعادة، المرأة الوحيدة التي يجب أن تقف ورائي، لأكون عظيماً.

عندما أحببتك، شعرتُ لأول مرة كيف طعم النوم تحت غطاء.

لأنك جئتِ تماماً لتكلمي كل جوانب النقص في حياتي، تمسكتُ بكِ بجنون الذي يكره أن يعود إلى سيبيريا، ولكنك تركتني وحدي وسط الثلوج.

هل تدرकिन ماذا يمكن أن يفعله بي زواجي منك؟، هل تتصورين كيف سيلمُع اسمي إذا ارتبط باسمك، وتمتلئ فراغي الناقصة بحياتك المتكاملة؟، هل سمعتِ كيف عمَّر اليابانيون مدُنهم بعد الحرب؟، هل رأيتِ يوماً مخاض السماء وهي تلد الشمس؟، هل شعرتِ مرةً بشعور الرضيع إذا دار كفه على إبهام أمه للمرة الأولى؟، هل تدرकिन

مساحة الغابات التي سُخلق داخلي إذا ظلَّت أمطاركٍ منهمةً طول العمر؟، هل تعلمين أيَّ إنسانٍ سأكون عندما تصيرين أنتِ عيني التي أبصر بها، وأذني التي أسمع بها، وفمي الذي أتكلّم به، ويدي التي أمدّها إلى الحياة؟، هل تعلمين أيَّ رجلٍ سيعيش بكِ على هذا الكوكب، وأيَّ رجلٍ سيموتُ بدونكِ عليه؟

هل تدرين عدد المعجزات التي يمكن أن تزرعها امرأةٌ مثلكِ في طريقي؟

إن حبكٍ كافٍ جداً لترميمي، علاقتي معكٍ منحتني نسخةً تجريبية من الاعتداد بالنفس، ومرور أصابعك فوق وجهي يلغي من ذاكرتي كل تاريخ الدموع القديمة.

امنحيني ضوءكِ أيتها الشمس..

امنحيني الغذاء، والماء، والهواء..

امنحيني السعادة، والخصب، والخير، والنمو، والحب..

أيتها الوريثة الوحيدة لعرش الأنوثة،

امنحيني مجدك..

يا امرأةً تمنحُ الأمجاد.

* * *

لا أستطيع الآن أن أحصي عند الليالات التي قضيتها في غرفتك، ونحن ملتصقان كشقّي صدفة، ومتحديان الزمان والمكان، تحفُّ بنا دهشة مدينةٍ بأسرها.

في غرفتك.

هل انتهت جنون الدنيا، حتى نخترع لأنفسنا جنوناً كهذا؟، هل انتهت أشكال التمرد

حتى نشكلُ تمرّدنا من خامّة الشوق، فيجئ بهذه الحرارة؟

رمينا الكثير من الخوف وراءنا، وفررنا أن نُصرّف فعل الحب حيث لا تحدّنا قوانين اللغة، نخلّصنا من هاجس الوقت، والأعين، ورمينا، خارج سور الحب، كلّ ما اكتنف لقاءنا السابقة من ترقّب وتوتر.

جناح فسيح من غرفتين كان خاصاً بك في القصر، أليس السهل على عاشقٍ مثلي، ملّ كثيراً من تردّد حياته الرتيبة، أن يتسلّل بعدما ينام الجميع، مُنقلاً خطاه على الرصيف الشارد، ليجد باباً موارباً تفوحُ قربهِ رائحة عطرك فتفضح الفاعل، ويعبر الفناء الفسيح وهو يعرف طريقه جيداً إلى الباب الذي تغطيه الأغصان الوارفة الكثيفة، والدّرج الذي ينتهي به إلى صالة واسعة، في آخرها يجذُ غرفة حبيبته، وعينها، ودقات قلبها الخائفة؟

أتذكر كيف مكثت أسبوعاً كاملاً أحاولُ إقناعك بالفكرة، كان مجرد تفكيرٍ فيها يكاد يُكيك خوفاً ورهبة، ولكني بقيتُ حتى آخر أنفاس الأمل أسعى لإقناعك بإمكانيتها، بينما كانت لقمة صعبة البلع في حلقك الخائف.

وبعد أسبوع كانت دقات قلبك تهدأ تدريجياً، ورعبك الهائل ينكمش ويتراجع، والشوق المحموم يشفع ويتوسّط، حتى كان الأول من يوليو هو يوم مجيئي، الثالثة بعد منتصف الليل.

ألتقيك في أبريل، وأقبلك في يونيو، صفحات صامتة في الحب، أما أن أكون داخل غرفة نومك في يوليو، فهذه هي السامبا الصاخبة التي لم أتوقعها أبداً.

وأنا لم أرقص بهذا العنف من قبل في حياتي، هل فعلاً بدأ يتحول حبنا إلى شكلٍ مختلف؟، هل أصبحت لنا ملامحنا المميزة في وجوه العشاق؟، هل استقلت شخصيتنا عن تقليد أساليبهم وحدودهم الضيقة؟، هل صار لنا أسلوبنا الذي يخولنا أن نحفر

اسمينا في جذع الحب العتيد، دون أن نخشى تشابه الأحرف؟

هكذا الحب، قرأتُ شاعراً ما يقول: ((إذا أردت لحبك أن ينجح، أترك الدقة للأنتي، إذا أردت لزواجك أن ينجح، أمسك الدقة أنت))

كم كانت تلك الليلة ساحرة، تسللتُ وبي نشوة لا أصدق بها أي مرمى خطوات فقط من غرفة حبيبي، عندها سأمكثُ يومين كاملين لا ينقصان ساعة واحدة، عندها سأبدأ في تأليف كتاب الحب الحقيقي، دون أن أخشى مقص الرقيب.

لم أكن أصدق أني سألتقي بك لقاء لا يقطعه نظراتك الدائبة إلى ساعتك أو إلى من حولك؟، لم أكن أصدق أني حقاً سأنام بين يديك، وفي سريرك، و فوق صدرك، وبين ذراعيك.

كم يكفيني من الغرور حتى أتوازن مع الحقيقة؟

يأخذني الحلم وأنا أسعى إليك، فتحتُ باب الصالة، وصارت غرفتك حسب وصفك لها أمامي تماماً، ومنها يطلُ وجهك المبتسم وأنت تحثيني على الإسراع وقد اختلط في ملامحك حذرٌ، وحياءٌ، وابتسامة خفِر.

قطعتُ الخطوات العشر الأخيرة، ثم انغلق علينا بابك أخيراً، وضممتنا جدران أربعة لم تُبصر قبلي رجلاً قط، ونزل الحب معنا، وبارك هذا التمرد المجنون، وضمّ إلى صدره ابنه البارين، ولوّن عيوننا باللهفة، وأخرج من جيبه القُبلة الأولى، وقلّدتنا إياها، وبكى، من شدة التأثر.

فعلناها يا حبيبي، كم عاشقاً ينام هذه الليلة محروماً من شفتي حبيبته، بينما نخلقُ نحن كلّ دقيقة قُبلة لا تشبه التي قبلها، ولا تشبهها التي بعدها، نغتال عقري الساعة،

ونطفئ الليل والنهار في منفضة واحدة، ونزرع في حذب أجسادنا أقماراً وغيوماً،
ونذيب في الأعين الظامئة كل ما تنجبه السماء من نجوم.

قطعت الممر الصغير حتى وصلت إلى منتصف غرفة النوم تماماً، وقلبي يكاد يقفز
خارج أضلاعي من شدة الحماس والسعادة، وبعد لحظات لحقت بي أنتِ حالماً
أوصدت الباب، وتأكدت أن أحداً لم يربني وأنا أدخل، وجتني في الغلالة البنفسجية
التي تكشف من الأعلى نصف صدرك، ومن الأدنى كل ساقيك، وأنا ضائع بين
البياض الأعلى والبياض الأدنى، حائر من أين أبدأ بك، وفي رأسي دوارٌ حيٌّ له
شكل اللحظة الأولى في الجنة، وكان العناق الأول، وقلبيننا مازالا يركضان في
جسدنا في جنون النشوة.

لم أفهم في الدقائق الأولى شكل نظراتك، ولكن عينك كانتا تبتلعانني، بكل قسوة.

أكلمك وتنظرين إليّ، أهرُك، وترداد عينك عمقاً، وابتسامتك اتساعاً.

أتراك كنت مدهوشةً مني؟، أم من نفسك؟، أم أن واقعنا كله كان حفل دهشة؟

تمت بعد دقائق:

- حلو الشعور

- أي شعور؟

- أن تكون بداخلي.

هكذا تفسر الأنثى هذا الاقتحام العنيف الذي يمارسه رجلٌ في غرفتها.

أنت لم تكوني سوى غرفتك، وغرفتكِ لم تكن إلا أنت، لم يكن أحدٌ من أهل البيت
يجرؤ على دخول الغرفة الموصدة دائماً على فتاةٍ مختلفة، تحترق العزلة، وتملاً
الدنيا، في آنٍ واحد.

لونها الوردي هو نفسه اللون الذي يغلف جدران قلبك، قضبانها الحديدية هي نفسها
الحواجز التي تحبس داخلكِ لبوة التمرد، فوضاها العارمة هي نفسها جنونكِ المخبوء
منذ سنوات، والذي بدأ يفصح عن نفسه بإدخالي هنا.

أنا الآن داخلكِ، ونظراتكِ الآن نظرات امرأة أصبح حبسها بين يديها، وكل شعرة
في جسده ملكٌ لها، لا ينازعها أحدٌ فيها أبداً، ليومين كاملين.

يبدأ اليوم وينتهي ولم نبتعد عن بعضنا أكثر من مترين، نتحدث، نلهو، نضحك
ونبكي، أو نبقي على الصمت في عناقٍ ما، نأكلُ بملعقة واحدة، نشربُ من كأس
واحدة، نتابع الفيلم في شغف، نقرأ الأشعار، ونسمع الموسيقى، ونتقلب على
السريّر، وأعيننا دافئة بالحب، حتى يغلبنا النوم.

وإذا أفقت وأنت نائمة، أجلسُ متأملاً في خلودكِ الطاهر، هادئة أنتِ مثل السَّحَر،
وادعةً مثل ملاك صغير، وجميلةً مثل أيام الوصال، أسافرُ في بياض وجهكِ المنير
كالحقيقة، وأرحلُ في خصلات شعركِ النائية بين فهارين، وألثمُ أصابعكِ النائمة مثل
خمسة أطفال على صدري العاري.

هل رأيت الأفق حين يتزل ذات غروب ليحكى للبحر حكاية؟، هكذا كانت شفتاكِ
تنفجران بلطفٍ وأنت نائمة، كانتا فتنةً صغيرةً في وجهٍ سحابيٍّ هادئ، العليا تبرز
قليلاً للأعلى، ويدبحني هذا البروز الجميل شرياناً شرياناً حتى آخر قطرة من الدماء،
يهزها كلُّ هذا الجمال الذي تفرزه شفة، يغريني هذا القوس الصغير الذي يميز
شفتيكِ حتى لا يبقى في غريزتي حدٌ تقف عنده الرغبة.

لو قبلتكِ على هذه الشفة العليا وأنت نائمة، هل تستيقظين؟، ولو أنك استيقظت
إثر القبله هل سأشعرُ بالذنب؟، إنها أفكارُ الرجل الذي يتأملُ الفتنة النائمة بين يديه،
ويقيسُ المعصية والمغفرة في ميزان اشتهاه، وأخيراً يتزلُ عليهما ولا يبالي، ويعود إلى

نومه، مذبذباً.

وعندما تستيقظين أنتِ أثناء نومي، يكون ذنبك أكبر، أنتِ لا تُقبلين فمي فحسب، بل تُلقين برأسك كله على صدري، وتلفين ذراعي حتى تحيط بك، وتركين أنفاسك الطاهرة تصهّر جلد عنقي برفق، أنا الغارق في ألف حلم جميل، وعلى صدري يغفو أجمل حلم في حياتي، منذ تعلمت الأحلام.

كل دقيقة أقضيها معك هنا، أشعرُ أني في وهم متقن، أتحركُ فيها، أقلبُ معك العمر والذكريات، أستعرضُ ماضيك بكل ما فيه، وأرمي بين يديك ماضيّ وحاضري ومستقبلي، ثلاث قلائد لا أعلي أياً منها على عنقك الجميل.

أتأملُ كل زاوية في غرفتك الوردية الفسيحة، أذرعُها بدهشة وسعادة، أقلبُ بين يديّ أشياءك الأنثوية الصغيرة، تلك المباحة منها والحرمة، يُدهشني هذا الاقتحام العنيف للعالم الآخر، كل شيء هنا متعلق بك، لذا فهو يستحق أن أحبه، من ستائر النافذة حتى مناشف الحمام، مروراً بالسريّر، والوسائد، والمرآة، والدمى المتراكمة في ركنٍ هناك، وأدوات الزينة، وقوارير العطر، والشمعتين الخافتتين على جانبي السريّر، أوراقتك، صُورُك، كتبك، وحتى فوضاك المحببة، كل الأشياء هنا تتناسقُ بطريقتها لتخلق جمالاً ما، محوره أنت.

أقفُ عند النافذة، هل تُصدّق الرياضُ أني مقيمٌ في غرفة حبيبي منذ يومين؟، أتأملُ من فرجة ضيقة فناء القصر، والأشجار، والأغصان، والخادِمات اللواتي يجزّنه بلا توقّف، وأحتيكِ الجميلتين في مشيهما المتمدّد، وأمامهما يركض ابن الكبرى الغارق في العذوبة ويعثر، ذلك الطفل الشفاف الذي حملته إليّ يوماً، لأقبله وأضعه في حجرِي، ليكون بطفولته البريئة، الشاهد الوحيد الذي رأيَ في غرفة حالته العاشقة.

يأتينا عبر الهاتف صوتُ والدتك الحنون ليوقظك من نوم، أو يوقظنا معاً، كنتُ أقبّل

في الهواء رقتها وجمالها الذي تأخّر كثيراً في ملاحظها الطيبة، وظلّ معلقاً في وجهها وجسدها رغم الخمسين، ورغم الحمل والولادة، وكنتُ تجيبيها بكسل، وتقيليني همساً، ويضحكُ بيننا طفلُ الحب الشقي، ويرحلُ صوغها دون أن تعلم أن شخصاً آخر، يقبع في تلك الغرفة، مع ابنتها.

كان ترفاً عاطفياً لا حدود له.

استهلكتنا أطناناً من الحب فعلاً، شبعنا، شبعنا، شبعنا، وازدادتُ نهماً، كنا نَسْخَرُ من الأسوار والقيود، والأعين الغاضبة، والوجوه العابسة، لأن حبنا ما زال على السطح، يتنفّس من هواء الدنيا، بعدما تأمرت على قتله الأسماك وأعشاب البحر، هانحن والحب غبوقنا وصبوحنا، ننام عناقاً، ونفיק اشتياقاً، ونستحم معاً، ونلتقطُ حبوب الحلوى شفةً بشفة، نفق من خزائن العشق في ساعات، ما ينفقه غيرنا في سنوات، كأننا زوجان آمان في بيت هادئ، لا يعلم أحدٌ من ساكني هذا القصر معنا أن خلف بابك أسراباً من العصافير ستندفع إذا انفتح، وملاييناً من النجمات، بدأت تتسرّبُ من إطارِ النافذة، وعقبِ الباب.

مساءاتٌ تحرقني فيها أنوثتك.

منذ دخولي إلى خروجي ولقائي بكِ دوحةٌ كبرى تختلطُ فيها معالم الحقيقة، هل ما أفعله أمرٌ اعتاده آخرون؟، هل في الرياض الآن رجلٌ آخر ينام في غرفة حبيبته غيري؟، هل هناك من لديه جنونٌ كجنوني، وغرفةٌ آمنةٌ كغرفة حبيبتي؟

ربما فعل غيرنا هذا ولكننا لن نعرف، إن قصصهم دائماً أسرارٌ يتوقّف عليها حبهِم، مثلما هي قصتي معكِ سرٌّ دفين، حباته في عيني، كما حباتُ معه ماهية شخصيتكِ، وعنوان بيتكِ، وألوان غرفتكِ، وتفاصيل جسديكِ.

صارت السيجارة إصبعاً متمرداً بين أصابعي، أشعلها في الغربة المظلمة لأبصر وجهي خبيثي وفشلي، يتكوّم طموحي أمامي وأنا عاجزٌ عن فعل أيّ شيء، إلا التدخين، صرّت أدخّن أكثر مما أكلُ وأشرب.

على الطاولة الصغيرة في شقتي منفضةٌ تحتفلُ بثلاثين عقبَ كُلِّ ليلة، كان تدخينها صعباً جداً، وأنا أسحبُ منها دُخانها بعمق، وأتركه ينعجنُ بمومي وغثياني، ثم أنفثه في الهواء، لعلَّ شيئاً منها يجدُ ممراً للخروج معه، حتى إذا فشلتُ، سحقْتُها في قعر المنفضة، ثم أشعلتُ أخرى.

بعدما رحلت، شعرتُ أن حالة الوهم التي تنخر قلبي تشبهُ خيوط الدخان التي تتصاعدُ نحو الهباء، وجذبني هذا التشابه.

كنتُ أشعل سيجارةً، ثم ألبثُ أتأملُ في احتراقها البطيء، حتى ينفد نبعها، فألقيها جانباً دون أن أسحب منها نفساً واحداً، وبعد أيام بدأت أرثي لحزنها، أقرّبها من شفّتي، أسحب الأنفاس بهدوء، أتحوّلُ معها إلى رماد.

ثمّة ارتباط قديم بين اليأس والعادات السيئة، لا يوجد ما هو أشدُّ خطراً على مبادئ إنسان من حالة يأس، كلُّ المخالفات نمارسها عندما نشعر أنه لم يعد أماننا ما نحفظ بمبادئنا لأجله، دائماً يعصفُ الحزن بالمثل، فيصمّد القليل، ويهوي الكثير، وتنكشفُ عوراتُ في أجساد كان يسترها الاستقرار، ويبقى إنسانها عارياً في فصول الحياة، يبحثُ عما يدفئ جلده، ويغطي عُرّيه، يدخّن أو يشرب، ربما يتعهرُّ، أو يتعاطى مخدراً ما، كلُّ هذه الأشياء هي كبسولاتُ النسيان المؤقتة التي يخذّر بها الحزاني جراحاتهم التي أزمّنت.

أيُّ يأسٍ تركتني فيه أنتِ.

منذ تزوجت، شعرتُ أنكِ صرّتِ مثل كونغاي التي صهرت نفسها مع المعادن، وتحوّلت إلى جزءٍ من الناقوس الكبير، أو أنكِ تحوّلتِ مثل دفني إلى شجرة أسطورية تثمر أكاليل، أو أنّ شبحك اختفى في فراغ الدنيا، مثل هيلين.

من يعيدك إلى الحقيقة؟، ومن يعيدك إليّ بعد ذلك؟

أيُّ امرأةٍ تلك التي تتحوّل إلى أسطورة عندما تغيب، ومعجزة عندما تنزل.

بين هذه الأساطير والمعجزات، جلستُ أدخّن يأسِي.

سجائري وجعٌ أحمر، أحقنه في رئتي، وأشم رائحة اللحم الذي يحترق، والعمر الذي ينقضي، والأمل الذي يموت.

الأيام حكايةٌ طويلة، لستُ أدري متى تنتهي، ولكن شيئاً ما في داخلي بدأ يسأم من رتمها الدرامي الحزين، من المنحدر الطويل الذي يقودُ لمقبرة الحياة، وللموت الحقيق الذي لا يحركُ غصن شجرة.

أنا لن أموت هكذا.

قصائدي مثلومة الزناد، وذاكرتي تملأها الأمراضُ والعلل، وحياتي كلّها أصبحت متوقفةً عليك، متى تعودين، وهل ستفعلينها ذات يوم قبل أن أستمري الضياع، وأضيع نفسي؟

كم أتمنى لو أراك قبل أن أفقد شعوري تماماً بلذائذ الدنيا، ولو افتديتُ ذلك بما تبقى من عمري مما لم تمرّ عليه عجلاتُ الغمّ بعد، لتملأه ثقباً، أتمنى لو أجدك خارج مدار الأشياء، عائدةً إليّ في غلالةٍ بنفسجية، تشبهُ تلك التي استقبلتني فيها أول يومٍ في غرفتك، أثمرُ بين يديك مثل المطرِ الصامت، وألقي عليك معطف سنواتٍ من الحرمان والخوف الذي نما في صدري مثل الحشائش البرية، ففي المرافئ الأولى يكون

الأمان، وهبط الطيور التي هاجرت خطأً قبل الموسم، وتصحو السماء من غيبوبة الليل، ويهدأ البحر الذي أرهق أقدارنا، وأتأكد يا حبيبي إن كان فيما بيننا شيء مازال يُسمَّى الحب.

أتذكرين يوم سألتك مرة:

- هل تنسيني؟

وجاءني صوتك بعد صمت:

- وهل أستطيع؟

كان جوابك، أو سؤالك، يشبه الأفق الشارد، مغلفاً بتهيدة تكاد تحرق أسلاك الهاتف، وبكيت ليلتها بحجارة، لأنك ظننتني أهتمك بالامبالاة، ولم أكن كذلك، كل ما في الأمر أني كنت أحذرك بطرف خفي، أن الزمن إذا سلك طريقاً سرياً في داخلنا، يكون أكبر محاجة في الدنيا.

((عندما يسكتُ الوفاء، أموت))، على كتاب ما كتبت لك هذه الجملة، وأهديتك إياه، وفي داخلي أملٌ قديمٌ لم يعد يرضيني، كنت أتمنى أن تظلي في عقد الحب حبيبي رسمياً، كما أنت في عقد الزواج زوجته رسمياً، كنت آنذاك في أيام الحب الأولى أقنع نفسي بهذه الأوهام الصغيرة الجبانة المتخاذلة، أما الآن فلا شيء يعوّضي دقات قلبي التي تضيق سدىً، إلا أنت، بكل العقود الرسمية وغير الرسمية.

عاداتي تغيرت، ملاحي تشوّهت، أفلامي تكسّرت، أصبح مزاجي مثل ضفدعٍ هجري في مستنقع آسن، لا يلبث على طحلبة حتى يقفز فوق أخرى، كلماتي صارت حادة، ولغتي تحوّلت إلى مزيج من الغمغومات والهمهمات التي أخاطب بها نفسي آخر الليل، حتى اعتدتها، واعتدت الأذان التي تنكرُني كلمةً لم تكتمل، وحرفاً ظلّ معلقاً في سقف حلقي، وكأني أضنُّ على كل من سواك بالكلام والصوت.

حالتان من أحوالي لا أكون فيهما عادلاً أبداً، تعرفينهما جيداً يا حبيبي، وأنا أعترف بأي عانيت الكثير منهما، الحزن والغضب، أفكر أثناءهما بطريقةٍ مقلوبة، أعكسُ الأمور، أخلطُ الأشياء، وأحبسُ كل ما تتمخض عنه ليلة كهذه بين جدران غرفتي ما استطعت، لعلّي لا أرتكبُ حماقة.

حتى الآخرين، لم تعد ردود أفعالهم رفيقةً بي، هم الذين لا يدرون ماذا طرأ عليّ، أصبحوا غاضبين من كل ما آل إليه حالي، وكأني أختلس دموعي من مآقيهم، أو كأن رائحة أرقى تتسرّب إلى ليالهم الهادئة فتعكّر صفوها.

وألومك، وعلى جانبي ذاكرتي، تطرُق الأغنية القديمة التي تحبينها، باب العتاب ((يا حبيبي، شرهة العاشق كبيرة))

لماذا ظلّ حبنا دائماً في حياتك ضمن الأشياء القابلة للسلوى؟، ولماذا بقيت طوال الأشهر التي نعلم أن من خلفها الفراق مؤمنةً بقدرتك على النسيان أو التحمل؟، دائماً كنت أستجديك، أقول لك أي لا أملك وطناً سواك، وأن وجودك صار هويتي، وتاريخي، وميلادي، وانتمائي، وأنت صرت أعراق الأرض واحتواء القبيلة، وأنت أمان عندما يحاصرني الخوف، وحبيبي عندما تضيق الأفكار، وزفيري عندما يدخل صدري شهيقت لا طريق له.

لماذا لم تصدقيني؟، لماذا ظننتني أبالغ في هذا؟

تعالى الآن وانظري ما أنا فيه، ربما منحتك عينك نسخة أكثر مصداقية مما سمعته أذنك من قبل.

ربما صدقت معك نبوءة السلوى والنسيان هذه، أما أنا فلم تصدق معي أبداً، ما زلت حتى الآن يتتابني شعور الليلة الأولى من فراقك، لم تنزل لأدمعي نفس الملوحة، ولم يتغيّر في حياتي أي شيء، لا السواد، ولا الصمت، ولا الغنيان، ولا القيء

الفكري الذي يُرهق دماغي أوهاماً وتخيلاً و رؤى ساذجة، ثم يرميني على عتبة الفجر، مخلوقاً بشرياً بالياً.

ربما كان مريء الإيمان عندي أضيق مما يسمح بابتلاع صدمة فراقك، وهضمها، ككل الفواجع التي تكورها يد الأقدار، لتلقي بها في أفواه البشر، ضعفي الأزلي منذ الطفولة تعامد تماماً مع فقدي لك، ليشيد في المنطقة المغلقة داخلي حاجزاً عاطفياً يمنعني من أن أكون طبيعياً في ردود الأفعال، ويمنعني حتى من النسيان أو محاولة النسيان.

منذ صغري وأنا أمارس عادي السيئة في حبس دموعي، كان البكاء يندفع بقوة قادماً من قلبي الجريح، ليصطدم بقلبي، وأكتمه بصعوبة، حتى يعود مرة أخرى لينتشر في صدري، ويملاء أشلاء وملحاً، كبرت بهذا الصدر الضعيف، واستقبلت رجولتي بدني ضخم من الدموع، ما زلت أسمى في سداذه، وما زلت أمنح الحياة كل ليلة قسطاً طويلاً من البكاء.

أنا مريض يا مها، لست رجلاً سوياً حتماً، لا أحد يحب مثلي إلا المرضى، سينكرون علي كل حرف، وكل ضعف، وكل حماقة، سيقيسون الحكاية بميزان الأسوياء، فيجدونني محجف في حق نفسي، ولو شئت لعدلت ميزانهم، حتى يبدو عادلاً عندما تنام في إحدى كفتيه امرأة مثلك، وفي الأخرى أحزان رجل مثلي.

قسوة الليل والنهار لا تساعدان على التماسك، حالة الهيار شاملة تنفق عليها كل أفكار، ولي همة خارت بعنف، ولم تعد قادرة على منحي ما أعالج به نفسي من العزيمة، لم أكن أؤمن بعلاج إلا بك، وأن سقمي هذا لا ينتهي إلا باثنتين، أنت أو الموت.

لو كان وهماً، كنت سأستسلم لوهنه في انتظار حلم جميل يأتي بك، عائدةً إلى

حبك الباقي، قبل أن لا يبقى.

كل شيء قاس يا حبيبي، البرودة تسكن كل الأشياء، ولا شيء يبعث الدفء في داخلي إلا نبرة صوتك، وحرارة جسمك، وأنفاسك التي أصبحت تعطر صدر سالم، ولم يبق لي أنا إلا دفء أستجديه، له صفة الحرارة، وليس فيه احتواؤك ولا أمانك، إنها سجائري، وحبوب النوم.

كنت أحياد دائماً عندما تتكلمين عن حسن، لأن هذا الرجل لم يكن وجوده يتيح لي حتى فرصة للكلام، حضوره الطاعني على دقات قلبك تركني أهيئ على وجهي بعيداً عنكم، وأنسحب إلى الظل، وأبكىك عن بُعد كما يبكي الغرباء.

ما زلت أتذكر حتى الآن، الليلة التي سألتك فيها، بعد ما مرّ قرابة الشهرين على غيابه، إن كان قلبك ما زال ينبض بحبه.

قلب امرأة مثلك لم أكن قادراً على ملئه وحدي، ولكن حسن، كان قادراً على شغله حتى آخر ركن تأتبه الدماء، إنه رجل الغياب الثقيل، الذي يجيئ على الذكرى مثل الليل، وكأني أنا لم أشغل قلبك إلا من بعد أن بدأ هو في الانسحاب، وبقدر المساحات التي تركها فحسب.

لم أكن أرغب في أن أناقشك في أمره، ماذا بوسعي أن أقول؟، حقيقة الأمر لم أكن أجرؤ على ذلك، وكأني كنت أظنك لن تتكلمي عني يوماً من الأيام كما تكلمت عنه، وإن كنت لا أتمنى أن أكون ذلك الغائب الذي تتحدثين عنه لأحدهم.

هذا الرجل الذي يُبكىك على كتف رجل آخر هو رجل يحمل معه حضوراً من

العشق يجعلُ الاقتراب من حُرْمته أمراً يدعو لمعاودة التفكير، فلو كنتُ طالبتكِ بنسيانه تماماً، وتشفَّعتُ إليكِ بما لي من حظوةٍ عاشقٍ في أيامه الأولى فكم سيلزمني من الوقت لأللم غيرتي التي أفصحتُ عنها بهذه الحماقة المتكررة؟، وكأن قلبك لم يكن سوى لوحٍ في مدرسةٍ يمسحُ فيها كلُّ معلمٍ خربشاتٍ الذي سبقه، ليضع خربشاته هو، في انتظار من يمسحها.

ليس المهم ما يكتبه في سبورتته، المهم ما يكتبه في رؤوس تلاميذه، وليس المهم ما يكتبه على الذاكرة، المهم ما نتركه في القلوب.

وحسن كتب على قلبك مباشرة.

سأنكمشُ مثل الأرنب، وكلُّ ما بيَّ يقطرُ حيرةً، وخوفاً، وحزناً.

كان هذا السؤال، جرادةً قبيحةً أفلتت من قلبٍ يقطرُ غيرةً، ولم تكن هذه الجرادة التي طارت في حماقةٍ الهزيع الأخير من الليل تستحقُّ أكثر من الموتِ تحت أقدام صراحتك، وصدقك، وجوابك الذي أوجعني.

تنفستُ بعمق، ثم أطلقت تنهيدةً متوترة، ونطقتُ بصوتٍ ضعيف:

- نعم، ما زلتُ أحبه.

وسكتُ أنا، وابتلعتُ جرادتي الميتة، لعل أخرياتٍ غيرها في قلبي يعتبرن بها.

حارٌّ كان بكائي تلك الليلة، على أنفاسِ الفجر، جلستُ أنا، وكيرائي، وقلبي، نللمُ بعضنا بعضاً، ونبكي بعضنا بعضاً، ونعزِّي بعضنا بعضاً، في مآثم تلك الجرادة.

رحتُ أتساءلُ تلك الليلة، كم من الجراد يا ترى يستطيعُ رجلٌ مثل حسن أن ينثره في مزارعٍ صدري، لتقضمُ فيه بنهم، وتُهْلِكِ محصوله من الكيرياء؟

وكم من الجرادِ تستطيعِ امرأةٌ تحبُّ بمثل أسلوبك، أن تقتلَ في مواسم الغيرة؟

وكم من الوهم يلزمني إذن لأتجاهلَ حبكِ له؟

ربما كنتُ تطيبين قلبي برحيلِ حسن، سمحتِ لي ذلك اليوم أن أسمع رسالته الأخيرة التي تركها لكِ من مرسيليا، كان يخبرك فيها برحيله، وأنه لن يعود، ويثبك حزنه واشتياقه إليك، ولكنه عاجزٌ عن البقاء معك ما دمتِ مخطوبةً لرجلٍ آخر، وفي آخر رسالته، استعبر، وترك قبلةً، ومضى.

شعرتُ بإهانةٍ خفيةٍ وهو ينفضُ كيرياه أمامي، ويترككِ لحاطبك، كم يلزمني من الثقة بالنفس حتى أفعل مثله؟، أليس يجمعي به في النهاية نفس المصير؟

لماذا نقدّم أنا وحسن الأكثر ونظفر بالعدم، ولا نقدّم سالم شيئاً يذكر ويظفر بكِ كللك؟

أين ميزان العدل الذي تبنى قرارك بالرحيل عني؟

لم يعد يكفي أن نقدّم حباً لكي نتزوج، صار يكفي أن نقدّم مالا، ونأتي أولاً، فنسرق حبيبات الآخرين.

كنتُ بحاجة لمن يقف معي أمام زحف الأسئلة التتيرية هذا، شخصٌ يفهم لغة جرحي تماماً لأنه استقاها من نفس المورد، مشاعرٌ متشابهة على صفحة مرآة واحدة، وكان حسن هو الوحيد الأقرب إلى حيرة كهذه.

هل أبحث عنه؟

هل تكلم التاريخ أن عاشقين متعاقبين جلسا ذات يوم على كرسيٍّ خيبة واحد، يتقاسمان رغيغ الخذلان؟

لا يهمني التاريخ، القرار الصائب لا يكون له سوابق في الماضي، الماضي جملة أخطاء بشرية ندفع ثمنها اليوم، جلستُ أمام جهاز الكمبيوتر أفتشُ في الإنترنت عن اسمه،

دون جوان، الملايين ينتحلون هذا الاسم، الآلاف منهم في فرنسا، المئات في مرسيليا، والبعض منهم فقط عرب.

هذا هو حسن أخيراً، أحياناً تسهّل علينا التكنولوجيا عملية اصطیاد الأوجاع.

تجمدتُ أمام جهازِي وأنا لا أدري بماذا أبدأ معه، ألقى لي بجملةٍ ترحيبية قصيرة، بدت حروفي مرتعشة وأنا أرددها له، ثم أصمت.

كيف أفسّر له علة بحثي عنه؟، كيف أحاول إثارة اهتمامه قبل ربيته؟

بدأ حديثنا بالياً قبل أن نلبيه، رميتُ أسئلةً عتيقةً على سطحه البارد، كنتُ أبحثُ في إجاباتها عن فرجةٍ أمرّرُ منها قصتي الطويلة، ولكن عباراته ظلت قصيرة، ومعانيها غائبة.

قررتُ أن أكتفي بالتعرف عليه اليوم، وأخبي قصتي حتى تتوثق علاقتي به.

نحنتُ في كسب وده وصدافته، أدهشتني ثقافته الواسعة، اتزانة الواصل، وقدرته الواضحة على العطاء والاحتفاء.

بعد أيام، صار لقاؤنا أكثر صراحة.

سألته:

- هل أحببت من قبل؟

- مطلقاً.

كاذب.

لماذا تحوّل العشق عنده إلى إثمٍ يتبرأ منه؟، هل إلى هذا الحد غيّرتِ عقائد الحب عنده؟

سيلقي بي بعيداً عندما يصبر على كذبه، سيضيع كل جهودي في البحث عنه سدى، ستسقط من يدي علة الدواء الأخيرة في الوادي السحيق.

قلتُ له:

- أنا أحببت.

- وما زلت؟

- أجل، وأنت تعرفها، إنما مها..

صمت طويلاً قبل أن تعود حروفه على الشاشة مرةً أخرى، ربما كان مصدوماً بعض الشيء، أو ربما بدأت تتربط أمامه الأفكار، بعد أن عرف علة بحثي عنه.

سألني بكلمة واحدة.

- متى؟

- بعدك، في الخامس من أبريل الفائت، أي أتذكّر رحيلك عنها.

- وماذا تريد مني الآن؟

لم أدر بماذا أجيبه، لماذا بدأ يخاطبني بهذا الجفاف وكأنه يستعد لطردِي، هل فهم أني أثمرتُ به؟، سارعتُ لأن أنفي ذلك قبل أن يرحل.

- أريد أن أتوكأ على عَضُدٍ يفهم شكل عرجي.

- أي عرج؟

- مها تزوجت، ورحلت.

- إذن لم تكن أنت زوجها ذاك.

- لا.

صمت حسن قليلاً، قبل أن يعود للكتابة.

- لم أكن يوماً ما عكازاً لأحد، عليك أن تتعلم كيف تمشي وحدك عندما يتخلى

عنك الآخرون، أو حتى تتعلم القفز على رجلٍ واحدة.
- أنت تقول هذا لأنها أبقت لك رجلاً يا عزيزي، أو أنك نجوت برجلك، أما أنا فعلياً أن أزحف على بطني بقية العمر.

صمت طويلاً هذه المرة، قبل أن يعود.

- خذ رجلاً خشبية، إنها أكثر وفاءً من أرجلنا أحياناً.

ورحل عني تلك الليلة، وبقيتُ في دوامة غيابه.

- أتعلمُ يا بني لماذا يموتُ الكهول أخيراً؟، ليس لأنهم استنفدوا سنواتهم، وما تبقى لهم من العمر، ولكن لأنهم من خلال سنواتهم وعمرهم فهموا الحياة للأسف، وعندما يفهمونها، تطردهم هي بدورها، ليظل ما فهموه سرّاً تحاصره قبورهم، وأوراقُ ذكرياتهم.

كان الخريفُ يُعري آخر الأشجارِ في ويسلر، الضاحية القريية من فانكوفر، ليرتك الطرقاتِ حائرةً بالأوراق الصفراء التي تحرّكها الريحُ. ملل.

شيء من مشهد الأوراق التي تخلّت عنها أغصانها في خيانة الخريف تلك يشتركُ مع كلماتٍ مس تنغل، إنها تتكلم عن الأوراق اليابسة، والسنوات الصفراء، والعمر الميت، وخطّ طويلٌ من الكتابة يمرُّ بكل شيء.

تبدأ كلامها دائماً بدهشة.

وأجتزُّ أنا غصص أحزاني، وأعيد بلعها.

أقول لها:

- لو كنتُ فهمتُ بعض الأشياء، لكان خيراً لي.
- لا تفهم، فف عند السطر الأخير دائماً، ولا تقرأه، السطر الأخير دائماً مسمومٌ يا بني، حاذر أن تلقي بعينيك عليه.
- إنَّ اليوم الذي رَحَلت فيه فتاتك ولم تعد، كان هو السطر الأخير من حبكما، ليتك لم تنقُشه في ذاكرتك يوماً لتوفّر على نفسك هذه التعاسة، كان أجدر بك أن تشتتّه من الصفحات السابقة، فقد كنتُ بالنسبة لها أسطورةً صغيرة تسبقها الدهشة فحسب، ولكّنتُ صرتُ في السطر الأخير يا عزيزي حكايةً صدئة.

تلفظُ مس تنغل كلّ عبارتها السابقة، ويبقى فمها مفتوحاً وكأنها تريدُ أن تقول شيئاً آخر، ولكنها تغلقه أخيراً، وتعودُ بظهرها لتستند إلى الكرسي.

لماذا هذا الاستنتاجُ المؤلم للحقيقة في الزمن الذي أحتاجُ فيه إلى وهمٍ رحيمٍ أغلق به جرحي؟، هذه العجوز التي شدّت من بين الأشياء الملتحفة بالغرابة هنا أصبحتُ، على غير عادتها، تفتحُ الآمي بجرأة، صارت كثيراً ما تكشطُ سطح الصمت الذي أتدثر به، وتتركني مرةً أخرى في مواجهة البرد وحدي.

أحصرُ نفسي بين دائرتين في فنجان القهوة، تقلّبُ مس تنغل جريدتها بلا مبالاة، وتقرأُ بمجنين منغلّين تقريباً عبر زجاج نظارتها الموشكة على السقوط، وتتجاهلُ وجودي تماماً.

أين كان السطر الأخير معك؟، هل لمثللك سطرٌ أخير؟

كلما نظرتُ إلى بطنك تحيّلتُ شكل أطفالنا.

كلما بكيتُ في وجل الخوف من الفراق، وحشرتُ وجهك في صدري، وعدتُك أن أنتظرك فلا تقلقي، أمارس القوة وأنا لا أدري أن كلّ صولجانات الحكم في يديك.

كلما أخذتني بعنف عناق، تهذين: ((أنت لي، وحدي))، وأهمسُ في هذيانكِ ((وأنت؟))، تخبين دون تردد: ((لك أنت))، ترى أين هو السطر الأخير في كل هذه الانفعالات الممدودة إلى آخر حقول الدنيا؟

هل من الممكن أن أنسى امرأة قالت لي كل هذه الكلمات، وأبدعت معي كل هذه الأشياء، وصبت في دمي كل هذا الحب؟

كنتِ تعدين بالعودة ولا تنطقين بها، فهل أضحي بهذا الأمل الذي يتأرجح بين الحقيقة والخيال؟

وقوفاً على رصيف طويل أعلم أنه لن يقود إليك، ولكن مسافة العجز أخذتني إليه، أسألكِ عبر يأسِي، إذا كان ما تقوله هذه المرأة حقيقة؟

لست أدري ما يمكن أن يُغيّره هذا الفهم المتأخر، ولكنني أشعرُ بحاجةٍ إلى الفهم أكثر مما أحتاج إلى النسيان.

كنتُ أخشى أن يبقى كلامها مبتوراً هكذا قبل أن تلقف الجريدة، حتى لا يظل مبضعها في صدري طويلاً، فلست أدري متى سأجري معها جراحةً أخرى.

أعود بها جس:

- مس تنغل، حبنا شيء آخر، لم تكن قصتنا من المعدن حتى تصدأ، لم تكن مراهقين نقبض على طرفي علاقة عابرة، لم تكن الأشياء تستقرُ في قلبينا بهذه السهولة، حبنا جاء صعباً، كنا نتسرّب في بعضنا حتى يخرجُ منا الليل، وما زال في جسدي شيء منها، نما، وكبر، وبدأ ينهمر على غصنه الغائب مثل الصيف.

لستُ أحتاج في ساحل الحزن إلى موجة كهذه، أنا أعرف كيف أنسى،

عندما لا يبقى لي إلا النسيان.

ألقيتُ الأخيرة مُشيحاً بيدي، والتقطتُ فنجاني لأرشف منه.

كم من الرشقات ليست إلا مقابر ارتباكٍ عابر؟

بدا لي أن كلماتي لم تحرّكها قيد شعرة، ولكن صوتها الذي جاء من وراء الجريدة كان له نبرة أخرى.

- ما دمت قادراً على النسيان فلتنس إذن.

- لا أريد لنا نهاية كهذه.

- ولماذا يجب أن تكتب النهاية وحدك؟

-

من قال أني أحبُّ الجمل القصيرة؟

عندما يختزلنا حواراً ما إلى هذا الحد، فمن المؤكد أن كلمائنا ستكون حادة فعلاً، أبعد ما تكون عما نريد.

ماذا يجبرني على تحديها، ما جئتُ هنا لأقاتل أو أنافحُ عن حب امرأة لا أريد أن أنساها، لا أريد أن أتخلي عنها، لا أريد أن أطويها في سجل حياتي.

أنتِ امرأة محرّمة على النسيان.

أنتِ امرأة لا تجيء فاعلاً لفعلٍ ماض أبداً، ولو انقلبت كل قواعد اللغة.

إن للحب قوانينه عندي، وهي أولى عندي من كل لغات البشر وقوانينهم.

ولكني جئتُ هنا لأجرب الاستسلام، حقناً للأوجاع.

أقول:

- يا أماه، لا أريد أن أنسى مها، شيء في داخلي يرفض أن أطوي حيي لها هذا الطيِّ الجاحد، أيُّ مغفرةٍ تلك التي تكفي ذنبي عندما تعودُ ذات يوم لتجدي قد نسيتهُا. مها امرأةٌ مختلفة ولكنها ما تزال مثلهن، إنها تحبُّ حتى ما قبل الجنون بقليل، ليس لأنها تبخلُ بالحب، ولكن لأنها تخافُ الجنون ليس إلا، فالنساءُ هناك لا يملكنَ الكثير حتى يضحين به في بلدٍ يعتقلُ حتى نبضاتِ قلوبهن، الحب في بلادنا لا يحمل إقامةً شرعية، لذلك لا يُفصح عن نفسه، بل يمشي متخفياً عن العيون، وأنا أعذرُها قليلاً في ما فعلته، لم يكن بوسعها أن تلتفَّ على وطنٍ بأكمله.

كانت مس تنغل تبدو وكأنها تعرفُ مسبقاً ما كنتُ سأقول، عاد بي صوتها هذه المرة إلى دفنها الذي خشيتُ أنه انتهى.

- هل تُجدي المرافعاتُ بعد صدورِ الأحكام يا ولدي؟
- إنهم يحكمون بالعقوبة، وليس بالذنوب، مرافعاتنا المتأخرة تلك هي التي تضع الحدود الأخيرة، وتطلق حكمها الإنساني على أفعالنا.
- وهل أطلقتَ هذا الحكم بعد، أم مازلتَ تنتظر شيئاً ما لن يأتي؟
لن يأتي.

يُفسدُ عليَّ كلامي مع مس تنغل ألي كنت أخفي عليها إنكِ ربما تعودين، كنتُ أخشى أن تظنَّ بكِ سوءاً، أنا الذي صرتُ أحبيكِ حتى في أذهان الناس، لأن الأمر

سيبدو لها وكأنه حكاية الحب الأزلية التي تكرر نفسها كلَّ جيل، وأنا ما زلتُ أشتري كلماتها بأحزاني، وأخشى أن تُطلق عليَّ حكمها الأخير قبل أن يكتمل البوح، يكفي الآن أن تعلم أن ظرفاً ما وقف بيننا وكفى.

كيف أخبرها عن دمعتكِ؟، هذه الساخنة الطافرة من جفنكِ مثل الجمرة، تقطُرُ على صدري، وذراعي، وأنا أمسح بيدي جبينكِ، وأقبلُ الخدَّ المبتلَّ المالح.
ما أوفى أن يقبلَ رجلٌ دمعاً نزلت من أجله.

وجهلك طفلاً عندما تبكين، وأنا أتنفّسُ في بكائك رائحة أمل، كنتُ أقول دائماً في نفسي أن امرأةً تبكي بهذه الحرارة، لن تبقى جبانةً إلى الأبد، يوماً ما ستعرفُ من أين تأتي قيدها، ولسوف تعودُ للرجل الذي أحبته.

ولكنَّ دموعكِ هذه لم يرها إلا أنا، سأظلُّ عاجزاً أن أحكيها لمس تنغل، وستظلُّ هي تظني دائماً مريضاً يحتاج العلاج، لم أكن في حاجةٍ لتبرير موقفي أمامها، أنا الذي ما زلتُ أفتاتُ بعض إيمانها في غربةٍ لا ترحم، ولكني كنتُ أريد أن أحتفظ بمكاني في دائرة الأمان الصغيرة تلك دون أن تظني هي مجرد سقيم يتظاهر بالصحة.

سأبدو، لو قلتُ لها ألي في انتظاركِ، كمن أفقدته الصدمة قدرة التفريق بين وهمٍ وحقيقة، وأنا دائماً أرفضُ أن أبدو مشتتاً أمام نظرات الآخرين، وأحاول أن أحتفظ بقدرٍ من الثبات، أتوازن به حين أرتطم بواقع ما، حتى لا يعلم أحدهم كم أنا تائه.

ودائماً ما أفقدُ هذا الهامش أمام العيون التي تقرؤني قبل أن أتكلم، ودائماً ما أشعر بالرغبة في البوح أمام هذه الأعين بالذات، لأنها تختصرُ عليَّ الكثير من التعليل خارج مطر الاعتراف، وكأني لا أبحثُ عن عيني تسأل، ولكني أريدها أن تقرأ معي في داخلي، لأعترف أنا بشيء وتقرأ هي البقية.

ومنذ يومي الأول معها وهي تقرأني حتى آخر ذنب، حتى أنت لم تقرأي بعضي كما تفعل هي، كثيراً ما وقفتُ معكِ أمام طُرُقٍ مسدودة أسكتُ بعدها، بل إن فرأنا هذا نفسه، لم يكن إلا طريقاً مسدوداً أخرى وأخيرة، طال بعدها السكوت، وجاء وقتُ الكلام.

إنَّ هذا يليقُ بها، هي التي جلَّستْ لتأخذ من الحياة ثلاثين سنة، على كرسيٍّ متحرك. هل هو المشي الذي يمنعنا من الفهم إذن؟، لقد أعطاهَا حبُّ ما ثلاثَ سنوات، وأخذ منها ثلاثين أخرى، وتركها على حدِّ الستين، قاب قوسين أو أدنى من الفهم، والموت.

عندما يُطلُّ صباحٌ مُشمسٌ نادرٌ على فانكوفر، تمكُّتُ مس تنغل صامتةً أمام المضيق البحري الهادئ، وكلما تأملتُها من نافذة شقتي أشعرُ أن الدنيا اتخذتُها محوراً بشرياً هذا الصباح، وأنَّ أشياء كثيرة راحَت تدورُ حولها قبل أن تأخذ طريقها نحو البشر.

ولكنَّ جلوسَهَا الطويل أرهاقها كثيراً، ماتت أعصابُ قدميها تماماً، وتخلخلت دورتها الدموية، فأورثتها الستون ضغطَ دمٍ مرتفع، ونوباتِ قلبٍ قاسية، كانت تلك النوبات تأخذها فجأةً دون أن تشعر بدنوها، فاعتادت أن تترك باب منزلها مفتوحاً طيلة النهار، وتتخذ لها خادمة تقيم معها تحسباً لنوبةٍ ما، ولكنَّ النوبة جاءت مأكرة ذلك اليوم.

عند الصباح، أدركتها أنا بنفسي وهي منكفئة في شرفة منزلها وقد أهلكها الألم تماماً، كانت عيناها متعبتين بعد أن فاوضت قلبها طويلاً، وكان أنينها خافتاً، ووجهها يعلوه اصفرار الموتى، وأنفاسها هامةً تقريباً، ويدها، ويديا ترتعشان.

و مرَّت نوبتها تلك بسلام، وعادت إلى بيتها، وسناجها، صرتُ أقضي معها ساعاتٍ طويلة، نخرجُ فيها إلى مقاهٍ وضواحي قرية، ومزارع، وغاباتٍ تحيطُ بالمدينة

من الجهاتِ الأخرى التي لا يحدها البحر، وكنتُ أرفعُ عنها نوبةَ القلب، وتمنُّعُ هي عني نوبةَ الكآبة، فليس في شقتي إلا الوحدة، والصمت، وصورتكِ التي أجاهر بها ألمي، وأبتزُّ بها.

هل قلتُ صورتكِ؟

أجل، صورتكِ التي ورثتها أنا في جملةِ القليل مما ورثته منك، قبل أن يسرقَ سالمٌ كلَّ شيء، ويُقي لي فُتات الأشياء.

أخذ سالم ما يقيه سعيداً، وأخذتُ أنا ما يقيني تقيساً.

كم أنتُ عادلة.

تركتُ لي أمصال البكاء التي أَسْتدِرُّها من ثدي الذكرى، وأعطيته هو سعادة العمر التي لا تنتهي، وبين ذراعيه أروع امرأةٍ يمكن أن يحلم بها رجلٌ مثله.

لأنني دائماً ما أفرغُ حقدِي عليكِ بكاءً، أنا الذي لم أكن أبكي حتى في أضعف لحظات طفولي، لأنني كنت أراه عاراً لا يجدرُ برجل، بقيتُ محتفظاً بهذا المبدأ، متمسكاً بهذه العقيدة، حتى عرفتُكِ، لأنكِ امرأةٌ أسهل ما تفعله تغيير العقائد، فجاء بكائي كبكاءِ الشمعة، يأكلُ من عمرها، واكتشفتُ أن البكاء لم يكن يجهل عنواني بل كان ينتظري في أول الشارع، وأن دموعي لم تكن خالية من الملح أبداً، وأن غُدَّةَ الدمع ثرَّةٌ ومدراةٌ كثدي الذكرى الخصب.

حتى الآن في فانكوفر ما زلتُ أبكي.

كان عندي بيتٌ، وسريٌّ، وحبوب صداع، ولكني كنتُ أبكي عند مس تنغل، بعد أن تأكدتُ أنها ترمقني بعيني أم، وأن شيئاً من دموعي لن يَعرَى، ولن يجفَّ دون ثمن، كانت تمنح دموعي انشياها الطويل، وتجرُّ كرسيها، وتربتُ على كفي، وربما

أخذت تبكي معي.

دائماً يبكين معي، أمي تبكي إذا بكيت، وأنت تبكين، ومس تنغل، ليس من السهل اللجوء إلى ذراعي امرأة، أنتن لم تخلقن لكي نلجأ إليكن، ولكننا خلقنا نحن لتجاهل كل شيء، ونزحف نحوكن على قلوبنا، بكاءً.

ولكن مس تنغل كانت أكثر كنّ خبرة، كانت تواسيني قبل الشكوى، وتمسحٌ خدي وهو جاف، وتعزيني قبل المصيبة، وتضميني كأم، في آخر لحظة، قبل أن أهار.

كانت عيناها وقلبها دقيقان جداً في قياس أوجاعي، وكانت تعرف جيداً متى تتدخل لتنقذي، لا لتزيد الصداق صداعاً، كانت تعرفُ حدودي الأخيرة التي لا أتماسك بعدها، وكلماتي الأخيرة التي أبكي من خلفها، ولكنها تغفل عني أحياناً، فتأتي وقد سبقتها الدموع.

يا لهذا الحب الذي يجعلني متصوفاً، ويحوّل أوراقِي التي أريدها أن تبدو كرواية إلى هويمات عاشقٍ يهذي، واهمارٍ على دائرةٍ مغلقة، وانحباسٍ دوراني على محورِ امرأة، وترتيلٍ طويلٍ بما وجدتهُ فيكِ، ووصفٍ ربما كرّره قبلي آلاف العشاق، ولكن من جرّب العشق يعرف أنه يشبهُ التنفّس، لا بد أن يتكرّر لنظلّ أحياء.

إما أن أكتب لآخرين أو أكتبُ لك، لا أفهم كيف انطحنتُ تماماً في رحي روايتي هذه، التفاصيل الصغيرة قد تعنينا معاً، أما هم فتعنيهم الأحداث الكبيرة فقط، شجّني عندهم غزلٌ مكرّر، أحزاني دموعٌ قديمة، غنائي اسطوانةٌ مشروخة، كلماتي إرثٌ مشتركٌ لكل صبٍّ مدله، يبحثون عن أسطورة، عن قصة، عن تسليّةٍ ينامون عليها، صوت أنيني مزعج، ليس عندي ما يشتهون، أنا عاشقٌ رحلت حبيبته فحسب،

وتركت له قلماً وذاكرة.

ليس هذا ما يحدث من صناعة كاتب، ولكن ما يقيدني فعلاً، هو أنني أحببتُ امرأةً مثلك، لا يسعني أن أتجاوز تفاصيلها بسهولة.

التفاصيل التي يرونها مملّة، وأراها أنا غير ذلك، لأنها كانت تدور حولي أنا وحدي.

كم كنتُ أشعر بالغرور كلما تذكّرتُ أن عندي حبيبةً مثلك، لها كلُّ هذا الاعتبار.

كم كنتُ جامداً إزاء أيّ فتاةٍ أخرى تحاول الدخول في حياتي.

كنتُ امرأةً تصنع وفائي لها بنفسها، لأنني كنتُ أفي لك ليس من أجلِك فحسب، بل من أجلي أنا أيضاً، حتى تكتمل في داخلي روعة هذا الحب.

قديماً قال لي يوسف: ((لم يعد الحب سلعة هذا الزمن، العشاق الآن مثل هواة جمع العملات القديمة، قليلون، فارغون، ومتهمون بغرابة الأطوار))

يبدو أنني ألاحقُ الآن عُملَةً هي الوحيدة من نوعها في العالم.

صار حيي لك مُعقّداً كمشفرة، فلسفةً عميقةً أطبقها بكلّ حذافيرها ولا أفهم منها حرفاً، لأن فهمها كفر، بينما ترديدها صلاة، وإيماني بها يزداد كلُّ لحظة، كأنّ حبكِ نظامٌ دقيقٌ من النبضاتِ والأنفاس، تختلجُ في قلبٍ وحيد، بتناسقٍ لا يعرف الخطأ، ولا التحوير، ولا الهمود، أشعر أنه كتابٌ كبيرٌ ما زال كما كتبناه معاً أول مرة، لم يؤوّل، ولم يُحرّف، نقشٌ أزلي متواتر، لا ينقص قُبلة، ولا يزيد دمعة.

حبٌّ نزل على حياتي مثل الغزاة، احتلّني فعلاً، احتلّ جسدي البكر الذي لم تطأه امرأةٌ قبلك، الشفتين اللتين قبّلتيهما وحدك، والعينين اللتين سكنت فيهما وحدك، الجسد الذي كنتُ أول من فصلّه، ورسمه، وكتب عليه عضواً عضواً، المناطق التي لم تكتشفها امرأة، والأوراق التي لم تقرأها أنثى، أصابعي التي ما مسّت قبلك عشيقة،

ولا مرّت على شعر حبّية، فمي الذي لم ينطق كلمة الحب منذ تعلّم الكلام لغيرك، وظلّ بعدك صامتاً، الرجل الذي فقد معك عذريته، ثم ترهّب، واحتملك في قلبه فخوراً بأنك المرأة الوحيدة التي اكتشفته، واحتلته، وامتلكته.

لماذا تتركين هذا الرجل وترحلين؟، هل حبّ كهذا يستحقّ يوماً أن يغور في التراب؟

ربما حمّلك الكثير في مآقيهم، ولكنك لن تجدي من يحمل مقلتيه إليك إلا أنا.

أيّ رجل في الدنيا يحلمُ بامرأةٍ كما أحلم بك أنا؟، ينام ويصحو على أمل ويأس، ويظلم ويروى بذات الكأس، يعيش لأجلك ويموت بك كل يوم، إذا لفّ الليل غرفته بكى لك، وإذا فتح الصباح نافذته شكّا إليك، إذا أشرقت الشمس قال مساءً تعود، وإذا غربت قال غداً تعود، وأنت أبعد من شروقها وغروبها، وما زلت زوجة من لا يراك إلا زوجة، وضجّعة من لا يراك إلا أنثى، ولو تركته لاختار غيرك ولم يطرف له جفن، وأنا يحترق جفناي هنا كأنّ على كلّ جفنٍ حمرة، وأنت صبحي وممسا، ومماتي ومحياي، وآخرتي ودنياي، أفلا تدركين أيهما يستحقّ وفاءك؟

جفّت في صدري أوراق الغد قبل أن أبلغه، أحاول أن أفهمك، أحاول أن أفهم متى تدركين أن الحب يستحقّ أن نتعب قليلاً من أجله، لنحيا طويلاً في جنّته، وأنّ القليل من الغبار الذي قد يثور، يغسل عيوننا، لتعود الرؤية بعده أصفى، والأفق أوسع.

أتذكّر مقولة كاتبٍ ما ((فعلٌ ما قد لا يقودنا إلى السعادة، ولكن لا سعادة بدون فعلٍ ما))

ربما كان يدرك هذا الكاتب أن امرأة مثلك كغيرها قد يجبسها الخوف، أو الإرهاق ربما، من أن تقطف سعادتها القريبة، أو أنّ بعض الحب تتخذ مع قرارنا بابتدائه قراراً

بإلهائه، في يوم محدد.

أخيراً، فعلت ما تريدن، ولم يُثر في حياتك شك ولا غبار، وتزوجت سالماً كما أردت وأراد الجميع، فماذا بعد ذلك؟

لن ينتهي الحب يا حبيبي، سيظلّ هاجساً يحوم فوق رؤوسنا حتى تُردّ له دينه، ونوفي له الكيل كما يستحق، وكما أوفاه لنا كاملاً طيلة سنة، هو لن يرضى أن نعلقه هكذا على مشجب الذكرى مثل قبعة قديمة، هو متطرف أحياناً، إما أن يمنحنا سعادتنا كاملة متى سعيها لنا، أو يُفسد علينا كل شيء.

هاهو بدأ بي، وراح يصبّ في فمي الحرمان، أنا الذي تركته حبيته ضعيفاً هشّاً، أبكي بمزحة، وأرضى بلحظة، وكأنّ قلبي صار إناءً من الزجاج، لا فرق بين من يكسره جاذباً أو مازحاً، هكذا أنا عندما كنت تشاكسيني مازحة عبر الهاتف مرات عديدة، فلا أشعر إلا بحرارة دمعة سقطت، لو رأيتها لظننتني جنّنت، لأنها دعابة، ولكن هذا ما فعله بي الحب.

أو أنني رجلٌ مريضٌ حقاً.

أيّ امرأة هذه التي تطوي رجلاً بين يديها مثل لولب معدني، ثم تطلقه ليرتدّ بعيداً، ويسقط على الأرض ملوياً، فائضاً عن الحاجة، غير قابلٍ لإعادة الاستخدام؟

أيّ امرأة تغيّر أقداري، وتسرق حواسي الخمس، وكلّ ما يُمكن أن ألمس به الحياة وأستطعمها، ثم تتركني وترحل؟

هل تركت لي فجوة صغيرة أتمرّ منها امرأة أخرى أضمدُ بها جرحك؟

هل تركت لي صفحة خالية من جواز السفر، ليس فيها اسمك، أعلق فيها تأشيرة ما، إلى وطنٍ جديد؟

هل تركت لي حتى مساحةً للحلم، أحلمُ فيها بغيرك، وأنجح في تحقيقه، لعلني أنجو من هاجس الأحلام التي لا تتحقق، وتجعلني قاب قوسين من الجنون؟
لماذا تحرميني من كل ما أطلب به السعادة، ثم تلتفتين إلى رجلٍ آخر، لتمنحيه كل ما تستطيعين من سعادة؟

ليس عندي إيمانٌ بغيرك، فكل المسافات التي أهرُبُ فيها تقود إلى عينيك في النهاية.
لأن الأوطان يا حبيبي لا تُستبدل في مصرف العملة، ولأن جوازات السفر لا تمحو الهوية، ولأن الحب لا يمكن تركيبه متى نشاء، مع من نشاء، بل هو الذي يختارهم، ويأخذ من أنفاسهم، ونبضات قلوبهم، ويعجنها ببعض، ثم يتركهما لبعضهما، إما أن يؤمنا، أو يكفرا.

كان لا بد أن نقف من أجله ضد كل ما يعترضه، لا حُب يأتي مع التيار يا حبيبي، الحب مثل الأنبياء، يشتر بالسعادة، وينذر من الشقاء، ويحمل بين يديه قنديل الهدى السني، ويمشي وحده في الطريق المظلم، ولا يتبعه إلا قلة.

ماذا فعلنا من أجل حبا؟، رُبَّ رجلٍ هام على وجهه سنوات حتى استعاد حبه، ورُبَّ فتاةٍ تدلّت من شرفتها حتى صارت قاب قوسين أو أدنى من السقوط، ليخلو سبيلها مع حبيبها، وكلهم يظنونهم مجانين، ويرجمون سيرهم ومبدأهم، بينما هم ليسوا إلا ((فتية آمنوا برهم، وزدناهم هدى)).

كانت حلولنا أسهل بكثير مما وصل إليه غيرنا، ومع هذا نتخاذلنا، أو هـنأ أنفسنا أننا سنُذنب عندما نمارس أبسط حقوقنا الإنسانية، حق تقرير المصير، وقفنا في منتصف الطريق.

لماذا ظننت أن تركك لسالم، أنت التي بكيت طويلاً ليلة فراقنا، سيورثك شعوراً

بالذنب لا يفارقك طيلة حياتك، بينما الذنب الحقيقي هو أن تتزوجي بمن لا تحبين، وبين يديك من تحبين، وأن يبقى قلبك ينبض بحب رجل، بينما تعاشرين آخر، وأن ترحلي عني، وأنت تعلمين أنك تطفئين سراج حياتي وراءك، لأبقى طيلة العمر أتحبط في الظلماء، بلا أمل، وقد سلبتني حتى الطموح البسيط.

حاولي أن تعيدي وزن معادلة الذنوب يا حبيبي، ربما تتغير أشياء.
ربما يأخذ الحب بيديك هذه المرة إلى القرار الذي كان يجب أن يتخذ، بعد أن كلّفني إهماله الكثير من العمر والدموع.

كم ينقصنا من الفهم الصحيح حتى نفهم أن بعض ما نظنه مثالية، لم يكن إلا وأداً في الزمن الأخير، وأن ما يفصله لنا المجتمع من مبادئ، قد لا يناسب أجسادنا، فلماذا لا نفصل مبادئنا بأنفسنا، مادام الهدف الأخير هو ستر العورة؟

وكم تنقصنا من الشجاعة حتى نكف عن محق ابتساماتنا لتبقى ابتساماتهم، وقتل اختياراتنا لتحمي اختياراتهم، ونتوقف عن تقديم القرابين لإرضائهم، وإطعام حرياتنا لنار سلطتهم المقدسة، سيموتون أخيراً، ونبقى بعدهم في الحياة وحدنا، مكبلين حتى الموت بقيودهم الخاطئة.

وكم من الثائرين الذين سبقونا بالإيمان يجب أن يعلنوا عن أنفسهم، ويحكوا لنا قصة تمردهم ونجاحهم، وسعادتهم التي انتزعوها بأيديهم، فكان هناؤهم بها أعمق، واستمتاعهم بها أبلغ، وقد تعبوا قليلاً في سبيلها، فنالوا الكثير من محبتها، وكانت ذكريات حصارهم أجمل، وكان لقاءهم بعد كل هذا يشبه التقاء الشمس بأول جزيرة إلى الشرق من الأرض.

كم منهم يجب أن يجلس معنا، ويكشف سرّه، ويخبرنا بما فعلوا من أجل حبيبهم، حتى لا نشعر أننا وحدنا على الطريق.

وكم من الأنبياء يجب أن يبعث الله في الأرض حتى نعلم أن بعض ما يقيّدنا به المجتمع ليس حقاً، وإنما هي عاداتٌ تحوّرت لتأخذ شكل العقيدة، فصار كلٌّ من يخرجُ عنه وهو على حق، كأنما خرج من ملته التي يستعصم بها.

وكم من السنوات يجب أن تمرَّ حتى يولد في داخلنا القرار، قبل أن يولد في زمنٍ لا يجد من يحتضنه فيه، فيشتقُّ نفسه بحبله السري، لأن تاريخ ميلاده لم يعد له معنى للأسف.

وكم من الوفاء نحتاج لكي نفعل شيئاً من أجل حبا الذي عرفناه مختلفاً، وتعاهدنا على إبقائه كذلك، فإذا هو يموت حقيراً، ذليلاً، في عرصات الوحدة.

وكم من الدهشة تلزمني لأفهم كيف صارت حبيبي التي أحببت فيها أول ما أحببت اعتدادها بنفسها كأنني، فكان تمرُّدها جميلاً، وصوتها بالغاً كل مدى، كيف صارت خائفة، مقيدةٌ بذلٍّ مقيم، وملقاةٌ تحت جسد رجلٍ لا تستطيع أن تتخلص منه.

سيقول بعضهم أنني أكتب منشوراً محرضاً، سأقول أني أكتب حيرة رجلٍ لا يدري كيف تكأكات عليه الأقدار بهذا الحقد، إنه لا يدري أيواجه مجتمعاً لا يعترف بنبضات القلب إلا في غرف العمليات، أم ظروفًا تتحدى بعضها أمام مرآته أيها يبدو أقيح.

الأسوأ من ذلك أنه يواجه قناعاتٍ حبيته نفسها، تراوغه كلَّ يومٍ بمبدأٍ ضحل، بدمعةٍ غريبة، بذنبٍ مفتعل، بقرارٍ مختلف، بفكرةٍ ظالمة، بعذرٍ مُختلق، الهدف أن تقنعه أنها يجب أن تتخلى عنه، وتتركه هب الأحران، دون أن يطرأ له أن يلوم قرارها الذي حطم حياته.

لماذا لم أكن أواجهك بهذا عندما كنت بين يدي؟

هل تصبحُ حجتك أقوى عندما تشترك عيناك في صياغتها؟، هل لأنَّ خوفي يُطمِرُ مؤقتاً في لحظة عناقك؟، هل لأنَّ وجودك أمامي لا يجعلني أفكر في ذاتي كما لا تفكرُ الأجسام الدورانية إلا في محاورها؟

لهذا السبب ربما لم أكن أناقشك في أمر بقائك إلا عبر الهاتف.

الآن أناقشك عبر رواية.

فكم من العمر يا ترى يجب أن أقامر به في انتظار ما يسفر عنه نقاشنا.

الفصل الخامس

كنا أطفالاً كانت أروى تكتبُ لنا جميعاً وتدسُّ رسائلها في أغراضنا، أفتحُ دفترتي في قاعةِ الدرس لأجد رسالةً منها أو بطاقة، يأوي عمر إلى فراشه ليجد وِرقَاتِ أروى تحت وسادته، تخرجُ أمي صباحاً من باب غرفتها لتفاجأ بمشاعرِ أروى محشورةً في الباب، ويوسف، وخالد، وسارة، وندى، كلنا تعودنا على رسائلها الغارقة في عذوبة فتاة تملكُ فائضاً من الحنان.

اكتشفتُ أن أروى تكتبُ لأبينا مثلي.

كنتُ أشعر أحياناً أنني نسخةٌ منها، ولكن بجودة أقل، لها نفس عاداتي الجميلة، ولا شيء من عاداتي السيئة، أجمل لحظاتي عندما نجلسُ في حديقة المنزل آخر الليل لأقرأ لها قصيدة، عيناها والسَّحر، كلاهما يلاحقان الكلماتِ الشاردة، وأنا عندما أنتهي من قراءة قصيدة، أدوخ.

وكانت أجمل لحظاتها هي عندما تتطفل بنفسها على دفترتي، وتقرأ القصائد الناقصة، والخربشات الأولى، والأجنة التي تسقط ميتة بين أوراقتي، تحملُ أشعاري وخواطري إلى صديقاتها، تعلقها على جدران غرفتها، تحرضني على ديوانٍ أعري فيه نفسي، تفاجئني بها أحياناً منشورةً على صفحاتِ جريدة تولت هي إرسالها بنفسها.

رسالتها أقصر من رسالة عمر، كان يوصيني فيها كأب، يمدُّني بمال، ويذكّرني بأرقام هواتفه، جاءني أيضاً اتصالٌ عابرٌ من خالد، لم يحمل لي سوى صوته العميق، وكلماته المنتقاة بحيائه المعتاد، هذا الأخ الذي لا أكاد أعرف عن حياته أكثر مما يعرفه أي شخصٍ عابرٍ فيها، إما أنه شديد الغموض، أو شديد البساطة.

حملت لي أمي تحيات سارة وندى، وما تفعله صغيراتهن اللواتي تذكّرهنَّ أمي دائماً بخالهن البعيد.

كلُّ هذه المشاعر العابرة للأميال، ويبقى حنين صدري متجمدٌ مثل جثةٍ قديمة، يتلعب

((أفتقدُ كثيراً هدوء ملامحك في وحدتي الصاخبة، مأساةٌ هي الوحدة عندما تأخذنا وسط الأشياء، أشعر أن الذي ييقينك بعيداً عنا إلى هذا الحد هو أمرٌ حزين.

بيننا مسافة الأرض، كيف لي أن أقول لك لا تخزن بشكلٍ لا يجعلها تبدو لا مبالية؟، كيف لا يضيع توحّدي مع أحزانك في لطف رسالة؟، كيف أحتضنك يا ضوء عيني حتى لا تنام حزينا، ولا وحيداً، ولا خائفاً؟

صورتك مرآة وحشتي هنا، علّقتهَا أمام أريكتي لتظلّ ماثلاً أمامي طيلة اليوم والليلة، أتأمل ملامحك المرسومة بيدٍ جميلة فأستعيدُ دفء طفولتنا وحنانها القديم، كم أشتاق إلى دفاتر أشعارك، ابعث لي قاموس عشقٍ ما، فأنا لا أرتوي من أخي.

إن لك أختاً لم تقتسم رغيف حياتها مع إنسانٍ أكثر منك، زربي أيها الغالي إذا استطعت، فأنا أشتاق إليك.

أروى))

يحرمني البريد الإلكتروني من البكاء على ورقةٍ بخط أروى الجميل، لكنها نجحت في المثل أمامي كتابةً كما تعودت، الرسائل ليست شيئاً جديداً على يديها، منذ أن

البريد والهاتف كلما في إليهم مختزلة، قصيرة: أنا بخير، ولكن لم يحن وقت العودة.

كُتِبْتُ لأروى التي تهمني بالكتمان: ((لا تقلقي، كلُّ ما في الأمر أنَّ كلامكِ القديم كان في محله، حقاً ما أسهلنا))

كنتُ أتمنى لو أزورها في لوس أنجلوس، ولكن عملي لا يسمح لي، اشتقتُ إليها كثيراً، إلى عينيها الحالمين، وشعرها الناعم القصير، وجمالها الياشمي البارع، تُرى كيف تبدو الآن في حملها؟، هل سيغار محسن لو كشفت لي عن بطنها الممتلئ لأراه كما تعودنا ألا نجد في ذلك غضاضة، أم أنها ستريني إياه دون علمه؟، تغلبي ابتسامة كلما تخيلتُ شكل غيرته لو علم كيف كنا مع بعضنا كذكرين، أو أنثيين، لم ينتصب بيننا حاجز حياء أبداً.

ربما هي التي ستخجل مني الآن بعد أن ابتعدتُ عنها أكثر من سنة، لم يحدث أن فارقتُ أروى أسبوعاً شارباً طيلة حياتي.

عما قريب سيثمر حبهما الجميل طفلاً ما، يوقّع بيده الصغيرة قصة أبيه التي حرصتها الأقدار حتى النهاية، كيف التقطتهما من الأرض مهدوء، وعرجت بهما إلى السماء، وتركتهما في عهدة غيمة.

أما أنا فلم أعرف نشوة الصعود، ولم أسلم من ألم السقوط.

كم أغبطهما.

كُتِبْتُ لها أيضاً: ((سيجيء طفلكما جميلاً يا أروى، لا أجمل من طفلٍ يُولد فوق الغيوم، بعيداً عن أكدار الأرض، ولن يعرف البرد ما دام في مدفاة أبيه كلُّ هذا الحب))

منذ أن كانت أروى طفلة وهي أم، كانت تمارسُ أمومتها الصغيرة مع كلِّ الأشياء،

تتجاوزُ العرائس الميتة إلى أخٍ يصغرها بسنة لا أكثر لتكون أمه، تدرّبُ حنانها على انطوائه المعتاد، تغطيه بيديها الصغيرتين إذا نام، تنقشُ اسمه بخطها الجميل على دفاتر المدرسة، توارى معه أخطاء الطفولة وعثرات المراهقة عن عيون الأهل، تحارب عاداته السيئة بعناد حتى تُجهضها، أتذكرُ في غيب الماضي كيف تأخذ سبابتي وتدخلها في أذنها حتى لا أعيدها إلى فمي، ودون أدنى إحساسٍ باستقلال جسديّ عنها، كنتُ أقضم أظافري مرةً أخرى دون أن أفكر في غسلها.

أين هي من كلِّ العادات السيئة التي بعثها فيَّ حبكِ من جديد.

هاهي عادةٌ جديدة تبنى نفسها ببطء في داخلي، العزلة.

هاجس الالعودة يساورني كثيراً، يتطفّل في عروقي انزعال الكُتّاب، والبقاء بعيداً عن ضجّة الوطن وصخبه، لا يؤرقني إلا عينيّ أمي يوم تعلم أن سفري صار هجرة، ففي فانكوفر تحرقني الذاكرة وحدها، أما في الوطن فكلُّ الأشياء سوف تغرز كسيخٍ حُمّي في جهنم، ونزل في جسدي.

فكرتُ أن أبعث لأهلك باعترافٍ طويل عن كلِّ ما دار بيننا، انتقامٌ بارد، ولكن يبدو أنك كنتَ شديدة الذكاء عندما علقتني بأملٍ ما قبل أن ترحلي، لتتقي مني انقلاباً كهذا يوماً ما.

هأنذا الآن لولا أنني ما زلتُ أشمُّ الأوهام، لربما لم يبق في الوطن لسانٌ لم يلفظ باسمك، وعينٌ لم ترنُ إلى صورتك، ولا تنفضت عليكِ مدينةٌ بأسرها حتى لا تجدي لنفسك فيها موطأ قدم لا يضطهدك فيه أحد.

أتخيّل اليوم الذي يُصدم فيك سالم، أتخيّل اتساع عينيهِ، وتحجر لسانهِ، تُرى هل سيلقي عليكِ الطلاق فوراً مثل المسلسلات، أم سيكتبه على ورقةٍ ما، ويعيئها إليك؟

ليس عندي إيمانُ حسن حين نفض يديه منك، ورحل مثل السفن النائية، ما دمت
لن تكوني لي فلن تكوني لرجلٍ غيري أبداً.

ترى متى سأعود إلى الوطن لأرتكب هذه الجرائم اللذيذة؟، وإلى متى سيظل صبري
يهديك شهراً بعد شهر تبقيين فيها مع سالم دون أن ينفد؟، ومتى تراها ستُفتح تلك
الحقيبة المقللة في غرفتي على أسرارها؟

إلى أن يشتعل فتيلُ كهذا يوماً ما دون سابق إنذار، سأبقى معتزلاً.

كنتِ هويّتي في الوطن، وسأعتقلُ فيه إذا سرتُ بدونك.

فانكوفر لا بأس بها، تُشبّه المرّضة الطيبة، سأبقى فيها مثل ديار.

* * *

أشعر بغرورٍ طيّبٍ هذا الصباح، ينحسرُ في حنجرتي ألف لحنٍ عاطفيٍ ينتظر دوره في
الغناء، وأنا أترنّمُ بها واحداً تلو الآخر منذ نزلتُ من سيارتي، ومشيتُ في ممر الجامعة
الطويل، ودخلتُ قاعة المحاضرات بكبرياء عاشق بعد وصال، وجلستُ في الكرسي
الأخير، ولم ألقِ تحيةً على أحد.

أخذتُ أقيسُ بذاكرتي الساعات الخمس التي تفصلُ بين الثالثة فجراً، عندما نزلتُ
من غرفتك، والثامنة صباحاً كما تشير الساعة المعلقة فوق السبورة.

كنتِ كريمةً في الحب كعادتك، سخيةً في الوصل كعادة إلحاحي، كرهتِ أن يقضي
عاشقك الصغير ليلته على فراشٍ وحيد، وينام قبل أن تصبّي مائة قبليةٍ في كيس
غروره، ليباهي بها أقرانه في الصباح.

قالت أروى: ((عُد قبل أن تستيقظ أُمّي لصلاة الفجر))، ابتسمتُ خفيةً لتواطئها
الذكي، وتركتُ لها إيماءةً صامتة، ومن خلفي خيطٌ طويلٌ من العطر، يفضح مشوار
منتصف الليل هذا، نامت أروى في فراشي، وسعيتُ أنا إلى يثرب، إلى غرفتكِ أيتها
القمر الحنون.

هل لديكِ مأوى لعاشق؟

أربعون طالباً في دائرة تأملي الآن، المحملقون، الناقشون، المتأخرون، المتمطّون،
النائمون، أما في الخلف الأخير، فيجلسُ بطل البارحة، يدخنُ لفافة عشقه، ويمشي
بمحاذاة قلمه، وعلى كرّاسته الضخمة، تعيشُ أمّ وحضارات، فراعنةٌ ورومان،
إغريقٌ وهكسوس، صينيون قدامى، وعربٌ جاهليون، وفي الوسط سبّيون كثير
يحفون بعرش ملكتهم النائمة على قلبي.

هل يعلم المارقون حوار سيارتي أُنِي كنتُ ماضياً إلى غرفة فتاة؟، هل فهمَ الشرطيُّ
الذي تدلّى على الرصيف تعباً وإرهاقاً في الثانية بعد منتصف الليل أنكِ تنتظريني
خلف شارعين؟، هل سمعوا حفيف حنيني، وخشخشة أفكاري، وضوضاء قلبي؟

سؤالٌ قديم سألته كثيراً: هل اللذة في الندرة أم في الدوام؟، كلُّ النساء اخترن
دوامها، أنتِ، وأروى، ومس تنغل، ولارا، صديقة ديار، وحتى أُمّي، وكلُّ الرجال
اختاروا ندرتها بلا استثناء، كان منهم ديار، وعمر، وزوج ندى، حتى يوسف،
وجدتُ في أحد دفاتره إجابةً عن سؤالِي هذا.

أما أنا فكنتُ حائراً بين الإجابتين، وكان هذا دليلاً واضحاً على انقسامِي الفكريِّ
القديم بين الذكر والأنثى، عندي حذرهما ولا مبالاة، ولكن مواعيدي معكِ كانت
تزيدني حيرة، لأنها كانت تتأرجح بين الندرة والدوام، كانت نادرة لأنها ستنتهي
ذات يوم، وكان دائمة لأنني كنتُ ما أزال قادراً على الوصول إليكِ مثل هذه الليلة،

بماتفٍ قصير .

العشّاق الجُدُدُ في قاعاتِ الدراسة تنمو لهم أجنحة، وتُفتح لهم الشبايبك في تواطؤٍ سماويٍّ، ويحلّقون خلف المدى، يتعدون، يتعدون، ويتزلون على أهدابِ حبيبائهم، يحاولون عناقاً ما، يقبلون اليدين والشفَتين، ويلبثون في تأملٍ سرايٍ حنون، ثم يعودون إلى درّسِهِم المنتهي، فيلملمون أوراقهم، وأنصافَ القصائد، وأشتاتَ الكلمات، ويرحلون.

بالقُربِ من الشُّباك الخلفي، غرّد عصفوران، أحدهما يحكي للآخر لقاءنا بالأمس، ولا أحدٌ يفهمُ كلام العصافير، كما لا أحدٌ يستطيعُ أن يوقظَ القمرَ النَّائمَ الآن، ليسمع منه سرّ العاشقين اللذين طرقاه قبل ساعات، واستقبلهما في حُجراته العلوية.

زيارتي لغرفتك تجعلني أجربُ الانتماءَ والتشرّدُ في ساعتين فقط، أدلفُ من باهما المغطى بالسّائر البيضاء الشفافة، فأفهمُ معنى أن يكون لي وطنٌ، واحتواءٌ، وغرفةٌ حبيبة، وأخرجُ بعد ساعتين، فأفهمُ أيضاً معنى أن يكون عندي شوقٌ، ورغبةٌ، وتذكُّرةٌ عودة.

منذ أن أجتازُ الممرَّ الصغير، وينغلقُ علينا البابُ برفق، تنهمرُ بين ذراعينا أوركسترا صغيرة، عناقنا سحبات كمان، قبلاتنا نقرات بيانو، آهاتنا أوجاع ناي، إنه انتفاضٌ موسيقيٌّ مجنون، أضْمُك فيه بلهفة عائد، بحنين لاجئ، وبرغبة عاشق، وتُضمّين أنتِ عاشقك الوفي بدفءِ أم، ورقة أنثى، وعذوبة امرأة تُتقِنُ الحنان.

تأخذني شفتاكِ إلى أبعد من مجردِ قبلة..

إنها حكاية..

تمرّين مهدوء..

تكشفين شكل شفتي هذه الليلة..

فجأة..

تلتقطين السفلى بأنانية..

تعتصرينها بين شفتيكِ برفق..

تعصينها بخفة شديدة..

ثم تسحين فوقها لسانكِ العذب..

.....

تسرقين فمي، وأنا أغمضُ عيني وأرحلُ في قبلكِ السارقة، في الطريق الذي يسحبُ ورائي دهشة مدينة، في الفن الذي يعلّقني لوحاً على حدارٍ حائر، في الطقوس التي تزرعني غصناً بنفسجياً في حقلِ سماويٍّ بعيدٍ، بعيد..

تعسّفُ عادلٌ في طلب الحب، رياحُ أنثويةٌ عاتية في مناخ الليل، انفتاح عينيكَ البطيء، الاضطهاد العنيف الذي يستجديني، الرغبة التي تتمدّدُ شوارعَ وشوارعَ، وتنقلبُ معادلةُ الجسدِ و الروح، وتأخذُ عيناكِ شكلَ قارب، وعيناكِ شكلَ مرفأ، وأتأملُ كأول مرةٍ في قوسِ الرّصدِ الذي ترسمُهُ شفتكِ العليا البارزة، وفي الشفّة السفلى التي تنام، مثل نساء الجنة، في انتظار المؤمنين.

تنفلتُ أعصابي، واقتربُ منهما، أقترّب، أكادُ ألمسهما بفمي، فتتراجعين فجأة، أقترّبُ أكثر، وتتراجعين، أشعرُ أنّي أنزفُ شوقاً، دلالك ساديّ لذيذ، نقطة راضية في سجل اعتدادكِ الأنثوي بنجاح سياسة الجزرة مع الرجل، ولكن لا تهمني حروبكِ الداخلية الصغيرة الموروثة معه، رحتُ أضْمُكِ في غمرة انتقام، وأحترقُ في شفتيكِ عشرَ دقائق كاملة، لا تتجرّأ، قبل أن أشعل قبلةً أخرى.

من أين تعلمتِ حركة التراجع هذه؟، أصبحت القبلية مثل قضية، يتذرّم تحتها العشق، ثم يتمرّد، ثم يثور، وبعدها يزداد الإيمان، وتحقق النبوءة، ويأتي النصر،

فتتحرك في داخلي نزعة استعمار ما، وأتجاوز الحدود إلى مدنٍ أخرى، كلُّ هذا من أجل قُبلةٍ تتأخر قليلاً.

من علمك هذا يا بنت؟
شارون ستون.

وأضحكُ طويلاً من هذا، لم أكن أتوقَّعُ إجابةً بهذه العفوية، يال هذه السرقة الأدبية لحقوق الشقراوات، كيف أحرقت أوراقها، وأحرقتني أنا حتى الفجر الآتي؟، إلى أين أيتها الفاتنة، إلى أين سيأخذني إغراؤك هذه الليلة؟

عندما أفقتُ صباح اليوم التالي كانت أروى نائمةً حولي، أيقظتها لتعود إلى غرفتها قبل أن تفيق أُمي، سألتها وهي تتمطى بوجهها الصباحي الجميل عن حركة شارون ستون هذه، ضحكت طويلاً من اعترافي الساذج بشكل ليلتي البارحة، قالت لي بعد ضحكاتها:

ما أسهلّكم.

غطت وجهها بشعرها القصير وأنا أرشُ عليها الماء من فمي وهي غارقةٌ في ضحكها، أَلقت عليّ وسادة ومضت إلى غرفتها وأنا أتذكرُ التفاصيل القصيرة الأخرى.

التفاصيل التي تُبدعينها لتقلبُ الأشياء رأساً على عقب، وتستهلك نبضات قلبي بشدة.

تفاصيل الليل الذي يخفت، والشموع التي تتأرجح، والحب الذي يتكوّم فوق سرير، والجسدان اللذان لا يتحركان إلا ليقتربا من بعضهما أكثر.

عندما تسافرُ راحة يدك في صدري، تكتشفين نقطتي ضعف، وتغمُر البرودة نصفَ

جسدي، ويحترقُ النصفُ الآخر.

عندما تتهاوى خصلاتُ شعرك على وجهي، وفمي، وأشمُ رائحة شعرك، وتضمكُ ذراعي بلهفةٍ كبرى، أشعرُ أن احتواءك هذا، يكفي ألف مشردٍ في أشتات العالم.

عندما تجلسين عند قدمي وتكتشفين الجرح الذي عمره يومان، فتخرجُ من جسمك رائحة أم، وتزلين مثل نورسٍ مسحور، تقبلين أثر الجرح على قدمي بخنان، أشعرُ أنا أن آخر فتيل من رجولي اشتعل أخيراً.

كلُّ وريدٍ في جسدي بدأ يتزف لغةً مختلفة.

يتزف حباً، وفاءً، امتناناً، لا أدري، ولكني بحثُ في قدميك، هذين الجدولين الصغيرين، بحثُ فيهما عن فتيل أنوثتك أنت أيضاً، احتضنت السبيكتين وقبّلتهما، قبّلتها حتى يحتجّ جميع الرجال، ويُقمع في داخلي تمرد الخارجين عن الحب، الذين يجهلون أسرار غُرف الحبيبات، وألوان ستائرهما، وفتنة حريرها، وضوء شموعها.

أقبلُ قدميك مرتين، وأشعرُ أن كبريائي ما زال صافياً نقياً، لم يُخدش قط.

أتذكرُ ديار في لندن، كنا نجلس متقابلين وقد استغرق رجلٌ وامرأةٌ أماننا في تقبيل عميق، طفا على ذهني سؤال:

هؤلاء أماننا، أظننه يجبها؟

أنتهمه بشيء؟

ما أسهل أن يمارس الرجل الجنس، يحتاجُ مكاناً فقط.

لماذا سألت عنه هو ولم تسأل عنها هي؟، لماذا دائماً يؤخذ الرجل على محمل الشك؟، لماذا نجعل قبلة الرجل مجرد شهوة، بينما قبلة المرأة دائماً عاطفةٌ

صادقة؟

كلها شهوة يا صديقي، بعضها يتكى على حب، وبعضها يتكى على ذنب.

ابتسم ديار لمبدأ التعميم.

- ديار، انظر، إنه يقبلُ ركبته.

رفع عينيه إليّ حتى بدا ميل اليسرى واضحاً جداً، وهو يقول:

- أكذبُ الحب عندما يرى العاشق في جسد معشوقه مكاناً وضيقاً،

يستنكف أن يضع قبلته عليه.

لم أندش من رأيه، لقد بدأت أفهمه جيداً.

لو يدري ديار تفاصيل لقاءاتنا، اختراعاتنا الصغيرة، ألواننا المتقلبة، رغبة الأثني التي لا تنتظر حتى أن أكمل طعامي، أخشى أن أفسد الكثير من العشاق على بعضهم لو ألّفتُ كتاباً جمعتُ فيه كل ما فعلناه.

جلستُ أحصيها في مقعدي الأخير ذاك، لأنك امرأة تسرق ليلي وصباحي على حد سواء.

كم نحن مبدعان.

ذلك الصباح العريق الذي دقت ساعته التاسعة، حمل الجميع أوراقتهم وبدأوا يرحلون، وبقيت أنا في الكرسي الأخير، معلقاً فوق غيمة، أنقشُ حروف اسمك على كراسي بعناية، وأحتفلُ بقصيدي التي بدأت، لعلني أكتب لك ما يجعلك سعيدة، كما جعلتني سعيداً هذا اليوم.

هذا شتاء، عليّ أن أقوم الآن بإصلاح مدخنة مس تنغل العلوية التي تشققت وصارت تسرب منها الأمطار، أمارس دور الجار الطيب الذي يشذب حديقة جارته مثل الأفلام، دائماً تتكلفُ مس تنغل الكثير من المال إذا أرادت أن تُصلح شيئاً ما في منزلها، لم يبق من مدّخراتها إلا ما أعطيها إياه أنا كراء لشقتي، وكراء آخر

لمستودع أخشاب قديم كان يملكه زوجها.

سعتُ بنفسي للإشراف على شقوق صغيرة في جدران المدخنة، لا أبسط من ردمها، ولكن هل تجيد يداي شيئاً غير التسكع على ورقة، كيف تُردم هذه الشقوق؟، بالطوب، بالتراب، بالإسمنت؟، التساؤلات التي تركت ديار يجلس من شدة الضحك عندما سددها بالقش، ألقى بما جمعه منه في وجهي وقال: اتبعني.

علّمني كيف أخلط بضعة مواد رابطة، ثم أتسلق سقف المنزل المغطى ببقايا الثلج إلى المدخنة، وأحشو الشقوق بها، فأحكّم سدّها تماماً حتى لا تنطفئ مدفأها فيأكلها البرد، هي التي لا يُشعرها بالدفء إلا النار، لأن واجهتي شقتينا كانتا إلى الشمال، من حيث تأتي الثلوج.

لم يمدّ يده لمساعدتي، كانت ذراعه اليمنى بأكملها تنام في جيرة ضخمة، بعد عراك مع شخص في محطة وقود، ديار الذي يكره أن يتكئ أحد على شاحنته بلا مبالاة، والرجل البذيء الذي أحاب أمر ديار له بالابتعاد بسخرية لاذعة، لم يلبث بعدها أن ابتعد عن الشاحنة وهو يقلّد عين ديار المائلة، ويكور ذراعه بحركة قدرة.

لم يقرأ ذاك كثيراً عن طبيعة المجتمع الشعبي في العراق، وأن نقاشاً عابراً في شارع عراقي لا يحتاج إلى أكثر من دقائق لتخرج السكاكين، وتسيل الدماء، كأن أصغر قرار يمكن أن يتخذ عراقي في يومه أن يقاتل.

ثواني قليلة، وكانت عين الرجل مائلة أيضاً، ومتورمة، والدماء تسيل من حاجبه. وثواني أخرى ليفيق من الضربة الأولى، ويلتفت لديار بهراوة غليظة كانت محشورة في حزامه، ليتقيها ديار بساعده، وهو يسمع قرقرة العظم وهو يتهشم.

كانت هذه إصابة ديار الوحيدة، انقض بعدها على خصمه بضراوة ذئب جريح، أعمل يسراه في وجهه وأنفه، وتكور الرجل على الأرض وهو يتلوّى ألماً، وديار

يركل معدته، وظهره، وصدره حتى غشي عليه، فتركه على الأرض، واستقل شاحنته إلى المستشفى.

قال ديار:

- لو لم يكن مهاجراً لربما قتلت، إني أحمل للمهاجرين تعاطفاً عجيباً منذ مجيئي.

ياله من تعاطف.. ثلاث غرز على الأقل في شفة خصمه، عظم مهشم في أنفه، وقطع سطحي في حاجبه، وعشرات الرضوض في أضلاعه، ورجليه، وظهره، من حسن حظ ديار أنه لم يفكر في مقاضاته، كان مهاجراً غير شرعي أصلاً، حمله رفاقه بعيداً، ثم عادوا ليتوسلوا إلى ديار أن لا يحاول هو مقاضاة رفيقهم، حتى لا يُكتشف أمره، ويطرد من البلاد.

قلت له مازحاً.

- ستحذرن دائماً قبل أن تغضب، أليس كذلك؟
- لا تنكئ على شاحنتي فحسب.

قالها، وجرع بقية الكولا، ثم اعتدل، ورمى بعينيه آخر الشارع وهو يقول:

- إننا ذئاب ضالة يا أخي، لم يبق لنا إلا ضراوتنا، لا وطن، ولا قبيلة.
- وطنك أخضر يا ديار، سينبت من جديد.
- عراق اليوم يلقي مصير سامراء في جوفه، هل تراها عادت إلى الحياة بعد دمارها؟، العراق كله أطلالٌ مثلها الآن، تعيش فيها أشباحٌ من البشر.
- ذئبٌ أم شبح، ما زلت إنساناً في اعتبار الحياة.
- هل سمعت بالشنفرى؟، تركت الوطن مثله، وتصلكت في كندا، في الأرض منأى للكريم عن الأذى، في الأرض متسعٌ لأمثالي إذا لم يبق لهم

في أوطانهم إلا مساحة قبر.

زمتُ شفتي في أسف، ليس عندي ما أقوله لرجل أبصر وعاش ما لم أبصر ولم أعش، ليس من سمع كمن رأى، ربما هي فعلاً صفحاتُ العراق الأخيرة، ربما لن يعود هناك عراق، ربما يطوي التاريخ أخيراً صفحة الرافدين التي ملأت رأسه صداعاً، وأوراقه دماءً، الأكراد يستقلون بالشمال، وإيران تظفر بشط العرب، وتأخذ تركيا نصيبها من الشمال الغربي، ويُصادر الجنوب بما فيه لمصلحة أمريكا وبريطانيا، ويقتسم الظماء من مياه النهرين إذا احتدت أزمة المياه في المنطقة، وتنهار بغداد في الوسط، وتموت كمداً قهراً.

سيناريو حزين فعلاً، ولكن من الممكن أن يكون.

تؤلنا منطقية الأفكار أحياناً.

هل سيموت العراق فعلاً لو بتروا أعضائه؟، هل يمكن أن يتشرد وطن؟، هل يمكن أن تضع الهوية، والحضارة، واللغة إذا تغيرت كراسي الزعامة، وتمزقت شوارع البلد؟، هل ينكر التراب الجذور التي فيه إذا تغيرت الحدود فوقه؟

سبحان من يملك الأرض ومن عليها، كم هي القرون متخمة بالعبير والعبريات بين حمورابي وصدام، كم هي حكيمة حبات الرمال وصخور الجبال التي رأت وسمعت وعاشت كل اختلاف وائتلاف، وصعود ونزول، ورغد وجذب، وملايين النقائص المتراكمة عبر السنين في بلد النقائص هذا.

ديار، نسخة من تلك الأرض، يحمل في جبينه سهمين متعاكسين منذ وُلد، يتناقض في كل الأشياء، كل الأهواء، وكل العادات، ويقتلني حين يبدو نسيجه متماسكاً من الداخل، لا أثر لتمزق أو هتك، أي إنسان يسكنه؟، يشبه وطنه بحذافير هذا الوطن، عراقي من العين إلى القاف، و بغدادي منذ وضع المنصور الحجر الأول،

ونجفياً منذ أن رقد الحسين الرقدة الأخيرة.

معجونٌ بجنونه العربي العريق، أباً عن جدٍ عن حجاج، جامعٌ مثل خيول التتار التي بدأت مسلسل الموت في تلك الأرض، ومندفِعٌ مثل العرقين النافرين المتسدين في جبهته، هذين اللذين يحلو له أن يسميهما دجلة والفرات.

وأنا يروق لي أن أرى رجلاً يحمل وطنه في جبهته.

وليس النهران فقط، إنّ جغرافيةً وطنه كلها تتجمّع في شخصيته، هو الذي يشقُّ الأشياء من المنتصف كما يفعل دجلة، ويفيض ويتراجع كما يفعل الفرات، ويتوعّر مثل جبال الشمال، وينتصب صموداً كنخيل البصرة، ويركّذ أحياناً ركود الأهوار، وينبسط كحقول جيكور، ويحزن كحزن كربلاء.

قلتُ له وأنا أجهّز المادة الرائبة أي أسعى للاستقرار في فانكوفر.

هو الوحيد هنا منذ سنوات، كان لا يريدني أن أصبح مثله، ما دام في جيبي وطنٌ، وبيتٌ، وربما أسرة، فلماذا فانكوفر؟، هذا صراخه بي دائماً، ليس لأني أزهد فيما أملك، ولكن لأني أسمح لك بتغيير حياتي إلى الطرف الآخر تماماً.

قال ديار:

- ستدرُكُ أنك فارغ عندما تتحقق أحلامك الصغيرة هذه، وتزوج هذه البنت.

- لماذا تظن ذلك؟

- لأنك باردٌ مثل دكة غسل الموتى، لا يمكن أن تكون ثورياً.

- ماذا تريدني أن أفعل يا ديار، أخطئها؟

- ربما احترمتُ قضيتك أكثر لو أنك فعلت، أما هيام الجانين هذا فلا أظنه يستحق إلا الصحاري.

- أنا لا أهيّم، ولكنني عاجز.

يقوم ديار، وهو يقول:

- انقلب على عجزك إذن، غيّر امرأتك، تزوّج أخرى وابعث إليها بدعوة للزفاف، حوّل حزنك إلى انتقام، قد لا تجد ما تطفئ به أحزانك، ولكن لديك الكثير مما تمارسُ به انتقامك، الهدف أخيراً أن تُخمِد النار.

- يبدو كلامك منطقياً لو أنّ كلّ النساء سواء.

أطلّت مس تنغل علينا في فئتها الصغير بامتنان، حيّاها ديار، وقالت:

- كأنك تصرخ يا عزيزي ديار، ما الأمر؟

يضحك ديار، ويردّ عليها قائلاً:

- لا شيء، إنه ساذجٌ جداً هذا اليوم.

تلتفتُ مس تنغل إلى مدخنتها بعفوية، وتساءل:

- ماذا فعل؟

- يريد أن ينفي نفسه، ينسى وطنه، ويهاجر إلى هنا ليقيم إلى الأبد، لأن النساء لسن سواء.

أبتلعُ سخريّة ديار، وأبتسم بخجل، وأقومُ لأغسل يديّ قبل أن يتجمّد الماء في صنوبر الحديقة مع اقتراب الليل.

قالت مس تنغل:

- كلّ عاشقين يظنّان أنّهما خلّقا لبعضهما فقط.

وأجيبها بسرعة:

- لو لم يكونا كذلك حقاً لما كانا عاشقين.

يرحلُ ديار بعد أن ودّعنا، وأدفعُ أنا بكرسيّ مس تنغل إلى الداخل، ثم أسعى لإشعال النار في مدفئتها، تكلمتُ معها طويلاً تلك الليلة، قالت لي أثناء حديثنا:

كيف تفسر وفاقها مع زوجها يا بني؟

إنها تلعبُ دور الزوجة التي غلبت على أقدارها فحسب لتستمر الحياة، تحاول أن تُهمّش دور عاطفتها في تقرير مصيرها، تملأ الفراغات الحزينة بمشاغل حياتية محدودة، بنجاحات بسيطة، ووهم عاطفي مصطنع، يوماً ما ستضعها الأيام حيث لا أغشية مثل هذه، وسترى حقيقة وحدتها.

لا أدري لماذا كنتُ أتحدث بثقة.

قالت:

- الحبيبة تحت أثواب الزوجة، دَعْ عنك هُمُواتك التي تُفسدُها غيرتك، لا أظنّها إلا سعيدة به، وهو كذلك سعيدٌ بها، وإلا ما بقيت لديه حتى الآن، النساء يا بُني لا يُجِدْنَ التظاهر بالحب، إنهنّ لا يملكن القدرة على تحمّل هذا الابتزاز العاطفي المؤلم من زوج لا يحبّنه، في نهاية الأمر إما أن تُقَعّ في حبه أو تتركه.

لماذا تُلقِي بي مس تنغل في أعماق هذه الحيرة الحادة؟

هل تُراكَ وقعتِ في حبه فعلاً، وأنتِ تلتصقين به جسداً لجسد؟

كيف لم أفكر في هذا؟، سوف لن يَعدَم هذا الثعلب درباً إلى قلبك الحنون.

هل ستكفي حبيبات منع العثة التي نثرتها في قلبك لتقاوم عَفَنَ حبه؟

هل ستَقِفُ ذكريّ مع وفائك في وجه رجولته الحاضرة معك بكلّ معانيها، والملتصقة بك إلى هذا الحد؟

من أين ستنقل إليك عدواه؟، من السرير الواحد، من الأنفاس القريبة، من اللمسات الحميمة، من الشفتين والجسد الدافئ، أم من ذلك الماء الذي يستقرّ في الأرحام؟

أي مناعة ستقيك هذا الدفق الجرثومي الهائل للحب؟

أي مُصلٍ كان يجدرُ بي أن أحقنك به حتى لا تتأثري بهذا الرجل؟

قالت مس تنغل:

- ستضعُ هي يا بني، النساء يزددن ضعفاً بعد الزواج.

- لماذا؟

- لأنهن فقدن الكثير مما تعدّ به الفتيات، لأنهن لمسن عن قرب شديد، قوة الرجولة، وحاجتهن الأزلية إليها.

- زواج كزواجه ليس أكثر من تناسل عملي لحفظ جنس البشر، حتى ذلك الوفاق الذي تقولين، ليس إلا بيئة ضرورية للإخصاب، مثل البيئة التي تتناسل فيها حشرات المختبر.

- يا بني لا تتعنّت في فهم الحياة.

- لا أفعل، ولكنّ الحبّ برئٌ منهما يا أمّاه، مهما ادعياه، واستحضراه، ولويا عنقه، لن يأتي، نحن لا نحُرثُ أي أرض، ونرمي البذور، ثم ننتظر المطر ليتزل، ولكننا نحمل محراثنا، وبذورنا، ونسوق أحلامنا، إلى حيث علمنا مسبقاً أن المطر يتزل.

- ألا تظن أن امرأة قد تنجح مع زوجها دون أن تعشقه قبلاً؟

- ربما، ولكن امرأة عاشقة سلفاً لن تنجح.

ودائماً، تقفين أنت صامتة بيننا، أكاد أراك على الكرسي الثالث، مُطْرِقة في ألم السكوت، لا تتكلمين، مثل الأشباح التي تأتينا في الأحلام، ونريدها أن تتكلم، فلا

تتكلم.

أخني لو أومأت إليَّ إيماءةً تطرُدُ شبحَ الشكِّ عني، تخبريني أنك تحبيني، وأنتِ عائدةٌ لا ريب، فليس لنا إلا العودة.

لا تظنُّكِ مس تنغل إلا مرضاً لا بد أن أشفى منه، وأنتِ لستِ كذلك، ولكنَّ ما تفعلينه بي هو المرض العُضال الذي لا يشفيه إلا الله.

ولكنَّ مس تنغل لا تفهم ذلك، إنما تحبني كثيراً، وترفضُ أن تراني عليلاً بين يديها مثل حُرقة، وربما كانت تكرهكِ مقابل ذلك، أنتِ التي أورثتِ الفتى التي تبصرُ فيه ابنها كلَّ هذا الحزن، واليأس، والضياح.

ابنُها رَحَلَ منذ سنوات ولم تره، هو يعملُ في الولايات المتحدة، يهااتها عيداً بعد عيد، وتحزنُ هي من ذلك ولا تلومه، لأنه قضى طفولته في تلك الدار العامة، ومنها إلى مدرسةٍ داخلية، لأنها لم تكن قادرةً بعاهتها على الاعتناء به.

وحالما شبَّ عن الطوق، لوَّح لها من الفناء، وسافر إلى حيث فرص العمل، وكان آخر ما كان يربطه بأمه، هو حبله السري.

تفتَّحت أمومةُ هذه المرأة، فلم تجد ابناً، كنتُ أصغر من سنِّ ابنها، ولكني كنتُ أعاملها ببنوةٍ لم تعرفها هي، لأنني كنتُ أفتقد أُمِّي، ووجدتي، وأروى، وأنتِ، فنشَّرتُ هي عليَّ لحافَ أمومتها قبل أن يبلِّه الزمن في طيِّه، ومنحتني ما تبقى من مشاعرِ أم في حريف العمر.

كنتُ أخشى عليها تبنِّيها هذا، لا أريد لها ابناً مُنصَّدع القلب مثلي، ولا أريد لها ابناً قد يرحلُ ذات يوم ولا تراه، فتتألم لذلك لا أريدُ أن أكون سبباً في ألمها الجديد، لقد لاقت من آلامها حقاً ما يُشبع سادية الحياة.

رُحْتُ أحكي لها، لعلها تفهم:

- لم يكن هناك ما يدعوا لليأس، كان في الأمر بعض الصعوبة تستلزم شيئاً من الوقت، ولكن كلُّ شيء كان ممكناً.

- ما شأنها؟

تأخذني غصة، فأسكت لحظات قبل أن أجيب.

- للأسف يا سيديّ أُنِي لم أسألك هذا السؤال بعد.

- أفهم هذا يا بني، أفهمه جيداً.

وتبتسم ابتسامةً لم أنيس بعدها، كنتُ أثقُ تماماً في فهمها إذا أكدته بابتسامةٍ كهذه.

هل حقاً أنك تخليت عني فقط لأنكِ ستظلمين سالم بهذا الانسحاب المتأخر من حياته، أم أن هناك أيضاً بعض الأشياء اللامعة في الطرف الآخر جعلتكِ تميلين إليه؟

صمتت مس تنغل قليلاً، وتشاغلَّت بأوراقٍ أمامي لا أذكرها، ربما شعَّرت أن حديثنا بدأ يحرقني، فأثَّرتِ الصمت، فاثَّكأتُ أنا على لوح الصمتِ أيضاً، ورسمتُ ذاكرتي على السقف، ولي عينان دامتان، وقلبٌ يخفقُ بشدة، وعُدتُ تلك الأيام..

كان الضباب كثيفاً، رؤيتي مشوشةٌ في غَبَشِ الليل الأخير، سيلٌ من الدموع المحبطة يتمدُّد في وجنيّ، يتشعَّبُ في اتجاهاتٍ كثيرة، مثل خطوط البرق في وَجْنة السماء، ويسقطُ في دوامةِ القَهَر.

وقفتُ أنفضُ من حجْري رمادَ الذاكرة، وتركتُ عينيَّ تزلقان في بحري العدم، حدَّقتُ هناك، في ذلك الفراغ القابع قبل الأشياء، ورحتُ أستحضر شبحَ البوح من صدري، لعلَّ سنواتٍ من الوحدة أعشتُ بصره.

عباءةُ الكتمان تخنقني، لأنَّ بعض الذكرى ثقيلة.

العجوز الطيبة تَسْلُلُ إلى مكانٍ البرودة، تَمْسَحُ على وجعي برفق، وتنسُجُ معي غطاءً لعورةٍ جُرَحي، أُنْدفَأُ به عندما تنفُضُ الحُمَى عظامي، وتحكُّ عصا الذكري صخرة الماضي، فتنتشرُ من تحتها العقارب والحشرات، تأكلُ مني.

* * *

كلما التقيتُ ديار سحبتُ مندِيلَ الصمت، ومسحتُ به دموعي، واتخذتُ وشاحَ كتمانٍ أَعْطِي به نفسي، وجلستُ إليه، جرحاً كبيراً في جسد رجل، لم أكن أحتملُ نقاشه، هو الذي يَحْتَقِرُ الحب كما يَحْتَقِرُ شيوعيٍّ متزمتٌ مدينةَ نيويورك، وأنا الذي لم يَعدْ لديَّ ما أدور حوله في الدنيا غير الحب، هل هذا توافقٌ؟

الحب هو حب الله، والوطن، والحياة، قالها أكثر من مرة، أما حبٌ كهذا الذي أَتَجَرَّعُ غُصَصَه، فحماقةٌ بشرية تتكرَّرُ على مرِّ القرون، لتؤكد أنَّ الإنسان مخلوقٌ ناقص، لن يفهم أبداً إلا إذا أتاه خبرُ السماء، وسيظلُّ يمدُّ يده في كلِّ جُحْرِ من الحياة حتى يموت وليس في جسده شبرٌ لا تسكُّنه ندبة، أو لدغة، أو أثر حرق.

ليس لأني أحشاه، ولكن لأني أحبكِ أَلْتَجَنَّبُ الكلام معه، كما تتجنَّبُ الكلام مع من يحرِّضُنَا ضدَّ عقائدنا وأوطاننا، ديار يعيشُ على سطح الحياة، بينما عيناه غائبتان في العمق، منذ نعومة أجزانه وهو يلَعُقُ أوجاع اليُثم والشتات، بعدها فكَّرَ أنه إذا لم يقدر على انتزاعها من داخله، فإنه لن يمنح أحزاناً أخرى تأشيرَةَ دخول.

أنا منحتُ كُلَّ الأحزان المشدَّدة حقَّ العيش والمواطنة، هذا ما يجعلُ ديار يعاملني كطفلٍ عمره ثلاث سنين، لا يتعلم أبداً، وليس عُثاري الأول هذا ما يثيره، بل غبائي الفطري في مواجهة الحياة.

قال لي مرة:

- إنك تُعري الأحزان بالتناسل في قلبك، الحزنُ آتٍ ولو خَبَّأت نفسك في محارة، إنه جزء من الطين الذي خلقت منه، وسيكبر مع جسدك، وينمو معه كعضو خفي لا تراه، وستبلغ منه حدَّ الاكتفاء، لأنه لن يأتي ناقصاً، وإلا انفجرت عينك من الدمع الذي لا ينسرب، فلماذا لا تكتفي بنصيبك البشري منه؟، لماذا تزرع أعضاءً أخرى؟

كُنَّا في شقتي، عائدين للتو من صَحْبِ الشوارع الهازجة برأسِ السنة، ونحسبُ السكرارى على قوارع الطريق، اشتعلتِ سماءُ المدينة ناراً، وبقيَ الآلافُ يصرخون في جنون النشوة، ويرقصون على هدير الشرب، ولا شيء يحركني أنا وديار من بينهم، حتى أنَّ ديار لم يشرب الليلة. قال، بعد أن اغتسل وفتح المدفأة:

- أتمنى أنه شتاؤك الأخير هنا، لا أريدك أن تبقى.

حملتُ إليه قطعتي خشبٍ جافتين، قلتُ له وهو يحشرهما بين الأخشاب الأكبر حجماً:

- ستقتلني الرياض يا ديار، كما ستقتلك بغداد لو عدت إليها الآن.

- هناك من ينتظر عودتك على الأقل، لا أحد ينتظر ديار مهدي في العراق كله.

- فاقد الشيء لا يعطيه، بماذا أخيب ظنهم؟، ليس المهم من ينتظرنا، المهم من ننتظره.

- لا تتوحد هكذا مع أحد أبداً، إن الله لم يخلط أقدار عباده حتى تعقدها أنت بهذه الطريقة.

أخذني دُوار بعيد، اتكأْتُ على جدار المدفأة بكتفي:

- ذاتَ يومٍ يا ديار، خرجتُ من بيتي بلا وُجْهة، قدتُ سيارتي حتى وقفتُ عند وادٍ صغيرٍ إلى الغرب من الرياض، كنتُ وحيداً أعالج هومَ الفراقِ الأولى، ولم يكن فراقٍ مها قد أَكَل من عمري أكثر من شهرين، وعلى يدي خمسة ثقوب أو أكثر، كان أحدها ما يزال دامياً، وكانت الطريق الوحيدة التي يتغذى منها جسدي بعد أن تَمَرَّدت معدتي، وصارت ترفض الطعام، كنتُ أتأمل مساءً واجماً مثلي، لم يكن يسمعي أحد، عندها أقسمتُ أن أوَّل الدنيا وآخرها لن يزهديني في هذه الفتاة.

نفض فيه مكدوء شديد، وتكلَّم وكأنه يعلِّق بينه وبين نفسه على نشرة أخبار:

- يا تعيس، لو نَطَق واديك هذا يوم سمع قسمك، لأخبرك أن النسور لا تزل للسفح إلا عندما تُوشِكُ أن تحتضر، لا تتبجَّح كثيراً بقدرتك على الوفاء، فتاتك تستحقُّ إيمانك هذا لو أنها ظَلَّت معك، ماذا تعنيها بضعة مشكلات تخوضُها من أجلك لو كانت تُحبُّك إزاء هذا الحطام البشري الذي تركتُك فيه؟، أمّا وقد استبدلت بك رجلاً آخر، فإن كلَّ ما تزاوله معها مجرد كفرٍ أحمق.

- دع لي أحلامي يا ديار، حتى لو قُدَّت من وهم، فهي تمنحني نصيبي من الأنفاس كلَّ يومٍ على الأقل.

يمطُّ شفثيه في ازدراء ويعود على مداعبة النار وهو يتمتم:

- يالك من مريض.

قلتُ في صوتٍ خفيض وكأني لم أسمع تعليقه الساحر:

- ستعود يا ديار، أشعر أنها ستعود من حيث لا أحتسب.

يزفرُّ ديار، أعلم أنه بدأ يتحسّر، وحسرتُه تُشبِّه الغضب، لم أكن أناكدهُ بحزني، ولكني كنتُ لا أملُك لبوحي ما يحميه منه، لذلك ألقى كلماتي عليه، صراحةً، كما لا أفعل مع مس تغل التي أشفقُّ عليها من أن أحملها وجعي إلى وجعها.

تجددٌ عندي إيماني بأنَّ حبك بدأ يتحوَّل إلى مرضٍ نفسيّ.

حديثه بعد زفرة كهذه سيكونُ حاداً كما تعودتُ منه، قمتُ لأفتح فُرجةً صغيرةً من النافذة، والتقطتُ جريدتي، ومنفضتي الصغيرة، وجلستُ جوارها، ونظرتُ إليه، حتى جاءني هديره:

- إني أحترم هذه المرأة التي أبكتك تقريباً بعددِ المرات التي استمتعت هي بزوجه، هل تُراها ما زالت تُميز جسدك عن جسده، هل تُراها ما زالت تستشعرُ الفرق بين رجلتين؟

جاءت عبارته الأولى مسلية..

مثل الابتسامة البائسة، تلك التي تُعبّر عن ألم، أكثر من الابتسام نفسه، أو تلك التي تشبه رائحة الشواء عندما تُلصقُ حديدةً ملتهبةً بسطحٍ لَحْميّ، مثل قلبي، مثل هذه الابتسامة ارتسمت داخلي، ربما رأى ديار شبحها، ولكنها لم تكن كاملة، لأنه لا يدرك معناها.

أنا لا أستطيع أن أعدَّ البكاء، لأنه فعلٌ متَّصلٌ لا يتوقَّف، ولا أفرِّق كثيراً بين بكاء تصحُّبه دموعٌ وقيء، وبين آخر ينحصرُ بين أضلاعي، ويحتكُ بها بقوة حتى ينحَت منها، ولا يبدو على ملامحي منه شيء، ولكني أستطيع أن أعدَّ عدد المرات التي كنا نستمتع فيها ببعضنا في غرفتك، فهل تراه ما زال معدلاً ثابتاً مع اختلاف البطلين؟

أيُّ الرجلين أنساك رجولة الآخر؟

هل تُراها تغيّرت عاداتك في الجنس معه، أم أن ما في جسدك لا يغيّره اختلاف الأدوار؟

جاءت كلمات ديار حادة كما توقعت، ولكنني تسليتُ بألمها الحارق، وابتسمتُ في قرارة نفسي، جميلٌ أن يجعلنا الحزن نبسم أحياناً هو الذي يقتلنا بكاءً، شرُّ البلية ربما ما يجعلني أبتسم ابتسامةً خلفيةً كهذه.

هل انتهى؟

بدأتُ أدخن، وظلّ ديار يواصلُ حديثه، كأنه يحاول أن يحرّك حَجراً رابضاً في قرار البحيرة، يغوصُ بجرأة في أعماق الجرح، يتناولُ مبضعه ويعبثُ في اللحم، يروح يميناً ويساراً، وفي عينيه رغبةً بشفائي، وأنا أجلس معه كمرضى غير متعاون، لا يدركُ مصلحته.

- أفق أرجوك يا ناصر، لماذا رَحَلتَ هي إلى حاضرها السعيد، وبقيتَ أنتَ تمضغُ ورقات الماضي، وتبصقه حولك؟، لقد أَخَذتَ هي من الحب أجملَ ما فيه، لذّة المعتصرة، وتَرَكْتَ لك القشور الجافة، تلوّكها بأسنانك، وتمسح بها خيبتك؟

كانت عيناى الجامدتان تحثان ديار على مزيد من القسوة، وهو يتابع:

- لقد استطاعت أن تنتزع من رجلين أجملَ ما فيهما، فاستمتعتُ بحبك، واستمتعتُ بمستقبله.

لا تُضخّم أحزانك هكذا، أنتَ تستطيع أن تنساها يا صديقي، لا توهم نفسك بغير هذا، تذكّر أن الليل الذي تبكي عليها فيه، هو نفسه الليل الذي تمنحه هي فيه قبلاتها وجسدها بكلّ ابتهاج، فكيف لا تتمرّد عليك دموعك في ليل كهذا، بعدما أخرجتها من عزّة الجفن، إلى هوان امرأة لا

تستحقّها.

ألم تسأل نفسك يوماً، كيف يمكن لها أن تبقى معه كلّ هذه المدة، طواعيةً وليس إجباراً، ما دامت تحبُّ أكثر من كلّ ما يُحبُّ ويُقتنى، وليس بينكما حاجزٌ يستحيل تجاوزه؟

عجباً لديار.

ألا يخشى أن أغضب؟

ألا يخجلُ أن يتكلّم عن امرأتى المقدّسة بكلّ هذا التجريح؟

ألا يرفق أن تصيبي إحدى أفكاره في مقتل؟

لو لم أكن أفهم طبعه، وطيبته التي تختفي خلف ستار فوضاه الكلامية، لربما تركتُ مجالسته، ولكنه كان لا يمتنّيني، بل كان يهتّم بي كثيراً، وكنتُ أسمع منه وأحزن، ولا أغضب، وكان هو يختار كلماته بحيث تبقى دائرةً في أفكاري أياماً.

بدأتُ أنفعل كثيراً، ولكن ديار لا يتوقف، لم يكن أكثر عنفاً معي من هذه الليلة، لماذا كلّ هذا الغضب، ما الذي دهاه في رأس السنة هذا.

يتابع:

- أيُّ شيء تراها احتفظت به لك أيها العائش على أوهامك الصدئة؟، لقد منحتك اسمها، وحياتها، وجسدها، وإياك أن تستثني قلبها، فقد صار إليه أيضاً، فلو ألما أبقته لك لما كان بوسعها أن تمكث معه كلّ هذا الوقت، بعد أن أودعتك قمامة الماضي.

تأمل نفسك يا صديقي، التفت لحياتك، أنتَ لم تلمس امرأة منذ تركتك، جسّدك يذبل، وعيناك تنطفئان، بينما جسدها هي يزداد ارتواءً ورضاً وسعادةً ونشوةً، جوّعها يشبع، وأنتَ تتضور على فراش الترهّب هذا.

وقف ديار، ومشى خطوات نحو المشجب، قبل أن يلتفت إليّ وكأنه تذكر شيئاً:

- حتى لو عادت إليك الآن، وتزوجتما، هل ستكون سعيداً بها؟، يكفي أنك كلما نمت معها ستذكر أن من أفقدها عذريتها لم يكن أنت.

سَكَتَ ديار ليشعل سيجارة، ثم ألقى كلماته الأخيرة، دون أن ينظر إليّ وهو يستعد للخروج:

- إنني في انتظار ثورتك على نفسك، ولا أظنُّ ذلك بعيداً، فالميزان هذه المرة جائزٌ تماماً.

أوجعني ديار، كثيراً.

هو هكذا دائماً، يُشعل النار في مدفأتي وقلبي، ثم يرحل.

سَرَت في صدري برودة الألم، وانتفخ في داخلي شيء البكاء، وأنا ألوذ بالنافذة، والشارع، والمارة المتجمهرين، ترتجف شفتاي، وتتأرجح بين جفني دمعة، ودمعتان، وتسيل على وجهي.

ربما عكسَ له زجاجُ النافذة قبل أن يخرج دمعتي تلك، ولكني لن أجعله يراها عياناً، أنا أكره هذا الرجل الذي هزمني، أكرهك يا ديار، فابتعد عني أيها الحاقد.

بأي صوتٍ مبحوحٍ مخنوقٍ أنتقم منه؟، لم يقترب أحد من جرحي إلى هذا الحد، ولم يلمسه أحد، ولكن ديار يخوض فيه بحذائه الضخم بلا مبالاة، وكأنه يقرأ جريدة، لا يذبح رجلاً.

حاصرني هذا الساديُّ بين جدارين، أحدهما أني لا أملك هروباً لا أثبت له فيه أن دفاعاتي عمّا يقول ليست إلا محض خيالاتٍ وأوهام، والآخر هو ما يقوله ويظنه حقيقة.

قبعْتُ أمام النافذة، وأطرقْتُ في ألمٍ وانهمام، هذا الذي لم يكسرِ المنفى شوكتَه، ولم يُنسيهِ الشتاتُ قسوته، لو تكلم من خلفي بكلمة واحدة، لطلَّبتُ منه أن يتركني ويرحل.

استوقفتُه فجأةً قبل أن يفتح الباب ليخرج، نطقتُ:

- كلِّكم جلافتُ أيها العراقيون.

صمتَ ديار ولم يتكلم، وكأنه قرأ أفكارِي، أو ربما دموعي.

لم أحاطبه بهذه القومية من قبل.

ولكنه عاد ليجلس جوارِي، ويربت على كتفي، وأنا أرتعش في مقدِّمات البكاء، وأُشبح بوجهي عنه، تركني التقط رائحة تدخينه، قبل أن يودِّعني، ويخرج.

لقد اعتذر لي بطريقته.

اعتذر صمتاً.

* * *

عندما يزرغ الفجر على خليج (بيرارد) الذي يفصلُ وسط المدينة عن شقيها الغربي والشمالي، كغيره من الخلجان الصغيرة والأهمار التي تحوّل المدينة إلى مجموعة متجاورة من الجزر، تربطها الجسورُ العديدة التي شُيّدت عبرها، عندما يزرغ الفجر هنا، فإن كلُّ شيء يصمت هنا للحظات حداداً على الليل.

بعد قليل تُشرقُ الشمس، وتستيقظ الطيور، ويُصبح كلُّ شيء جميلاً، ويغزوي الصباح، يواسي في فقدان الليل الذي قتلته قراءةً على الضفة، ملتحفاً شالاً ثقيلاً أعطتني إياه مس تغل، بعد أن بدأت تخفُّتُ حدة البرد مع رحيل الشتاء، وبين

يديّ كتابٌ ثقيل، أرهَقَ يديّ وعقلي.

بعض الكتب تديرُ عقولنا بأسرع من الدوران الذي تقدِرُ عليه عقولنا فتُعْطِبُها، وبعضها يغيّرُ معدّلَ نبضات قلوبنا فيرهقُها، وبعض الكتب تبدأ من حيث تنتهي الذاكرة، وتَقِفُ إلى حيث يبدأ الوجد، الكاتبُ الذي يوحدُ ما بين أقداره، وأقدار قرائه هو كاتبٌ يجيّدُ الكتابة بصدق.

أتذكّرُ يوم أهديتُ إليك رواية أحلام مستغانمي (فوضى الحواس)، بعد أن رسمتُ خطوطاً ودوائرَ حول مقاطع كنت أريد أن تقرئها بعين عناية، لعلها تحركُ في خوفك شيئاً، وتغيّرُ في قرارك المرتجف، والجائر قليلاً، ظننتُ أن أنثى مثلها قد تكون أقرب إلى إقناعك، فرحتُ أستعين بالمرأة على المرأة، من أجل رجل.

تلك الأيام، عندما كنتُ أقرأ في روايتها، وحدثُ في الصفحات الأولى منها عبارة أرهقتني، وضعتُ إصبعي على العبارة تماماً، وطويتُ عليها الكتاب، وقمتُ مدهوشاً أفشّش عن قلم رصاص أُمِيزُ به هذه الفكرة الأنثوية الهادرة.

تعجّبتُ بعد ذلك من اختياري اللارادي لقلم رصاص ليقوم بهذه المهمة، وكأني كنت أشعر أنني بعد أشهر، سأحملُ نفس الرواية بين يدي، وأقلبُ الصفحات التي سبق وميزتها، وأحو الخطوط والدوائر، كأن لم تكن.

كانت العبارة تقول:

((.. أما هي، فكانت تعتقد دائماً أنّ على المرأة أن تكون قادرةً على التخلّي عن أيّ شيء. لتحتفظ بالرجل الذي تحبه))

شكراً أحلام، عيناى الآن معلّقتان على الرواية حتى أنهىها سريعاً، ثم أحملها إلى حبيبتي، حتى تعلم أي لا أهدي عندما أقول لها أنها يجب أن تتخلّى عن أيّ شيء،

من أجل الحب.

إنها شهادة امرأةٍ مثلك، وكاتبة تحبينها كثيراً.

ترى هل سيتغيّرُ شيء؟

واصلتُ القراءة، وقد صرتُ أستشعر أنك ستقرئينها من بعدي.

وحدثتُ عبارةً أخرى، شعرتُ فيها أن أحلام تقتربُ من قصتنا أكثر، ولعلّ البُعدَ النضالي الذي لمسته فيها كان يمنحها ألقاً بين السطور، وضعتُ حولها دائرة، وعلامة استفهام بدتُ قبيحة، لأنني كنت أحتفظُ بالكتاب مفتوحاً باليسرى، وأحاولُ أن أكتب باليمنى التي لا أجيد بها أيّ شيء.

كانت العبارة حواراً بين العاشقين، كأنه دار بيننا:

((.....))

- سأنتظرك في الحياة .. وفي الكتب. إن لحظة حب تيرّر عمراً كاملاً

من الانتظار، هل تعين هذا؟

- أحاول ذلك، ولكن كل شيء ضدنا.

- الحب ككلّ القضايا الكبرى في الحياة، يجب أن تؤمّن به بعمق، بصدق، بإصرار، وعندها فقط تحدث المعجزة.

((.....))

اعتقدتُ أن هدايا أحلام قد انتهت بعد هذا المقطع الأخير، ولكني كنتُ مخطئاً، ففي آخر الصفحات، تَرَكْتُ لي أحلام هديتها الأجل، كدتُ أن أنزع تلك الصفحة لأحملها لك وحدها، ولكني كنتُ دائماً أحترم بدايات الحب، أكثر من نهاياته.

مشى قلّمي الرصاص هذه المرة على صفحةٍ بكاملها، وليس عبارة فحسب، كدتُ

أن أتصل بك وأقرأ عليك نصّها لفرط عجلتي وترقيتي، ولكني اعتقدتُ أن قراءة الرواية كاملة ستجعلك أكثر اقتناعاً بما يمكن أن تغيره بضعة كلمات كتبتها أحلام من أقدارنا.

كانت الصفحة تقول:

((.....))

واصل:

- أتأذنين لي بأن أسألك إن كنت تحبين زوجك؟

أجبت:

- حدث أن أحببته.

- وهل أنت سعيدة معه؟

- لا أدري، أحياناً أكتشف تعاسي، ثم أعود فأنسى.

- ولماذا بقيت معه إذن؟

- لأنه زوجي، لأنني وحيدة. ولأنني متعبة ولا قدرة لي على اتخاذ أي قرار.

- ولكثك حرة في تغيير مجرى حياتك والانفصال عنه.

((.....))

في دخولي القادم إلى غرفتك، أعطيتك الرواية، وفي صفحاتها تختفي مؤامرتي الصغيرة أنا وأحلام، ضد قناعاتك الخائفة، كنت أترقب ردة فعلك كطفل، حتى أتي لم أنتظر حتى تربها بنفسك، بل أخبرتك قبل أن تقرئها أن تنتهي للعبارة المميزة بقلم الرصاص.

قضيت يومي وليلي عندك، وخرجت في الفجر الثاني تاركاً لك رواية أحلام بجوار سريرك، وعدت إلى بيتي لأصلي صلاة التوبة، وأنام حالماً بأحلام مستغامي، لو أن هذه المرأة قدّمت لي شيئاً، سأتصل بها، وأشكرها.

سألتك بعد أيام:

- هل قرأت الرواية؟

- نعم، في يومين فقط، كانت جميلة جداً.

سكت، كنت أنتظر المزيد، هل تراك لم تنتهي لخطوطي ودوائري؟، أين تعليقك إذن؟، بقيت واقفاً أمامك انتظر إشارة أخرى، هل تتهربين مني؟، أم أن شيئاً استطاعت العبارات أن تحفره في أفكارك لم يكتمل بعد؟

كنت على وشك الخوض في حديث آخر، لم أتحمّل، سألتك:

- هل قرأت العبارات المميزة؟

- نعم.

- ما رأيك؟

- تبدو بعيدة عن المنطق.

صُدمت، ولم أحاول أن أبداً أمامك مصدوماً بمجرد رأي عارض كما يبدو لك، رسمت على فمي ابتسامة حسرة، ومشيت بأصابعي على غلاف الرواية المخبطة مثلي.

يبدو أنك كنت قريين منا أنا وأحلام.

ربما ظننتها أنت مجرد إشارة عابرة، أو مزحة ثقافية صغيرة، ألقت بها عينيك إلى ما هو جاد وحقيقي، لذلك تعاملت مع الأمر بهذا الاستهتار، بينما كنت أنا أعوّل على عبارات كتلك، آملاً بولادة فكرة صغيرة في رأسك، أريتها أنا، حتى تكبر وتنمو، فتكسر الأغلال، وتحقق الغاية.

بعد أشهر، كنت أستاذك وأستعيد الرواية، وقد غطّاها غبارٌ رقيق، أخذتها معي إلى البيت، كنت أشعر أن أحلام حزينة، وأنا حزين، جلست على طرف السرير، وأخذت أمحو الخطوط والدوائر، وأنفض عن أوراق الرواية رُفات الحلم العظيم

الذي حلمتُ به يوماً وأنا أقرأ فيها.

أدمنتُ هذه الضفّة الوادعة ليلاً، كنت أتمشّي عليها كلّ ليلةٍ حتى يأمرني الفجر بالعودة، أتركُ الرصيفَ يأخذني، أجربُ المشي بجذاءِ أفكاري كي تهترئ الأفكار، حتى إذا عدتُ إلى البيت، لا تنتصبُ مرةً أخرى على فراشِ أرق.

ليست كلّ إجازةٍ يغيبُ فيها ديار تصلحُ للتأمل دون ألم، غداً يعودُ هذا العاصفُ من غيبته القصيرة، وأعودُ معه إلى لُجّةِ الغربة التي تُنسبنا بعض الأوجاع، وتُضخّمُ بعضها، تعودتُ عليه، كلّ يومٍ أخرجُ من درسي لألتقي به، وأعودُ من مقهانا المسائي قبل الغروب مملوءاً بالندبات التي يخلفها ارتطامُ الفوضويّ بالأفكار والأشياء، أعرفُ أنه يستغلُّ لذةَ الفوضى، وشهوةَ الجموح، والتكسير في حروبه الكلامية، ولكنّ أفكاره دائماً تخرجُ محصنةً ضدَّ الدّحض، ومغلقةً ضدَّ الردّ، ومحقونةٌ بحزنه السري، ومتجمّدةٌ كأنها ظلّت سنواتٍ في داخله.

أشي به إلى مس تغل، فتقول لي:

- لا أراكما إلا معاً، أي حزنٌ تمارسانه أيها الشقيان.
- عربيان يتكئان على بعضهما يا أماه، هكذا نبقي.
- هل تشرب؟
- لا، هو يشرب.
- أمرٌ عجيب، أشعر أنه أعقل منك أحياناً.

لمثل هذا الرجل كان الاستعدادُ لنقاشٍ ما بلا جدوى، لا أعرفُ كيف سيبدأ، ولا أين سينتهي، ومتى سينهزم، ومتى سيهجم، أقولُ هذا لأن حواراتي معه أصبحت تغذيّني بتماسكٍ أفتقده كثيراً أنا الذي صرتُ أزحفُ على رصيف الحياة زحفاً، نيرانه التي لا تهدأ أشعلت في داخلي فتيلَ التمرد على نفسي، صرتُ أواجههما معاً،

فتارة أقف معها ضده، وتارةً أخرى أحاصرها بكلماته حتى تضعف.

ومنذ تعلّمتُ الإصغاء، وفهمتُ الكلمات، لا أتذكّرُ أن كلاماً ما دار في ذهني كما كان يفعل بي كلامه، كان يُجيدُ الكتابة على النفوس المتوترة، والقلقة، والخائفة، ويعلم من أين يأتي جرحي، مرةً بالكَيّ، ومرةً بالضماد.

ربما كان السبب أنني كنتُ في فترةٍ تخاذلٍ عاطفيٍّ غير مسبوقه، فبدأ لي كلامه مهيباً القامة، أو لأنه صوته الذي لا يقنعي دائماً كان يجعل سهامه حادةً حين يطلقها، لتصيب قلبَ المأساة، لأنه يهاجم المقدسات المعنوية كثيراً بضراوة مُلحد.

ولكنه كان شهماً عندما أسقطُ أمامه، يرفعني بيديه حتى أقفَ مرةً أخرى، ثم يعودُ إلى جدله، يلتزم الصمتَ عندما يشعرُ أن جرعةً أخرى قد تقتلني، فيتركني على حدّ الموت، حتى استردّ عافيتي مرةً أخرى، كان يحاول أن يقوّي عضلاتي الواهية من إجهاد الحياة، وكان يخطئ أحياناً، فيبدو كصاحبِ تجربةٍ أعمق، أو أحمق، لا فرق، ولكنها لم تتسنّ لي بعد، مما يجعلني أغتاضُ أحياناً، ولكن بحدوء، عندها فقط ينتقل ديار من حزني إلى حزنه.

وحزنُهُ كبيرٌ جداً، هذا الرجل الذي خرّجَ من وطنه بعد أن أفقده الموتُ كلّ ما فيه، وتركه معلقاً على خشبةِ المنفى، يفهمُ لماذا يمكنه أن يخرج من وطنه، ولكنه لا يفهم، لماذا لا يمكنه أن يعود؟

لا يوجدُ ما يعودُ لأجله، هو اليتيمُ المُعذّب، الذي نفّضَ حتى أقاربه أيديهم منه، وضيقوا عليه حتى أجبروه على فراقهم، توكّأ على عصا بعد عصا، ثم تعلّم المشي وحيداً في الحياة، حاول أن يبني أسرةً يحتويها ما دام لم يجد أسرةً تحتويه، تزوّج لتموت زوجته في مضاعفاتٍ مخاضها بعد أيام، وابنه بعدها بأسابيع، وترمي به الأقدارُ مرةً أخرى إلى قارعة الطريق.

وجهه فانكوفر الصاحب لم ترحف عليه آثارُ المدن القديمة بعد، مازالت تركض فيه الحياة باندفاع الأطفال الذين لا يؤمنون بعجلة الزمن الثقيلة التي تدوسهم ليلاً وهم لا يشعرون، الكل هنا مملوء بأحلام المستقبل حتى الثخمة في هذه المدينة البكر، مدينة الأعراق التي أخذت تتداخل مع بعضها لتفتح وطناً جديداً يعلن عن فرص العيش والثراء والأمان.

في حدود هذه الجزر التي تظن نفسها محتبة خلف حدود الأرض، تتجمع العيون التي هاجرت من بلاد بعيدة، يلتمع في أحداقها أمل بعد أن ولدوا في بلادهم على الالبقاء، فكان أن انزعت الفاجعة في أنسجتهم فلم تأخذ شكل الصدمة، وأورثوها من بعدهم جيلاً لم يتصر إلا سماء فانكوفر الواسعة، وجبالها المغطاة بالثلوج الدافئة.

هنا تختبئ أشعة الشمس الناجية من قرصها الضخم الذي يتفجر كل يوم ألف مرة، وتغوص في السحب الباردة ساحبة وراءها ذيلًا من العراء الموحش الذي مزقها في دقائق العدم، والشتات، واليأس. كل الذي يأتون إلى فانكوفر يبحثون عن شمس تمنحهم الحياة، وهي تبحث عن بشر يريدون الحياة.

على جادات المدينة لا أعرف الفرق بين المقهى والريفي حين يختلط عليّ أمر السعي والكلل، أنظر في بحرى الضوء إلى مدينة تُدمن الغرباء، وتحتضنهم بلهفة البلدان المهجورة التي استمدت من مشاعر الناس شرعية لبقائها، وراء كل غريب هنا حكاية ما، ومهمة هذه الشوارع المتقاطعة بطول المدينة وعرضها هي جمع حكاياتهم هذه لتفشيها على خطى الآخرين.

الأحزان هنا اشتراكية، تجمع أولاً ثم توزع بالتساوي على الجميع، ليحمل الأرملة

المفجوع هما يساوي هم التمس الذي داس على رباط حذائه في الطريق، ويشرب العاشق المدلة من دموع الأم الثكلى، ويتكى الوحيد المشرّد على جدار كتب عليه أحدهم حكاية المنفى، وعند منتصف الليل، تنزل النجوم مع ندف الثلج، لتأخذ همومهم إلى السماء.

عندما تصبح الغربة سيجارة ندخنها على تل بعيد، كم من الحزن يكفيننا حتى نشعر أننا نحتاج إليها؟، وكم بقي لنا من الدمع حتى نعود؟، وإلى متى سيظل أفق هذه المدينة دافئاً، حنوناً، يغرنا بالبقاء، ويحرنا من الوطن؟

بعض الأشياء هنا تعودت على الحدوث بعفوية تمنعني من التأمل، وعندما أجد من الضرورة تأمل شيء ما، أجد المدينة قد وضعت لي كل ما أحتاج إلى تأمله في غلب صغيرة تشبه غلب النشوق، إنها لا تريد مني الاسترسال في الحزن إلا تحت عينيها، حتى لا أؤذي نفسي.

تعلم السماء والأرض في هذه المدينة، أن الحزن قدر بشري قدم قدم التكوين، منعجن بطين الإنسانية الأول، فتركنا نحزن لأنه لا يأتيها إلا الحزان، وتمنحنا جميعاً مناطق للبكاء، وحزناً بقدر جراحنا المجهولة، ثم تجلس لتسمع منا.

سنوات قليلة فقط تحتاجها هذه المدينة لتصبح وطناً، إنها ترشو غرباءها بما يفقدون، توزع ولاءنا على أرصفتها الباردة، وتغرس فلسفتها الدافئة خنجراً في صميم قوميّاتنا وإيماننا بالوطن.

إنها تفهم جراحنا، وتدرك مناطق البرودة في عظامنا، وتغطي بنا الحنين، بالجمال، ثم ماذا؟، كل ما في الأمر أن بعض البلاد لا تنتج الحنين، أو أن الحنين لا يتكوّن في الجوع والكبت والعزلة، إنه يحتاج لتفهم الشمس قبل ضوئها وحرارتها.

الوطن الذي لا يفهمنا يشبه الوطن الذي يطردنا، كلاهما وحش، وتظل أسطورة

الوطن الحلم تُرهق أعصابنا، وأحداً السراية، إنه الهاجس الذي يورق الغرباء، والدخان المتصاعد من احتراق القمر.

هؤلاء الغرباء، نصفهم بكاء، ونصفهم ثائرون.

وعندما يشتعل فتيل الثورة في صدر الإنسان ينمو عنده الهدف الواحد، وهذه هو الأساس كما يقول ديار، عندما يتوحد في النفس الهدف، تسقط إزاءه الأشياء الأخرى التي تُثني العزم، وتُعيق الانطلاق، وتبعث التردد، والشبهة، والالتباس.

أتخيل رجلاً يعيش بعدة أهداف، إنه يريد مالاً، وأماناً، وسعادة، وأسرة، ووطناً، ثم تتكاثر أهدافه، فإذا سعى إلى أحدها نأه الآخر، وإذا جاهد في سبيل واحد، استنكف أن يضحي بغيره، فيرضى بأنصاف الأهداف التي تجي وحدها، ولا يحرك ساكناً، هذا ليس ثورياً.

الثوري ليس من يتمرد ويعارض، إنه صاحب الهدف الوحيد الذي يجاهد من أجله، أتخيل رجلاً آخر يريد مالاً فقط، إنه يضحي بالأسرة، بالوطن، بالراحة، بالمتعة، لأن هذه الأشياء تشتت تركيزه، وتضعف جهوده، ولكنه يضفي كل شيء من أجل هدفه الوحيد، حتى يظفر به، وغالباً ينجح.

لهذا نجد سجناء الرأي أسعد من سجناء الجرم، ولهذا نجد وجوه الشهداء بيضاء، ويموتون سعداء، رغم أنهم خسروا كل حياتهم، ولكن حياتهم كلها في الأصل، لم تكن هي هدفهم.

((لا تحزن إلا على شيئين: فوات هدفك، أو انشائك عنه))، هكذا قالها ديار تماماً.

أما الذين يكونون، فتعساء، يطفون على بكائهم.

أحياناً يصبح البكاء صحباً لا معنى له.

لو نعلم متى نبكي؟، ومتى نسمح لدمعة ما أن تفر من أعيننا؟، إنها لحظات دقيقة حاسمة تلك التي نتخذ فيها قراراً بالبكاء، إنه يُشبه مبضع الجراح الذي يقطع هنا فيشفي، وهناك فيميت.

بوصلة البكاء هذه مفقودة عند الغرباء، يكون متى لا يجدي البكاء شيئاً، ويجسسون دموعهم متى تكون الدمعة الواحدة أشفى لوجعهم من أعشاب الدنيا بأسرها.

بعض الجراح تتألم لوجودها وليس لإيلامها، جرح بعد جرح نفد الإحساس بالألم، وثلثت لمواجهة الأقدار مرة أخرى.

الإحساس بالذل مؤلم، بينما الذل نفسه قد يُنسى.

فلسفات فلسفات، أوجاع المنفيين الذين شردتهم حقبة سفر، ينتقلون بها من مطار يكرههم، إلى مطار يكرهونه.

أتعلمين ماذا تُشبه الغرباء يا مها؟، تشبه المبني الآيل للسقوط، نعيش تحت سقوفه القديمة، ولا ندري متى يسقط فوق رؤوسنا، ولكن من يأبه لذلك.

- إن أحداً لم يبلغ السعادة طيلة سنة، هو يمشي في الطريق الخطأ حتماً، السعادة على بُعد أيام متنا، ولكننا نجعل الاتجاه.

قالت مس تنغل عبارتها، وهي تشير إلي بالسبابة أثناء الكلام، وكأنها توصي ابنها أن يحترس من الطريق.

مفهومها يسير على الذين يملكون في ذواتهم قدرة التغيير، نحن نحتاج للظروف الخارجية أحياناً لتساعدنا على الانقلاب، مثل السلحفاة التي انقلبت على ظهرها، لا

يمكن أن تعود إلا بمساعدة خارجية.

كانت خادمة مس تنغل تكوي قُمصاني على مقربة منا، وأنا أجلسُ مع سيدتها في الشرفة التي تطلُّ على المضيق.

هذا الصباح، اتصلت بي أمي باكراً كعادتها، هذا الوقت الذي يداهما فيه نومها، وحينها، أيقظتني من نومي، وراحت تُلمح لي دون تصريحٍ عن اقتراب الإحالة، قلتُ لأمي أن عودتي غير ممكنة، مازلتُ مرتبطاً بعملٍ حتى لو توقفت دراستي، وراحت أمي تدعو لي وفي صوته خيبة أمل، ولم أكن أملك لها جواباً.

هل أعود إلى الرياض قبل أن تعودين لي؟، أيُّ مدينةٍ موحشةٍ استحالت حبيبي الرياض بعد أن رحلت حبيبي منها، هناك ذكرياتي معها، المطاعم التي دعوتها إليها في الأيام التي سبقت جرأتنا، الفندق الذي التقينا فيه للمرة الأولى، وغرفتها التي تعرف وحدها حجم هذا الحب وشكله، أطراف المدينة التي كنتُ أتركها تقود سيارتي فيها، الشوارع التي مشينا عليها، الأماكن التي التقينا فيها، حيثهم الهادئ ويبتها الأكبر بين بيوت الحي.

أتدوين كيف تأمرت الأشياء عليَّ في الرياض بعد رحيلك؟، مشوارٌ عابرٌ أقضيه، لأقف في طريق عودتي، دون سيارات الرياض جميعاً، حوار سيارة أختك أنت، شعاع.

من على بعد ظللتُ أتبعها، هزّني العادة القديمة للسير فوق الجراح، تماماً مثلما كنتُ أشتري العصير والحلوى، وأقصدُ بيتك فجراً كما تعودتُ، وأنا أعلم أني لن أدخله، ولكني أتخسُّ طعم الماضي بلساني، وأبتلع الشوك.

كانت شعاع مشغولةً بهاتفها، وعلى وجهها ابتسامةٌ مضنية، قصدت متجراً ثم مقهىً نسائياً عادت بعده إلى البيت، وعدتُ أنا إلى أرق تلك الليلة أيضاً، لقد أجّلت

شعاع مشروع نومي دون أن تدري.

تفترسني عبارة مس تنغل مرةً أخرى بعد طيف الذكرى هذا، السعادة قريية، ولكننا نَتَنَكَّبُ الطُّرُقَ الخاطئة، نمشي بلا وعي، تقوّدنا العادات، والأعراف، والمبادئ المضللة التي لا أصل لها ولا حقيقة، نتخبّط في ظلمات المجتمع ولم نبصر ضوء الإنسان في أنفسنا، وما بلغنا هذه السعادة، ماذا أورثنا خوفاً إلا خوفاً أكبر؟، وماذا أصارنا إليه التريث الجبان إلا ما نحن فيه من الفراق والأسى؟

أُكْمِلُ ما أفكرُ فيه مع مس تنغل، أقول:

- كانت سعادتنا أقرب إلينا من خطوات فعلاً، ولكنّها مها، المحشوة بالخوف الرجالي منذ المراهقة، هي التي رأت من قسوة إخوتها الذكور ما رأت، فظنّنت نفسها نجت من ظلال تلك المشكلة، فإذا هم قد زرعوا الخوف في عظامها، فأفسدت حياتها بنفسها.
- ماذا فعلوا بها؟
- تنصتوا على هاتفها أثناء مراقبتها الأولى، سمعوا هاتفاً شاباً لم تعرف إلا صوته، أخذوها بالشك قبل اليقين، والظن قبل الثبات، ومارسوا معها غضبائهم الرجولية حتى يتأكدوا من اختمار القبيلة في عروقهم، فكان الظلم، وكان الحطام النفسي الذي أصارها إليه بذاعة اتهاماتهم.
- أليست أختهم؟
- ربّ غريبٍ أحنُّ من قريبٍ يا أمّاه.
- كنتُ أحنُّ عليها منهم إذن، ربما من أجل هذا وقّعت في حبك، كُنتَ تعويضُها المناسب عن قسوة الرجال.
- لا، مها لا تبحث عن ما أفقدوه إياها من الحنان معي، مها أكبر مني

سناً، ولن تستقي مشاعرها ممن يصغرها، ولكنني جَهِدْتُ لأكون كما
أنا، وكما نجوتُ بجلدي من أن يزرعوا فيَّ هُوسَ اعتقال النساء،
وحبسِ حرياتهن، وعدَّ نبضاتِ قلوبهن.

اعتدلت مس تنغل في جلستها لتصغي لما أقوله بتركيزٍ أكبر.

- كنت أجاهد حتى ألا أبدو باحترامي لأنوثتها وحريتها التي هي
مبدئي أصلاً وكأني أصطادُ في ماءٍ عَكِرٍ، وأحاولُ أن أستغلَّ آثار
القيود التي تَرَكَها الإخوة في يديها لأفوز بقلبها.

تكلمت الخادمة فانحشرت الكلمات في حلقها، تنحنحت بارتباك، وأعادت عبارتها
مرةً أخرى.

- انتهت قمصانك سيدي.

أومأتُ لها بامتنان، فهربت إلى غرفةٍ أخرى، حملتُ قمصاني وهممتُ بالخروج
فاستوقفتني مس تنغل وهي تقول:

- إنك تتحدَّث دائماً وكأنك شاعر.

لم أكن قد أخبرتها من قبل بهذا العيب العاطفي فيّ، ولكنها ربما أدركت ذلك من
أسلوبي في تجسيد أحزاني، لم تكن تفهم إلا أنني أملكُ تحت أضلاعي مُضَخِّماً
للحزن، يمرُّ عبر أنبوبٍ طويلٍ من اليأس، ثم يندفع من فوهةٍ غربيّة، وهكذا أسردُ لها
أوجاعي الصغيرة.

كان حزني أمامها يبدو آنيةً من الآخر، أشكلها بيدي كما يريدُ الحزن، ثم أحشُرُ
مشاعري داخلها، أو أتركها إلى آنيةٍ أخرى، ريشما تنمو لي مشاعر جديدة.

لأن الشعراء دائماً يحزنون هكذا، قالت لي هذا، كلما كبروا كلما صَغُرَت الحياةُ في
أعينهم، قرأتُ لي مرةً دفتر مذكراتها، وقفتُ على يومٍ قدسم قبل مولدي كَتَبْتُ فيه:
((الحياةُ ليست إلا محطاتٍ حزينة، وأخرى مشوبةٌ بالحزن، نسميها، مجازاً، سعيّدة،
وما يبقى في ذاكرتك من الماضي يكون بِقَدَرٍ ما كانت آلامك فيه))

* * *

((هذه الليلة، ولَدَ القرار.

طوال الليل وأنا أتنفسُ أفكاري، وأناقشُ نفسي))

لم تستيقظ مس تنغل بعد، أتركُ الشرفةَ التي امتلأت بنورِ الشمس، وأذهبُ لأجهِّزَ
إفطاري ببطءٍ في يومٍ إجازة، أسخِّنُ الشاي، وأقطعُ خبزي، وأحشوه بروية، ثم
أمضغُ بكسلٍ وأنا أتابعُ الأخبار بنصفِ اهتمام.

تُرى ماذا تفعلين الآن يا مها؟

مرَّ عامٌ على اندثاري تحت صقيعِ فانكوفر، وكأني فَقَدْتُ إحساسي بتعاقبِ الأيام،
ومرورِ الزمن، مازلتُ أدرس، ولولا هذا الالتزام الجامعي من أجلِ رسالتي لشعرتُ
حقاً أنني أمشي على هامشِ الوقت، فمن خلاله وضعتُ حدّاً لشتاتي، ووجدتُ
إجابةً لسؤالِ فانكوفر العريق، ماذا أفعل هنا؟

((ربما أرثبُ أوراق حزني.

ربما أتأكَّدُ أنني فعلاً أحبكِ))

أنهيتُ إفطاري، ثم بدلتُ ثيابي بسرعة، وأخذتُ مظليّ المعلقة أمام الباب، وخرجتُ
من الشقة، تركتُ سيارتي حيث هي، ومشيتُ على ضفاف المضيق في صباحٍ تكاد

الشمس أن تغافله فتخرج، كانت الأشياء من حولي جميلة، كلُّ ما في هذا المكان من فانكوفر جميلٌ عادةً، بدأت اتجه جنوباً حالماً وصلتُ إلى ميدان جرانفيللا، كنتُ أسعى إلى شارع جورجيا الكبير.

لو عدتُ ماذا سأفعل؟، لو بقيتُ ماذا سأفعل؟، ما دُمْتُ قد أخذتُ معك في جملةٍ ما أخذتُ طموحي، ورغبتِي في الحياة، سأظلُّ أدبُ على ظهر الأرض حتى أعود إلى بطنها، وسيموتُ رجلٌ كان أحرى به أن يمَسَّ السحاب، ولكنه تعثر في أوَّل مشواره بفتاةٍ عجيبة، أحرقتَه تماماً، وتخلَّت عنه.

((لا بد من حلٍّ ما لأني مريض))

عندما يُشرقُ صباحٌ لا أجدُ فيه ما يحتويه أشعرُ بالوهن، كأنما كان عليَّ أن أموتَ قبله، لماذا يزدادُ عمري يوماً لا أستحقُّه، أنا الذي أثقلُ في شقِّي مثل النوارس المريضة، كلُّ شيء في مكانه، لا حاجةً للترتيب، لا حاجةً للتنظيف، حتى ذاكرتي التعيسة، خيرٌ لها أن لا تفيق من نومها اليوم.

((إذن لا بد أن أغَيِّر أنا شكلَ صباحاتي، فوحدها لن تأتي بمجديد))

يبدو أني اشتقتُ إليك كثيراً.

أنا الشارقُ حتى الآن بنغمة صوتك، الذابلُ بين يدي حبك، المعلقُ منذ سنواتٍ بين عينيك الجميلتين ماذا أفعل.

((أوقفي شوقي إليك إن استطعت))

أخيراً أنا في جورجيا، أكبر الشوارع في وسط المدينة، أخذتُ أمشي فيه باتجاه الغرب، بدأت بناياته الكبيرة تظلُّ المكان فوقِي، ليس عندي وجهةُ الآن، سأمرُّ في طريقي على المراكز التجارية الكبرى، وسأقف لأتأمل حشود السائحين التي تنتظر

أن تفتح أبواب متحف الفن، يبدو الشارع صاحِباً أكثر من أفكاري، ربما عليَّ أن أمشي في الروبسون على محاذاته.

هل مازلتُ حتى الآن تؤمنين أن فتاك الأول كان يستحقُّ الحب؟، ربما لأنك صرتُ أعلم الآن بأصناف الرجال يحقُّ لي أن أسألك كيف ترينني الآن؟، شاعراً ضعيفاً يقتاتُ وهماً، ويعيشُ على جراثيم خياله، ويظنُّ، لسداجته، أنك ربما تحشمتُ عناء الطلاق، لتعودي إليه.

((سيحشمتُك الساذجُ هذا العناء رغماً عنك، عندما يُشفى))

منذ بداياتِ حينا، كم تمنيتُ أن تكوني لي، أنا الغارقُ في حشيش أحلامٍ صعبة، أتخيِّل آخرها قبل أولها، فكَّرتُ فيك حتى أتلُفتُ نصف دماغي، وخلقتُ تسعين مشهداً، وتسعين حواراً، وتسعين قصةً، كان يمكن أن تدور بيني وبينك في هباء المستقبل، تخيلتُ منزلنا، غرفة نومنا، حديقتنا، سيارتنا، شكُلُ خادمنا، واختلافُ أعمالنا، وأسماء أطفالنا.

هذه الأخيرة حلمنا بها دائماً معاً، أسماؤهم، وطباعهم، وأشكالهم، وأيُّهم يُشبهني، وأيُّهم يُشبهك، لقد كتبنا شهادات ميلادهم بالفعل يا حبيبتي، كيف نتخلى عنهم؟ هل من الممكن حقاً أن يُوجد طفلٌ في الدنيا يوماً ما تجتمع فيه دمائي ودماءُك، وتكونين أمه وأكونُ أباه؟، كم أنا مرهقٌ من عيني طفلٍ لم يُخلَق بعد، هو ربما لن يكون، لن يوجد، هو جزءٌ من اللاشيء، جزءٌ من العدم، من الفراغ.

الروبسون أكثر هدوءاً وجمالاً، المحال التجارية تحفُّه من الجانبين، قال لي ديار مرةً: الناس في الروبسون أكثر ودّاً من الشوارع الأخرى في وسط المدينة، بقيتُ أفكر لحظتها في سبب منطقي يجعلُ عادات الناس تختلف في شارعين متحاذيين، كفاني ديار تفسير فلسفته، قال: الروبسون ملئٌ بالأسواق والمقاهي، ستجدُ الكثير من

الزخم الأثوي على الطريق.

ابتسمتُ لفكرته، وعدت لهواجسي.

فكرتُ كثيراً قبل أن ترحلي أن أفتعل ضجةً ما، تبقيكِ معي مُرغمةً، وتتحققُ الغاية المرجوة أياً كانت الوسيلة، كنتُ أعلمُ أن هذا سيؤذيكِ حتماً، وأنَّ بقاءكِ معي عندها لن يكون حباً، بل قسراً، وعدلتُ على أملٍ أن تعودني طوعاً.

((حان وقتُ الضجة الآن، لن أعدل عنها هذه المرة))

كنتُ أقول، لأخففَ عن نفسي وطأة الحمى فقط، إنكِ مسؤولةٌ عن اختياركِ، وحرّةٌ في إكمالِ حياتكِ كما تريدين، فلا داعي لكلِّ هذه اللهفة على امرأةٍ لا ترغبُ فيّ، وكنتُ أظنُّ أنني لن أحتاج من لا تحتاجني، ولا أريد من لا تريدين، وأنَّ الأمر لن يعدو صدمةَ الفراق، ثم أعودُ إلى سابق عهدي بعد أيام، وحاولتُ أن أتسلَّى عنكِ بذلك، ولكني شعرتُ بالغبين، وتعجبتُ ألف مرة، فمادمتُ تحبيني حباً لم أعرف مثله، كيف تستطيعين أن تعيشي بدوين، إما أنكِ خائفة، فسأقف جواركِ حتى تنزوح، وإما أن حبكِ كان مبالغاً، وأغرقتُ أنا نفسي في بحرٍ لم يكن يتعامل مع الشاطئ بجديّة، وفي هذه الحالة لن أعيش في دائرة القهر المميّنة وحدي، لا بدّ لأحدنا أن يضحيّ لكيلا يموت الآخر.

((يبدو أني لن أضحي أكثر من ذلك، دوركِ هذه المرة))

بدأت أقدامني تتعبُ من كثرة المشي، لم أتوقّف منذ تركتُ شقتي إلا عند خطوط المشاة في تقاطعات الشوارع، المسافة طويلةٌ فعلاً، تُرى هل استيقظت مس تنغل؟، أين ديار و لارا؟

أفاجأ أمامي بصديقٍ أرحتيني على مقاعد الدراسة، كان يجلسُ على عتبة أحدِ المحال،

له شعرٌ يكاد يرحل عن رأسه، وذقنٌ مقصوصٌ بعناية دون عارضين، حييته بهدوء، جلستُ معه قليلاً نتحدّثُ عن همومنا المشتركة، ستبدأ دراستنا بعد أيام، يبدو فصلاً مختلفاً.

كان يبحثُ عن شقة، ألدردو، أخبرته عن عنوان شقتي القديمة التي سكنتها قبل أن أنتقل إلى شقة مس تنغل، نقش العنوان في ذاكرة هاتفه المتنقل، أعطاني نظرة امتنان، صافحته، وعدتُ أمشي، وأفكر.

طردتُ هلوساتي المفيدة تلك عن نسيانكِ، وفكرتُ بفكرةٍ أخرى، جعلتني أكثر رضاءً، وأملًا، وثباتاً.

((هل أتى القرار؟))

وضعتُ أمامي هدفاً أعتقدُ به، وأسعى إليه بما أستطيع، وأكرّس حياتي كلها في سبيل تحقيقه، أو أموت دونهُ، هدفاً يشبه الهدف الواحد الذي يعلّقه الثوريون في حدّقات عيونهم، وهو أن أستعيدكِ يوماً ما.

((هذه هي العقيدة، والآن يبدأ الجهاد))

سأندرجُ في استبساطي، أبدأ بمفاوضة أولى على طاولة الحب، ولكنّ جهادي هذا لن يبقى طويلاً في الوسط، خوفكِ الذي سبّب لي كلّ ما أنا فيه لا بد أنه صار أكبر الآن بعد أن تضاعفت الأغلال، أخشى أن أؤذي معصمكِ عندما أحاول خلعهما عنكِ.

((كيف أبدأ؟))

سأكتبُ لكِ حتى تبرا مني الكتابة، لكي لا ينطفئ حيي في قلبكِ ولكي لا تفكري فيّ ذات يومٍ أنني رجلٌ ملأه الهم، ويريد أن يحصلَ على امرأته بأيّ شكلٍ كان، إنه

الحب الذي يحرك كل شيء، ويمعني من التسليم يا حبيبي مثل أي ضعيف.

((أريد أن أوفر بكتابتني نقاش يوم ما))

ولكن ماذا سأكتب؟، سأفكر بهذا فيما بعد.

مررتُ على مقهى ستاربكس الشهير، المكان الذي رأيتُ فيه دياراً أول مرة، تأملتُ كرسيه الذي يشغله رجلٌ نائم، أخذتُ أرواح النظرات في التقاطع النشط، جلستُ على أحد الكراسي بعد أن طلبتُ شايًا أخضر، ووقفتُ أنتظره وأنا أراقبُ عيون البائعة، ونظراتها المشتتة بين الزبائن، قام الرجل النائم على كرسي ديار، ليس في وجهه أثر نعاس، هل كان يتظاهر بالنوم؟، تناول معطفه، وتأبطُ جريدة صفراء، ورحل.

هل هو قدّر هذا الكرسي ألا يشغله إلا الغرباء؟

أخذتُ جريدة معلقة أمامي، على الصفحة الأولى إعلانٌ عن مبنى يؤجر شققاً في شارع ونستون، على ضفاف بحيرة بيرنابي، مئات الأمتار عن جامعة سايمون فريسر، سأصل لاحقاً بالديردو لأخبره عنها، لا يملكُ سيارة، لا بأس ليس سكنه الحالي قريباً من الجامعة على أي حال.

أيُّ كتابة هذه التي سأكتبها لك؟، ما هذه الفكرة؟، لا أدري ولكني أستطيع أن أكتب ما يليق، لن تخونني أصابعي أبداً، وبعد أن أكتب ما سأكتبه، سأسعى جاهداً لئلا تسقطَ حياتي المادية في دوامة شتاتي، سأسعى إلى حياة أفضل، لا أملاً، ولا طموحاً، ولا ارتقاءً، ولكن لأجعل قرار عودتك أسهل عندما تفكرين في العودة، وهذا ما فعلته، وأظن أنني ما زلتُ ماضياً فيه.

((ربما كانت هذه الفكرة هي التي أبقتني بعيداً عن الهاوية حتى الآن))

ماذا بعد؟، سأصبرُ بعض الزمن، حتى يتسنى لك اتخاذ قرار الانفصال عن سالم، وتنفيذه بكل يسر، بعد أن تخفّ في صدرك هالته المقدسة التي كنت تحيطينه بها، والتي كانت تمنعك من التعامل معه بهذه الجرأة.

((أليس الزمن الذي انتظرتَه كافياً؟، أخشى أن تحبلي، سيقرفني أن يتعاقب ابن سالم وابني على رحم واحد))

جاءني الشاي، ومازالت نظرات النادلة ذاهلة، تبدو صغيرة، لا أظنها عمرها يجعلها تعمل في أفضل من مقهى، هذه الأماكن تفضّل الصغيرات اللواتي يعملن لفترات قصيرة لمتابعة دراستهن، يضمن المقهى تنوع وجوه الحسناوات، وانخفاض أجورهن، وعدم الالتزام بالتدريب والضرائب.

((ماذا سيقى بعد الكتابة؟))

سيأتي يومٌ تكون مهلتك الزمنية قد انتهت بمقياس ألي ووجعي، لأنني لا أطيقُ أكثر مما طقتُ، ولن أتحملُ أقسى مما تحمّلت، وسوف لن أقوى على مزيدٍ من هذا الحطام المعنوي الذي يتفاقمُ كل يوم، وعندها سأنتفض.

انتهى زمنُ الحشرات واللوعات، وآن لي، وأنتِ معي، أن نفعل شيئاً إزاء هذه العُمة التي أرهقتنا طويلاً، وأبكتنا كثيراً، وأنستنا كيف هي الحياة بدون حزن.

((أفترض أنك ما زلتِ حزينة حتى الآن كما كنت ليلة فراقنا، ربما استطعت أن تكبحي أحزانك، أنت دائماً أفضل مني))

آن لنا أن نستقرّ أخيراً، فحياتك هذه ليست مستقرة كما تظنين، لأنني أنا ما زلتُ أتعذب، ولن يطفى عذابي إلا أنت، إما أن أستعيدك أو أموت دونك، ليس لدي ما أخسره، وأنتِ تدرين حتماً أن الشخص الذي ليس لديه ما يخسره يكون أكثر

اندفاعاً، وأشد تدميراً.

ما أكثر ما كنستهُ في دماغي من أفكار، وما أكثر ما تلقي به الريحُ عليه من أوراقِ الشجرِ الجافّة، ولا أتوقّف عن التفكيرِ فيكِ بكلِّ الدروب، وربما مشيتُ في دربٍ ما أكثرَ من مرّة.

((هل ما زلتُ مريضاً؟))

أعلمُ أنه سيأتي يومٌ يدفعني فيه اليأسُ إلى طَرَقِ أبوابكِ بعنفٍ شديد، لا أتقي معه أسماعَ الآخرين، والصراخِ عليكِ للعودة إلى فارسكِ القديم، هذا الذي قطّرتِ في عينيه حبك، وزرعتِ في قلبه عشقاً لا ينتهي، نسيتِ أن تجعلي له حداً، فهو ينمو حتى يؤلم أضلاعي، ويخرّبُ أفكاري وقراراتي.

((اتخذ قرارٍ خاطئٍ خيرٌ من عدم اتخاذ أيِّ قرار، سمعتُ طبيباً يقول ذلك))

ذلك لن يكون رغبةً في انتقام، فما زلتُ أحبك، ولكني أحرركِ من المسؤولية بالإجبار، وأعيدكِ فيها إلى الحياة التي كان يجب أن نحيها من قبل، وأقبلكِ من العثرة السخيفة التي أعثرتكِ إياها الحياة، فجعلتكِ تتزوجين من لا تحبين، وتورثين من تحبين كلَّ هذا القهر والمرارة.

((لو كنتُ أريده انتقاماً يا فتاتي لما أبقيتُ للطوفانِ من بعدي شيئاً يمرُّ عليه، ولكنها جهادٌ مقدّس، ليس إلا))

ظهيرةٌ غائمة، أنا الشخص الوحيد في المدينة التي يحبُّ غيومها ويرفض شمسها، في جسدي عطشٌ إلى الغيوم الباردة لا ترويه سنواتٌ من السحب الركامية في سماءاتٍ بيضاء، في عروقي مللٌ عريقٌ من خيوط الشمس.

هل أمشي على نحو الستانلي بارك، وبحيرة اللوست لاقون؟، إنَّ هذه الغيوم تنذرُ

بمطرٍ أو رياحٍ باردة على الأقل، لا يغطيني إلا هذا القميص الثقيل، قد لا يكفي، فالمشي وحيداً بردٌ بحد ذاته.

أعلمُ أنكِ كنتِ بحيرةً على ما فعلتِ، وكانت دموعكِ أغزر، وكان الأمرُ عليكِ أصعب، والفراقُ عليكِ أجزع، وكنتِ في الليالِ الأخيرة أواسيكِ في فقدي، وأطمئنكِ إلى أن الله لن يتركنا وحيدين، وكنتِ تصمتين، وكأنكِ تخشين من إيجابٍ يأخذ شكل الوعد، والتزام في متاهة الزمن، ألومكِ عليه إن لم يتحقق.

((نسيت، ربما، أننا التزأنا نشأً فعلاً، بالحب وليس بالكلمات))

ربما يجب أن تعودتي، لأنكِ آمنتِ بي، عاشقاً، وزوجاً، ورجلاً، تتكئين عليه في ميل الحياة، وستعرفين عندما تحريين غيري كيف يتباينُ الرجال عن بعضهم، ويتميّز الأشخاص فيما بينهم، وكيف تختلفُ كلمة الغزل التي يلفظها عاشق عن تلك التي يلفظها متأنق، وتختلفُ الابتسامة الدافئة التي تحملكِ في الضراء كما تحملكِ في السراء، عن تلك التي تأتيكِ واجباً زوجياً لإضفاء الاستقرار المتصنّع على جنباتِ الزواج.

((أنتِ قلتِ لي بنفسكِ، وأنتِ تكيين، بعد لقاءكِ بسالم: إنه لا يقوها مثلك))

ستدركين الفرق بين من يعينكِ على الحياة، وبين من يعينُ الحياةَ عليكِ، والفرق بين من يعيش مع امرأة لأنها حبيبته التي لا يستطيع العيش بدونها، ومن يعيشُ مع امرأة لأنهم اختاروها له فقط.

((أعرفُ أي لا أستطيعُ أن أفعل شيئاً قبل أن أعود من فانكوفر، ولكني أحتاجُ إلى أكثر من سنة لتنتهي دراسي، إنه امتدادٌ أطولُ من أن يظلَّ عودُ قراري مستقيماً، ستميله الريح حتماً أو تكسره، سأقلّبُ عليه أكثر من مرة، ولكن حسي أنه وُلد وأنَّ جذوره سافرت في الأرض، يوماً آخر سيجدُ ظروفًا ملائمة للاستطالة من

(جديد))

قمتُ من كرسي المقهى وقد أمطرتِ السماء، استوقفتُ سيارةَ أجرة، طلبتُ من أن يتوجه إلى جرانفيللا، كانت مس تنغل تكلمني عبر الهاتف.
(لتزدادي غروراً يا مها، هناك رجلٌ سيقاتل من أجلكِ، وكأنك عقيدتَه))

الفصل السادس

أمام دهشة اللحن، وفي أجمل مقاطع النوتة، نَشَرَ سعد فجأة.
دخل هذا المتطفل القبيح إلى المكان من حيث أوجعني، الرجل الذي حشر أصابعه في حلقي حتى جعلني أقيئ سعادتي بكِ وبإخلاصكِ.
لم يقف طويلاً أمام تساؤلاتٍ مرّةٍ تطرح نفسها بعباء.
مَنْ سرّبه إلى حيننا؟، مَنْ أدخله إلى ضيعتنا النائمة فوق ضباب الوفاء الجبليّ الأبيض منذ ثلاثة أشهر؟

الخامس من يوليو،

هذه الليلة، يجبُ أن تخرجي، بقاؤك طول النهار في الغرفة يهرش رؤوسهم بشدة.
ستقومين من بين أحضاني بكسل، تلتقطين منشقةً متوسطة الحجم، وتلتقطين قبلةً عابرة، قبل أن تذهبي إلى الحمام، لتأخذي حمامك قبل الخروج.
والحق بكِ.

أجلسُ أمامك تلميذاً في مدرسة الفن وأنتِ تستحمين مثل تمثالٍ رومانيٍّ باهر.
منذ أن يبدأ حمامك وحتى ينتهي، ولم تخرج عيناك من حلقة الدهشة بعد، أناولك

عبوة الشامبو، وقطعة الصابون، ومنعم الشعر، وذراع الدش، وأجلس أرقب خطوات استحمامك البطيئة، وأجمع التفاصيل الصغيرة قبل أن يضعها الزمن، الليل الذي يسقط من أثناء شعرك وأنت تغسلينه، وئحاة النور التي تسقط من سطح جلدك، وقطرات الماء التي تتخاذل بين نهد وآخر، ورغوة الصابون التي تنتفخ فقاعاته دهشة ورغبة، تخرجين من البانيو برشاقة، تلفين الشمع البلوري في منشفة، وتقفين أمام المغسلة لثوان تغسلين فيها أسنانك، وترشين على جسمك من أكثر من عبوة وعطر وكريم وبودرة، وأنا أحشر نفسي بينك وبين المرأة، حتى لا تخلو بك.

من يلممني أنا؟، من يجمع الحنان الذي يتسرب من جلدي، ويقطر مع الماء قطرة قطرة، كم من البشر حتى الآن يعرفون كيف تستحم العذارى؟

عندما يصبحُ البياض أكثر من مجرد لون، عندما يصبح فتنة، عندما يصبح نداءً نورانياً لعناق، لقبلة، لرغبة، في حمام.

أمام مرآتك الضخمة في الغرفة تجلسين على الأرض، تقرئين مجفف الشعر الكبير، ومشطيك الضخمين، وتصفين شعرك في سرعة وأنا أتربع أمامك في فضول، وألاحق يديك المعلقتين بخصلة تخشين هروجا، ولم يزل ظهرك عارياً يقطر منه الماء.

أنام على فخذك، أغمض عيني وأرحل في بيداء لم يعرفها كوكب، يهددي بصوت مجفف الشعر وهو ينطفئ ويشتغل، وصوتك الذي يغني ببطء أيّ لحن شارد، وأفتح عيني لأتأملك من أسفل.

ذلك الحال النائم تحت نهدك الأيسر مثل لاجئ سياسي، والوحمة الطفيفة في فخذك الأيمن تؤرخ لميلادك، تنبهين لي فجأة، وتولد قبله.

ينتهي شعرك، تنتقلين إلى مرآة أخرى، وتسريحة كبيرة، كبيرة جداً، المئات من أقلام الزينة، وفرشها، وأصباغها، ومعاجينها، وألوانها، مصفوفة بأناقة بالغة، لا أدري

كيف لا تضيعين بين كل هذه الأشياء، وتلتقطين ما تريدين منها بك دقة، أتأمل في عملك البارع وأنت تزيين بالقداحة الصغيرة رأس الكحل المتجمد، ثم تمرين به على جفنيك واحداً بعد الآخر وأنت تتابعين الخط الأسود في المرأة حتى لا تبتلعه عينك، ويضيع سواده في سوادهما.

للمرة الأولى أسمع بكرم الأساس، القناع الذي ترسم فوقه النساء زينتهن، تعصرينه على خلف إهامك تحديداً على الكف الأيسر، ثم تلقين بها على أنحاء وجهك بضربات خفيفة، ماهرة، سريعة، وتمدينه إلى نحرِك وحدود الصدر العليا، تدريجياً يتحوّل وجهك إلى لون أبيض، يقترب من البياض، ثم يميل إلى اللون الشفقي الذي نراه في السماء قبل أن تستفحل حمرة الغروب.

هل أنتِ إلا سماء؟

وهل أنا إلا طائرٌ شمالي لا يدري متى تنتهي هجرته؟

دعيني أكمل معكِ هذا الموسم الخصب، موسم الزينة، إنَّ نداءهم تعلو، الجميع هناك في انتظارك.

تخرجُ الريشات من جحورها، تصفين الألوان المنتقاة لتناسب ما ستلبسينه بعد قليل، ما زلت عاريةً مثل يوم الولادة، وما زلت أنا أتربع فوق الكرسي عن يسارك مثل جندي، يبدأ هزجك الأنثوي فوق لوحة الإنسان، ظلالٌ خفيفةٌ فوق الجفن المرتجف، تدرجُ لوني بارع في أنحاء الوجه، ألوانٌ تتعاقبُ لوناً بعد آخر لتفني نفسها من أجل جمالك، كلُّ شيء يتناغم بروعة بين أصابعك وأجزاء بشرتك، حتى تنتهين.

بقيت أحمر الشفاه، يتأخر دائماً.

لأن بعدها، لا مجال لقبلة أخرى.

ولذلك أقضي وطري من شفتيك قبل أن يخرج إصبع الحمرة من قمقمه كماردٍ مخلص، ويفرش نفسه عليهما، ويقطر دماه فوقهما، مبعثراً أيام عمره ولا ييالي.

قلت لي: إن أكثر المهارات طلباً للدقة، وضع أحمر الشفاه، خطأً متوتر قد يفسد الزينة بأكملها، احترمت ذلك، وصرت التزم الهدوء تماماً، وأكتم غيرتي من القلم المشدود وهو يمرُّ على الشفة البارزة، وكأنه يراها لأول مرة.

تطرق الخادمة الباب، فأتوارى في غرفة الملابس ريثما تفتح لي لها، تأتين منها بقميصك مكوّياً، أسبقك إلى غرفة النوم، أوقد المدخنة الكهربائية الصغيرة ريثما تحمي، تلبسين قميصاً أبيض وبنطالاً فضفاضاً، وتختارين حذاءً بين العشرات التي تمنى أن تقضي معك هذه الليلة، ترشين فوق المدخنة بخورك المحبة من علبتها ذات القطيفة الحمراء، تدورين حولها ثم يطرق بابنا "جان بول" حاملاً قارورة عطره الطاهرة.

هاقد انتهيت الآن، وداعاً يا حبيبتي، لا تتأخري، سأقرأ في مجلاتك ريثما تعودين.

تمنحني قبلةً هوائية شديدة السطحية من شفتيك، وتقريين مني صحوون الحلوى، وعلب العصير، تتأكدين أن شيئاً لن ينقصني إلا وجودك، يخرج من عينيك طائر شوقٍ صادق ليحط عليّ، قبل أن تتواري خلف الباب.

كرجل، لم أشعر يوماً أن زينتك تحدث فرقاً، مهما اجتهدت فيه، كنت عندي قطعة شهية من الأنوثة، لا أنتبه إلى تفاصيلها، بل آخذها جميعاً إلى حضني.

قلت لك أكثر من مرة أن الدور الحقيقي لهذه الزينة، هو التخفيف من حدة جمالك، وليس إبرازه، ولكنك تأبين إلا أن تزيدني البريق بريقاً، والعطر عطرًا، والحب دوحة، ظننتي أغازلك، ولم تدركي أني أؤمن بهذه الكلمات كما لم أؤمن بجمال مجرد قط.

مشيت في غرفتك متململاً، رحت أنأمل الصور المعلقة في أطراف التسريحة، ثم تلك المعلقة فوق أرفف دولاب صغير في الزاوية، هنا بعض أفراد الأسرة، صديقتان حميمتان، طفل ناعم، وأم جميلة تقف في صورتها القديمة مثل الملائكة.

هنا ركنٌ ترامت فيه العشرات من الدمى، كلها تعيش معك، وتسكن هذه الغرفة، وتشهد أنما رأتنا نحن الاثنين، نتعاطى الحب في كل زاوية من زواياها، وأننا أثرتنا في جمودها الحياة، وفجرنا بين أقطابها الرغبة، وكادت أن تلتفت لبعضها ذكوراً وإنثاً لفرط ما رأته من تكاملنا تحت هذا السقف، على مدى سنة كاملة، لم يمض أسبوعٌ منها إلا ومكثت هنا في هذه الغرفة يوماً، أو يومين، أو ثلاثة.

تنام على سريرك أشياء كثيرة، تُزاحمنا فيه، ولا نشعر بالضيق، نحن اللذين لا نحتاج من السرير إلا ما يكفي جسداً واحداً، نتلع فيه بعضنا، ونلون فيه أجسادنا، وننام على عناقٍ حبيب، كأن الدنيا وما فيها خارج السرير لا تعيننا.

وعندما يؤلمك ظهرك كانت يداي تجسّنه برفق، تبحثان عن موضع الألم، وتدلكانه حتى يخفت في جسدك، وأنت نائمةً بوداعة الحمام، وظهرك عارٍ كسيف مجيدي، أقارن فيه سمرة يدي ببياضه الطاهر.

وأنام بين يديك، وأنت تلتقطين من ظهري أي شعيرة دقيقة خرجت عن مسارها، ونحن نتحدث عن كل ما رأيناه وسمعناه، ونحكي حكايات، ونضحك ضحكات، ونغني أغنيات، أطفالاً فوق العشرين، سكارى ولم نشرب قطرة، سعداء ونحن بين يدي فراقٍ قريب.

ينتهي ما في غرفة النوم ومازلت غائبة، أستوقف غيمةً عابرةً لتحملني إلى غرفة الملابس، ربما وجدت كتاباً أقرأ فيه، أو مجلةً أتسلى بها ريثما تعودين.

نصفُ الغرفة خزان للملابس، ومكتبٌ أنيق.

وأدراج.

أتأمل الوردة الذابلة في الكأس الزجاجي.

الكتب، الشموع.

والأدراج.

التفتُ إلى الأحذية المصفوفة، والشنالِ الملقى بلا اهتمام.

وأعود، إليها مرة أخرى.

الأدراج..

الأدراج..

الأدراج..

.....

لأنني لا أتحمل درجاً صامتاً.

لا أتحمل.

أتمنى لو أتعلم يوماً كيف أحترم صمتَ الأدراج المغلقة، تلك التي تبارزني بغموضها، وتخلطُ في داخلي الأمورَ والأفكارَ، وتتركني مبعثراً أمام مبدأ ما، أو أدب ما.

حتى لو كنت حبيبي، هل لي أن أغتالَ سكوتَ أدراجك؟

لا، ربما نعم، أخيراً، سأتركه صامتاً.

وتركته.

وبعد ربع ساعة فقط، كنتُ أدير حواراً طويلاً مع كلِّ درجٍ من الأدراج، وهي داميةٌ بين يديَّ كعذراى مُغتصابات، بقيتُ معها، بطولِ الساعاتِ التي غبتِ فيها عني، أفتشُ فيها بعباء.

جلستُ على مبادئي، وأسندتُ ظهري على كلِّ ما علمتني إياه أُمي في سنِّ السابعة،

وفي داخلي تتراقصُ صورة حسن الذي مضى منذ أشهر.

فتشتُ في الأدراج حتى آخر رسالة.

حتى هذه الرسالة.

قلبتُها بين يديَّ كالملدوغ..

كالهاوي من قمة حبه..

كالمصلوب على خشبتي فجيعته..

كالمقسوم نصفين بسيف الصدمة..

وسقطتُ صورته..

تأملتها دقائق بأكملها..

تأملتها.. طويلاً..

أحياناً تتعلّقُ عيوننا، بمصائبنا، فلا تخرج عنها.

هذا العاقدُ كفيه أمامه، من يكون؟

ليت سره ظلّ غامضاً هكذا فحسب، لكن رسالته المؤرخة قبل شهر، تقولُ أن مكالمتكما الأخيرة كانت جميلة، وأنه يكاد أن يحبك، هو الآن أمامي في الصورة، يبتسمُ لك ولا يدري أي عينين تنظران إليه الآن.

كانتا عينان..

صارتا حفرتان من الدموع الآسنة.

هذا هو سعد إذن، الأرنب الذي تجاوز حقله، من أين أتى؟، لا أدري ولكنه يبدو واثقاً من نفسه كثيراً.

أما أنا فأنا أبدو وكأنّ زلازل التاريخ كلها تسكن أطرافي هذه اللحظة.

وأنتِ هناك خلف ثلاثة جدران، بعيداً عن رائحة الحريق.

بعيداً عن رجلٍ ينهار في غرفتكِ.

تاريخ رسالته يشير تحديداً إلى خمسة عشر يوماً من بعد أن سمعتُ منكِ كلمة الحب الأولى.

هكذا إذاً لا تحتوي كلمة الحب الأولى ضمناً عهداً بالإخلاص.

جنوتُ على ركبتيّ، أغلقتُ فمي الفاجر، حاولتُ أن أزن الأمور، حاولتُ أن أنظر إليها من زاويةٍ أخرى، حاولت، حاولت، ولكن الأمر بدا مُصمّماً مثل كرة حديد صامتة، غير قابلٍ للتحويل والتدوير.

أعدتُ كلَّ شيء إلى مكانه، وعدتُ إلى غرفة النوم لأستلقي على سريرها الكبير، وأغالبُ دموعي المندفعة.

من التلفاز تخرجُ أغنية:

((يفكرون، يتساءلون، في جنون، حبيبي أنا من تكون؟))، بالفعل تساءلتُ بحيرة بكائي: من تكونين؟، أيُّ امرأةٍ هذه التي سلّمتها حياتي كلها، وسلّمتني جزءاً فقط من حياتها، لأن الأجزاء الأخرى مشغولة؟

أيتها الغائبة: من أنتِ؟

هل أنتِ عاشقةٌ حقيقية، أم فتاةٌ تتقن هذا الدور فحسب؟

هل أنتِ ساحرةٌ عجيبةٌ عجوزٌ يُخيّلُ لي أنها أميرة؟

تذكّرتُ لحظتها أسطورة عرائس البحر القديمة، نصفها امرأة جميلة ونصفها السفلي سمكة، يخرجن من البحر للهو على الشاطئ، فيغريّن الرجال بالاقتراب بجمالهن وفنتهن وغنائهن العذب، فإذا وقع بين أيديهنّ رجلٌ افترسنه بوحشية، لأنهن آكلاتُ لحوم الرجال.

أيُّ الأجزاء أشهى في جسد عاشقٍ؟، ربما قلبه.

أيُّ علاقةٍ هذه التي بدأت في الشوارع الخلفية لقصة حبنا؟

وكيف تُراي لم أشعر بضجتها، وصخبها، ونباح كلاهما، وعراكِ قططها؟

وكيف استطعتِ أنتِ أن تكوني صامتةً إلى هذا الحد؟، بريئةً إلى هذا الحد؟، وطبيعيةً إلى هذا الحد؟

أحاطت بي هذه الكيفيات الحائرة سريعاً لتلقي بي في دائرة وسطها، ثم تدور عليّ راقصةً في جنون، تأبيناً لهذا الذي تدور به الدنيا، ويسقط في دوامةٍ كبيرة، ويحترق بقلبه وعقله معاً.

هل كان استلطافاً؟، فلماذا تختبئ الصورة والرسالة هنا، بكل هذه العناية.

هل يوجد ما يفسّر وجود رسالةٍ وصورةٍ لرجلٍ في درج أنثى إلا ما يدور بخلدِي؟

هل كانت صداقةٍ إذن؟، فلماذا أخفيتُها عني إذا كانت الأمور تقف عند هذا الحد؟

هل يوجد ما يجب أن يُخفى عن العاشق إلا ما يدور بخلدِي؟

هل كانت علاقةٌ إذن؟، فلماذا تبقيني معكِ بكلّ هذه الحفاوة الكاذبة ما دام هناك غيري يستطيع ملء قلبكِ؟

تقاطعت في داخلي ألف هل، وألف لماذا، واجتمعت مع الكيفيات الأولى، واكتملت حلقة الأسئلة المميّنة.

قبعْتُ في انتظاركِ، منطوياً على نفسي كسادن معبدٍ عجوز، وعيناوي ترتجفان في قلق الأفكار المحبّطة.

وأنتِ أخيراً وقد جفّت دموعي، وتوارت خلف ستار الحكمة والتأني.

قبلتكِ بشفةٍ باردة، وغازلتكِ بلسانٍ أبكم، ونظرتُ إليكِ بمحجرين أحوفين خاوين

من كل التعابير، وانتهت ليلتنا سريعاً، وحن وقت رحيلي فرحلت.

وكان عليّ أن أقضي أسبوعاً مرعباً قبل أن أعود إليك في لقائنا التالي، كنتُ جريحاً جداً، أراوح بين الغضب، والحزن، والتعب، واليأس، شعرتُ أن ثمة شيء تهشم بعنفٍ على أرضية قلبي، وأن شظاياها راحت تسافر في عروقي، وتنغرس في لحم الأوردة.

كنتُ أحمل أطناناً من البؤس العاطفي على ظهري، أنا الذي أحببتك بكلّ الصدق، بكلّ الحقيقة، وبكلّ الإيمان، كنتُ واضحاً معك ككتاب أبيض، لأنني كنتُ أرى لكِ قداسةً تلجم لساني عن الكذب، وعقلي عن التزوير، وكنا من الحب بحيث لم أكن أجد ما يدعوني إلى إخفاء أمرٍ عنك، فلماذا أنتِ؟

لم تبق فكرةً بائسة، ولا شعوراً قانط، إلا ومراً على جفنين لم يعرفا غمضة نومٍ إلا لماماً طيلة أسبوع، ولم يكن في جدار جفني حين أسبله إلا صورته وأنتِ.

أي شيء تُراه يدور بينكما؟

مضى الأسبوع الأسود وعدتُ إليك، فجراً دخلتُ غرفتك، خلعتُ ثوبي وأعطيتك إياه لتعلقه على المشجب، ومكثتُ معك دون أن أحبك بما يعتدل في صدري حتى أتى المساء، عنده لم أستطع أن أتحمّل وجع الأسئلة التي كانت تشغل دماغي، فأطلقتها أمامك.

- مها

- سَم يا حبيبي؟

- فتشتُ أدراجك الصغيرة.

-

- ووجدتُ..

قاطعتني فجأة، وأنتِ تُهلِكين عصبيتكِ في خيوط حداثكِ الملتفة.

- علمتُ ذلك.

وساد صمت.

أخذتِ تخلعين ملابسكِ، وترتدين قميصاً بيئياً، وأنا أراقبك وأجلس على طرف السرير.

سألتكِ:

- لماذا لم تخبريني بأمره من قبل؟

- ولماذا لم تخبريني أنتِ فور اكتشافكِ الأمر، ماذا كنتِ تنتظر؟

- كنتُ أنتظر أن تبادري أنتِ لعل هذا يخفف من مصيبي.

كنتُ كاذباً في تعليلي هذا، الحقيقة أُنِي جُنْتُ.

رفعتِ إليّ عيناً غاضبة، قلتِ لي:

- هل ترغب في تفتيش أدراج أخرى؟

- أرغب فقط بعض الصدق.

-

- أرجوكِ يا مها لماذا؟

- كان صديقاً وحسب.

- ولماذا تهاتفينه؟، ولماذا تراسلينه؟، ولماذا تحتفظين بصورته؟

- لا تنتظر مني تفسيراً.

- تعاهدنا على الصراحة.

- لم أكن أرغب في إيذاء مشاعرك.

- ليلتكِ آذيتِ مشاعري ربما كانت أفضل مما هي عليه الآن.

كرجل، لم أكن لأقبل تلاعباً كهذا.

وكامراً، لم تكوني لتقبلي انخساراً وتدخلاً كهذين.

لذلك ألقينا بكل القنابل، ثم ساد الهدوء، والغبار.

أنتِ تدخينين بعصبية في ركن السرير الأيسر، وأنا أفتشُ في داخلي عن معنى.

لأول مرة أراك غاضبة.

وارتبتُ كثيراً وشعرتُ بالخوف من غضبكِ الهادر هذا.

كنتُ أتوقع منك انكساراً بحجم ذنبك، أو ربما بحجم اهتمامك بي، ولكن الانكسار الذي أردته كان بعيداً كل البعد عن دخانك المتصاعد في جو الغرفة.

يجبُ أن لا نلتقي بهذه الحدة، لأن تصادماً ما قد يكلفنا الكثير من حبنا.

أنتِ لن تقبلي مزيداً من تأنيبي، وأنا لن أقدر على مزيدٍ من غضبك.

أنتِ تمنعيني من إطفاء حيرتي، لماذا تسكتين؟

نظرتُ إليكِ بأسى الرجل الذي فشلت خطته في تجميع كرامته.

أطرقتُ مثل مشنوق، وجلستُ أفكر في ذكائي الهارب مني بعيداً هذه المرة، وهذه الفتاة الغاضبة على السرير ورائي، وهذا الرجل الجريح بداخلي، ماذا سيقول؟

ما أسوأ أن تتداخل الذنوب.

لم أكن لأكتشف ذنبكِ دون أن أرتكب ذنباً آخر يحرمي من التداوي باعتذارٍ منك، وانكسارٍ يعوّضُ ألم الصدمة.

كم بقينا صامتين، قبل أن تُبعث الكلمات من جديد، عيناكِ تخفيان دموعاً، قمتُ

إليكِ، جلستُ أمامك، ومسحتُ وجهكِ الجميل بيدي، أشحتُ عني، أدتُ وجهكِ ناحيتي بيدي، فمددت يدكِ وأزحت يدي عنك، أمسكتُ يديك، قبلتهما، حاولتُ أن تنتزعيهما ولكني تمسكتُ بهما، ثم اقتربتُ من وجنتكِ لأترك قبلة فوق دمعة.

عندما يعتذر الرجال، فإن نصف اعتذارهم عادةً تضحية.

ونصف كرامتهم، قرايين تقدّم للحب.

خصوصاً أولئك الرجال المعلقون من قلوبهم بحبِ يائس، الذين يعرفون مسبقاً متى تغرب الشمس، ومتى ترحل الحبيبة إلى رجلٍ آخر.

هؤلاء المساكين، أمثالي، يدركون أن قطيعة غضب قد تكلفهم وقتاً ثميناً في حبٍ مؤقت.

لذلك هم يعتذرون، ويعتذرون، لأن عناد أنثى قد يمنعها أحياناً من إدراك حجم الأجزاء التي احترقت في قلب حبيبها.

ولذلك تعتقد الأنثى أن ذنب ابتدائها لخيانةٍ مع رجلٍ آخر توازي ذنبَ تفتيش درج.

هكذا اعتذرتُ أنا.

لأن رجلاً مثل سعد كان يريد أن يستمتع بصوتكِ، كان عليّ أنا أن أتألم بشدة، وأبكي بحرقة، وأعتذر.

كان عليكِ، مادمتِ لا تراقبين قلبي في غيابي، ومادمتِ قررتِ أن تمنحيه متعةً كهذه، ومادمتِ لن تمنحيني الاعتذار الذي ينهض بكبريائي مرةً أخرى، كان عليكِ أن تفكري في طريقةٍ تجعلين بها رسائلِكِ معه، وصورته، بعيداً عن عيني.

شعرتُ لحظتها أن رجلاً مثلي لم يكن كافياً لملء قلبك.

ونطقْتُ ذلك من بين دموعي، واتسعت عيناكِ بفرع، وصرختِ:

- ماذا قلت؟

- قلتُ: كنتُ أعلمُ أنني لستُ كافياً لملء قلبكِ.

ازدادت عيناكِ اتساعاً، وتأملتني لثوان قبل أن تبتعدي عني، وتدفعني وجهكِ في وسادة، وتنفجرين بكاءً بحرقَةٍ أوجعتني كثيراً، ونحيبٍ كاد أن يتسرَّب من جدران الغرفة، ليسمعه أهلُك.

وأهيننا حوارنا معاً تلك الليلة بهذا البكاء.

ولكن،

على غير الجمر المختبئ تحت الرماد لم ينغلق هذا الباب المتواطئ مع الريح.

ظلَّ شهوراً يطلُّ علينا بين حزنٍ وآخر، ليتركنا أكثر من مرة، باكيين على الجراح التي أبت أن تنطفئ، ظلَّ في جيبني أرق تلك الصورة المختبئة بين الأدراج، وهذا الرجل الذي يستمتع بصوت حبيبتي، مكالمَةً بعد أخرى، ربما بعد مكالمتي مباشرة، وأنا بالكاد أتنفس صوتها الرقيق، وأذيب فيه الشوق الكبير في صدري، دون أن أدري أن رجلاً ما يشترك معي في هذا الصوت الأثوي المختلف، وأنه يتمتع به، مثلي، حتى آخر ساعةٍ من ساعات الليل.

غير هذه المكالمات الخائنة، لم تحمل اعترافاتكِ لي خيبةً أخرى تلك الأيام، إلا كونه قد لَمَحَكِ حَلْسَةً، أو قصداً، في متجر حلوى، وأنه صار يعرفُ من أنتِ تماماً، إلى حوار كذبتكِ المتوترة التي انتهت سريعاً، فلم يكن مثلي من يصدق أن الهدف من مكالماتكما كان السعي لخطبة أختكِ مرام لصديقٍ له.

ياهلوان الرجل المضطر للسكوت، وأنتِ تغتالين عقله بأعذاركِ هذه، كما اغتلتِ قلبه من قبل.

كيف بدوتُ أمامكِ حتى تختزعي عذراً ملففاً كهذا؟

أيهما أغراكِ أكثر بهذا العذر: سذاجتي، أم استسلامي؟

ظلَّ في عينيكِ دمعٌ مهزومٌ خائف، يكره استجوابي الصفيق، ورجولي القاسية التي ظهرت في صوتي وأسبغني فجأة، وكأنما صُدِمْتُ في حناي القدم.

وأنا أكلني الشك كثيراً.

وضعتُ المصحف بين يديكِ، وسألتكِ إن كنتِ التقيتِ به أو رآكِ قط؟، أو تجاوزت علاقتهما حدود المكالمات الهاتفية؟، أو إن كان هناك ما تخفين عني ولم أعرفه بعد، كان لا بد من تصرفٍ كهذا يجعلني أقضي بقية أيامي معكِ خارج جهنم الشك التي ألقنتني فيها تصرفاتكِ المريبة، وكان أن أفسمت أخيراً، ونحن نفتش بساطاً صغيراً خارج المدينة، أنه لم يبق في صدركِ ما تخفين، وصدقتكِ، واطمأن قلبي قليلاً.

لم تكن تلك قسوة مني، ولكنها كانت انتفاضة جرحٍ يترُ كبرياءاً ووهماً، كنتُ أبحث في عينيكِ عن انكسارٍ يجبر انكساري أنا، ويعيد مشاعري التي سقطت إلى مكانها الأول.

كنتُ أريدكِ أن تكفري عن ذنبكِ بأكثر من مجرد اعتذارٍ متبرم.

كنتُ أريد منكِ خضوعاً مؤقتاً، لقوانين صغيرة أضعتها أنا، لأتأكد فقط أن حبكِ لي سيجعلكِ تحتملين هذا التعسف، وترضخين للرجولة الجريحة، ولو بعض الوقت، حتى تهدأ كرامتي الثائرة.

أنا أكره الاستغفال ولو كان منك.

من أجل هذا، بدوتُ قاسياً بعض الشيء معك، ولكنك تمسكتِ بأنوثتكِ المتمردة، وانتفضتِ عليّ بكاءً، وثرثِ عليّ انكفاءً وانحساراً.

قلتُ لي حينها: ((لست إلا مثلهم))، وتغيّرتِ عليّ كثيراً، لبتِركني تغيركِ هذا رجلاً بلا زمن، معلقاً على طرف كلمة، لا أسمعها، وكلمة أخرى، لم أعهد لها.

كان عقاباً أنثوياً حاداً، ولكنه لم يكن واضحاً، كنتِ تقطرين مرارته عليّ بين شلال حنانكِ، فلا أملك دليلاً عليه، كنتُ أحاول أن أناور أنثى، تدرك جيداً، كم أحبها.

هذا تحدٍ أستسلم أمامه فوراً.

أنا لن أؤذيكِ ولن أتحمل إيداعكِ لي.

إذن، فلنتفق يا حبيبتي أن نترك الجمر تحت الرماد حتى ينطفئ وحده، وحتى ذلك الحين، سنجازف بتعريض قلبينا لخطر الإصابة ببعض الحروق إن نحن مررنا بكلمة، أو حدثٍ يذكرنا بالقصة، حتى يأتي اليوم الذي تبرد فيه حروقنا، وتختنق الجمرة الأخيرة.

أقنعتُ نفسي بذلك مجبراً.

ربما كان رجلٌ عابراً في حياتكِ، مثله، لا يستحق كل هذا الاعتبار.

لا يهمني الآن إلى متى ستبقى صورة سعد عندكِ، بجوار صورة حسن، في درج ما، تعتليه صورة سالم في البرواز الصاخب، لا يهمني هذا الزحام الرجالي حولكِ الآن، بقدر ما يهمني أن أجد لنفسِي مكاناً بينهم.

شيء في ملكوت أنوثتكِ يرفض الانحباس الحياتي مع رجلٍ واحد فقط، ما فهمته حتى الآن هو أن أنوثتكِ تسعُ لأكثر من رجل، وما أريده فقط هو أن أبقى واحداً

منهم.

لأن الاندفاع الأعمى، في وجه ثلاثة رجال، وامرأةٍ ترفض كبريائي، أمرٌ لا يشجع على بقائي، في ظل ظروفٍ متوترة أصلاً، وحبٍ يمشي خطأً منذ البداية، لأنه يجمع بين نصف رجل، وامرأةٍ ونصف.

لأنه حب القلب البكر عندي، والقلب المرتبط بأكثر من رجل عندكِ.

بعد أدنى من الاعتبار، انسحبتُ من هذه الدوامة، وقررتُ أن أكمل أيامي معكِ بعيداً عن كلِّ ما يجعلني رجلاً ما عدا جسدي.

يكفيكِ جسدي الآن، أما رجولةٍ أخرى فلها تحيُّ بالمشاكل.

ورغم هذه الفكرة التي تبعث على تمردِي، إلا أنني كنتُ عوناً لكِ على نفسي، أقنعتها بأن ترضخ، لأنها تحبكِ.

لو جاء الحب كما نريد تماماً لتغيّر شكل الأرض، لا بد من أن نتنازل أحياناً من أجل اكتماله، فما دمتُ لا أستطيع أن أغير شكله، فعليّ أن أعشقكِ ملء البصر، وملء السمع، وملء الفؤاد، واترك تقدير أمور حبكِ كما يرضاها ضميركِ أنتِ، فأنا أعشق ضميركِ أيضاً في جملتكِ.

صديقي اندهشتُ من نفسي كثيراً، كنتُ أستسلم برضا، وأنقاد إليكِ بسكينة المؤمنين، كأن الحب تمثل لي تلك اللحظة كشيء غمزق مبادتنا، وأعضاءنا، وأفكارنا، وكل ما في الدنيا من أجله.

ما زلتُ بعيداً عن تمرُّق كهذا، حسي من رضا نفسي رضاكِ مني، ومن سعادة قلبي سعادتكِ بي.

آمنتُ بهذا الحب الصوفي، وامتألتُ طمأنينةً وقناعة.

أنا أؤمن الآن حتى بعد رحيلك أن حبك مقدّم على مبادئي، وأهلي، والدنيا بأسرها شرط أن تبقي معي.

بعد تراجعك ذاك، شعرت أنك أنت أيضاً أصبحت أكثر اهتماماً بي.

فتور لا بد منه في علاقتنا المحمومة، لأن درجة حرارة حبنا كانت عالية جداً، كان لا بد أن تندفع بعض الجمرات خارج الأتون.

أحببتك أكثر، وشعرت أنك أحببتي أكثر.

أحببت هذا الرجل الذي يحبك حتى على حساب نفسه، وصرت تغدقين عليّ الرعاية والاهتمام، والحنان، والحب، صارت عينك تضماني باحتواء الدنيا، وصار وجهك أقرب، وجسمك أشهى، وعشقك أكثر جنوناً وظمأً.

كانت تنازلاتنا موفقة جداً.

أنا توقفت عن فتح الأبواب، وأنت أحكمت إغلاق النوافذ، حتى لا يتكرر علينا ما يكدرنا، أبقينا المكان خالياً من الغبار والعوالق، لا شيء إلا الحب، حتى ينتهي الزمن.

أخبرت مس تنغل بأمر سعد في ليلة ما، ولكنها لم تكن لتفهم أبعاد ذلك أبداً، معنى حدث كهذا وأثره على قصتنا كانا بعيدين عن إدراكها الغربي للأمور، في حقيقة الأمر، بدت لها القصة سخيفة، لم تفهم مس تنغل كيف تكون مكالمة هاتفية سبب جرح كبير كهذا، لأول مرة تقف مس تنغل إلى صفك.

قالت لي الآن:

لا تبني أفكارك على فوضى مشاعرها آنذاك، حاول أن تقرأ الكتاب كاملاً بنظرة واحدة، ولا تختلس النظر إلى صفحات متفرقة فحسب، هل توجد

امرأة معلقة برجلين، أحدهما بالخطبة، والآخر بالحب، وفي ماضيها رجالاً أحياء، ثم تبدأ علاقة صغيرة مع رجل جديد تماماً.

هل تظنّها فعلاً تحبك يا صغيري.

بدا سؤالها جارحاً، رحت أدافع عن نفسي:

ولكنها جمّدت علاقتها معه من أحلي، وليس من أجل زوجها.

جمّدتها ولم تنهها، وإذا كانت أئمتها الآن فقط، فلماذا كان زوجها يستحق أن

تترك سعداً من أجله، بينما لم يكن بكائك ودموعك يستحقان ذلك؟

كانت معجبة بسعد لا أكثر، سعد نفسه كان مرتبطاً بفتاة أخرى، وكان يكلمها من حبها، وسعيه للزواج بها.

نعم، تماماً مثلما كانت مها تكلمك عن حسن في أول العلاقة، ثم وقعت في حبك أخيراً.

.....

تابعت مس تنغل حديثها وقد أثارها صمتي:

حتى حانها الزائد الذي لاحظته أنت حالما انغلق الباب على قضية سعد، لم تقدمه لك إلا بعد أن استشعرت كيف استطاعت أن تنقض كرامتك نقضاً، لقد احتلتك، ثم دمرتك، ثم تركتك خاوياً مثل مدينة منكوبة.

الطريقة التي كانت مها تحبني بها لا يمكن أن يكون وراءها سعي إلى النيل من كرامتي، لقد كانت تبدو أحياناً مثل عصفور صغير ينم في كفي مطمئناً.

ربما بعد أن رأت كرامتك تسقط تماماً إلى درجة أنك رضيت أن تستمر هي مع سعد رغم كل هذا، وكأنك نصف رجل فعلاً، ربما أحسّت بحجم حبك

لها، فاطمأنت إليك.

لم تكن تحتاج إلى ما يؤكّد لها هذا.

بل كانت تحتاج، ليس للتأكد، بل للاستمتاع، بها أنانية، بل أكثر امرأة سمعت عنها أنانية وتمحوراً حول الذات في حياتي، يؤسفني أن ولدأ طيباً مثلك قد سقط في شركها.

كنتُ أشعر بالضيق من النقاش، قلتُ متبرماً:

لماذا كانت تصرفُ لي كلَّ هذا الحب طيلة سنةٍ إذن؟

يا بني، مادامت تحب حبك لها، فلعلها كانت تمارسُ أيَّ دورٍ يجعلك تزداد حباً لها، لتستمتع بك أكثر.

لستُ أدري كيف أقنعك بما رأيتُ ولم تريه أنت، ولكني لا أشك أن حبها لي كان نابعاً من القلب، هي لا تنوهم، ولا تتظاهر، فجبينها دائماً صحيفة صدق، لا أقرأ فيها إلا الحب العميق.

كنتُ أشعر بالضيق من كلامها، تركتها تغزل صوفها، وأويتُ إلى بيتي.

لستُ أدري إذا ما كان سعد قد تزوّج من فتاته تلك أم لا، ما أفهمه جيداً الآن أنك مهما تجاوزت، وحدت، وانحرفت عن مسار الحب تظلين حبيبي الأولى والأثيرة، وأظن أنا حبيباً أثيراً أياً جاء ترتبي بينهم .

لن أناقش لا مبالاتك ما دامت الأقدار نفسها لم تكن تبالي بنا آنذاك، ولكن عندما تستقيم الأمور، وتزوج أخيراً، ستكونين امرأةً أخرى بالتأكيد.

تقاسمنا السجائر، ومشينا معاً عكس زحام الطرقات، إلى وحدة الفراغ.

جلستُ معه عند مدخل محطة المواصلات التي تربط قطارها العلوية أجزاء المدينة، كان مطعماً صغيراً في باحة خضراء، يندفع أمامها العشرات من البشر الذين يستقلون القطار، أو يتزلون منه، وكان ديار يبحثُ عن رجل بين المارة، ويرجو أن يجده حيث اعتاد الرجل أن ينتقل أثناء عمله، من تلك المحطة إلى هذه.

لم أفارق ديار منذ البارحة، قضى ليلته عندي في هذه الإجازة المملة، تكلمنا طويلاً في الشرفة الصغيرة ونحن نتلقّى أول الصباح، ثم نمنا، لنستيقظ مساءً، وعلى كواهلنا نعبُ النوم المتقطع، وفوق الغرباء المُرَّهق، وصلاة الظهر الضائعة.

جلسنا على هذه الطاولة، أطرق ديار قليلاً ثم رفع رأسه إليّ وهو يقول.

لا أحبُّ أن أتدخل في شؤونك يا أخي، ولكني أحملُ سؤالاً مُرهقاً منذ البارحة.

نعم، ديار لا يتدخل في شؤوني، إنه فقط يفضُّها فضاً مثل باب من الورق.

يدهشني أنك استطعت حمله كلَّ هذه المسافة منذ البارحة.

تجاهل ديار سخريتي تماماً، اقترب أكثر، وتكلم وإصبعاه يفران خيطاً صغيراً يلهو به.

أشعرُ أنني أتناولُ عليك يا صديقي، ساحني إذا آذاك لساني الأحمق، يبدو أنني لفرط انعزالي نسيْتُ كيف اقتربُ من الأصدقاء، تلك الليلة التي اهتمتني فيها بالجلافة جعلتني أفكر فعلاً كم جمّدت الغربة من مشاعري.

دع عنك هذا يا رجل، أيُّ سؤالٍ يرهقك الآن؟

اعتدل في كرسيه مرةً أخرى وبلا داع هذه المرة، ومسح شيئاً وهمياً تحت أنفه، ثم

قال:

في شفتك خمس علب دواء.

والسادسة في الدرج الصغير قرب سريري.

ارتسمت في عينيه نظرة اهتمام فضحت توتره، وقلقه، واندفع في سؤاله:

مم تشكو يا أخي؟

أطرقت قليلاً في حياء.

حتى ديار، الرجل الحجري، بدأ يشفق عليّ، كم أكره هذا الشعور الناقص المهيّن.

إنهما كليتي يا ديار، مريضتان منذ سنتين.

رسم سؤاله التالي في عينيه ولم ينطق به، كان يستريدي كلاماً دون أن يسأل، إنه لا يحبُّ الأسئلة، سواءً وجهها أم كانت موجهةً إليه، لذلك هو لا يعرف عن أمر مرضي بعد أكثر من سنةٍ وتسعة أشهرٍ معه، وأنا لا أعرف عن أمر ماضيه وما فيه كذلك.

ولهذا أيضاً سبق سؤاله هذه الاعتذارية المرتبكة.

عادته هي نفسها مبادئه.

منحته الزيادة التي يريد:

أشكو من قصور في وظائف الكلية، وأتناول أدويةً تنشّط وظائف الكلية حتى

لا تبدأ في الفشل تدريجياً.

كيف حصل لك هذا؟

الصوم يا ديار، الصوم اليائس.

بدأ طامعاً في المزيد، التفت حوله كأنما يبحث عن شيء، بدا متضيقاً، كأنما يمارس

كلاماً لم يتعوّد عليه، ثم عاد إليّ بسؤال:

هل ترغب في الكلام؟

وهل بوسعي ألا أفعل معك؟

نقّدي ثمن بوحى، أشعلنا سيّجارتين، وأسند ذقنه التي نبت شعرها منذ يومين على كفه، وراح يحدّق في عيني مباشرة، وينفث دخانه بيننا دوائر، دوائر..

بدأ الشارع الضيق يتخلّى عن بعض المارة في ليلة السبت هذه، أتى النادل، طلبتُ شيئاً، وطلّب ديار بيرةً رخيصة، بدا لي أننا نستمتع بلذة البوح اليائس أحياناً، المشي على شوك الماضي بأقدام مخدّرة، تتأملُ الدماء، ولا نشعرُ بالألم، في غيبوبة الكلمات. قلتُ:

- أذكرُني تقيأتُ ذلك الصباح أشياء لا أتذكرُني أكلتها، ولم أكل بعد هذا القيء شيئاً مدة يومين متصلين.

- أي صباح؟

- صباحها الأول في فراش سالم.

تخيّلْتُ أن ديار يتأملني ساخراً، كنتُ أتكلّم وأنا مُطرقُ الرأس، لم أحرّو، وأنا أتكلّم عن أضعف أيامي، أن أرفع عيني إليه، لم أكن أسمع إلا جَرَعَاتِ البيرة، وزناد قدّاحته وهو يشعلُ سجائره.

- يوم الخميس، أي بعد يوم واحد من زفافها، التقيتُ والدها صدفةً في مناسبة ما، أحسستُ أنّ نبضات قلبي تخرجُ بصعوبةٍ عندما وقعت عيناها عليه، جلستُ بعيداً عنه وعلى وجهي شحوب يومين من الجوع، ورحتُ أتأملُه طويلاً بذهنٍ شارد، ونفسي تكاد تنسلُّ من جسدي هماً وكمداً.

كان يحدثُ جليسه باهتمام، وأنا أُعلّقُ ناظريّ بوجهه، وكأنما خلا الكون إلا منا، أتأمل في هذا الكهل الذي أخرجَ إلى الحياة من تكاد أن

تخرجني منها، وأُسْرِبُ نظراتي في ملامحه، جعدات وجهه، صرامة عينيه، شعرات لحيته، وهو منشغل في حديث طويل، لا يشمُّ من حوله رائحة رجلٍ يحترق.

وفجأة، لم أشعر إلا بسيلٍ من الدموع يطفرُّ من جفني فجأة، ويُغرقُ خديَّ أمام العشرات، تظاهرتُ بالعطاس، ودفنتُ وجهي في منديل، وهربتُ بعيداً، تركتُ المكان، همتُ قليلاً على بكائي حتى التقيتُ بصديق، وبعد ساعة، كان هذا الصديق يحملني إلى المستشفى بعد أن سقطتُ بين يديه، مغشياً عليّ، لأول مرة في حياتي.

هذه المرة، رفعتُ عينين دائختين في محجريهما إلى ديار، كان يستندُ بذقنه على كفيه، وينظر إليّ بتركيزٍ شديد، وفي عينيه تعاطفُ القاسي الذي أعرفه، كان يبدو وسيماً بالخصلات المتساقطة على جبينه، وشعر وجهه النامي ببطء، بدا لي لحظتها أشبه ما يكون بغيفارا، المناضل البوليفي الشهير.

كنتُ أحتاج إلى رجلٍ أبوح له بهذه الصراحة بقدر ما أرهقني حنان مس تغل وهشاشتها الأنثوية التي أخشى عليها من بوحى، هذا الديار، بنظراته المتسرّبة، وأسلوبه الجامح، وحتى ألفاظه النابية أحياناً، كان يستثيرُ في داخلي شهوة التفسير، والانبعاث، والتناول على الجراح القديمة، لا يوجدُ شيء لا نستطيع أن نخوض فيه بأقدامنا، فعندما تطولُ الغربة، يصبحُ الماضي مجرد وحل.

صمته العميق، وتركيزه في كل كلمة تسقطُ من فمي، ودوائر الدخان التي ينفثها، تستفزني للكلام، وفوضاه تروق لي هذه المرة، هو الذي يمتص الحياة امتصاصاً من أيّ كأسٍ شارد، ثم يصفقها بعنفٍ في الوجوه، والأشياء، والأماكن، رجلٌ يخلو تناقضاته بنفسه، دون أن يتدخل في ذلك أحد.

أحياناً أشعر أنه يخترع تصرفاته ليثير إعجابي ودهشتي فحسب، أيّ كان، هو إما أنه يتقن دوره معي، أو يتقن دوره مع الحياة، في الحالتين يستحقُ التصفيق، هو من نوع البشر الذي نستعدُّ أحياناً أن نلقي بأنفسنا معهم في أيّ متاهة دون تردد.

يبدو لي قوياً، أعجبني أن أستندَ عليه بكل هذا الميل، رفعتُ إليه ناظرين خائبين، والتقت نظراتنا طويلاً ونحن صامتان، شعرتُ بامتنان عميق، وارتياح لا أدرك مغزاه إلى جلوسى هذه الليلة معه، كنتُ أشعر أني أجلس مع أخٍ أنجبتَه لي أم الغربة، ابتسم لسكوتي ابتسامة قصيرة، كان الشارع هادئاً، وجدتُ نفسي دون أن أدري لماذا، أقوم من مقعدي، وأقبلُ جبينه، ثم أجلسُ أخرى.

ابتسم برفق، ابتسامة ذات جانب واحد، من تلك الابتسامات التي نخطُ شفاهنا بها إما إلى اليمين، أو إلى اليسار، كأننا نقاوم ضَعْفَ أفواهنا أمام الابتسام، وضربَ على كتفي برفق.

- حماقاتك تغريني، أكمل.
- ربما كانت حماقة يا ديار، ولكنك استعجلت الحكم، وأهدرت كلمة ثمينة، وإلا فماذا ستسمي ما فعلته أنا بعد ذلك؟
- سأجد له اسماً، قل فحسب.
- ابتسمتُ مثل الموتى، وأكملت.

- هذه المرة في المستشفى، ضاقت عليّ جدران الدنيا، كرهتُ الحياة بكل ما فيها، قضيتُ المساء أجادل الممرضة في كل ما تفعله، كان مزاجي في أسوأ حالاته منذ خُلقت، كنتُ أصرخُ بصوت عال، ثم أضحك ساخراً منها بهستيرية عصبية.

جاء الليل، وتركني صديقي، وتركني الممرضة المستاءة، بعد أن ربطت في

وريدي أنبوب التغذية الذي يسكُب في دمي قطراتٍ من ذلك الكيس المعلق حولي، رنّ هاتفي، تخيلتُ من شدّة الوهن أُلها ربما تكون مها، زحفتُ متأرجحاً بقدمٍ واحدةٍ على الأرض، وأخرى على الفراش، حتى تناولته من جيب ثوبي، وكانت أُمي.

استويتُ مرةً أخرى على سريري يائساً، كان في حلقي غصّةٌ عظيمة، عظيمةٌ جدّ عظيمة، وإضاءةُ الغرفة الخافتة، والوحدة البكماء، والأصوات التي احتفت تدريجياً بعد أن انتصفَ الليل، لم يبق إلا أصوات خافتة لعمال النظافة وهم يجرون عرباتهم في ممرات المستشفى الخاوية، رائحة المستشفيات، وبرودة حجراتها، أورثني شعورَ الطفل الذي يُفقد ليلاً من النوم، فيجد نفسه في مكانٍ غريب، ووجوه غريبة، انقبضَ صدري بقوة، تضاعفت دقات قلبي، وبقيتُ أفكر في مها، أين هي مني؟، أين حبيبي التي أرجيها لهذه اللحظات؟، كيف تتخلّى عني وأنا منطرح في آخر سرير، في آخر مستشفى، وحيداً، ذليلاً، حقيراً، تافهاً، بينما تقضي هي شهر عسل في بلدٍ ما، لا أدري أين؟

شعرتُ بالضالة، أنا الزيادة البشرية الفائضة، تراكمت عليّ الظلمات، وغشيني موجٌ من فوقه موجٌ من السواد، والوحشة، والقلق، والكآبة، مددتُ يديّ إلى الأنبوب المغروس في ظهر يدي، ونزعته، وسقطت قطراتٌ من الدماء لوّثت بياض السرير، وانكفأت على وجهي أبكي بحرقة هائلة، كما لم يبك شقيّ قبلي ولا مفجوع.

قاطعي ديار، لوّح بيده بعفوية وهو يقول:

- هذه ليست حماقة، إنه انهيارك الحتمي الذي انتظرتَه طيلة سنة وأكثر، أسميه

يا صديقي، ليلة خارج الحياة، تشبه يومنا الأول في القبر، عندما يرحلون، ونبقى وحدنا بين أضلاعٍ لحد، وترابٍ مقيدٍ في كفن.

- كانت ليلة قبورٍ بالفعل كيف فكّرت في ذلك؟
- لأنك أردت أن تموت، ألم تكن تحاول الانتحار عندما نزعنا الأنبوب.
- لا، يبدو أنك ذهبت بعيداً، لم أكن أفكر في الانتحار، كان إحباطاً عنيفاً لم ينقذني منه أحد، كل ما هو حولي تأمر عليّ، ربما لو أن الإضاءة فقط كانت أقل خفوتاً مما كانت عليه، ربما لو كلمتني مها، ربما لو ظلّ صديقي معي، لما فعلتُ ذلك.
- أحياناً نشتهي الموت، نظنه أرحم بنا من هذه الحياة.
- كنتُ محبطاً فحسب، أدنى درجة إحباطٍ تعرّضتُ لها في حياتي، ولم أكن أحتمل أن يتصلّ بجسدي أي شيء، حتى ذلك الأنبوب الغبي.
- كنت تستعذب الموت وحيداً.
- ربما يا ديار، لستُ أفهم من تلك الليلة ساعةً واحدة.
- أنا أفهم، أكمل.

اشتبهتُ نزعته الذي يستثيره كلامي، أو أنّ ظلمةً مثل ظلمتي تكتنف حياته أيضاً، لم يصغ لي ديار من قبل كما يفعل الآن.

- اشتبهتُ أُلماً كهذا الذي تبعته الأطلال، بدلاً من الألم الذي يبعثه اليأس، خرجتُ من المستشفى دون أن يشعر بي أحد، ترنحتُ في الممرات حتى خرجتُ إلى الشارع، لأستقلّ سيارة أجرة، وأعود إلى البيت، ولم أدخل، ركبْتُ سيارتي التي كانت مركونةً أمامه، وذهبتُ إلى مها.

الباب الذي كان يُفتح لي عند السحر، والفتاة التي كانت تقبّلني خلفه

عندما أحمل إليها بعض الأكل الذي تشتهيهِ ليلاً، والنافذة الصامتة مثل شواهد القبور، والعصافير الميتة خلفها، والحياة التي رَحَلَتْ عن هذا المكان، الهدوء القاتل الذي يغشى حارات الرياض في مثل هذا الوقت من السحر، وأنا وحدي، أتأمل البيت بدموعٍ ساخنة.

راح ديار يفتُح بيرته الثانية، عيناه تُعْرِيدان في ذاكرتي المريضة، وأنا أشعرُ دائماً أن عينيه تبدوان أكثر عمقاً كلما تزايدت الكؤوس الخالية أمامه.

متعاونٌ جداً ديار مع بوحى المجنون هذه المرة، يبدو أن الأحزان التي تأخذ طابع الموت تستثيره أحياناً، بعكس الأحزان التي تأخذ شكلاً البكاء فحسب.

قال ديار:

- قل كيف مرضت كليتنا؟

- قال الطبيب تماماً: كليتنا لم تعملًا منذ أكثر من أسبوع؟، أتعلم ماذا يعني هذا؟، يعني أنك كنت معرضاً لفشل الكليتين بعد أن اضطربت وظائفهما لسوء الغذاء، توقّعنا ذلك، وبالفعل، حدث ما توقّعناه، أنت تحتاج إلى نظامٍ دوائيٍ صارم يعيد تنشيط الأجزاء التي تحجّرت من الكليتين، ولكنك خرجت كالأطفال، وضربت بصحتك عرض الحائط.

تشابهت عينا الطبيب التي تطل من ذاكرتي مع عيني ديار، ولو كان ديار يبدو شديد الرضا عما فعلته، كأنه فخورٌ بازدرائي للحياة، ولكنني لم أكن أنتظر وقعاً لحرف، كان بوحى يتزف بشدة، ويندفع على الطاولة بشبقٍ دمويٍّ مثير.

أكملت حديثي:

- خرجتُ من المستشفى بعد ساعات طويلة وفي يدي كيس أدويةٍ كبير، حملتهُ كما هو، وآويتهُ قعر أول حاوية قمامةٍ واجهتني.

ضحك ديار بصوتٍ عالٍ من عبارتي الأخيرة، وصفق بكفه وهو يقول:

- برافو، ولكن كان هناك طريقٌ أسهل للموت يا غشيم.

ضحكتُ معه ببؤسٍ وأطياف تلك الأيام السوداء تدور في محجري كالأشباح، وتابعتُ حكايتي التي اقتربت من نهايتها، ولكنه لمح الرجل الذي ينتظره، وقام إليه بسرعة.

عاد على كرسيه مرةً أخرى، أعاد ترتيب الطاولة بحركاتٍ سريعة، طوى الصحف، أفرغ المنفضة في أخرى على طاولةٍ مجاورة، ونادى النادلة كي تحمل الزجاجات والأكواب الفارغة، وطلبَ بيرةً أخرى، أما أنا فطلبتُ كوب ماء.

عادت الطاولة في عهدها الجديد، اتكأ على كرسيه، ومطى جسده بشدة، وقال بلهجته العراقية وهو يتشاءب:

- اللي يبيعك بيعه يا عمي.

-

يعود ديار من تتأؤبه، ويقتربُ من وجهي كثيراً، ويقول في صوتٍ يُشبه الهمس:

- يا عيني، يابه، خليك عاقل، وانتبه لنفسك، وسبيك من هالمره، صدقني ما تنطيك أكثر من اللي انطنتك إياه، لُعنة الله على هالحريم.

- هي لم تفعل ذلك عن طيب خاطر، كانت تقيد نفسها بنفسها، دون أن تدري.

- عيني هيه مو سعيدة وياك، هاي شبيك انتّه ما تفتهم؟، ما تقدر تخلي عينيها هالحرباية، لو تبيك، ما تركتك، المره تلحق الواحد، ما تتركه وتولي، والله والله لو تبيك صدق ما تعوفك هيح تفلت من يدينها.

ديار ينحرفُ خارج المسار، زجاجاتُ البيرة أخبرتني، وتناؤبه العميق كذلك، والليل الذي حاصر مقهانا، وطاولتنا، وأنا ذاكرتي يقطةً جداً، ستركني ديار الآن ويرحل، ولا بد أن مس تنغل نامت الآن، تبدو لي ليلة أسي وطول سهاد، وحيداً في الشقة الكئيبة.

هل سأتصل على أمي، وإخوتي، أم أمكثُ في المقهى وحيداً مع جريدة، حتى يغالبني النوم؟، أو لعلي أقضي الليل معك، وصورتك جوار سرير، وعطرك أمام مرآتي، وأنت أبعد ما تكونين عن دمعي هذه الليلة.

قم بنا يا ديار، بعض البوح يُشرع أبواب الذاكرة، ويترك الريح تعصفُ بنا، ولا بد أن ندفع الثمن.

أفترق عن ديار في محطتين، يرحل هو جنوباً حيث يقيمُ في نيو ويسمنستر على ضفاف نهر فريسر، واتجه أنا غرباً حيث أقيمُ في جرانفيل، عند ضفة بيرارد، كلانا يقيم قرب الماء، نبدو عرباً ظامئين في الغربة، وتبدو لنا المساحات المفتوحة امتداداً أوسع للرؤية، عندما ترحل نظراتنا كل صباح مع الطيور إلى من نحب، وما نحب.

قرأت مرةً لاكن تشارلمز: ((أركان السعادة، شيء تقوم به، وشيء تحبه، وشيء تأمله))، وأنا أحبك، وأسعى إليك، وأملك، ولكني أقضم خبز تعاسي منذ سنوات، فلماذا يكتبون دائماً ما ليس بحق؟

كم هو مؤلم أن يلومني بعض جسدي.

ما زلتُ أشعر أني لا أملك منه عضواً، منذ أن قلتُ لي أول مرة: ((أنت لي))، أنا لم أزل محتفظاً بعهد الملكية هذا لك، أتذكرُ يوم أخذت حتمك الأنيق، وطبعت اسمك على جسدي في جذل، منذ ذلك اليوم وأنا لك رسمياً.

عدتُ إلى شقتي والليل ينتظري، تأملتُ من النافذة باب مس تنغل الصامت، ونافذة حجرها المظلمة، تمنيتُ لها في نفسي ليلة سعيدة، هذه الأم الطيبة، ثم أغلقتُ النافذة والتلفاز، وغيّرتُ ملابس بكسل، وجلستُ خلف طاولتي الصغيرة، فتحتُ درجين أفتشُ عن كيس الدواء، وتناولتُ منه علبة جبوي، والتقطتُ حبتين ضخمتين دسستُهُما في فمي، وشربتُ كوباً من الماء، وشربتُ آخر، ثم شربتُ ثالثاً قبل أن أنام، وقبلها الأكواب الكثيرة في المقهى مع ديار، ولم يكن بي ظمأ، ولكني مجبرٌ على الكثير من الماء في اليوم والليلة، مع تلك الحبتين، حتى لا تستمر كليتي في الفشل.

تذكرتُ في شبح المرض الذي يخيمُ عليّ كلما ابتلعتُ أدويتي تلك الليلة التي كنتُ أقضيها عندك، فهبتُ الحمى في جسدك الناعم، سهرتُ معك طوال الليل وأنت تنفضين بألم، وعيناك تزان بالدمع في إعياء شديد، وأنا حائرٌ مشدود، أتألم معك آهةً بأهة، ولا أدري ما أفعل غير غسل جبينك بالماء البارد.

شعرتُ حقاً أن حي لك يفوقُ حيي لنفسي، كنتُ أدعُ المنشقة المبتلة على جبينك، وأتمنى من الله أن ينقل حُمّك إلى جسدي ولا يتوجع منك عرق واحد، وأعود لأبدل المنشقة فوق جبينك مرةً ثانية.

هكذا قضيتُ تلك الليلة بينك وبين الله، وفي آخرها، قررتُ تحت ضغطٍ مني أن تذهبي إلى المستشفى، نزلتُ من الغرفة وتركتني فيها وحيداً، ورافقتك مرام، تأملتُ خطواتكما في فناء المتزل بقلق، كانت مرام ترتدي حمارها بهدوء، وأنت تترنحين في مشي عيٍّ حتى واراكما الباب، وعدتُ بعد ساعات وقد أكلَ القلق عيناك ووجهي، ونزفتُ أطراف أصابعي لفرط ما قرضتُ منها، وكتب بحال طيبة، فودعتك وقد اقترب وقتُ الفجر، وتسلفتُ خارجاً حالماً أيقنتُ أن مراماً هجعت إلى سريرها.

ولكنك لا تذهبين أبداً، أبداً.

لأنك سقفي الكفاية.

هل يمكن أن يتجاهل شخص وجود سقفي فوق رأسه؟، هل يمكن أن ينسى عامل لماذا هو ساعٍ إلى مصنعه؟، هل يمكن أن ينسى مقاتل لماذا هو في ساحة المعركة؟

هل يمكن أن أنسى لماذا أنا موجود في الحياة؟

أنا أدبٌ على سطح الأرض لأن عندي جملة أحلام، أنت سقفيها، ومتى تحققت أنت لي، أنام مطمئناً دون أن أخشى تقلبات الطقس، بعد أن نمت سنوات في العراء.

كم هي مملّة كتابة الروايات.

كنت أعلم أنه سيأتي صباح لا تمنحني فيه ذاكرتي إلا دوائر صمّاء غبية، هأنذا أكتب تمويجات لا معنى لها، بكائيات في اللوعة انقضت منذ قرنين، مازلت أصبها في أوراق دفتر مهذب، لا يستطيع أن يتوقّف عن مجاملي بالقراءة.

أصبح جريان القلم رياضة صباحية لذاكرتي وأصابع يدي.

منذ أن قرّرت البدء في كتابتها وأنا أشعر بالإرهاق، لم تبرّد جراحي بعد حتى أمشي عليها، ما زالت تنفث الدم، وتثور، وتزف، لا يتخثر الحب يا حبيبي، فلا تتوقعي نهاية له، هكذا كما تموت القصص السخيفة، لن أسمح له بذلك.

كتابتي حريق داخلي مكتوم، يخرج الدخان من أنفي، وأذني، وأصابعي، وعندما تشرب أوراقتي كوب القهوة عني، وتشاءب في كسل، فهذا يعني أنه لم يعد أمامي طريق في مضمار الذاكرة، وليس عليّ إلا أن أغلق دفترتي، وأربت على يأس، ولا أتذكر طعم القهوة.

اليوم، كما أتوقع وتتوقعين، لا أتذكر ملامحك، دعي عنك ألبومات الصور، وأفلام الفيديو، كانت محاولة يائسة لتبديد ظلام العدم الكثيف التي تُحيط بي بعد رحيلك، سألتك إياها وأنت تقولين أنها لن تكون ذات فائدة، وأنا أقول لك اتركيها لي يا حبيبي، بعض الآلام أهون من متاهة عدم لا أعرف فيها ما حولي، اتركي لي حائطاً أتخسسه، وأمشي بمحاذاته حتى ألتقيك مرة أخرى، لا تخفني من حياتي فجأة، اذهبي رويداً، كما جئت رويداً.

الفصل السابع

جاءني صوته من رأسه المحشور في الثلاجة:

- لم أنتبه.

أحكُّ رأسي بكسل، وأتمطئ على أريكي، وأنتظرُ ما سيعده ديار، يرُنُّ الهاتف، وكانت أُمِّي، توقعتُ أنها ستأتيني بخبر ولادة أروى، ولكنها جاءتني، بخبر آخر.

جدتي التي مرضت.

قبل أن تتسع ابتسامتي يوماً آخر بولادة أروى، أُلقيتُ الزمن هماً حجرياً بين فكيَّ.

قالت أن ورماً ما ينتشرُ في أمعائها، صارت تنام في المستشفى بين جلسة وأخرى من العلاج، علمتُ من ندى التي أخذت السماعة بعد أن أجهشت أُمِّي بكاءً أن حركتها أصبحت ثقيلة، وتمشي بصعوبة.

ندى دائماً مع أُمِّي في أزمتِ الحزن، هي التي تكاد تكون نسخةً منها، لا أميز بينهما فرقاً صغيراً، هي وسارة تزوجتا في ليلةٍ واحدة، واختفتا من البيت بينما لم أزل طفلاً، لم أنل منهما ما يكفي من الالتصاق حتى تغزوني عدوى الأخوة.

كم أنا مريضٌ بأروى ويوسف.

أواه يا جدتي، هذه المسكينة، ماذا تفعلُ الثمانون بها؟، أهلكَت كلَّ ماضيها وأبقتها هي، شاحبةً في وجه الزمن، تنتظر طعنته الأخيرة.

أتذكرُ أيَّ وأروى كنا نعتقد في طفولتنا أن جدتي هي أكبر مخلوق في الدنيا، حتى أن أروى سألتها ذات يوم ببراءة طفلةٍ لا تفهم الزمن: ((هل رأيت الرسول يا جدتي؟))

كنا نجلسُ معها في سطح المنزل ليالي الصيف، أو عشيات سبتمبر التي تسرب من خلالها مقدمات الشتاء، تتسع أحداقنا الصغيرة أمام حكاياتها التي لا تنتهي، لكل ليلةٍ حكايةٌ عن زمنها القديم تختلف بين التخويف والترغيب، بحسب رضاها عنا، فكَرَّتْ

أيقظني ديار هذا الصباح.

يدورُ برأسي صُداًع النوم جَزَعاً، ونهارٌ جديد في فانكوفر الخصبة.

قام ليصنع إفطاراً وشاياً في مطبخي، وسحبتُ قدميَّ إلى الحمام حاملاً منشفتي، وأخذتُ حماماً ساخناً.

ليس عندي حرية اختيار نوع حمامي في فانكوفر، هو إما أن يكون ساخناً أو لا يكون.

جلستُ بثاقل، كأن الدنيا كلها نامت فوقِي البارحة.

أمس اتصلت عليَّ أروى، أو أم هُي، هناهما بالطفلة وأنا أشعر أنه أول خيرٍ له طعم السرور يتزلُّ عليَّ منذ نزلتُ أنا في فانكوفر.

بعثت لي صورتها الصغيرة وهي نائمة في مهدها الأبيض.

كانت بالفعل أجمل لوحةٍ رسمتها أروى في الحياة، لا أميز تشابهات الأطفال ولكن عيني أروى تخالبت لي في عيني الطفلة.

ناديتُ ديار:

- هل رأيتَ مس تنغل أثناء قدومك؟

في الثامنة عشر أن جدتي ترتجُلها ارتجالاً، وكان ذلك حقيقة لأن جدتي لم يسبق لها أن كررت علينا قصة سبق أن حكنتها من قبل، بل لا تستطيع أن تعيد لنا قصة نلح أنا وأروى على إعادتها، إلا قصة الرجل الذي خطفها من مزرعتها وهي صبية، ثم قَبَلها، وتركها ترحل.

تضحك بسنَّينِ باقيين في لثتها وهي تترنَّم بأبياته:

جزاه راعي الجديلة

جزاه ما يخاف ربَّه

سريت به في سبيله

ماريد به غير .. حَبَّة

لم أكن أعرف أن جدتي (راعية الجديلة) كانت (ما تخاف ربها)، وأنها دلَّهت عاشقها هذا حتى ارتكب حماقته، ربما لم تكن حماقة عندها رغم أنها تدعوها كذلك، وإلا لماذا لم تخبرهم عنه وهي التي رأت ملاحمه، وعرفت من هو؟

السؤال الأكبر: من أين سمعت هذه الأبيات إذا لم تكن التقته مرةً أخرى؟، حاصرهما بأسئلتي هذه ليلةً رمضانيةً مقمرة، تجاهلتي تماماً وهي تقوم من مجلسها قائلة: ((خلي أروح أصلي بس)).

عجيبُ شأن جدتي، ما زالت تخاف الرقيب وهي في هذا العمر.

آثار القيود على المعاصم توهنا أحياناً أنها ما زالت قيوداً.

تمشط جدتي شعر أروى، وأنا أمشط شعرها هي، تدخل أُمِّي في هذا المنظر المضحك لترتبك بين نهري أو نهر أروى، ولكن أنا وأروى فقط كنا نكفي جدتنا رتابة العيش في الشيخوخة، لم تكن تعطيني جدتي غير جديلة واحدة، فهي لا تكشف رأسها إلا خالية، البقاء دون غطاء رأسٍ أمرٌ لا تقبله سنوات عمرها الطويلة.

مضى أقرانها ولداتها، وبقرات الوادي الحنون الذي رعى طفولتها وأناشيدتها التي حفظتها لأحفادها، وبيتهم القدم، وأُمها التي ما أدركت من الحضارة أكثر من سلةٍ خوصٍ وحَجَرٍ رحي، وأخبارِ العثمانيين التي كانوا يلتقطونها من أفواه الحجيج.

أحشى عليها وعلى أُمِّي، أنا أدركُ كم تعلقنا ببعضهما، كأن كلاً منهما رُزِقت بالأخرى لتكملَ حياتهما معهما، جدتي التي احتفلت بأُمِّي ورُزِنت بجدتي في سنةٍ واحدة، وأُمِّي التي لم تعرف لها أباً ولا أُمّاً، إلا خالاً واحداً تربت بين يديه، حتى تزوّجت أبي وانتقلت إلى بيته، وبعدها بسنواتٍ قليلة، مات الخال، لتأوي جدتي إلى بيت أبي، قبل أعوامٍ قليلة من ولادتي.

سعى إليها أبي ليقسم عليها ألا تقضي حدادها إلا في بيته، كان يجُلُّها كثيراً هو الذي ماتت أُمّه قبل أن تفضمه، لتتعاقب على فمه أُنْداءُ الحَي، حتى كبر.

ربما من هذا الخليط الحليبي الذي نما جسده عليه تعلَّم أبي العطاء، أبي الذي يخرجُ في آخر الليل إلى آخر وادٍ في الرياض، ليكسو شيخاً هرمًا تذكُّر أنه قد لا يملك ما يدفعه في ليلة قرّ، وأنا أرمقه من السيارة بعيني طفلٍ خائف، لا يدري لماذا يكلم أبي هذا الرجل المخيف.

كم كنا أسرةً راضية، لم يبق منها الآن إلا أرملَةٌ وحيدةٌ ترعى عجوزاً مريضة، ورجلٌ محطَّمٌ يرعى حشيش أحزانه في فانكوفر.

واسى ديار وجومي، واطمأنَّ على أهلي، وملاً كوبَ الشاي، وبدأ يأكل.

هاهي جدتي مريضةٌ على فراش الدهر، بالكاد تُقيَمُ عظامها الهزيلة حتى ينخرُ فيها سرطانٌ لا يرحم، أتجلبها في المستشفى الآن، وأنا أسمعُ عن بعض جلسات العلاج الإشعاعي التي تُسقطُ الشعر، وتزل مني دمعة.

مَن للخصلات التي قَبَلَتْها آلاف المرات في مفرِّقها، تلك التي اختلط بياضُها بجنائِها، وكانت رائحتها طيبة، طاهرة.

جدتي التي هُتِمَ بنفسها كصبية، ما أجملها، وما أبرأها.

أتذكُّرُ في محجر الألم كلَّ شيء كان يقع حول طبيعتها وبياضها.

أتذكُّرُ عندما كانت تجوز حِجراتِ البنات بحثاً عن قلم كحلٍ، أو قارورة عطر، لتستقبل جارةً أو قريبةً جاءت تطمئن عليها، كانت تهمسُ لهنَّ: ((عطوني كحلة تبويني أطلع لها بدون كحل))، لم يكن الكحل يبدو واضحاً في تجاعيد جفنيها، ولكنها أُنثى، من قال أن الأنوثة تهرم؟

قهوتها العربية صباحاً، وصحنُ التمر، وقطعةُ الخبز المخبوزة في تنور البيت، ووجهها الذي أفاق فجرًا، وتوضُّاً وسجداً، صوتُ المذياع الذي يحيطها بالقرآن وحيدةً قبل أن تفيق أُمِّي في الساعة تقريباً، لتجلس معها، تتحدثان أحاديث الصباح التي تشرح الصدور، وتنير ظلام الحياة.

أخرجُ من غرفتي إلى الجامعة لأجدهما متجاورتين على بساط واحد، مضبَّتين كالحقيقة، طاهرتين كالغمام، أسلَّم عليهما في سعادة، وأقبلُ بكلِّ رضا هذا الصباح رأسيَّ المرأتين اللتين تجلسان معاً، وتتناولان إفطارهما بكلِّ بياضٍ ودعة، مثل أمهات المؤمنين.

تدركني الدعواتُ المتتالية، ويلحقُ بي إطرأُ جدتي الذي يمنحني غروراً أبداً به يومي، وعلامات الرضا في وجه أُمِّي، وأنا، لولا الحزن الذي تركته في صدري، لكنتُ أسعدَ رجلٍ يفيقُ على مرأى الملاكين الأبيضين، أتأملُ فيهما الجمال المورث، والجمال المورث، كلتاهما فلقتي قمر، لهما بياضُ الصبح الأول، كلما كبرا سحبتة الحياة من جسديهما، وركمته في قلوبهما.

أرملتان في وجه الحياة، لو لم تنجب أُمِّي أولادها الأربعة، وبناتها الثلاث، لأكلتهما الوحدة حقاً.

لا أتحمّل هذا، ولا يتحمّل ديار صمّي على مائدة إفطاره الصغيرة التي أعدّها، إنه يكره سهومي أمامه، إذا لم أشاركه حديثاً الآن، ربما أشعل النار في الشقة، وتركني ورحل.

قال، وكأن عيني كانتا تشيان بما أفكر:

- تبدو حنوناً في نومك وقت دخلت عليك، كنتَ تحتضن الوسادة يمينك، وتلفُ لحافك على جسدك بشدة.

تذكَّرت فجأةً اسماً آخر لهذه الحالة، صفةً أطلققتها عليَّ أنتِ دودة.

نفضتُ المشهد بسرعة، كدتُ أن أقع في سهومي مرةً أخرى، لن يغفر لي ديار هذه المرة، أجبته بسرعة:

- ربما ألفتُ النوم مع الخوف.

- أو ربما تستعد للموت، كان اللحاف يبدو مثل كفن.

تركته يبتسم بسخرية، وفتحتُ علبة الدواء لأتناول حبة الصباح، هذه الرمادية التي أبلعها وهي تحمل في جوفها مصير كليتي المريضتين، لم تكن حبة دواء، كانت حبة وقاية، فطبيبي قال أن ما خاب من الكلية لن يعود للعمل، لذا أنا أبلع كل يوم هذه الحبوب، وأشرب كميات من الماء، حتى لا تفسد التفاحة الفاسدة بقية التفاح.

- ما تاكل شيء على هالحبوب لعنتالله عليك.

حاملته بلقمة صغيرة.

أعلم أن لعنات ديار عراقية، أي أنها كلمة دارجة ليس إلا، يقولها لكل ما يستحسنه أو يستهجنه، على حد سواء، لذلك لم أحفل بها، بقيت أرشفتُ الشاي الخالي من السكر بصمت.

أشهرُ وندرك رمضان، ديار يستعد له، وهو المولع جداً بالطهو، نصف شقته مطبخ، وأنا لم أذق في نهارات الغربة ولا مساءً أطيب من طعامه، ولا أشهد سعادة ديار إلا إذا استضاف أحدهم، وطها له.

كتلة تناقضاتٍ بشرية، فهمتها واحداً واحداً، فبدت لي مألوفةً في آخر المطاف.

أخرج معه خارج المدينة، يشتري خروفاً ويوصي بذبحة الإسلام، ثم يعرجُ على المتجر الوحيد الذي يلبى حاجات العرب، حتى في تبغ الأراجيل، يشتري بهاراً وأشياء أخرى، وصحفاً مصرية، ولبنانية، مرّاً على صدورها يومان، ويحمل الأكياس، وخلفه أنا، إلى سيارتي.

أدين لديار بأيام طويلة، كان الحزن أولى بي منه فيها، ولكنه انتشلي منه بعنقه، هو الرجل الذي يملأ المكان صخباً إذا أراد، ويقتله صمتاً إذا اشتهى، وأنا سعة النخيل التي طوّحت بها الريح بعيداً عن أرضها، وهو القادم من الأرض التي تلد النخيل.

ديار يبدأ الحديث كما يشاء، ولكن معجزته أنه ينهيه أيضاً كما يشاء، إنه ينتزع اعترافاتي مني، يتكلم على لساني، يُخرج من عمق حزني كل ما يُرضي غروره تلك الليلة، ويرحل.

لأنه رجل الرحيل العميق، الذي يترك مَنْ هم خلفه يدومون في دوائر الصمت، وكأن حبال صوته تغرّر نبرةً مختلفة، يبقى صداها طويلاً في المكان، بما يكفي لإقناعنا بما كان يقول حتى بعد رحيله ثم تختفي.

ما كان ديار مغروراً، ولكني أرى لأول مرة في حياتي رجلاً طبيته الشديدة هي منشأ عنقه، ولكن ليتهم يستمعون إليه وهو يغني.

اكتشفتُ هذا ذات ليلة، لم يدر في تصوري أن في شقة ديار عوداً عراقياً أصيلاً، يعتني به عناية الحار بالؤلؤة، فإذا حرّك عليه أصابعه، خرجت نغمة كأنها خلجة قلب، أو شهقة عذراء، وإذا أخذه الليل وأطرق عازفاً، وعينه التي يميل جفنها قليلاً معلقةً على الفراغ، خرج صوته، وغنى، وأنا أتمنى ألا يتوقف، ولو انتهت دموعي.

سحبة الموال عنده شديدة الخشوع، عراقيةً تلك المواويل التي رقرقتها القرون منذ بابل، ووسّعت فيها لتكفي أحزانهم، وتحمل دماءهم.

جلستُ معه وهو يغني ذات ليل موالاً لا أنساه، ولا تفقد ذاكرتي منه حرفاً واحداً، ولا صدىً شارداً، ولا نقرة وتر، ولا نبرة آه، ولا رجع صدى.

ذكرني ديار بلحنٍ قديم.

آخر لحنٍ سمعته معك، في سيارتي، قبل فراقنا بدقائق، ذلك اليوم الحزين عندما كانت عينك ذابلتين، وكان صوتي يتهدّج بكاءً وأنا أفودك إلى منزلك.

غنّ لي ديار، دون أن يدري، وهو يستل ريشة العود من بين الأوتار، أنه استلّ سكيناً ماضية، وراح يعبثُ بها في لحم قلبي.

لم يعلم ديار أيّ موالٍ غنّاه.

((أصدّ عتّك..

أحبّتك..

تشدّب من قال أملّ منك..

ولو حطّوا بدري النار..

بدمع عيني.. لطيفيها..
وأدق بابك.. واشوفتك..
وأفلش حاجر الميني..
وأحيله.. عنك وعني
وأحاشيك.. وتحتشيني..
واسمعتك..
.....

اشتريد تصير؟
وك طير تطير؟
أنا أطير وياك..
وهم تتعب وألزمك..
اشتريد تصير؟
نجم بسماي؟
يا عيني هم تلمع.. واشوفتك.
اشتريد تصير؟
سمك بالمائي؟
هم أغطس.. وأصيدك..
تريد تموت؟
أنا أموت وياك..
وقبل ما أموت..
أصبحن.. حيل..
أحبك))

ما أوقف ديار عن غنائه إلا شهقاني، تمددتُ على أرضية شقته أبكي كطفلٍ مضروب، وألقى هو عوده جانباً وقام إليّ جزعاً لهذا الانهيار العنيف، كان كل ما في جسدي يبكي جميعاً، وأنا أنتحب بشدة، وأعضُّ على شفاهي مثل مدمن، ويديا ترتجفان كأنه الموت، أقرفني الدمع في أنفي، مسحته بيدي فغادت حمراء، دماءً غزيرة قطرها أنفي، لوئت بساط ديار، ويديه، وثوبه البيتي، وهو يحملني من الأرض كطفل، ويقعدني على الأريكة، ويصب على أنفي الماء البارد، صرختُ في وجه ديار بهذيان لا أتذكره، وهو يحاول تهدئتي، كنتُ لا أحاولُ أن أتمالك نفسي، شعرتُ أني أدفع شيئاً ثقيلاً جداً في فتحات صدري، أحاولُ أن أخرج من ثقب الرئة، كان كلُّ انتحابٍ أشدُّ من الذي قبله، وكلُّ صرخةٍ أعلى من التي سبقتها، أحاولُ أن أفلت من يدي ديار لأرمي بنفسي على الأرض، لأضرب بقبضتي على الجدار، وهو يحاصرُ اندفاعي وفي عينيه نظرةٌ خوفٍ هائلة، أخيراً ثَبَّتْ أكتافي بيديه القويتين، وأخذ يمسحُ بيديه وحدهما دم أنفي، ويحشُرُ قطعةً من المنديل في فتحة التزيف، ثم يناولني كوبَ الماء، وأنا أشهقُ مثل أواخرِ المطر.

أفرغتُ كلَّ ما في جوفي بقرفٍ شديد، اتكأتُ على حافة المغسلة، تأملتُ الأشياء التي تخرجُ، وحيوطَ اللعاب التي تتمدد، سالت دموعُ مالحة على هذا الخليط، أغمضتُ عيني على جهرات الجفن، قبضتُ على شفتي بأسنانِ البؤس، لعنتُ نفسي وأنا في هذه الحالة، ليتني أنسربُ مع هذا القيء إلى مجاري المدينة، هذا هو قدرِي ومكاني.

هدأتُ قليلاً، أخذتُ بقايا الدمع تسقطُ في المجرى الحزين، وتركتُ عيني ساهمتين في العود المنكفي، ثم علقتُهما في صمتِ الجدار، كنتُ أشعرُ ببقيةٍ قبيءة في حلقي، وأعلاقٍ سوداء عند باب الصدر، وصوت خفقان عالٍ في أذني، أعطاني ديار كوبَ نعناع، وراح يكلمني وأنا لا أدري ماذا يقول، أصرَّ على أن نذهب للمستشفى

القريب، كان قلقاً من نزيف أنفي المفاجئ هذا، وكان قلقه في محله.

كان ضغطُ الدم مرتفعاً، فلبثنا في المستشفى ساعاتٍ حتى عاود الانخفاض، وكلهم كان يخشى عليَّ من الهيار آخر يرفع الضغط أكثر من هذا، ثم يَكُومني على الأرض جثةً هامدةً، فَقَدْ أَحْدُ شرايينها تماسكه.

قال ديار، بعد أن طال صمتنا في غرفة المستشفى البيضاء الباردة:

- أتدري؟
- ماذا؟
- أقسمُ بدمعك الغالي، لو علمتُ مكانها، لرحلتُ إليها.
- ماذا تفعل؟
- أسأومها على الرجوع بحياتك.
- ستركني أموت يا ديار، ربما تأثرت قليلاً ولكنها لن تعود.
- أنت تقول هذا؟
- نعم، بعد هذا الزمن، صارت نظافة قدمي سالم أولى لديها من حياتي.
- ضحك ديار بصوت عال، وقال:
- مبروك يا ملعون، شفاك الله من هالعة.
- بل أجحها فيَّ عودك يا ديار، لم أبكِ هكذا منذ عرفتك، أنت أنقذتني من بكائي، وألقيتني فيه مرةً أخرى.
- يا سيدي ولا يهملك، بكره لغنيلك موال أجيب أجلك.
- يضحك ديار وهو يتكئ بذراعيه على طرف سريري، وأبتسم أنا بتعب.

ينخفض الضغط، ويأخذني ديار لشقته مرةً أخرى لأبيت عنده، إن كان بقائي ساهراً طوال الليل يسمى بياتاً، لم يغمض جفني طوال تلك الليلة، وأنا أحايلك على

رنة عوده، ومواله الرمادي ذاك.

كلُّ ساعة، كنت أشعر بأنفاس ديار قريباً من رأسي، كان يقترب ليطمئن عليَّ، وأنا أظهاره بالنوم، أبصرُ نور الشرفة وهو يُضاء، وتصل إليَّ رائحةُ تدخينٍ بعيد، وأتخيل في فراشي ظهر ديار وهو يتكئ على حاجز الشرفة، ويعلقُ عينيه على آخر قمةٍ يراها من جبال بريتيش كولومبيا.

أحقاً يبرّ بقسمه ويزوركِ هذا المتطرف؟، كيف سيلتقيكِ؟، كيف سيتكلم معكِ؟، كيف سيعرّف بنفسه؟

كيف سيبري جمالكِ؟، سأغارُ منه عندما يعود، ولكن هل سيكون إلا أحد الذين رأوكِ، وتكلمتِ معهم؟

أيُّ غيرةٍ هذه التي سأهتُم بها بعد ما فعله بكِ سالم، أشعر أن حساسات الغيرة الدقيقة في جسدي قد مرَّ فيها تيار زواجكِ بترددٍ رهيب، فأحرقها تماماً، فلم تعد تشعر بشيء.

ربما أنا لا أغار الآن، لأن في قلبي مشاعرُ أكبر من الغيرة، مشاعر القهر، والحرقه، والإحساس بالغبن.

هل تدركين خطورة هذه الأشياء؟، إنها خطيرة لأنها من نوع المشاعر التي تنتفخ، وتنتفخ، حتى تنفجر يوماً ما، مثل الطاقة، لا تنشأ من العدم، ولا تفنى، ولكنها تتحول من شكلٍ إلى آخر.

ستتحول إلى قنبلة.

أعجبُ لامرأةٍ تريد أن تعيش حياةً طبيعية، بينما تجعل حياتي كلها تسير في الاتجاه المعاكس للطبيعة تماماً.

صديقني شعرتُ بالندم على ما قلته لديار عنك في المستشفى، كم أنا أقْدُسُ حبكِ في
خشوعكِ الغائب، ولكنها نوبةٌ فظيعة، أنتِ تعرفين مني دائماً حاليَّ اللتين لا أعدلُ
فيهما، الحزن والغضب، ولقد اجتمعتا معاً هذه الليلة، خشيتُ، وهم يتحدثون بقلبي
عن ضغط دمي المرتفع، من علّةٍ أخرى تسكُنُ جسدي غير ما ألم بكليتي، أيُّ امرأةٍ
ستقبل رجلاً بالياً مثلي.

أنتِ لم تقبلي بي حتى عندما كنتُ سليماً معافى.

* * *

((شعورُ التمكّن، والاقتراب..

الإتيان الذي لا يعرفُ له وقتاً، ولا نظاماً..

صمتُ الليل، ثم صخبه، وترقُبُ النهار، ثم ابتسامُهُ الطويل،

كلنا، م م..

ونبدو سعيدين في خيال الرضا الذي سوف ننال بعد قليل..

لذة أن نكون ظامئين، وبين أيدينا كؤوس الماء البارد..

التعرقُ الطفيف، القلبُ الذي يرتعش..

العُري أمام إغضاء الحياة، وصمتُ الدنيا، إلا من موسيقى الروح..

لذة النعناع.

المهرنة، حبنا الجدول من ضفائر الشوق..

الترتيب ليس مهماً، الأقل احتمالاً يبدأ أولاً..

والقافلة تسير حسب قدرة أهرمها.

وانطفأ الليل في عيوننا، ونام المصباح المتزوي هناك مرهقاً..

الشفاه تراقب بعضها، كلاماً، صمتاً..

نقطتي ضعف..

تامر، وسمير..

وأنا أيضاً، وأنا أيضاً..

ثروت باشا..

وياهلا بالضيف، هلا والله..

ما بنرضى تروح، لا والله..

الاستئذان للتدخين، طريقة مبتكرة..

حرف الحياء الذي ينتظر دوره..

خلفية الروعة في ليلة الأهمار الأمطار البشرية فوقها مختلطةً بالهرانين الصناعية..

قوة دفع رهيبه..

شعور حلو..

ويولد الألم فجأة، ويتوقف الشعور الحلو..

التسليك ممنوع، حقيقةً، ولكنه، مسموح، همساً..

ليلتان أخيرتان..

حبلاً، حبلان..

وداع..

وداع..

.....

.....

مها..

مها..

- أين تذهبين؟

- (I have to do what I have to do)

- عليك أن تفعلي ماذا؟

- أن ألحق به..

- من؟

- زوجي.. هناك.. لن أعود.. نعنائه أكثر نضارة.. وحرف الميم في جيبه

أكبر..

- وأنا؟

- أكتب بيدك.

مها.. مها.. مها..

وتركني مها.. وتركب في سيارته إلى غرفتهما مباشرة..

ألحق بهما..

أفتح الباب بعنف.. أنقض عليه..

((.....))

أستيقظ.

ألغنه في نفسي ألف لعنة، هذا الخذاء التافه سالم، هذا البهيمة الحيوانية، كيف تراه يشعُرُ بالغرور؟، أنا الذي ملكتك أولاً، ومررت من فوقك قبله بعشرة أشهر كاملة، قبل حتى أن يحلم بلمس يدك، هذا الجبان.

مسكين، يظنُّ، هو الذي مرَّ على ألف فتاة قبلك في عهده الذي يبرره بغرور أكبر من الحماقة أنه طيش شباب، يظنُّ أنه ظفر في زواجه بامرأة سيكون هو رجلها الأول ما دامت هي ليست امرأته الأولى، مسكين فعلاً، أنا الأول هنا أيها الأحمق، أنا الذي تركتُ راياقي على زوجتك من قمة الرأس حتى أخمص القدمين.

كما تدين تدان، وكما لم تكن زوجتك هي الأولى في فراشك، فلم تكن أنت الأولى في فراشها.

العجيب، أنك تعلمين منه هذا وتوافقين، وهو لا يعلمه منك، ولو علمه لما اقترب منك، حتى تعلم النساء في هذا البلد أي منقلبٍ ينقلبن.

عندي إثباتٌ لسالم على أني مررتُ فوقك قبله، سأريه إياه ذات جنون، صورٌ، وفيلمٌ صغير سجَّلته معك خفيةً دون أن تشعرني، أفقتُ قبلك من النوم، شغلتُ آلة التصوير، ووجهتها إلى مكاننا، وعدتُ إلى السرير لأوقظك من النوم، ومكثنا ساعاتٍ مع بعضنا، أشعلنا كلَّ حروف الميم، والخاء، وأكلنا كلَّ النعناع، والشاي، وكان شعوراً حلواً، كلُّ هذا أمام الكاميرا، وهي تسجِّلُ كلَّ حركة لساعتين طويلتين، وفي الفجر، حملتُ الشريط، وعدتُ إلى المنزل، وأنت لا تدريين ماذا في جوفه.

لماذا فعلتُ ذلك؟، ياساً أم طموحاً؟

لفرطٍ ما أحببتك، كنتُ أتخيَّلُ أنك وهمٌ كبيرٌ جداً، كنتُ أملكُ أحياناً لأتأكد من حقيقة ما أنا فيه، أيقنتُ أن شعور الوهم الذي لم يفارقني طيلة سنة معك سيقتلني يوم ترحلين، قررتُ أن أترك معي ما أقاوم به هذا الوهم، وفعلتها.

لو كنتُ سألتك ذلك لشككتُ في نواياي، وفُرتُ ذلك على نفسي، فعلتها دون أن تدريين، وما زال ذلك الشريط خامداً في حقيبةٍ مغلقة، لم أنظر إليه منذ رحلت.

ربما قتلتُ به سالماً يوماً ما.

ربما كنتُ أتوقع من قبل أنك تعبين بي وأنت لن تعودني.

ربما كان الله يمنحني سلاحاً لا أدري كيف أتصرف به.

ماذا يعني السلاح في يد رجلٍ أعمى؟

((جسور مقاطعة ماديسون)) كان فيلماً لا يُنسى.

أول فيلم رأيته في غرفتك، في ليلتنا الأولى، ليلة الغلالة البنفسجية.

لا أدري لماذا تتقاطع الأشياء في ذاكرتي بعد كل هذه الشهور، وبكل هذه الحدة، وكلها تصبُّ في مجرى الأم، وتمتدُّ فيه بشدة، حتى توجع شراييني.

اشتريته من محلٍ صغيرٍ كنتُ أتسكَّعُ حوله في الميترواتون، المركز التجاري الأضخم في فانكوفر، وعدتُ إلى شقتي لأتفرَّج عليه، ولأتذكر المرة الأولى التي رأيته فيها معك، قبل عشرين شهراً من الآن.

هاأنا أعيد التفرج عليه مرةً أخرى، وحدي هذه المرة.

ربة منزل ريفية في مقاطعة ماديسون، تهتمُّ بأسرتها كثيراً، وتحبُّ زوجها حب الأزواج، وأبناءها حب الأبناء، لأنها لا تملك إلا أن تحبهم.

أنتِ تصرين على هذا الفيلم، ليكون فيلمنا الأول، في يومي الأول في غرفتك، خجولاً كنت أنا، لا أتطاول على شيء، الفيلم يدور، وأنتِ تنامين على صدري، وتمتد أصابعك كل دقيقة إلى فمي بقطعة حلوى، أو شهوة يدٍ أنثى تريدني أن أقبلها.

تضعين يدك أمام شفتي مباشرة، دون أن تحولي عينيك عن الفيلم، ترضين أنوثتك، ثم تعودين لتلملمي نفسك في حجري مثل قطة.

ويدور الفيلم.

يسافر الزوج مع أبنائه لأيام، وتبقى الأم وحدها في منزلها الصغير، وأمامها العديد من الأعمال التي تنجزها، في البلدة الآمنة التي تنام بالريف، وذات نهار يتوقف مصوِّر فوتوغرافي أمام المنزل، وقد تاه عن الطريق.

أثناء الفيلم كنتِ تقبليني كل نصف دقيقة، كأنك تفين بعهدك الذي عاهدتِ عليه قبل أن أرتكب جنوني، وأتسلل إلى غرفتك، عندما قلتُ لك:

- ماذا تفعلين بي إذا دخلتُ غرفتك؟

- لن أعتفك.

رमितُ كل المحاذير خلف هذه النيرة الأنثوية التي جمعت حياءً ورغبة، وجئتُ إليك، يروح في فمي طعم المغامرة المخلّى بالفرح والخبور، لتملكي كلَّ جزءٍ في جسدي، يومين كاملين، لا أملك خروجاً، ولا هروباً من دفع الحب الذي لا أتحمله.

تماماً كالفيلم، عندما خلا المنزل للمصور والمرأة، تعرفا، خرجت معه، ثم نام معها، أربعة أيام قضياها معاً، يومان في دهشة الحب، ويومان يستجديها فيهما للرحيل معه، ولكنها لم تستطع ترك زوجها.

كان الكلام يطير في البلدة الصغيرة عن امرأة تسكن حيهم عشقت رجلاً، فأكلتها الشائعات، واستهجنها الجميع، فذوت وحيدةً باكيةً خائفة، وحدها ربة المنزل التي جربت الحب، وفهمت كيف يغيّر الأقدار، استطاعت أن ترفق بها.

ولكنها في آخر الأمر تخلت عنه مصورها الحبيب، كما تخلتِ أنتِ عني.

أجبرها الطاغوت كما أجبرك.

أليس مما يثير الجنون حقاً أن أكتشف أننا في ليلتنا الأولى، كانت تعرض علينا قصتنا بكل هذه الوضوح، ونرى مستقبلنا المظلم بأعيننا، ولا ندرك ذلك؟

أفقتُ ربما قبل أن يكتمل هذا التوافق، هو الذي تركها ورحل ليس مثلي، ليس عندي زهدٌ كزهدِه، ولا صبرٌ كصبرِه، أو ربما هو ليس عنده حبٌ كحبي، قضى معها أربعة أيام، وقضيتُ معكِ أربعة عشر شهراً.

إذن، ليس من العدل أن تكتمل هذه الأحجية السخيفة، لأن نهاية الفيلم الحزينة جعلتكِ تبكين، وأنا يا حبيبتي لن أبكي بكاءً هامشياً لا يقدم ولا يؤخر مثل هذا، بل سأبكي لأستعيدكِ، ما دام عندي بقيةٌ في العمر.

شاحنته التي ذهبت، سأعود بها أنا، وسأملكُ عليها يوماً ما إلى مستقبلنا، وحبنا الذي لم يكتمل، وقصتنا التي لم تنته، وحلمنا الذي لم يكبر، لدينا ما نقوم به معاً في الحياة، وما زال على عواتقنا مهامٌ أوكلنا الحب بها، وعلّقناها طويلاً، وليس لنا أن نؤخرها أكثر من ذلك.

حتى نهاية الفيلم، عندما جاءتها بعد سنوات رسالة منه، وقد صارت أرملة، بعث بها محاميه بعد ما مات هو، كانت مجموعة الصور التي التقطها لجسور المقاطعة، مطبوعةً في كتاب أنيق، عنوانه أربعة أيام.

هل أجعل عنوان روايتي هذه أربعة عشر شهراً، وأبعثها لكِ بعد أن أموت؟

لا يا حبيبتي لن أكون هكذا.

ستصلكِ روايتي وأنا على قيد الحياة، وقيد الحب، وقيد الوفاء.

وستقطعين جسور البلدة العتيقة، وتعودين إلى الرجل الذي أحبيتِ، وقد منحناهم ما يريدون من الإجراءات الشرعية التي يحتاجونها في بيروقراطية الحياة.

إذا مشى الجميع من حولي، ووقفتُ وحيداً، أشعر أن أقدامي تغوص في الأرض، ولا أقدر أن أتحرّك خطوة واحدة، انهزامٌ نفسيّ قديم عهدته في نفسي منذ الطفولة،

الجميع يحنُّ للماضي، وأنا أكرهه حتى لو كان سعيداً، أكره الشعور أني قد أعود إلى الوراء سنوات، لكي أتلذذ بليلة سمر، أو منادمة صديق طفولة، أو صفو حياة، لا أدري ماذا يسمونها في علم النفس ولكني أعترف بأنني لا أملك عينين خلف رأسي.

أن يتقدم الجميع خطوة، وأبقى وحدي خلفهم، هذا لا يشجعني على اللحاق بهم، بل يجعلني أشعر بالعجز أكثر، لذلك أحب أحياناً أن أسبق الآخرين، ليس رغبةً في السبق والريادة، ولكن لأني أعلم أن سبقهم لي سيؤخرني كثيراً.

تتحرق أوراقِي.

وأنا لا أعرف أن العلم اكتشف طريقةً تعيد المواد التي احترقت إلى صفتها الحقيقية، الاحتراق، هو اليد التي تسلبنا بها الحياة ما نريد، وما تسلبه يد الحياة، لا تستعيد أيدي البشر، مهما طالت.

عندما رحلتِ أنتِ، تَحَيَّلْتُ أنكِ تتقدمين، تبدأين حياة، تكونين أسرة، تسعين نحو نجاح ما، مع رجل آخر.

عندما يكون هذا الذي يمشي هو أنتِ، تتضاعف العقدة عندي ألف مرة، لأنكِ هذه المرة لا تثيرين الغبار في وجهي فقط كما يفعلون، بل أنتِ تدوسين على رمادي، وركامي، وحطام إنسانيتي، نحو طموحك.

أفهم كيف لا أحسدكِ، لأنني أحبك، كم كنتُ فخوراً بكل نجاحٍ تحقّيقه وتبشريني به، فخراً حقيقياً، كذلك الذي لا نشعر به إلا مع أبنائنا، فالحسد ينشأ بين الأخوة والآباء أحياناً، ولكنكِ حبيبتي، ولم يخرج أحدهم حتى الآن بنظرية تفيد أن ثمة حسدٍ قد ينشأ بين الأحبة.

هذا إذن ليس حسداً، ولكني لا أريدك أن تحققي ما تفخرين به مع سالم، لا أريد أن يضاف إلى رصيده في الحياة امرأةٌ رائعة مثلكِ.

أن يسلبني هذا الرجل بنجاحك، وثمانيتهم به، فهذا ما أحتمله مكرهاً، أما أن يسلبني حتى سعادتي بنجاحك، فهذا ما لا يُحتمل.

أنتِ تذكّرين استذكارك لدروسك معي على سماعة الهاتف، تقرأين درسك، تعيدينه حتى تحفظيه، وأنا صامتٌ خلف الهاتف، لا نفع لي إلا مؤانستك عن بعد حتى لا يأتيك الملل، ولا تسمعين مني إلا أنفاسي، وتلبّثين ساعاتٍ حتى تنهين استذكارك، وآخر صوتٍ تسمعيه قبل الامتحان صوتي، وأول صوتٍ يأتيك بعده هو صوتي، وأثناء ذلك أنقلب قلقاً عليك، حتى تأتيني البشري بنجاحك، بينما أخفي أنا عنك أمر رسوبي.

بنجاحك يكفيني آنذاك، لأنه كان معي، أما الآن فلا يكفيني نجاحٌ تنالينه معه، أريد أن يكون هذا النجاح معي، حتى تكتمل سعادتي به، وافتخاري بحبيبتِي التي لا مثيل لها.

حبيبتِي التي تملكني ولا أملكها.

كنتُ أسعى، رغم إحباطي واهياري، وقد فشلتُ في كل شيء، أن لا أفشل في شيء واحد، ألا وهو هَيْئَة كل ما في حياتي ليكون أمر انتقالك إليّ غير مؤثر على طموحك، وإبداعك، بل حافظاً لهما.

كان هذا هو الأمر الوحيد الذي يجعلني أستيظّ صباحاً، وأغسل وجهي، وأتناول دوائي، وأسعى على عملي أو دراستي منذ رحلت.

بدونك، هذه الأشياء لا تساوي شيئاً، سعيْتُ لها من أجلك، وحققتُ معظمها لك أنتِ، فكيف تظننني سأقبل أن تتركها وتبقيين معه.

أن أبني كل شيء في حياتي على أنكِ أساسه، ثم تنسجين أنتِ، فهل سيقى ما بنيتُ قائماً أم ينهار؟

إذا أخذك الشعور بالذنب على سنتين ربما تضيعان من عمره بسببك، فكم سيكفيك من هذا الشعور على عمرٍ بأكمله، يضيع مني بسبب تخليكِ عني؟

صدقيني مرةً واحدة، يا امرأةً ما زال ينتابها الشك في دموعي.

ما زالت تؤمن أني سأسلو، سأنسى، ولن أموت بها.

ربما كان زواجك منه هو الحد الأخير الذي لن تجدي بعده سبباً يمنعك من العودة لي، فعلتِ ما أصررتِ عليه، وقررتِ ألا تخذليه، وتزوجته، وأنا لم أعرف طريق النسيان الذي اعتقدنا به، ولم يبق إلا أن تعودِي.

هذياني الذي يأخذني إليك، أصبح متحكماً جداً، هكذا تأخذ الأشياء شكل التطرف، عندما يمشي الآخرون، ويخلفوني وحيداً.

* * *

في هذه الغربة، لبست مس تنغل ثياب أمي، واتسعت لها هذه الثياب تماماً، منذ ارتعاشاتي الأولى في هذه المدينة وهي تقرّبني منها حتى استخرجتني من رحمها أخيراً، واتخذت لي ما تتخذه الأمهات من غرائز لأجل أنبائهن، وأنا أراوح المشاعر بين إغراء دفء كهذا في عُرْبِي البارد، وبين خوفي على قلبها العجوز من أمومة متأخرة، وموقنة، لبائسٍ مثلي.

ولم تكن أمومتها ساذجةً أبداً، هي التي عوّدت يديها على مزاج جراحي، وصارت تتقن المرور فوق الغائر منها والبائن، وتعرف، بغريزة أم لا خبرة معالج، أين تضغط، وأين تمرّ برفق، ومتى يجب أن ترفع يدها تماماً، ومتى يجب أن تخوض بها في العمق، وأنا بدوري تعوّدت أن ألقأ إليها ليلة الألم ولا أتكلّم كثيراً، واثقاً من أنها تفهمني

جيداً، وأنها إن لم ترفع الوزر فلن تنفض الظهر.

كلّ صباح أستيقظ فيه وأنا على قيد الحزن، وفي رأسي بقية إرهاق من حبة نوم متأخرة، أترك فراشي لأغتسل، وأخرجُ إلى شقة مس تنغل التي أعفتني منذ الأشهر الأولى من إفطار كتيب على خبز الوحدة، تنتظري كل صباح على مائدة صغيرة تعدّها بنفسها، فأجلس عليها لألتقم طبتها قبل طعامها، وأرتاح للسكنة التي تخرج من عينيها وهي تمارس الدور الأمومي الذي حرمت منه بحماس، فتقرب لي كل شيء، وتصرّ على آخر القطرات في كوب الحليب، وبقايا الفطيرة في خواء الصحن، ثم تترك بين يدي لفافة صغيرة من الطعام لأحملها معي، وتناديني من عند الباب لتعيد بيدها خصلة نقرت من شعري، وتشيعني بنظراتها كطفل عمره خمسة أعوام.

يا الله، كأنها أُمّي في السنوات التي خلّت، أتذكرُ يوم أفيق من النوم على وجهها الصباحي الذي يبشّر بالخير ولكنه يُنذر بالمدرسة، أستيقظُ بتناقل طويل حتى ينالي الانتهاز الأول، فأستعجل قليلاً، ثم تضع بين يدي صحن إفطاري فينتابني الملح، أنا الذي أكره وجبة الإفطار، ولا تحملها معدتي المثابتة، أحاول الفرار، الشكوى، السخوط، ثم أخرج إلى المدرسة بنصف إفطار ودعة شقية كفتني النصف الآخر.

لما كبرتُ، صار الإفطار جلسة وفاء، وحبّة أمل صباحية نلتقطها أنا وأروى من عيني جدتي التي نتناوله معها، ننفضُ بين يديها غبار النوم، ونتناولُ حبات التمر التي تنتقيها لنا بيدها المعروفة التي تراكم فيها تاريخ الحناء منذ الأزل، ونسرُّ باهتمامها الذي يقطرُ رضاً وطيبة، ولا نشبع من إفطارنا، كنا نشبع من القبلّة التي نتركها على رأسها قبل الخروج، وعلى رأس أُمّي، ونتركهما في ضجيج الدعوات، ونخرجُ معاً حيث أوصل أروى إلى جامعتهَا، وأعرج بعدها إلى جامعتي أنا.

لقد ضاعف انتقال جدتي إلى منزلنا من تركيز الأمومة في هذا المنزل، حتى واجهني

أول ما واجهني في الغربة افتقاد هذا الشعور، ولكن مس تنغل عوّضت هذا النقص، أو أُنّي تخيلتُ أنّها عوضته، فطيبة الناس في الغرب لا تصل إلى هذا الحد، ولكنها تجاوزت كل الحدود مع مس تنغل، وكسرت القاعدة، ورأت في حياتها الأخيرة، وأمومتها التي تكاد أن تموت قبل أن تتحرك فوق ابن ما.

فهمتُ أنّها تحتاجني أيضاً كما أحتاجها، شعرتُ أن عليّ أن أكون قريباً منها كما هي دائماً قريبة مني، فصار يومي يبدأ معها، وينتهي عندها، ما لم تكن قد أوت إلى فراشها قبل أن يرمي بي ديار في شقتي، وكلما سنحت فرصة مسائية في يوم إجازة، كنتُ أخرج معها إلى حيث تأخذنا سيارتي، بينما يغيب ديار الذي يعمل في يوم الإجازة بلا انقطاع، نخرج إلى ويسلر، ستانلي بارك، جروز ماوتن، وضفاف البحيرات، أو حتى الغابات القريبة حيث تقبع مزرعة صغيرة لأختها من أمها، ثرية تقيم في فيرجينيا، وتزور مزرعتها كل سنوات، ولكن مس تنغل مرحبٌ بها بين الأغصان الوارفة بالطبع، حتى لو لم تكن أختها موجودة.

من النادر أن تنطفئ كآبة يومي إذا بدأ كتيباً، من أجل ذلك كنتُ لا أنسى أن هذه العجوز تقيني هذه الصباحات المتعكرة، والصداعات التي يبقى أثرها ولو زال ألمها، صارت تمنحني تحية الصباح قبل أن أمتصها من قطفة سيجاري الأولى التي أذخنها على جفاف ربقي، وخواء بطني، ومرارة قهوتي، وغشاء أحزاني التي تنهض معي من الفراش.

لولا مس تنغل، لمكنتُ في هذه المدينة أتضوّر حزناً، هي التي تلقتني مشوشاً أول ما جئت، خائفاً أدّعي الصلابة، فحملت عني حقائب الهموم الثقيلة، ومسحت آثار لجوئي كأن لم تكن، وأخذت ملابسي التي لوئها وحل اليأس في الطريق لتغسلها، وتلبسي ثوب أمل أبيض، وتوصيني ألا أوسخه، وكنتُ أمزقه.

أشعر أنها طيبة حتى آخر أنفاس الفجر، إنها من أولئك اللواتي لا يُخشى على خلجات قلبها من النفاذ، فكلُّ شمسٍ جديدةٍ تشرق على عمرها، كانت تعطيها طيبة هذا اليوم، كما تعطي الشمسُ النباتَ غذاءَ هذا اليوم.

كنتُ إذا تأخرتُ على إفطارها، بَعَثَتْ لي بخادمتها الصغيرة لتطرقَ الباب عليّ، أو جرّت هي بنفسها كرسيها إلى شقتي، وفَتَحَت الباب بمفتاحها الذي تحتفظ به، لأفيق على صوحتها وهي تناديني من قرب، جالسةً في المسافة الضيقة ما بين وجهي النائم، وصورتكِ على المنضدة.

يقاظها لي من النوم ذكرني بإيقاظنا لبعضنا من النوم إذا كنتُ في غرفتك، كنتُ متى استيقظت من نومي، أنتصب أمام وجهك، وأتوضأ في شفافيته المضاءة، وأصلي في محرابه البديع، وأتأملك ما شئت، قبل أن أترك على الشفتين قبلة، ولا تتحركين، فأعود بأخرى أطول من سابقتها حتى يبدو انزعاجك الأول، فتتنفسين بعمق، وتزججين وجهك قليلاً، وأتبعك، أمارس مضايقتي التي تشحنها الرغبة المبكرة حتى تستيقظي، ترفعين جفنًا واحدًا فقط، ثم تعيدين إغماضه، وتفتري شفتاك الورديتان عن ابتسامة لا أعرف في حياتي أعذب منها، وأميزها بين كلِّ ما يفتر عنه نغرك من بسمات، إنها ابتسامة استيقاظك من النوم.

أحياناً تستيقظين أنتِ قبلي، وأحياناً أنام أنا بينما تكونين أنتِ خارج الغرفة، فإذا عدتِ، أو استيقظت قبلي إن كنا نائمين، كنتُ أشعر بكِ قليلاً، أنا الذي لا يأخذني النوم في غرفتك إلا لماً لتغير المكان، فأتابع حركتك من حولي بأذني، تتكلمين في الهاتف، تغتسلين في الحمام، تربطين شعرك، تلبسين ثيابك، ثم أشعر بالسرير يهتز قليلاً، فأعرف أنكِ تقترين مني حبواً عليه، تقترين، وتأتيني أنفاسك، ثم تأخذني القبلة من حيث لا أدري، ولا أتوقع، على فمي، وجنتي، جبيني، أذني، صدري، دائماً تتغير رغبتك كل صباح.

وإذا أفقتُ، كنتُ تجلسين فوقي، تتأملين استيقاظي الخجول أمام نظراتك الضاحكة، مثل أم تراقب استيقاظ طفلها الرضيع، أمر بيدي على وجهي، وشعري، لأصلح من شعتي فتعيدنها مكانها، وتتحسسين وجهي، وجسدي، وكل شيء، ثم تضحكين بجنون وأنت تغنين: ((يا هلا بالضيف.. هلا والله))

لا أنسى يا مها، ولن أنسى.

كانت ذاكرتي يوم عرفتك ورقةً بيضاء نقية، لم تكتب فيها امرأةً قبلك، فجئت أنتِ بجبك الخرافي المثير لتطبعي كلَّ تفاصيل العلاقة في وجه الورقة، فتظهر واضحةً جليةً في بياضها، من أجل هذا أتذكرُ كلَّ الأشياء الدقيقة، كلَّ العادات الصغيرة، والكلمات العابرة، والرغبات الجائعة، والنظرات الشبية، والضحكات العابثة، والقصص القصيرة، وكلِّ ما دار بيننا منذ التقيتك حتى فقدتك، كلُّ شيء من حبنا ما يزال منقوشاً فوق جلدي، معلقاً على حيطان الروح، ومعرضاً في متحف الذاكرة.

كنتُ مع ديار في شاحنته ونحن في طريقنا إلى لانبلي، بعد ساعةٍ أو أكثر من وسط فانكوفر، ولم أكن قد زرقها من قبل، فذهبتُ معه على أن يسلم شاحنته هناك، ويوقف شاحنته، لنستأجر سيارةً أخرى نعبّر بها على مقاطعة ألبرتا المجاورة، لنمكث فيها يوماً أو يومين.

لم أكن أعلم أن ديار سيتحدثُ تلك الليلة، وهو يقود السيارة، كما لم يتحدث من قبل، بوخ هذا الرجل غامضٌ مثله، أحزانه متاهاتٌ لا أعرف أولها من آخرها، إلا هذه الليلة، كان يحكي، وكنتُ أصغي إليه، وأنا أخشى أن تندّ مني حركةٌ تفسد

هذا البوح كما فعلتُ من قبل، هذا البحر ساكنٌ أخيراً، سأتركه يبادل الشاطئ الكلام، والشاطئ صامت، لم أر من قبل شاطئاً يربُتُ على كتف البحر.

طيلة البوح وأنا أتأمل في صمتٍ جراحه، واتساع ألمه، وأنظر إلى جانب وجهه المقابل لي، كم في جسده من دمايل الماضي، فكيف استطاع أن يقبض حزنه كل هذه الأعوام؟

كأن الثلوج وحدها هي التي تخدر الجراح طويلاً.

أحسنْتُ الاختيار إذن.

قال ديار:

- كان أبي ضابطاً في الجيش الجمهوري، وكانت له أكتافٌ مثقلة، وقامةٌ عسكريةٌ مديدة، نستظلُّ بها من شمس النظام الحارقة، ونتميز بها عن البقية من المدنيين، وكان أحد المسؤولين الكبار القلائل عن سلاح الحماية الرئاسي، الموكل بحماية الرئيس نفسه، وضمان سلامته، أينما كان، وكان هذا يخوله للاقتراب من الرئيس كثيراً، وفي أوقاته غير الرسمية أحياناً، فلا يعود أحياناً إلا ربع الليل الأخير، وربما بات في القصر الرئاسي، أو في زيارة تفقدية مع الرئيس، يسهر على بقاءه حياً.

استيقظنا ذات صباح على نزوة رجل قرر أن يتفقد جيشه، كانت الترتيبات قد أعدت من البارحة، ولم تكن هذه التراتب الرئاسية غريبةً عليهم، ولم يكن غروره الذي لا يشبعه إلا طواير الجنود المدحجين بالسلاح، والدبابات التي تحفر الأرض، والطائرات التي تشق السماء، مستنكراً عليهم أيضاً، هم دائماً على أهبة الاستعداد لتفتيشه الدوري.

كنتُ في السابعة من عمري، عندما أشرق ذلك الصباح على بغداد العتيقة، غسلتني أُمِّي من آثار النوم، وابتسمت بحنان لابنها الذاهب مع أبيه لأول مرة، ليرى الرئيس المجيد.

كان أبي يُجلسني على المقعد المجاور له، ويقود السيارة إلى حيث يقام العرض العسكري، ولم يكن يعلم أنه يحمل حتفه معه، حالما وصلنا، أطلق أبي بضعة تعليمات على عسكريه، واصطف الجميع في انتظار الموكب الرئاسي، وحالما انتصبت الشمس فوق رؤوسنا بعد ساعتين، كنتُ أبصر الزعيم العظيم يترجل من سيارته، ويلوك سيجاره الفاخر، ويصافح مستقبله بعظمة من لا ينظر إلى من يصافحه.

بعد ثوانٍ جاء دور أبي، رفع إليه الرئيس نظرةً ثمينة، فوقف أمامه بخنوع، وأدى تحيته العسكرية، ولفظ ما مكنه إياه لسانه من تبجيل سيده، وأنا أقف جواره، وأرفع رأسي بخوفٍ شديدٍ لأتأمل شموخ هذا الرجل الذي تملأ صوره وتماثيله ميادين العراق وجدرانها، كنتُ أتأمل شاربيه، وذقنه، وشعره المصفف، وعينيهِ العميقتين، وحاجبيه المعقودين بقسوة، وأطراف أصابعه، وحتى الرماد المتناثر من طرف سيجاره، وفجأة، كان أبي يحملني بين ذراعيه، ويرفعني بقوة، لأجد وجهي على بعد سنتيمترات من وجه الرئيس.

ابتسم لي صدام، وأنا أشعر أُنِي خارج الوعي، كانت أنفاسه تصطدم بأذني وهو يقبلي، أو يلصق خده بخدي على الأرجح، قدمي معلقتان في الهواء، وإلا فهما ترتجفان بشدة، وكان صوتُ أبي يتهدج بانفعال: ((هذا خادمكم ديار سيدي، الله يحفظكم لنا سيدي، تحت ظلكم سيدي))، ولم أنيس أنا بكلمة، شعرتُ بالدوخة، ولم أعد أميز أي

شيء من حولي، وعندما عدتُ إلى الأرض، كان الرئيس ينحني لي هذه المرة، ويتكلم معي بابتسامة واسعة:

- هسه شتدرس ديار؟
- في الصف الأول سيدي.
- وأبوك شيشتغل؟
- ضابط حماية سيدي.
- يعني شيسوي بشغله؟
- يروح بيت الرئيس صدام سيدي.
- وشو يحجيلكم عن بيتي؟
- يحجيلنا ايش قد كبير سيدي، كل شيء فيه، فيه طيارة، فيه مدفع، فيه جنود..

تركني بعدها الرئيس بعد أن ربت على وجنتي برفق، رفعتُ عيني بسعادة إلى أبي، فخوراً بما حققته مع سيده، فإذا وجهه ممتعٌ بشدة، ولم أفهم سبب ذلك آنذاك، تركني أبي على كرسي بعيد مع جندي صغير، وغاب في الزحام، وكانت آخر مرة أرى فيها الزعيم، وأرى فيها أبي.

امتقع وجه أبي لأنه كان يعرف أن آخر ما يتساهل فيه الطغاة هو أمنهم الشخصي، في بلدٍ يقتحم فيه الثوار قصور الحكام، ويطلقون عليهم النار بكل بساطة، وكان أن جعل الرئيس من أبي عبدةً لمن حوله من العسكر، هم الذين سمعوا ما قلته، ثم رأوا ما حلَّ بأبي، فانتهى الأمر أن لا تهاون ولا تفرط في أمن الزعيم الذي يخوض حرباً ضروساً مع إيران، والمهدد بالموت في أي لحظة، من أي تقصير.

أعادي الجندي إلى البيت، ولم يعد أبي، ليوم ويومين وثلاثة، واستطلع

أصدقائه الخبر ليعلموا أنه مسجونٌ، وقيد التحقيق، بعد أسبوع استدعوا أمي، ثم عمي، وجميع أقاربي ليحققوا معهم أيضاً، وكلهم لا يدري أين أبي وكيف هو.

خمسة أشهر، قبل أن يعود إلينا جثماناً مسجى، بعد أن توسط أصدقائه من العسكر في حمله إلى أهلي ليدفن في النجف المقدس، ضحية الحكايات الصغيرة التي كان يحكيها لي وأمي حين يحملنا قاربٌ صغير بين ضفتي الفرات ذات مساء.

كان لا بد لي أن أعيش يتيماً كي يظلَّ القائد آمناً.

بقيتُ لسنواتٍ لا أملك ربطاً بين ما قلته ذلك اليوم وما حلَّ بأبي، أخبروني أن ضربة حرب أودت بأبي على جبهة القتال، وبعد سنة أصيبت أمي بمرضٍ عقلي لا ندري كنهه، لبثت من أجله في المارستان عدة سنواتٍ أخرى لا أراها، أقمتُ خلالها في بيت عمي، ثم علمنا أنها ماتت أخيراً بعد أن أَلقت بنفسها من دور عال.

كان عمي ضابطاً هو الآخر، أقل رتبةً من أبي، وكان ما حلَّ بأبي كفيلاً بنقض طموحه العسكري من الأساس، فكان يراني طيلة السنوات التي عشت فيها عنده، وبين أبنائه، طالع نحسٍ وشؤم، وكان سيئ المزاج، كثير الشر، يقطع الليل على سطح المنزل مع رفاقه يعبُونَ من العرق العراقي الشائع، ويدخنون وأصواتهم لا تتركنا ننام، وكان يسميني (ناحس) كلما رأيته، والتقطها منه أبنائه القذرون، ثم تسربت إلى الحي، وأبناء الجيران، حتى صار اسمي الذي أعرف به دون سواه هو ناحس، ولم يكن الأمر ليتطلب مني في مراهقتي أكثر من نوبة غضب، بعد الشر، تأخذ بعقل

عمي حتى يشرح لي لماذا نعتني بهذا الاسم، فعرفت حقيقة ما فعلته بأبي.

عند هذا توقف ديار عن الكلام.

ومازلت أسترجع كلماته بحذر، كان يلفظ حروفه وكأنه يتلذذ بنبراتها على لسانه، يضغط عليها بأسنانه، ويتركه تنن، وتنن، بطول ما أوجعته هذه الذكرى، وشوّهت وجه حياته الجميلة، ثم هاهو يلقاها أمامي، ويتركني ألملمها بحيرة وقلق.

بعثري ديار كثيراً بقصته، إنه يجرّ أوجاعه منذ طفولته إذن، كم هو عجوزٌ حزنه، وكم هو مشوّء بالندبات تاريخه.

ليته لا يسألني كلمة.

حسي أن أجمع هذا الشتات الزمني في ذكرياته، فأنا لا أثق في قدرتي على فهم طبيعة جرحه، وكيف تشكّل وتحوّر عبر السنوات، ربما ما زال يتزف، وربما صار ندبة قديمة، وربما تلوّث وانتشر في أنحاء الجسد، وربما سافر في الاتجاه الآخر، ليغوص في العمق.

هل تأخذ الجراح أشكالاً وعادات أخرى غير هذه، هذا الرجل لم أفهم عاداته هو، حتى أفهم عادات جراحه، ولم أستجلّ ظاهره بعد، حتى أغوص في عمقه، سيظل صندوقاً مغلقاً لأنه يريد أن يكون كذلك، مهما تظاهر لي أحياناً أنه بسيط، وتلقائي، كلامه يفضح أغواره السحيقة، وأنا رجلٌ أجيد التقاط الكلمات.

وصلنا إلى كالجري، ونمنا على الفور.

يقولُ ديار في بهو الفندق الصغير الذي قضينا فيه ليلتنا تلك:

أن ترتبط بأنثى أمر حتمي، ولكنه ليس ضروري.

أغلقتُ المحلة التي كانت تتأرجح بين يديّ، رميتها على الطاولة، وأخذتُ أمزق

أكياس البيض الصغيرة، لأفرغها في كوب القهوة، وأنا أرد على ديار:

- ابتعد عن هذا يا ديار، أكره الذين يناقشون السنن الكونية، ويعيدون صياغتها، على طاولات المقاهي.

- لا أقصد، ولكن منذ رحلت زوجتي لا أشعر بالحاجة إلى زوجة، ولكني أعلم أنني سأرتبط يوماً ما.

- ماذا عن لارا؟

- لا أدري، ربما.

لارا هذه صديقة ديار، منذ عرفتهما وأنا أشعر أنهما صديقة فراشه فقط، كأس البيرة الليلي الذي يطفئ بها جسده آخر النهار كما يطفئ عقله، كانت تقيم في شقته أغلب الأيام، وترحل أحياناً إلى المدن الأخرى كجزء من عملها التسويقي، هي هندية الأصل، كندية المولد والمنشأ، كالعديد من سكان هذه المدينة التي تتداخل فيها الأعراق، والثقافات.

قلت:

- ألا تحبها؟

- لا

يبتسم ديار وكأنه يخفي شيئاً، يرفع الفنجان ليلحق بآخر القهوة المترسبة مع البن أسفل، ثم يعيده إلى الطاولة، ويقول:

- الأنثى إله لا يخلق، ولا يرزق، ولا يستحق العبادة، إنها إله ناقص،

والحب هذا الذي تتحدث عنه كفرٌ أحمق، لجوءٌ إلى الجحيم بلا

سبب، سجودٌ قلبي لا معنى له.

- لماذا يحب الجميع إذن يا ديار؟، كم أنت تعترض على قوانين الوجود.

يعتدلُ ديار، ويشيخُ بيديه وكأنه يريدُ أن يُفلسفَ أمراً، تنحني أصابعه بنصف انغلاقٍ ويقول:

- الحب هو الرغبةُ الأزلية التي تحول في فطرتنا، إلحادٌ صغير لا نعرف سبباً لنشوئه، ولكنه حين يُعلنُ العصيان المدني في البلد يكونُ هو أول المتمردين، وأول الشهداء، وأول الخونة.

- وهل ستلحدُ يوماً؟

- عندما أجد امرأةً تكفيني، هذا هو التعليل الوحيد الذي سأعلل به إلحادي آنذاك، المرأة التي سأحبها يجبُ أن تكون هي كلُّ شيء، وكلُّ شيء آخر ليس مثلها.

المنطق الجميل يبرّرُ الفكرة الخاطئة أحياناً، هذا هو انحراف الكُتّاب، لذلك أعجبني منطق ديار، حاولتُ أن أجاريه، قلت له:

- لا يوجد في الدنيا رجلٌ يعرف لماذا أحبّ، أو يجد في كتب الطب، والتاريخ والعرافة، والكهانة، وأخبار النجوم، وأبراج السماء، وأصوات الجن، وأبيات الشعر، ووجوه الناس، سبباً منطقياً يمكن أن يفسر به حاجته لهذا الحب.

- بماذا تفسره أنت برأيك؟

شعرتُ أنه فتح لي باباً كبيراً للكلام، ولكني تراجعْتُ وبقيتُ على حذرٍ منه، سأختصر إجابتي كثيراً:

- بدايته هي الوجد اللذيذ الذي يجعلنا نغلق عيوننا عن عواقبه، ونسترسل في سحب أنفاس دخانه، ولو قايسناه بسنوات العمر.

- وبعد الحب؟

- لا يوجد شيء بعد الحب، الحب لا ينتهي أساساً.

- لماذا تنحازُ دائماً لهذا الحب، ألا تنظرُ لنفسك؟

- الحب يعلمك التطرف في كلِّ الأحوال يا عزيزي، عندما كنتُ أقول لها دائماً أنها أجملُ ما يمكنُ أن تشيرَ إليه بوصلة جمال في الدنيا لم تكن تصدقني، كانت تظنني أغازلها فحسب، ولكني أقسمُ أني لم أكن أرى شيئاً يباري جمالها في عيني، هذا مع مها، أما بعد أن رحلت، فقد انسحب تطرفي هذا على أشياء أخرى، ولم يعد عندي إلا حُكمانُ أصدرهما على الأشياء، كفرٌ أو إيمان.

- إذن بعد مها، هناك أشياء مؤمنة، وأشياء كافرة، من الذي يوزّع الذنوب هنا؟

- بالفعل، ما أودى بحبنا إلى مسألة الذنوب هذه، من يتحملها؟ ومن يغفرها؟

ألقي ديار نظرةً عبر الزجاج إلى الشارع، وشبَّك كفيه وهو يطبطب بقدمه على الأرض بروية، وقال دون أن ينظر إليّ:

- أعتقد أن ثمة ذنوب يمكن أن تغتفر؟

- بالنسبة لي ليس عندي ذنوبٌ تقبل المغفرة، ولكن عندي ذنوبٌ تستحق أن نتحمل عذابها.

- هل أنت هكذا منذ نشأت؟، لا أظن يبدو لي أنك كنت أكثر تعويماً للأشياء في طفولتك، طبعك الهادئ يحب التوازن بين الطرفين، وأراك متطرفاً جداً الآن.

قال ديار جملته ثم علّق عينيه، المائلة والقائمة، على ظهر فتاةٍ عبرت للتو باب الفندق في طريقها إلى الاستعلامات، لم أكن لأجيب سؤاله بإسهاب وهو يصغي بنصف اهتمام، قلت:

- ربما كان وقوعي في غرام مها انقلاباً إنسانياً في تكويني.

- هيه يا معود إنها امرأة فحسب.

قالها وهو يعود بوجهه يعيد عينيه إلى الطاولة، لم أفهم في البدء أيُّ المرأتين كان يعني، ولكن بدت لي جملته تناسبُ الحالين.

- مها ليست امرأة، مها قَدَرُ.

- مها كَأْسٌ ما زالت سكرته تسكن رأسك فقط، انفض نفسك يا أحمق.

- تروح السكره، وتجيئ الفكرة، ومها حاضرةُ الحالين.

- أياً كانت كيف يمكنها أن تغيّر ملامحك الداخلية بسهولة؟، هذا إذا أسمىناه تغيّراً، أنت انتكست تماماً من التوازن إلى التطرف كما تقول.

- لأن الخارجين من الانقلابات التي تشبه فراق مها يكونون معجونين بالتطرف حتى الإجحاف، يفهمون أن الحياة إما أن تكون نافورة ضياء، أو بركة دماء، يختفي من أعصاب عيونهم طيف اللون الرمادي الذي يبرز بين الحدين.

- هل انتهى انقلابك؟

- قلت لك يا ديار الحب لا ينتهي.

- وماذا ستفعل؟

- أستمّر في الثورة، أنا سأظلُّ ثائراً ضد كل ما يجعلني أشعر أنني فقدتها، في عتمة الضوء، وأزقة الحياة.

- أخشى أن تؤذي نفسك أكثر.

- ليس عندي ما أحسره يا عزيزي.

- أن لا أهتم ثورتك، ولكني أخشى ألا تكون قوياً بما يكفي

لاسترجاعها، أخشى أن تتراجع عندما يكون الحدُّ عند منتصف

ظهرك، فيقصمه.

نقوم من مكاننا، يوقّع ديار فاتورة القهوة، ونخرج إلى الشارع، يستقبلنا تيارٌ هوائيٌ جميل، أخذتُ نفساً عميقاً مع ديار في نفس الوقت، ثم ركبنا في سيارتنا الصغيرة، وانطلق ديار في شوارع المدينة، وأنا، دون ديار، أفكّر في كلامي.

ما هذه الروح الثورية التي تراودني عن نفسها كثيراً هذه الأيام؟، كيف سأبدأها بعد عودتي من فانكوفر، وكيف ستكون ثورتي لاسترجاعك، إذا كنتِ أنتِ خصمي في ذلك؟

كلما مكثتُ مدةً أطول مع هذا الديار، أشعر أنه يتسلّل إلى داخلي، ويلصقُ صورهِ الانتخابية على جدران صدري، ويجعلني أنحاز لأسلوبه كثيراً، ليس هذا ما يدهشني، لقد تعودتُ، أنا الذي نشأتُ ضعيفاً، على التأثير السريع بالأشياء التي تفرض نفسها بقوة، وديار شيء مثل هذا.

الذي يدهشني، أي صرتُ أشعر أن دياراً بدأ يتطبّع بطبعي، صار له ميلٌ ألاحظه إلى أشياء أُلْسِها في الصميم من نفسي، صار أُمَيِّلُ إلى خنوعي واستسلامي، أنا الذي قررتُ أن أعود إلى علاقتي بمها ثائراً هذه المرة.

هل ديار ينطفئ الآن أم أنه يروّض نيرانه فحسب؟

أم أن هناك ما يحوس بفكره؟

فكرة زواجه هذه وركونه إليها أخيراً وهو الذي يكره أن يكون محتاجاً إلى أحد ما، لاسيما المرأة، هو يتجاوزها دائماً رغم أنها كانت طيبةً معه في كل حياته، أمه التي يقدس ذكرها بجنون، زوجته التي رحلت لكي تمنح ابنه الحياة، لارا التي تفعل

المستحيل لكي تظهر فقط برضائه، مس تغل التي يقضي لها ديار حاجياتها، ويشترى لها أغراضها كل بضعة أيام بنفسه.

أين تحديداً سقطت المرأة في داخل ديار؟

ربما هي ردة فعل منعكسة، ديار لم يكن يثق بامرأة أخرى تأتي أفضل منهم، ربما كان يبدو عنيفاً مع الأخريات لأنه يريد أن يحمي ذكرى نساء حياته، لا يريد أن تُشوّه مقدساته النسائية يوماً ما بامرأة خاطئة.

هاهو الآن يتغير، لا يهم أين يتجه، ولكنه يتغير، هذا الجبل الجليدي العائم منذ قرون، بدأت المياه الدافئة تنحت في أطرافه، ساستغل تغيره هذا، لن أكلمه فيه، بعض الصراحة المطلقة أحياناً تضر أكثر مما تنفع.

الحادي والعشرون من يونيو.

تبقى لنا بضعة أيام قبل أن نفترق.

كم من الوقت يجب أن نلتصق ببعضنا حتى نتقي لفح الفراق الأخير؟
كم من الأنهار يجب أن ننقع فيها جرحنا الذي يوشك أن ينقشع دامياً حتى تسكن الجمره؟

كم من العناق نحتاجه زاداً لصحراء الحرمان التي سنقطعها مشياً على الأوجاع؟
تعلمين، لا يمكن أن أنام عندك إلا قبل زواجك بأيام، أي أني سألتقيك وأرحل، ونمكتين بعدها بضعة أيام ثم ترحلين، ولا نستطيع أن نلصق اللقاء الأخير بالفراق الأول وبيننا مشاغل العروس التي امتلأت غرفتها ثياباً وملابس من جهازها الذي دأبت طيلة سنة على تتبع أجمله وأفخمه، حتى تسعد بها قلب زوجها كلما رآها فيما

بعد، و تحرق بما قلب حبيبها كلما زارها الآن.

أزورك قبل فراقنا بأربعة أيام، وأنام عندك ليومين لا يوماً واحداً، لعل هذا القدر المولم ينجل منا فيفض عنا هذه الغمة المقيمة، والنازلة الصعبة، وقد رأنا نرعى بعضنا بعضاً حتى في أيامنا الأخيرة، ونواسي أحزاننا الكبرى بأنفسنا، ونلتقي، كما يشاء الحب، قبل أيام فقط من احتضاره.

والآن في غرفتك، لم يعد الانتقال في الغرفة المحشورة بالملابس، والقمصان، والأحذية والمشاجب، والمعاطف، أمراً يسيراً، لقد تراكمت على بعضها حتى بدت قمماً صغيرة في استواء الأرضية، وأنا أراقبها منذ سنة، وهي تزداد تكوماً، وأنا أزداد غبناً وحرقة.

أفكر في الرجل القميء الذي أعددت له كل هذا.

حتى الملابس نفسها كنت أشعر أنها تنظر لي باستخفاف وهُزء، كأنها تعلم أني لستُ رجلها، وأن رجلاً آخر، تقع صورته على الطاولة هناك، هو الذي سيضم فيها روحك، ويشم منها عطرِك، ويقشُرُها عن جسمك الغض كما يقشُر تفاحته الشهية.

غربةً موحشة تتابني في غرفتك كلما أطلتُ حديثي مع ملابسك تلك، كانت مئاة من القطع، كلها أجمل ما تكون، وأنا جالسٌ بينها مثل زانٍ في ساحة الرجم، تحملُ لي كلُ حصاةٍ كمّاً من المهانة أضعاف ما تحملُ من الألم.

آه..

غداً يراك في ذلك القميص الأزرق وهذا المعطف البني، وهذا الحذاء الأبيض.

غداً يراك في هذا المكشوف من كتفيه، وهذا المفتوح من ساقيه، وهذا البنطال الذي

يُفَصِّلُ الجسد، وهذا القميص الذي يكشفُ خط الصدر ويفضح امتلاءه، وهذه البيجاما التي تكشفُ أكثر مما تستر.

غداً يملُ ربما لكثرة ما خلع عنك رافعة النهدي السوداء أو البيضاء أو الحمراء.

تعاقبت الأدوار، وجاء دوره الأبدي السعيد، وانتهى دوري المؤقت الخائف.

كيف تقبِّليني بهذا العشق بين ملابس سوف يقبلُ فيها رجلٌ آخر؟

كيف ننام معاً على سريرٍ امتلاً تقريباً برقاع الدعوة، وقوائم المدعوين، وصور الزوج القادم معك، في حفل الخطبة؟

كيف ظننت ما خلف أضلاعي صخرة وليس قلباً؟، كيف ظننت ما في محجري حَجراً وليس عيناً؟، كيف ظننتني أتحملُ كل هذا الغيظ العاطفي الذي يتراكم في صدري؟، كيف أتحملُ كل الأشياء التي تُخرجُ لي لسانها في غرفتك؟، وتهزأ بالرجل المؤقت الذي سيرحل بعد قليل.

الرجل الذي لا يستطيع أن يُبقي هذه الفتاة معه، بينما يستطيع الرجل الآخر أن ينتزعها من بيتها، ويرحل بها إلى آخر الدنيا.

كيف أناُم على رجليك، وتمرين على شعري، وظهري، بيديك الفاتنتين، ثم تحملين الهاتف، لترتبي على مسمع مني أمور زفافك وترتيباته، وتنظمي أماكن الورد، وكراسي المدعوين، وأسماء الحضور، وصفوف الخدم، وخيبرة التزيين، وأوقات الدخول والخروج، وأنا أُلصق جلد وجهي بجلد فخذك، وتنسرب الدموع مني ولا تشعرين.

كنتُ أراك في فوضى، فأخشى أن أكون ضيفاً ثقيلاً كثير التذمر، وقد وافقت بالكاد على منامي الليلتين عندك، ابتلع خيبي وذلي وأسكت، حتى تنتهين من هذا

الزوج القادم الذي صار يشاركنا الغرفة والسرير في يومي الأخير، كنتُ أخشى أن أزيد همك هماً، فحشرتُ همي بين أسناني، وكتمتُ حرقتي ولم أتكلم، وفي حلقي، وصدري، ورثتي، وقلبي، لحمٌ يحترق.

أمكث، رغم هذا كله، ليومين معك، وإن لم يَصِفُ لي منها إلا بضع ساعات ليس فيها خاطراً يكدرني، ولا اتصالٌ يزعجني، ولا تجاهلٌ منك يورثني وجع الشهور الطويلة التي قضيتها معك في ليلة واحدة، ماذا يفعل الرجال لو كانوا في مكاني؟، هل يعترضون، هل يجمحون، ويغضبون، ويرحلون؟، كيف أفعل هذا أنا الذي تنحبس رجولي منذ عرفتك في قينة العشق، وتنسحب وراءك حيث تذهبين، وتأمرين، وتشتائين، وترغبين؟

أليس من العار على حينا أن أقول لك اهتمي بي يا حبيبي، ونحن في آخر يوم؟، ماذا كنا نفعل إذن طيلة سنة وشهرين؟

كيف أحبرك أنه بعد ساعات لن ترينني لسنوات، وأي حين أرحل الآن لن أعود بعد أسبوع كما تعودنا، بل لن أعود أبداً؟

كيف آخذ حقَّ رجولي من سلطة أنوثتك دون أن تصرخي في وجهي: ((لا تخاصري، لا تضغط علي))، كان أجدر بك أن تقولي بلسان آخر: ((اتركني أدير أمور زواجي))

كانت رجولي تموت وتموت، وأعود طفلاً صغيراً لا يعي، لا تلقين له اهتماماً، ولا تشغلين به بالاً، يللم معك الأشياء في الصناديق، ويرتَّب الأوراق والفوضى، ويساعدك في حزم أمتعتك، وجمع أغراضك، لتستقرَّ بعد ذلك في بيت زوجك، حتى إذا ساعدك سالم في فكّها، ونثرها، تتذكرين أن الذي ساعدك في حزمها وجمعها أصلاً كان أنا.

رجلٌ يحزم الأشياء، و رجلٌ آخر يجلها.

قتلتي تنازلاتي هذه، ولكني قدّمته لك دون انتظار، ذبحتُ كبريائي مثل نعجة قرباناً لرضائك عني، وحبك لي، كتمتُ الصرخة البكماء التي تتردّد في عروقي مثل الرعد، ولم أحاول أن أسمعك إلا غزلاً وحباً، أيّ كلامٍ ذليل لا يجعلني مثلهم.

تنامين ذلك اليوم جواري وأنا أقسم أنه لم يغمض لي جفن.

تركتُ الوسادة التي تجمع رأسينا لك، وطويتُ وسادةً أخرى في حضني، وجلستُ القرفصاء، وسرقتُ يدك الدافئة من فوق صدرك وتركتها في كفي، وبقيتُ أتأملك.

أتأملك،

أتأملك،

كلُّ ما في هذا الوجه مشرقٌ، وصباحٌ، وملائكي.

فمك المنفرج قليلاً.

هل حقاً لن أراه بعد هذا اليوم؟

أغرق في الجفن، والخذ، والشفة، وخصلات الشعر.

هل حقاً سيُقبّل هذا الوجه رجلٌ غيري؟

أتأمل فيك بحسرة العاصي الذي يُعرض عليه مقعده من الجنة ثم يجرّ إلى النار.

وأبكي بصمت، مثل الشموع..

وأنت نائمة مثل أميرات البحور البعيدة..

وأنشج قليلاً، ويرتفع صوتي..

وتنقلين مترعجة من صوت بكائي، فأظهار بالنوم..

ثم أعود إلى جلستي، ووحدتي، وتأملي العميق في رخام وجهك وجسمك..

أعلم لو أني أيقظتك لنهرتني متعللة بالتعب والإرهاق، وما ينتظرك من الواجبات،

فأتركك في خلودك الطاهر، وأمكثُ أنا في تبثلي العميق أمام ملامح وجهك، أنزلق من كل جفن، أتعلق بحاجبيك، وأطرح نفسي على الخد الصافي الذي يبدو كسحابة نزلت من السماء السابعة، وأجلسُ هناك، بين شفتيك، تظللني شفتك العليا المقوسة قليلاً، والبارزة إلى الأعلى بفتنة لا تتكرر في امرأتين من نساء الأرض.

أتصوّفُ حتى النخاع في يومي الأخير معك، وعندما يوقظك نداء الهاتف، تنتهي ساعات الإيمان التي جلستها معك، وتخرجين من أفقي، إلى آفاقٍ أخرى، ومشاغلاً أخرى، وأستند أنا بظهري على السرير، وأتشاغل بأي شيء لا يجعلك ترين دموعي.

* * *

ودقّت الساعة الثالثة فجراً.

حان وقتُ الرحيل، ولم تعد الأشياء الأخيرة تجدي نفعاً.

لا العناق الأخير، ولا القبلة الأخيرة..

لا دفنك، ولا سريرك..

ولا دموعك، ولا ارتجافك..

ولا رعشات أصابعك على ظهري..

ولا حركة شفاهك خلف أذني..

فقدت كل العادات الحبيبة لذهبا في ساعة الفاجعة، وانحصرت كل لذائذ الدنيا في

موتٍ يبقيني معك الآن، أو بمنعك من الذهاب لغيري.

لم يبق إلا أن معجزةً كونيةً تحدث الآن تغير هذه القدر القاتل.

أَسْحَبُ نَفْسِي مِنْ شَفْتَيْكَ سَحْبًا، بَطْنِي يُؤْلِمُنِي بِشَدَّةٍ، وَقَلْبِي مُنْقَبِضٌ كَأَنَّهُ ثَمَرَةٌ حُوزَ قَاسِيَةٍ، وَعَيْنَاكَ تَدْمَعَانِ بِغَزَارَةٍ، وَفَمُكَ يَرْتَعَشُ.

صَارَ وَجْهُكَ أَصْفَرَ مِثْلَ الْمَوْتَى، وَأَنَا أَخَافُ عَلَيْكَ كَثِيرًا مِنْ هَذَا السَّحَرِ الْمُوحِشِ الَّذِي سَأَتْرَكُكَ فِيهِ، فَلَيْتَكَ تَعُودِينَ إِلَى غَرْفَتِكَ، قَبْلَ أَنْ يَرَانَا أَحَدٌ مَعًا.

عُودِي لِغَرْفَتِكَ قَبْلَ أَنْ تَنْهَارِي وَأَتَهَارَ، وَأَمَلًا الْبَيْتَ السَّاكِنَ صِرَاحًا أَوْقِظَ بِهِ كُلَّ مَنْ فِيهِ، لِيَشْهَدُوا بِأَعْيُنِهِمْ فَجِيعَةَ الثَّالِثَةِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ.

وَدَاعًا، يَا أَقْرَبَ امْرَأَةٍ، وَأَبْعَدَهَا..

لَا تَتَأَمَّلِي خُرُوجِي، وَلَا تَلْقِي نَظْرَاتِكَ عَلَى ظَهْرِي الْمُبْتَعَدِ، أَنَا بِالْكَادِ أَجْرٌ حِطَايَ حَتَّى أَجْرٌ فَوْقَ ظَهْرِي عَيْنَيْكَ الْبَاكِتَيْنِ.

اِتْرَكِيْنِي أَجْتَازَ الْفَنَاءَ الْجَمِيلَ الَّذِي اعْتَادَ عَلَيَّ، وَاعْتَدْتُ عَلَيْهِ، لِلْمَرَّةِ الْآخِرَةِ..

اِتْرَكِيْنِي أَنْزِلُقَ بِجَسَدِي مِنْ فَرْجَةِ الْبَابِ الْكَبِيرِ، وَأَلْعُقَ مِنْ وَرَائِهِ الشَّارِعَ بِطَوْلِهِ هَمًّا وَخَبِيَّةً، وَأَلْفِظَ آخِرَ الْأَنْفَاسِ الْحَيَّةِ، وَأَخْرِجَ مِنْ دُنْيَايَ، لِأَضْعَ خَطْوَتِي الْأُولَى فِي أَرْضِ الْمَوْتَى..

هَنَا سَيَارَتِي الْمَرْكُونَةَ بَعِيدًا تَنْتَظِرُنِي، أَلْقَى بِنَفْسِي خَلْفَ مَقُودِهَا، وَأَقُودُهَا بِوَهْنٍ، وَتَمَشِّي هِيَ بِبَطْءٍ، عَبْرَ شَوَارِعَ تَتَلَوَّى كَالْأَفَاعِي، وَتَحْمَلُنِي إِلَى الْجَهْلُولِ.

كُلَّ شَارِعٍ يَلْتَفُ، وَيَلْتَفُ، ثُمَّ أَفَاجَأُ بِهِ يَنْغَرِزُ مِثْلَ الْخَنَجَرِ فِي عُنُقِي.

أَهَاتُفُكَ بَعْدَهَا بِيَوْمٍ وَفِي دَاخِلِي رَجُلٌ آخَرُ شَكَّلَتْهُ الْأَوْجَاعُ، وَلَمْ يَعِدْ يَدْرِي مَا يَقُولُ، أَهْمَالٌ عَلَيْكَ بِالْكَلَامِ، وَالدَّمُوعُ، تَعَلَّمْتُ كَيْفَ أَنْ بَكَاءَ الْأَطْفَالُ هُوَ الْأَعْلَى فَلَسْفَةً، بَكَاءَ الصَّرَاحِ، وَالنَّحِيبِ، وَالْجَزَعِ، وَبِعَثْرَةِ الْأَوْرَاقِ، وَالْأَقْلَامِ، وَالْارْتِمَاءِ عَلَى الْأَرْضِ فِي هَسْتِيرَةٍ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ.

وَأَخْرِجَ مِنْ بَيْتِي إِلَيْكَ، وَلَيْسَ فِي شَوَارِعِ الْمَدِينَةِ فَجْرًا إِلَّا الْخَاوُونَ أَمْثَالِي، أَقُودُ سَيَارَتِي إِلَى بَيْتِكَ دُونَ أَنْ أَخْبِرَكَ، أَزْرَعُ نَفْسِي فِي الْفَصْلِ الْمَوْجِعِ الْمَرَّ، الثَّانِيَةَ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ، شَبَاكَكَ مُضِيءٍ، وَالْبَابَ الْكَبِيرَ مَغْلُقًا فِي وَجْهِي بِقَسْوَةٍ، وَسَيَارَةَ سَالِمَ الَّذِي عَقَدَ عَلَيْكَ فِعْلًا، وَصَارَ زَوْجًا شَرْعِيًّا، أَمَامَ الْمَنْزِلِ.

إِنَّهُ مَعَكَ الْآنَ، لِقَاءَاتُ اللَّيْلِ مَا بَيْنَ الْعَقْدِ وَالزَّوْاجِ، تَتَسَامَرَانِ، تَضْحَكَانِ، تَتَعَانَقَانِ، وَأَلْتَحِفُ أَنَا بِجُدْرَانِ الْحَيِّ، أَتَوَكَّأُ عَلَى عَصَا قَهْرِي، وَغَيْرَتِي، وَلَعْنَاتِ السَّمَاءِ تَنْزِلُ عَلَى رَأْسِي فِي لَيْلٍ عَارٍ يَتَحَرَّشُ بِي فِي الطَّرِيقَاتِ.

كَيْفَ تَمَاسَكْتُ تِلْكَ اللَّيْلَةَ؟، كَيْفَ قَدْتُ سَيَارَتِي إِلَى الْمَنْزِلِ وَدُمُوعِي تَمْنَعُنِي الرُّؤْيَا، وَيَدَايَ تَرْجُفَانِ بِشَدَّةٍ، وَأَشْعُرُ بِالْحَمَى تَضْرِبُ جَنْبِي، وَوَجْهِي، وَتَوَلُّمُ عِظَامِي، إِنَّ رَجُلًا يُفْجِعُ فِي قُدْرَتِهِ عَلَى الْحَيَاةِ بِدُونِ امْرَأَتِهِ الَّتِي يَحِبُّ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَتَمَاسِكَ.

بَعْدَ زِيَارَتِهِ تِلْكَ، عَلِمْتُ أَنْ شَفَاهُكَ لَمْ تَعُدْ عِذْرَاءَ بَعْدِي، وَأَنْ غَيْرِي تَذُوقُهَا، وَأَنْ تِلْكَ الشَّفَّةُ الْعُلْيَا الْبَارِزَةُ، صَارَتْ لَهُ.

بَعْدَ لَيْلَتَيْنِ، أَنْتَ فِي فِرَاشِهِ، رِمَا فِي نَفْسِهَا، وَرِمَا غَدًا، أَوْ بَعْدَ غَدٍ، ثُمَّ تَفْقَدِينَ تَاجُكَ الْجَمِيلَ عَلَى فِرَاشِ غَيْرِي، يَفْضُ عِذْرَتِكَ الدَّامِيَّةَ، وَيَفْضُ فِي قَلْبِي أَنَا أَلْفَ شَرِيَانٍ وَوَرِيدٍ لَا يَتَحَمَّلُ الْأَلَمَ، وَالْقَهْرَ، وَالنَّارَ، وَضَغْطَ الدَّمَاءِ.

الْآنَ لَمْ يَعُدْ عِنْدَكَ مَا تَخَافِينَ عَلَيْهِ، سَيَعْلَمُكَ زَوْجُكَ مَتَعًا آخَرَ لَمْ تَكُونِي لِنَجْرِيهَا مَعِي وَبَيْنَنَا هَذَا الْحَاجِزُ الْفَطْرِي الَّذِي تَخَافِينَ عَلَيْهِ، سَتَصْبِحُ لَيْلَاتِكُمْ أَسْعَدَ، وَأَجْمَلَ، وَأَشْهَى، وَأَكْثَرَ ارْتَوَاءً، وَشَبَقًا، وَلَذَّةً، وَسَيَنْطَوِي لَيْلِي أَنَا فِي عَتَمَةِ الْحُزْنِ الْحَالِكَةِ، وَتَأْكُلُ مِنْ جِلْدِي صَرَاصِيرَ اللَّيْلِ الْبَهِيمِ، وَأَمُوتُ فِي الظَّلَامِ.

أَتُخِيلُ أَنَّكَ نَلْتَ مِنْ سَالِمِ الْأَخْرَقِ مَا لَمْ أَقْدِرْ عَلَى مَنْحِكَ إِيَّاهُ، فَيَنْفِخُ الْأَلَمُ فِي دَاخِلِي، مَاذَا أَفْعَلُ إِذَا كَانَ سَالِمٌ يَكْبُرُنِي بِأَعْوَامِ حَوْلَتِهِ أَنْ يَصِيبَ مِنْ دُنْيَاهُ خَيْرًا؟، وَأَنَا

الفصل الثامن

ما زلتُ أتعثر في عتبات العشرين، أحاول أن أقدم مალًا، وظيفةً، أي شيء يغري امرأة، أو أهلها، فلا أحد بين يدي شيئًا.

وأنت لا تنتظرين أن أكوّن نفسي، ترحلين معه وتتركي.

شيء في النساء يأخذ عيونهن نحو المادة مهما أعلن الحب علينا.

سيقضي الله ببني، وبين التي استمتعت بطبيتي، وأوراق، وقصائدي، ثم ألفتني مريضاً على قارعة الطريق، ومضت لماله، ومستقبله.

ثم تأبى أن تعود، لأنها لا تستطيع أن تؤذي مشاعره بهجرانه دون سبب.

ليت اللواتي يسرقن أقدار الرجال يُجَدْنَ على الأقل صياغة الأعذار.

إنهن لا يعطيننا حتى عذراً مقنعاً نمسح به دموع الحسرة عليهن، والشعور بالظلم والمهانة، واحتقار الذات.

صرتُ لا أدري ماذا أسمى نفسي في حياتك، هل أنا حبيب؟، عشيق؟، صديق قديم؟،

أم نزوة؟، سالم أخيراً ألغى كل أسمائي، وألقابي، وحلّ محلي، وكسّر أصنامي،

وتمائمي، وألقائي على حائط الوهم، حكاية قديمة، تتحول تدريجياً إلى أسطورة، ثم

خيال لا حقيقة له، ثم صفحة غطاها الغبار، من كتاب أصفر.

هل تعلم النساء كيف تنتقم لنفسها الكتب الصفراء؟

ماتت مس تنغل.

دون أن يدرك الموت أنها كانت الحائط الوحيد الذي يستند عليه حزني في ليل العمر، ويغني في خفوت.

دون أن يدرك أن ما تبقى لي من الأشياء الأخرى ليس كافياً للاستمرار في الحياة، والعيش، والبقاء، والمكوث، والتنفس.

دون أن يدرك أن مجرد شعوري بفقد شيء آخر، أي شيء، تنتزع الحياة من يدي، ولو كان كوب قهوة رخيص، سيجعلني اختنق بحرمان.

هكذا، دون أن يقف قليلاً أمام قدرتي على التماسك، أخذها ومضى.

أفقدني الموت أكبر ما كانت تملكه يداي في فقر الروح الذي أعيشه، لأن الفقر، بالنسبة للعدم الذي تريدني فيه الأقدار، يعتبر ترفاً.

هذه المرة، جاءت النوبة أقوى من قلبها العجوز، فتركتها منكفئة على وجهها، ككتاب ملّ الزمن من قراءته، فغفا، وتركه يسقط.

ولا شيء في الدنيا شهد سقوطها، حتى الأشياء من حولها، لأنها سقطت في الظلام، في غرفة نومها، ودون أن يُضاء مصباح نور، أو يطلّ شعاع فجر، ماتت مهدوء

وصمت، كأنها أرادت أن تقول للحياة التي هزمتها أخيراً أن انتصارها كان تافهاً، لا يعدو كونه موتاً صغيراً في ليلة صيف.

نوبةً قلبيةً لم تتوقعها فقط، في ظلام ليل دامس، بعد أن أوت إلى فراشها، ولا شيء في الدنيا، إلا الغريزة، يجعلها تنتظر الصباح أصلاً.

عدنا وقد رقدت في صندوقها الخشبي، باب شقتها مغلق، وأنا أتخيلها خلفه، وأسمع أزيز عجلات كرسيها الخافت، وطقطة النار في مدفأها العتيقة، وطرق السناجب على شباكها المعطاء، وطيبة وجهها الأبيض، وتجاويد عينيها الصافيتين، وخصلات شعرها الشقراء، وأطراف أصابعها التي مسحت دموعي، وآوت بكائي، وانتصرت لي وأنا معها من الحياة التي أحقد عليها.

ماتت، ماتت..

أهوي على ذراع ديار، يا صديقي ديار، اجعلي أستوعب همجية هذه الحياة فهي لا تشرح نفسها، لماذا هي ما زالت تصفعنا، تصفعنا، حتى نتعلم، أو نتألم، سيان يا ديار، كله فجع في شكل حقيقة، أو حقيقة في شكل فجع.

فلسف لي هذا الموت إن كنت تراه كبيراً، أو ابصقه على وجهي بنصف كلمة إن كنت لا تراه كبيراً، ولكن قل لي أي شيء أسد به ثقب الحيرة الذي يكاد يسرّب دماغي خارج رأسي.

لماذا تموت هذه الطيبة ما دامت تضيف إلى الحياة ولا تأخذ منها؟، ما دامت قادرة على الابتسام لي صباحاً، والبكاء معي مساءً؟، ما دمت أنتظرها عندما تجوع أحزاني كما تنتظرها السناجب عند باب الشرفة؟

اقرأ هدياني يا ديار لتعلم ما ينقصني فهمه، ثم أخبرني عنه، ربما أحتاج إلى ذاكرة غير

تلك البالية، وعقلاً غير هذا الذي امتأ نقائض وصداعاً.

يا ديار، ماتت، فلا تمت أنت الآخر وكلمني.

لا تخف، عندي شعور بالخواء يجعلني قادراً على قراءة الحياة معك من أول السطر، لنتحاذ على الورقات أياماً إذا شئت، نمشي عليها سواداً بعد سواد، وصمتاً بعد صمت، وصبراً بعد صبر، إما أن نفهم في النهاية، وإما أن نمزق أوردتنا ثمن التهامنا لها دون مبرر، لن نصنع في آخر المطاف إلا سوادين آخرين حيث توقفنا.

ديار، ديار..

سأعود الليلة إلى شقتين واجمتين، صاحباها موتى.

كيف سأعيش بين المقبرتين؟، وماذا سأتكلم أمام وجوم الأبواب؟

آوني عندك هذه الليلة، ربما يساعدني الصباح على التبرير أمام البابين المغلقين، عندما يتشنجان أمام المفتاح البارد.

كل ما أحتاجه عندك يا صديقي، فراش، وسقف مظلم.

سوف أبقى طوال الليل أرسم خطوطاً في الفراغ، أصلها ببعضها، أو أترك لهاياتها ضائعة مثلي.

سوف أكتب معادلة تكرر نفسها إلى المالا نهاية، وأعلقها في فضاء الظلام الكثيف، وأنفج في عذابها، انتقاماً من الحياة.

لا أريد حبوب صداع، ولا حبوب نوم، هل عندك حبوب أرق؟، أنا لن أنام يا ديار قبل أن يكتمل انتقامي من الحياة، سوف أجمعها في عيني وأبكي، أريد لها أن تموت غرقاً في دمة.

سوف أرهقها جداً حتى تهلك مني، سوف أمزق تلايبيها، وأسألها عنهم واحداً واحداً، أولئك الذين غابوا ودمروا حياتي، موتاً أو قسوة، أين أبي، ومس تنغل، ومها، لو كانوا يسمعون، لن أدعها حتى تطرق في حسرة وندم، وتلتوي على نفسها وتختفي.

أريد دخاناً وكأساً يا ديار، لا تنهربي، أريد أحد كؤوسك التي تشرب، أكره أن يكون حزني تقليدياً هكذا، ولكني أودُّ لو أهدي كثيراً هذا المساء، أشياء كثيرة أودُّ أن أحطمها، وأمشي على شظاياها حافياً، لم أعد أملك كبحاً لجماعي، فامنحني جموحاً أتعلى به أمام عجزتي، وامنحه رجلاً سكراناً يتخبط في ردهات الليل بعد أن حطّم قيوده.

هاتِ عودك، واشنقني على وترٍ يا ديار.

((أوهوووه.. يا مال.. يا عيني..

محاني.. محاني..

بكيت وصارن ضلوعي محاني..

محاني.. انحن.. انحن..

يا دنيا وياي.. كل مشيك محاني

كتب لأهلك كذب.. والانا.. محاني

شلت بضلوعي مآثم.. ولا من شاف

يعوي ذيب قلبي.. وروحي لي تخاف..

آه..

أصيح بصوت يا بويه ويا يابه..

بعد ما ظل عجيب ولا غرابه..

آه..

والك عين وتسأليني يا دنيا..

شهاالمغنى الحزين.. شهاالكآبة))

* * *

كان ديار مطرقاً على كرسیه، وأصابه وحدها تدخن سيجارةً بائسة، نسي أن يأخذ الأنفاس، بينما كانت عيناه تحدقان في ذلك اللاشيء الذي يتراقص أمام عيوننا في أوقات الحزن.

قال لي ديار إن موت مس تنغل مناسبة للحزن.

وأنا لم أفهم قصده، ولكني أعرف أنه استغلّ موتها ليُعتقَ مليون دمة ظلت تتجمع تحت جفنه منذ سنوات.

مناسبات الحزن، تجعلنا نبكي على كل الأشياء التي فقدناها، وأورثتنا حزناً ما، في الماضي.

ماتت مس تنغل، وعدتُ وحيداً.

ديار سائقٌ متنقل، لا بد أن يغيب أياماً قبل أن يعود إليّ محملاً بأفكاره الليلية، وعندما رحلتُ معه، فهمتُ أين يختمر فكرُهُ المتقلب هذا، هو يرحل ليلاً، حيث تصبح التفافات الطريق الملتف كأفعى بين غابتين امتداداً للتفافات عقله هو، وعيناه المعلقتان بالطريق، تصيران أكثر لمعناً عندما تغتسلان بمياه دجلة، وعندما يبحر القارب البغدادي العتيق، ليشق النهر تحت هامات النخيل التي تتراقص على صفحة الماء، و نشيد الصيادين المنهمر على الجحافل العجوز.

هكذا يقطع ديار مدينة بغداد، من فانكوفر إلى كالجري.

لم يبق لي إلا هو.

رَحَلْتُ مس تغل، بكلِّ دفءٍ ليلاتها الشتائية الطويلة التي أَقْشَرُ فيها أحزاني، وأُقلِّبُها على لُحَب المدفأة، هارباً من الوحدة العقيمة التي تورثني الليل هماً، وترثني عند الصباح رجلاً بالياً يتأكلُ بعيداً عن وطنه.

عملي لا يشبه عمله، دوامي ينتهي آخر النهار، ودوامه يبدأ عند ذلك، أُمْنَح عملي ودراسي ما أستطيعه من جهد، حتى لا يبقى في رأسي مكانٌ لهذا الصداغ، ولا مساحةٌ لأمطار الذاكرة، وأشعر أن رصيدَ حسابي يكبر، وأعينهم تمنحني نظرات أوسع، وكرسیاً أعلى، وأصعد نحو حلمٍ ما، وأتذكر كم من الأحلام كان عليَّ أن أتناساها حتى يتحقق لي هذا الأخير.

لأن قضية الأحلام هذه تزداد تعقيداً في أول العمر.

بقدر ما تكون أحلامنا جميلةً مثل الطيور، بعضها يخلق في الأفق، وبعضها يحطّ على أشرعة الصيد، وبعضها ينام بين دموعنا، بقدر ما تختفي كلما كبرنا، فلا نعود نراها، أو تموت في أيدينا، وتتعفن، وتؤذينا رائحتها.

أحلام كبرى، صرنا نتمنى ألا تتحقق، لأن تيار حياتنا لم يعد آمناً للسباحة.

وأحلام صغرى، لم تعد ذات قيمة، لأن تحقّقها صار يشبه احتفالاً صغيراً، في مدينة منكوبة.

ولأنك منذ دخلتِ حياتي قلبتِ موازين الأحلام، ووحّدتِ بينها، وجمعتِ كل الأمنيات الصغيرة التي كنت أرسمها على سحابة بيضاء، أو أبنيها على شاطئ ما، أو ألقبها في جيبى مثل صدفة ملونة، وجعلتها كلها تتجه نحوك رغبةً وابتهالاً، أصبحتُ أشعر أن حلمي بك أكبر من أن أمارس معه لعبة السعادة والحزن، عندما أفتنيه، أو

أفقدته.

حلمي بامتلاك عينيكَ أهيارٌ كبيرٌ لجدار حياتي، قتل تحته كل العصافير الصغيرة، والأحلام الشاردة الأخرى، وقتلني معها.

عدتُ إلى حسن، كلما شعرتُ أنك بعيدةٌ جداً بحثتُ عن رجلٍ يقاسمني نفس الشعور.

ألقيتُ عليه سؤالاً:

- هل ما زلت تحبها؟
- هل عرفت عاشقاً تراجع عن حماقاته؟
- أجل، عندما يختفي الأمل تماماً.
- بالعكس، أجمل حب هو الذي يخبئ خالياً من الأطماع.

إنه يمارس وفاء اليائسين.

عرفتُ منك أنه أقام تجارة مع بضعة شركاء، وكتب في عقدها أنه في حال وفاته تسجلُ نسبة من أرباح المشروع طيلة مدته باسمك، وترك فيه عنوانك ورقم هاتفك.

أشعرُ أنه يصبرُ على حكم الحب الغيابي ما دام عاجزاً عن الحضور، أنا ما زلتُ أحتفظ بأملٍ صغير، ولكني إذا يأسست فسيكون يأسى ممحاةً ضخمة تمسح من لوح أقداري كلمة عاشق، وربما تركت مكانها حاقداً.

إذا استطاع هو أن يعيش بدونك، فهذا شأنه، أما أنا فليس عندي إلا مشروعٌ واحد أستطيع أن أتنازل لك عن كلِّ أرباحه، وأصوله.

حياتي، كلها.

سألني حسن يوماً آخر بعد أن تخلّى عن قناع كبريائه إزاءك:

- قلي بربك أين تظنها رحلت؟

- إنها في سيدني يا عزيزي، زوجها يدرس، وهي تدرس.

- هل سترها؟

- لا أدري..

- إذا أَلقت بك الأيام في طريقها، فلا تذكرني أمامها أرجوك.

- أفهم هذا.

- وداعاً أنت أيضاً، لا أريد أن ألتقي بك مرةً أخرى.

- وداعاً.

سيأتي رجلٌ يرفضُ استسلامك هذا يا حسن، ليس لأنه أقوى منك، بل على العكس، لأنه لا يملك قدرتك على تجاهلها.

أغلقت جهاز الكمبيوتر، واضطجعت على السرير أنا ووهمي.

شعرتُ أنني سأحترق، أطفأتُ النيران في كتابٍ أخذتُ أقرأ فيه، حتى غلبني النوم على صفحاته.

لأن المطر ظلَّ يهطلُ طوال الليل، جاء الصباحُ رمادياً، شاحباً، كوجه أرملة، تبقتُ في السماء قطعَ السحاب الأكبر سنّاً لتحجب وجه الشمس، بينما لا يزال في نسيم الصباح رائحة المطر، ولم تزل المظلاتُ مطويةً في الأيدي تحسباً لمعاودة هطوله، هذا الضيف اللحوح الذي تعودوا عليه.

قدتُ سيارتي تاركاً نوافذها مفتوحةً ليرتطم هواءُ الصباح بوجهي، ويحاول أن ينحتَ في هذا الشكل القديم، ويمنح وجهي ملامح جديدة، لها برودةُ الأشياء التي

يركمها الثلج تحته، وسماجة الغرباء المخلولين ترفاً، أو حزنًا، أو كبرياءً.

لا يهمني كيف يرون شكل غربتي، ديار يظنها ترفاً لأن غربته هو شطفُ فطيع، أروى تظنها حزنًا لأنها تقرأ عيني أحيها بإشفاق، حسن يظنها كبرياءً، لأنني كنتُ تلميذه، ولكنني احتجتُ إلى ألف صفحةٍ حتى أستوعب الدرس.

منذ أن قررتُ أن أعود إليك، أصبح شكل غربتي مجرد زمن أمكنه ريثما تنتهي شهادتي، وأعود لأنتصب أمام بابك بكل عناد الأرض.

لأن أحلام البارحة كانت سعيدة، جاء هذا الصباح هادئاً بدون صداد، لم أدخن، ولم أتناوب حتى وأنا أستيقظ.

هناك أشياء، عندما تلتقي تخلقُ قوانين جديدة في الطبيعة.

صباحٌ غائمٌ، وشارعٌ غريب، وصوتُ فيروز.

هذا المغموسُ في لبن السماء.

لقاء هذه الأشياء، لا يفهمه إلا أنا، والملايين من مواطني مدن الشتات فقط.

عندما يتمللم الحزن في داخلنا، تحمل فيروز إناءً من الكريستال، تجمع فيه همومنا وأوجاعنا، وتخلطها معاً، ثم تعود لتوزعها بيننا بالتساوي، فيحمل كلُّ منا همَّ الآخر، ووجعاً جديداً عليه، يواجهه بأمل أكبر، وصبرٍ أجمل، بعد أن كفته فيروز رتابة همومه القديمة.

هكذا توحدنا فيروز بطريقتها، تلون دموعنا بلون واحد، تقلبنا على حزنٍ لا ندري كنهه، ولا نفهم معناه، ولا نعرف له اسماً، ولا رقماً، ولا هوية، ولكنه ينام في رثائنا جميعاً، يزرعه فينا صوفاً السماوي الشفاف، ليجلو صدى الدنيا عن صدورنا، ويشعل أحشائنا قليلة حتى لا تتجمد المشاعر.

((عشاق الطرقات افترقوا..

لا حكي.. لا مواعيد..

أنا وحدي صوت الشوارع..

أنا طير القرميد

هربت بيهالليل..

من مربوط هالليل..

وأنا قنديل الحزن الوحيد))

راحت تغني فوقى مثل سحابة تستحي أن تمطر، وجّهت مشاعري إلى صوتها
المسافر، ترى كم عاشقاً قبلي علمته فيروز كيف يبكي بسعادة؟

كم عاشقاً سرق من مشاويرها؟

((في قهوة ع المفرق..

في موقدة.. وفي نار

نبقى أنا وحببي

نفرشها بالأسرار

جيت اليوم لقيت

عشاق اثنين.. صغار

قعدوا على مقاعدنا

سرقوا منا.. المشوار))

تعاقبت الأغنيات على مسجلي كما تريدها ذاكرتي، تدليك طفيف على أماكن
الوجع، أو ربما تسريب لمهم شاف من مسامات جلدي.

أتذكر غناءك أنت لي.

صوتك العذب الشفاف، يأتيني عبر الهاتف، بعد أن ألح عليك عشرين دقيقة، وألث
أستقطره غزلاً حتى توافقي أخيراً، وتغني لي مقطعاً، في البدء تضحكين، تضحكين، ثم
يبدأ غناءك..

((رجعوني عنيك لأياااااامي اللي راحوا..

علموني اندم على المااااضي... وجراحو))

وعندما تصلين للمقطع الذي أصبح فيه أنا عمرك، صديقي، وأنت لا تدريين ما الذي
يكون مني خلف الهاتف، كنت أبكي، بعض الغرور يجعلنا نبكي أحياناً، أو ربما
كانت انفعالاتي متخبطة، أنا الذي لم أجرب شيئاً مثلك من قبل.

أتذكر الصمت الذي احتلنا طويلاً ونحن نكتشف للمرة الأولى أغنيتنا الطويلة
(عينك)، نظل له ساهمين في غرفتك حتى ينتهي.

صرت أعتقد أن بعض الغناء يقلب أحزاننا حتى لا تفسد.

ولكن بعضه أيضاً يشبه جرعات الدواء الزائدة، يقتل، ألم تكذ (أحبك) أن تقتلني
في شقة ديار؟، أي أغنية تلك التي تسبب انهياراً عصبياً وارتفاعاً في ضغط الدم؟

أكاد أخرج من صفاء هذا الصباح، يكاد الهيم أن يستيقظ.

أين أحد ديار الآن؟، ما دام هذا الصباح يرشوني لبيتي حزني نائماً في صندوقه
الأخير، فرصة نادرة للقائه، حتى أشعره أنني رجل طبيعي، لا يأكل الحزن من عقله،
سأقصده في شقته، ربما كان مستيقظاً هذا الصباح، أو أنني سأوقظه.

رجل كالقطط، ينام متى شاء، ويستيقظ متى شاء، كأن نومه يأتيه دون نعاس.

منذ رحلة ألبرت، وأنا أشعر أنه، بقدر ما أحتاج أنا إلى وجوده بعد موت مس تغل،

صرتُ الملح في جفنه المائل حاجةً تشبه حاجتي، ولكنها أكثر ظمأً، وأملأً، ومكابرة.

وعندما سقطتُ، بكاءً، في شقته تلك الليلة، ومواله جائمٌ على صدري، يحاول أن يخنقني، كان جزعه عظيماً، وإشفاقه عجيماً، بعدها صار يخنو عليّ وهو يدرك أنني مريض، عندي كليةٌ كسلى، وقلبٌ يائس.

متطرف، عندما يقسو يحيل رجلاً أضخم منه مرتين إلى كومة لحمٍ متكومةٍ تحت رجله، وعندما يخنو، يحفظُ أكثر مني مواعيد دوائي.

قديماً، كنتُ أشعر أن لتراتِ الدماء التي تحتويها أجسادُ العراقيين تزيد قليلاً عنها في الأجساد العربية الأخرى، لهذا تراهم يتعاملون مع هذا الفائض بإسراف، فهو في آخر الأمر جاهزٌ للتصدير إما إلى الموت أو إلى المنفى، والقلة الذين تبقوا من هؤلاء ربما اتسعت أوردتهم قليلاً لفائض الدم هذا، كلُّ شيء قابلٌ للتوسع في ذلك البلد، الأرض، والأطماع، والذمم، وحتى عدد المحافظات.

لُعنتُ بغداد من بلدٍ كلُّ ما فيه أعاجيب!

كم أفسدهم فراهم وأفسد عليهم، يظنون أنهم باقون ما بقي هو، وكأنا لن تقف عليه قبلهم أممٌ لم يعد منهم الآن أيُّ أثر.

ليتهم تعلموا من الجريان، ولكنهم التاثوا كثيراً بسلوكه في الفيضان، ديار هذا تعلم كيف يستكين سكينه الفرات، وكيف يثور ثورته، ولكن بلا جدوى، أشعر أن عمر هذا الرجل يتأكل سريعاً قلبه، ودماؤه، وراثته، وجبينه، تستهلك بعضها بشدة، وهو لا يفعل إزاء ذلك شيئاً، إلا أن يخزن ذاكرته في قبو صمته، ثم يُعَتِّقها خمراً، ويحتسيها ذات ليلة حتى الصباح.

ويحاول ديار أن يحقن في عروقي أملاً فتفشلُ يداه، وتنحجُ شخصيته، هو يريدني أن

أدوس على ذكراك بنعل رجولة، وأنا لا أتكلم معه في هذا.

كيف يمكن أن أمتهن المرأة التي نزلتُ من صرح رجولي إلى لجة أنوثتها لأقبل قديمها؟، ألا يعرف ديار كم من القرون يجب أن تتعاقبُ على الأقوام حتى ينسوا مقدساتهم؟، كيف أنقلبُ على شرعية حكمها فجأة كما ينقلبُ العراقيون على رئيسهم قبل أن يغتسل هو نفسه من وعاء انقلابه؟

يتكلم من حيث لا تمنحني كلماته حلاً وأملأً، ولكن الأمل جاءني من شخصيته، لا من كلماته.

تخيلي لو أن رجلاً كديار كان بديلي في حبك.

قديماً كانوا يقولون: ((حب العراقيين يكسر الضلع))، لأنه ثائرٌ دمويٌّ كحب الجاهلية، أتصورُ أن ديار كان ليشرب دم سالم هذا، قبل أن يسمح له أن يراك مجرد رؤية، ولو وقفت عشرُ مدنٍ في وجهه لا مدينة واحدة.

لماذا لا أثور على زواجك هذه إذن؟، لماذا أظلُّ أنقعُ الأحزان وأسفُّها في ليل حياتي البهيم حتى آخر العمر؟، طريق النضال هذا قصير، سأعود للرياض لأطرق بابك مرةً أخرى، وأدخل حياتك مرةً أخرى، فإما أن أجعلك تسعين إلى الطلاق منه، وإما أن أجعله هو يسعى إلى الطلاق منك.

هكذا، بكل بساطة لأن المبادئ كلما كانت أكبر، كلما كانت أوضح.

لماذا يظلُّ القرار ملكاً لك وحدك؟، ألسنتُ أنا الذي يموت؟، ألسنتُ أنا الذي أنخطمُ حتى الرماد منذ سنتين دون أملك لنفسي درعاً ولا نهوضاً؟، ألم يخلق الله في غريزة البقاء على قيد الحياة مثل غيري من البشر؟، منذ متى يناقش الإنسان مع غيره حقه في استخدام غريزته؟

أنت إحدى امرأتين الآن، لا أتصور أن امرأةً ثالثة يمكن أن تلبسك، إما أنك امرأة ما زالت تعشقني كما كانت ملء الأرض والسماوات، ولكنها لا تدري كيف تتصرف، بينما تكبدت أنا من خوفها، وترددتها، ووزنها الخاطيء للذنوب والحقوق، الكثير من الألم، وجاء الوقت لأمسك بالزمم، وأتصرف بنفسي.

أو أنك امرأة بدأت تنساني، واستبدلت بذكراي سعادةً لمستها في حياتها الجديدة، وهذه قسمةٌ ضيزى، فأنا أموت وتعيش، وأحترق وتنمو، وأبكي وتضحك، لبعض الوقت أمرٌ هين، أما أن تنسحب هذه الحال على حياتي كلها فلا.

إما أن تمدي يدك إلي بطوق نجاة حتى لا أغرق، أو أتعلق أنا بك فنغرق معاً، لا أحد يلوم غريقاً إذا تمسك بالحياة.

هذا ما قرأته في شخصية ديار، وأنا أؤمن أن أبلغ ما يتأثر به المرء من آخر، شخصيته، لا حاجة للكلام، والأفعال، والمحاضرات، والجدل، إن أسلوب ديار يتغلغل في أفكاري ببطء منذ صداقتنا الأولى.

ربما صرتُ أحبه، أعلم ذلك، وهو يجيني صراحةً لا تلميحاً، ليس في داخله مكانٌ يتسعُ ليخفي فيه شعوره نحوي، لذلك هو يلفظه في وجهي مباشرة: ((لا تقوم تأذي نفسك يا ملعون، ترا والله انزَعت بتشبيدي يا معود))، ذكرني حبه هذا بما قاله الإنجليزي لاورنس ستيرن ((إننا نحب الأشخاص بسبب ما عملناه في سبيلهم من خير، أكثر مما نحبهم بسبب عملهم الخير لنا))، كان ديار يحنو عليّ كأخٍ أكبر، ويزنق أمامي كأخٍ أصغر، ولا يبالي بالسنوات القليلة التي يكبرني فيها، شادت بيننا فانكوفر أخوةً أفتر كثيرًا إلى مثلها، منذ أن مات يوسف.

لم أعرف في حياتي صديقاً مثله، أنا المقبل منذ طفولتي على اتخاذ الأخلاء، ولكني لم أكن أفتح لأحدهم الباب الأخير في قلبي، أو أن أحداً منهم لم يكن يملك المفتاح

المناسب له.

ديار خلع هذا الباب الأخير من أطرافه خلعاً، واقتحمه كرجلٍ شجاع سمع استغاثةً في داخل صدره، لم أكن أتصور له اقتراباً مني إلى هذا الحد، كنتُ أراه همجياً في تصرفاته، وفوضوياً في مشاعره أول الأمر، ولكني اكتشفتُ بعد ذلك أن ديار من أكثر البشر انتظاماً في العالم، ولكن بطريقته الخاصة.

ألا يكفيه انتظاماً أنه عاش ثمان سنواتٍ في تقلباتِ الغربة بنفس الوتيرة؟

حتى السُّكر، لم يكن ديار من النوع الذي تظهر آثاره عليه مقززة، كان يتماسك طويلاً، ويبدو متزناً وهادئاً، حتى إذا دارت الكحول برأسه حمل نفسه ورحل، دون أن يلقي التحية على أحد.

كان يهادن كثيراً أثناء الشرب، فلم يكن جلوسي معه يؤذيني، بل كان يبدو أكثر إصغاءً وتركيزاً لما أقول منه في صحوه، وأكثر احتواءً لبوحي له، وبكائي على كفته، كأن الخمر تروّض ذلك الحصان الجامح في أعصابه، حتى لارا كانت تعرف هذا الطبع فيه، وتعرف ألما لن تنال منه أكثر مما تناله وهو ثمل، هي التي تحبه بجنون، ولا ألومها في ذلك.

تحبُ ذلك العربي الطافر بالتناقضات، الذي تراكمت في داخله السنوات بلا ترتيب، وتداخلت فيه الظروف والأوجاع، ولم تعد تدري من أين تلج قلبه، كانت ترى فيه الجنس البشري الأقرب للأصل، بشر المناطق الأولى التي سكنتها البشرية، تحب حرارته المحبوسة في جسده، وصدره الذي يغطيه الشعر، ويديه المعروقتين، وتدخينه المجنون، والسينمائية الصاخبة التي يشرب فيها كأسه.

لارا كانت تبوح لي عن علاقتها بديار أكثر مما تفعله معه، تراني أكثر هدوءاً منه، وأكثر التصاقاً به، وربما سرّبت لي، هي التي تعاشره كثيراً، مدى اهتمامه بي،

وحديثه عني غالب اليوم، ربما ظنت تكسبه من حيث تكسبني أنا في صفها.

لست أدري أي دور يمكن أن ألعبه بينهما، كانت تبدو لي فتاة طيبة، هادئة، وصورة، من النوع الذي يمكن أن يحتوي، كفجوة، نتوء ديار، ومراجيته، وكنت أعلم أن دياراً لن يعود على وطنه، وأنه محكومٌ بالغبرة طويلاً، فلماذا لا يتزوجها، هكذا قلت له في كالجري، وأظنه اقتنع.

وصلتُ إلى شقته، علّقتُ معطفي وأنا أبتسمُ لصرخاته الترحيبية العالية، وجدته يدخن أرجيلته، بينما تميل لارا برأسها على كتفه العريض، غفت قليلاً فقام من مكانه، وأسندها على الأريكة، ومضى إلى لوحاته وصخبها.

شقة ديار عربية جداً لولا أنها في فانكوفر، ألبومات فيروز، وأم كلثوم، وعبد الحليم، وماجدة الرومي، وكاظم الساهر، وكتب السياب، وصلاح عبدالصبور، ونازك الملائكة، وقاسم حداد، ونجيب محفوظ، والجرائد العربية التي تفتشُ الطاولة، وتتراكم في الأركان.

قرأتُ عناوينها بسرعة.

جراحنا، بالخط العريض.

في الجرائد العربية، لا فرق فعلاً بين العنوان والجرح، كل صباح يستيقظ مجموعة من الصحفيين ليعلقوا آلامنا على الجدران فقط، لأن آخر العناوين الجميلة في تاريخنا كان قبل اختراع الصحافة.

صور مظفر النواب كانت معلقةً على الحائط، وحوها بضعة قصائد له، خطها ديار بيده، وعلّقها، هو الذي يعرف أين يضع الرجل المناسب في المكان المناسب، لقد ضيّع النواب نصف عمره يشتم الحيطان التي لا تسمع ولا تحير جواباً.

في الوسط من شقته سجادة يدوية جميلة، ولكنها تبدو قديمة، علمتُ فيما بعد سرُّ احتفاظه بها رغم تضارها مع ألوان الشقة، إنها السجادة التي كانت تجمعهُ وأبويه، عندما يفترشونها على ضفة دجلة، أو فوق سطح بيتهم البغدادي العتيق.

جرّ ديار ذاكرته معه من بغداد، وافترشها، وجلس عليها.

ليته يستطيع أن يحمي ماضيه من حزنه، فهي الآن تملؤها آثار تدخين مجنون وأعقاب، وبقع من الحبر الذي يخطُّ به ديار القصائد ويعلقها على الحيطان، لأنه متطرفٌ حتى مع سجادة ثينة كهذه، لا يملك التوازن في وسط، ولا يعرف المهادنة مع تلك الأشياء التي تثير حزنه.

التقطتُ جريدة الشرق الأوسط من الطاولة أمامه، ورحتُ أقرأ فيها.

هوايته التي يضيّع فيها وقته هي المخطوطات البديعة التي يصنعها، تأملتُ لوحته الأخيرة التي علّقها، تبدو حمراء ملطّخة بدماء متمرّدة، كتب ديار بخطه الفارسي الجميل جزءاً من (لا تصالح)، وعلى الأرض ديوان أمل دنقل.

عدتُ إلى مجالسته وأنا أفكر في لوحاته، ما الذي أشعل البسوس في عينيه هذه الأيام؟، هذا الرجل لا يحتاج مزيداً من الجاهلية.

فكرت، ماذا لو كان ديار يكتب؟، ماذا لو امتلك مغوليّ مثله سلاحاً كهذا؟

لم أتحمّل فكري، سألته:

- هل جرّبت الكتابة؟
- يا للإهانة.
- عفواً، لا..، لم أقصد، أعني لم أرك تكتب من قبل.
- لا لا، أنت تهينني عندما تتهمني بالكتابة.

أغلقتُ فمي، شعرتُ بالارتياح أني لم أخبره عن كتابتي، لُكْتُ الصمت في فمي،
وتساءلتُ في قرارة النفس، لماذا يحتقر الكتابة وبين يديه كلُّ هذه الكتب؟

- أنت تكتب، أليس كذلك؟

ولم يكتمل ارتياحي، اصطدمت عبارته بوجهي مباشرة، شعرتُ بغصةٍ أورثتني
احتقاناً عابراً مكللاً بالدهشة كشفت له عن إيجابي، تلعثتُ وأنا أحاول التبرير كما
يفعل المتهمون الذين يحاولون تأخير نطق الحكم في فم القاضي.

ابتسمتُ إدعاءً للشجاعة:

- كيف حدثت هذا؟

- الكتابة في عينيك يا عزيزي، في نظراتك، في طريقتك في الكلام، في
أسلوبك في التعبير عما يجيش بنفسك، في وصفك للأشياء، للأحداث،
للأماكن، للمشاعر، وهذا يجعلك أحد رجلين، رسام أو كاتب.

- رسام؟

- أجل، أقرب الفنون للكتابة، أنا أو من بذلك.

- وما هو وجه التقارب؟

- كلاهما تضييعٌ متقنٌ للحياة في عقدة المساحة البيضاء.

- ولماذا تضييعٌ للحياة؟

- أن تكتب يعني أن تفني عمرك في محاولات تائهة لشرح ذاتك للآخرين،
الآخرون هم الناس الذين لا يأبهون بك أصلاً، وعندما تغيب يهتمون بها،
لأنهم يستغلون محاولاتك تلك لشرح ذواتهم من خلالها.

- أنا أجد الكتابة تفرغاً مقنناً للعاطفة التي بدأت تؤذينا.

- بل هي هدرٌ لها، لو أجدت التعامل مع هذه العاطفة لربما صنعت لك شيئاً
حقيقياً بدلاً من بيعها للأوراق.

- لماذا لا تكون الكتابة محاولة لشرح الحياة نفسها؟

- من يأبه لشروحاتك؟، كلنا يصبرٌ على فهم الحياة من ذاته فقط، لا أحد
يثق بعيون الآخرين، ستفهم وحدك، ولا أحد يقتنع بك، ماذا تستفيد؟،

إذا لم تكتب ما يمتعهم ما قرأوا لك، لماذا تحرق عواطفك لإمتاعهم؟

- لم أفكر في إمتاعهم، أريد أن أتوازن فحسب، يا ديار إما أن نبذع، وإما
أن نحدث في أجسادنا مئات الثقوب حتى يتسرّب منها الحزن، لا أحد
يريد أن يتضخّم بلا معنى.

- ستعيش وحدك، وتموت وحدك.

- مثلما لو عشت معهم، وميت معهم، لا فرق.

تركته لاهماكه، أو ربما هو الذي تركني، عدتُ إلى وجه جريدتي، لم أكن متأكداً
إن كانت عبارتي الأخيرة وصلته، لم أهتم بذلك، بعد قليل، عرفتُ أنها وصلت،
ولكنه أجل إجابته لمصلحة لوحته، سمعته يهمهم من وراء الجريدة:

- مالت على شواربك، هسا وحده من الدنيا جنتك، شلون تريد تعيش
لوحك.

جاءني صوتُ أرحيلته بعدها، ابتسمتُ لأحزاني التي يسخر منها ديار، نظرتُ إليه
من طرف لأجده قد أعاد الليّ إلى مكانه، وعاد لينكب على عمله، وكأنه لم يقل
شيئاً.

سألني بعد لحظات:

- ماذا تكتب؟

- الذي يتبعه الغاوون.

- تقصد: الذي يمارسه الغاوون.

- إذا كانت غوايتي في الممارسة، فهذه اللوحات التي تكتبها تقول لي أنك من غنوا اتباعاً، أليس كذلك؟
- أنا من غزية يا معوّد، شتريني أصير، هات بس، سمعنا شي.
- لا أتذكر قصائدي، تركتها كلها في الرياض.

قلتُ، وهو يصبُ الشاي في كوبي:

- اكتشفتُ أخيراً هذه الفكرة، لن تطفئ الغربة جرحاً.

جلس أمامي، قال وعيناه مسافرتان عبر النافذة:

- رمادٌ يغطي الحمرة على أي حال.
- ألهذا تغمرنا الكتابة الباردة، هل هو الرماد؟
- إنها الأشياء التي نركمها على أنفسنا حتى نُثقل عليها عندما تقرر أن تتمرد، التمرد في الغربة لا يقود إلا إلى مزيد من اليأس، فلا تتفاعل به كثيراً.
- كأنك تغيّر كلامك معي يا ديار.

التفت إليّ قائلاً:

- أبدأ، ولكن التمرد عن بُعد لا يفيد، عُد إلى وطنك، وسيكون لثورتك هناك جدوى تلمسها، ربما تتغير معها حياتك، لا تنفجر في كهف، لا تشتعل كفتيل سجين في قارورة مغلقة، لن يلتفت أحد لموتك إذن.

استرخيتُ أكثر على الأريكة، وتركتُ ديار يتابع:

- منذ خرجتُ من العراق وأنا أركمُ الأشياء على نفسي لئلا تتمرد، وأعترف الآن أني لا أثق بقدرتها على حصار حزني، يوماً ما سأرتكب حماقة.

من يصدق أن ديار أصبح يكلمني عن حزنه بهذا الاستسلام؟، ومن يصدق أني أنا سأبدو كمن يشد عضده في كلامي بعدها؟

قلت له:

- ربما لا تكون حماقة.
- أنت تعلم أن بقائي حياً طيلة هذه السنوات هو معجزتي الصغيرة، من أول الضياع كنتُ أظن أنني سأندثر في زحام القاهرة أو عمان قريباً، ولكن فانكوفر الباردة أطفأت غضبي، والتفتت عليّ بثلوجها وأمطارها وأشجارها لتبقيني هنا.
- أتريد أن تبقى غاضباً؟، ألا تدين لفانكوفر بشيء من الاستقرار؟
- أجل، ولكنني أحشى عليك من هذه المدينة، إنها مدينةٌ تجعل المنفى يبدو مثل نزهة صيفية، فتخدعك، أو ربما تجعله يشبه كتب الفلسفة تتناسل في عقولنا حتى لا تُبقي فيها موضع فكرة.
- لا تقلق يا ديار، لديّ ما أعود لأجله.
- متى؟
- لستُ أدري أينما سيرحل عن هذه المدينة أولاً يا صاحبي.

لم أكن أعلم وأنا أنفض قولي هذا في الطريق أني تنبأت لديار برحيل قريب، بعد أكثر من سنواتٍ تسع، قضائها هنا في فانكوفر، حتى نال جنسيتها الكندية.

بعد أسابيع، فاجأني ديار بتذكرة سفرٍ إلى لندن، وخطاب استقالة من عمله، ووجه كأن فيه مصالحةً مهينةً مع الحياة.

يا إلهي، هذا الراكذ منذ سنواتٍ مثل مستنقع عجوز، ما الذي يحركه بقوة هذه

الأيام؟، هل أزفت ساعة حماقته التي كان يشعر بدنوها؟

أَلْقَيْتُ أسلتي على حقيبة سفره، قال أن نمة أرحامٍ بعيدةٍ له للمتهم شوارع لندن، المدينة التي تستضيف أحزاننا عادةً، لتعبي ضباها ومجرى نهرها، الآن يهرع إليهم ديار بعد أن وصلته رسائلهم من حيث لا يدري، وعرف منهم أبناء خؤولة، وجيرة، وزملاء دراسة.

هرع إلى رائحة وطنه.

لن ينسى بغداده الأصيلة مهما طغت رائحة الدم والجوع، عاد ليراهم ويسمع منهم، اشتاق الغصن إلى جذره، أو أنه التّم على غيره من الأغصان الجافة التي بعثرها الريح، وألقت بها في برك الأمطار، وقوارع الطرقات.

ودّعني على أن يعود، وأنا تظلّني سحابة وحشة تدنو، خفتُ كثيراً على نفسي من رحيله، أنا الذي أكره الوحدة حتى الموت، وأكره الموت حتى الوحدة.

اعتدل الجو في فانكوفر الخصبة، على أعقاب صيفٍ هاربٍ انحسرت خلاله الثلوج عن ضواحي المدينة، وتراجعت إلى قمم الجبال الشاهقة، وظلّت الأمطار تنقر شوارعها صباحاً بعد صباح، وتغسل وجهي من آثار النوم، وآثار الوحدة.

لأن دياراً أصبح بعيداً يبعد لندن عن فانكوفر، ومس تنغل أصبحت بعيدةً يبعد الموت عن الحياة، و أمي هناك، بعيدةً أيضاً يبعد الشوق الذي في قلبها عن ابنها.

اتصلت بي هذا الصباح، كلما تذكرتها جاءني منها اتصال ما، قلما خيبت أمي أشواق ذاكرتي، وصلّتي دمعته قبل سؤالها: ((كيف أنت؟))، طمأننتها بسرعة أنني

بخير، وأنا أحبس في داخلي نهرًا من الكلام الذي يتراكم في حناجر الأبناء المغتربين، أخشى إذا سال عليها أن يغرقها حزناً، أنا الذي أعقد هدنةً صغيرة مع حزني هذه الأيام، كي ينجي لطيفاً مثل نسيمات الصيف، ولا يقتلع أشجاري ويطوح بي بعيداً مثل عواصف الشتاء الماضي.

قالت أمي أن سارة ستلد ابنها الثالث قريباً، وأن عمر سينتقل إلى منزلٍ ثانٍ بعد أن ضاق مكانه في البيت على عائلته، أخبرتني أيضاً أن جدتي خرجت من المستشفى وقد هدّها المرض دون جدوى، وسكنت، وأنا أعلم أنها حزينة، غير أنني مطمئنٌ أنها لا تخفي شيئاً عني، كعادتها.

تظن أمي دائماً أنني لا أتأثر بعنف مثل بقية إخوتي، فأنا الأثبت عوداً، والأكثر رباطةً في الجأش، وربما الأقسى قلباً، أو أقلهم إحساساً بالمسؤولية لأني أصغرهم، هكذا تظن أمي بي، لا لشيء، إلا لأني كتومٌ فحسب.

ربما تدرك أمي يوماً ما أنني أضعفهم جميعاً، وأحوجهم للشكوى، ولكني لا أكشف عورة حزني لأحد.

أعيد سماعه الهاتف، وأكتشف أنني لم أعد وحدي في الشقة، يجلس بجاني جسدٌ من الحنين إليها، والشفقة على دمعته الهاتفية الطويلة، تلك التي أطلقتها عينٌ لم تَرَنٍ منذ عامين.

عامان من الغربة، والصمت، والحزن، والغرق، والتراب، كلها تفصل بين الماضي والآتي، وأنتِ تنسحين بينهما كخطٍ مستمر لا ينقطع، يربط الأشياء، والأوقات، والأماكن، والأحزان، والأحلام، وأنا أجرب هنا ثمانية فصول، كلها كانت خارج عمري.

صار عندي جهادٌ جديدٌ، وأملٌ جديد، ونفس القضية.

غداً أعود، أطرق بابك، وقد غيّرتني فراقك شكلاً ولوناً، ترين ما تبقى من الرجل الذي تركته آخر مرة عند باب بيتك، ودلفت إلى المنزل، لتخرجني منه مرةً أخرى إلى سيارةٍ مختلفة، ورجل آخر، يعود وقد انسلخ جلده تماماً عن عوالق ضعفه، وتظهر حبه بالحزن حتى لا تشوبه شائبة، وغسلت الدموع عينيه فاتضحت له الرؤى، وطهت الغربة أفكاره وأوجاعه، و منحته فانكوفر أخيراً، قراراً ما.

قررتُ أن أكتب.

تصالحْتُ مع الكتابة، إنها فرصةٌ مناسبةٌ لصلحٍ كهذا، وحدي في فانكوفر، حزني راكداً مثل بركة، وحنيني يكبر إلى أهلي، ووطني، وشيءٍ آخر أيضاً، لم أعد يائساً مثلما كنتُ قبل عامين، صار عندي طموحٌ يقودني إليك.

اكتملت دائرة الكتابة إذن.

خرجتُ أفتش عن دفترٍ يللم رغبتني الصباحية هذه، زرتُ عدة متاجر حتى عدتُ به، كان أخضر، وتعرّق فيه خطوطٌ سوداء طويلة، وله أوراقٌ تميل للصفرة، وأسطرّ باهتةً تنتظم فوقه حتى لا تخرج الكلمات، وتفسد البوح، شعرت بالألفة معه سريعاً، وحملته معي، وأنا أفكر، بأي حزنٍ أبداً؟

((كثيراً ما أرتكبُ الأخطاء، ولكن دائماً ما تكون القرارات الأكثر صواباً في حياتي هي تلك التي حذرني منها الجميع، مللتُ البكاء طويلاً، ولم يزل في عروقي امتدادٌ طويلٌ إلى مها، ولا تزال هي امرأتي الوحيدة الوحيدة، غير أن الحزن لن يعود مجدداً، فقد تعلمتُ أن الحزن قد ينطفئ، لذلك يجب عليّ أن أوقد سراجاً جديداً.

ربما، كلُّ الأقدار تتمحور حول هذه الكلمة، وتتغير أثناءها أشياء كثيرة، ولو أنني بقيتُ متعلقاً بالجذع اليباس لترعيتني عنه ريحٌ ما حتماً، ولو أبتقت يدي حوله، بصمةً، أو إصبعاً، أو ذراعاً كاملة، فهذه الريح لا يقف في وجهها شيء، حتى

الحزن، وعندما تهب لا بد أن تحمل معها أقدارنا))

أحسستُ وأنا أكتب أن قدرتي على الكتابة ضعفت، ولكني ما زلتُ قادراً على التوازن فوق سطر، وما زالت الكلمات تتراءى لي كلحين قدم، أتذكره رويداً رويداً، وكنت أشعر بالرغبة في الكتابة لآخرين، أي آخرين.

ونمتُ وأنا أحلم برواية.

برحلةٍ طويلةٍ في عمق الوجود.

ربما أستطيع أن أشفي نفسي، ربما أعقد مصالحةً مع الحياة، ربما أكتشف ما لم أكن أعلمه من أمر حينا.

ربما تقرأنيها.

من أجل هذا قررتُ أن أكتب، وأكتب رواية، أريد أن أصنع نصاً لديه القدرة على التكيف مع الظروف القاسية عند رجلٍ يائس، فلا يمرض، ولا يكل، ولا يقف في منتصف الطريق، أريده أن يكون مرناً يحتوي تقلبات أفكاره أثناء الكتابة، دون أن ينحاز إلى إحداها، أريد فلاةً أوسع للركض، للاندفاع، أريد أن أكون حراً، حتى آخر كلمة.

أريد أن أكتب روايةً بحجم حزني، فلن أكتفي ببناء السرداق، وصف الكراسي، واستماع القرآن، واستقبال المعزين، ولكني أريد أن أختار بنفسني حتى كلمات العزاء نفسها.

أريد لهذا الحب أن يكتمل حزنه على الأقل، إذا لم يكتمل فرحه، أريد له حزنًا مشرفاً، مادامت حياته انتهت مخزية.

ظهيرة يومٍ من يونيو، جلستُ مع دفترتي على حدِّ الذاكرة، تعرّيتُ أمامه، وتركته

يقرؤني بضع ساعاتٍ حتى امتلأت خلف غلافه عشرون ورقة، وانكفأ على المكتب كؤبٍ قهوةٍ مُرهَق، وجبئ رجلٍ متعب، متعبٍ بحق، من هذا الانهمار العنيف.

شعرتُ أني أنتقل فيزيائياً من الحالة الجامدة إلى السائلة، وخفتُ في غمرة النار أن أتبحر، فتوقفت، لم أكن أتوقع أن أنزف بهذا العنف، كأن قلبي قد خفق ملايين الحفقات، منذ أن بدأت وحتى وقفتُ عند آخر كلمة، تركتُ الدفتر مفتوحاً حيث بلغ رمادي، وغمتُ على الأريكة.

قال ديار إنه سيعود قبل أن تصفرّ الأوراق هنا، وكان قد تبقى على الخريف شهر صيفي خاوٍ عندما رحل، قضيته وحيداً مثل خيال المآتة بعد أن قَطَعَت الحياةُ قديميَّ اللتين أخطو بهما في رصيف الغربية، ديار ومس تنغل، ولو أن ديار يرأسني من حين لآخر، وأنا أكتب له كلما انتهكتُ ليلٌ، وطواني خوف.

مرّ الشهر ولم يعد ديار، ظلّت رسائله تخبرني أن أموراً يسعى لتسويتها لم تنته بعد، وأنه سيتأخر قليلاً، ثم طويلاً، حتى أخبرني أخيراً أنه لن يعود، وأنه وجد عملاً ما، وما زال يراهن عليه.

أسقط في يدي، لم أحاول ثنيه عن ذلك، إن دياراً لا ينثني، قررتُ أن أجمع بقية أغراضه بنفسي، وأحملها إليه لأكفيه مؤونة العودة لجلها، وأقضي أياماً معه.

حملتُ إليه متاع المشرّدين، وسافرت، لأجد أمطاراً نظيفةً في انتظارٍ، ورجلاً لم تغرّ فيه لندن موضع شعرةٍ بصافحي، ويجلس معي في سيارة الأجرة، وهي تخوض بنا في وحل لندن.

تركني ديار في فندقٍي لأنام، وأوى هو إلى حيث لا أدري، وقفتُ أمام الشباك الذي يُطلُّ على شارعٍ صغير، كانت على النوافذ أصصٌ جميلة، وبعض الهواء البارد يرغمني أن أتدثر بسترٍي وأنا أتأمل في الشارع الذي تجتازه الآن سيارة أجرة سوداء من تلك التي تشتهر بها المدينة، حاولتُ أن أنام فلم يغمض لي جفن، فزلتُ إلى هو الفندق، أقرأ في كتابٍ قصير.

أتذكر لندن التي رأيته قبل خمس سنوات، قبل أن أعرفك، والتقيك، وأحبك، كنتُ حاوياً من كلِّ ما يكدرُ هذا القلب الشاب، سعيدٌ بعطلتي القصيرة في المدينة العارمة، أملاً الهايدبارك ركضاً، وضحكاً، ونظرات عابئة تلاحق الفتيات العابرات اللواتي يجزن المكان خفراً وبخثرة، ويبحثن عن قصص غرامية يبدأها هنا، ليكملنها في الوطن.

في الغد يأتي صباحٌ غائم.

يطير اسمك في ذاكرتي مثل الحمائم التي ترفرف في الميدان الشهير، تحطّين على ذاكرتي كما تحطُّ على أكتاف السياح وأيديهم، أتأمل من نافذتي هذا الصباح اللندني الواجم، نسماّت باردة تحرك شعري الذي لم أحلقه منذ شهرين، كنتُ أفرّج على السيارات التي تسيل من أمامي، وخطى بعض المارة وهي تلاحق الحافلات الحمراء، خطرت ببالي قصيدة القصبي:

((وجه لندن

واجمٌ تكسوه حَبَّاتُ المطرِ

وجهاً.. وجهٌ حبيبٍ

راعه يوم الفراق..

فتغصَّنْ))

أترك فراشي، وأستحم، وأتحول بعد دقائق إلى جزءٍ من هذا الصباح، أحوب الشوارع، أختار مقهى، أتناول إفطاراً، وأقرأ جريدةً لا أجدها في فانكوفر، ثم أخطُرُ إلى شارعنا العربي المجيد الذي منحتنا إياه بريطانيا في قلب لندن، اعتذاراً عن الأرض التي منحناها لآخرين في قلب فلسطين.

الإيدجوار رود، وواجهاتُ المحال العربية، والمقاهي التي تمتد حتى نهاية الشارع، ودخان الأراجيل، والمحلات التي تباع كتباً للشتم والجنس، وكل كابينة هاتفية تمتلئ بالأرقام والصور، وكل رصيفٍ يحمل عرباً جالسين أو يمشون، غنيهم جاء يستحم، وفقيرهم جاء ليخدمه، أو يشتبه، كلهم يجيد التعامل مع الآخر، والإنجليز يجوزون الشارع في برود منشغلين بأعمالهم وهمومهم اليومية، وكأن المخلوقات العربية على الأرض لا تفهمهم.

صباح الخير أيها العرب.

وجوه شاحبة على قوارع الطريق، وجوه لم يزرها الرضا منذ سنوات، تعيش في المنفى.

عندما يئس الغرباء يشكّلون هذا الوطن في قوالبٍ أخرى، قلبُ امرأة، أو عتمة بار، أو كرسيٌّ مقهى، أو صفحةٌ أولى من جريدةٍ وطنيةٍ تشفطُها عيونهم على واجهاتِ الشتات.

كم هم فائزون عن الحاجة هؤلاء الأشخاص، يدورون على سواقي الوهم، يجترّون صداً أحلامهم، ويجرّكون بالسنتهم مرارة العدم الذي يعيشون فيه، تدريجياً، فقدوا القدرة على التمييز بين تأثيرِ حواسهم، وتأثيرِ قلوبهم، تساوت عندهم مادية الشيء ومعناه، أصبحوا يعيشون في فوضى، فوضى عارمة من المشاعر، واللغات، والأوطان، والأحلام، والدخان، والمنفى.

حتى دموعهم فقدت ملوحتها فلم تعد تدري لماذا تبكي، كأنها تفعل ذلك فقط لتمسحَ عن مآقيهم صور الفراغ، وهلوسات الذات المتعبة الغارقة منذ قرون في فلسفة اللاشيء، واللاحياة، والالهاية، واللا أمل.

فلاسفةُ أشقياء.

كل النظريات تتدحرجُ أمام أقدامهم صدف، تتسكّع أمامهم مثل الموسسات الرخيصات، ترافق خطواتهم نحو المجهول الذي ينتظرهم، إنهم لا يجدون مشقةً في استخلاص الحكمة من مآسيهم، ولكنهم لا يفهمون أنفسهم، ولا يملكون أحياناً تفسيراً لاستيقاظهم كل صباح إلا كونهم مازالوا أحياء.

أقطع الشارع من أوله إلى آخره، وأخرج منه بجريدةٍ وإحباط، أنعطف يساراً في آخره، أعبّر الإكسفورد بخطى فقير، وأقطع الشارع وأنا أتجنب شحاذاً أو قواداً تجذبه ملامح العرب ووسامتهم، أحاذي أخيراً سور الحديقة الواسعة، الهايدبارك، أجملُ ما رأيْتُ في لندن، ألج إليها وفي رثيِّ نقشٍ قدم عمره خمس سنوات، لم يزل حاضراً في لوح الذاكرة الجذباء، وقفتُ أستحضر بذاكرتي ما أراه بعيني، هذا البساط الأخضر الذي لا ينتهي، أتأمله كخروفٍ جائع، وأمشي بينه وأنا أتنفس هواءً جميلاً، وألقي التحية على كل شجرة، وكل سنجاب، وكل عشبٍ خضراء تاهت عن الطريق، وتسربت إلى الممشى.

أجلسُ أمام البحيرة في انتظار ديار، كانت الأوزات تسبح في انسيابٍ عجيب، تميل رقابها السوداء لتندس مناقيرها تحت أجنحتها لدقائق وكأنها خجلى، ثم تعود لترفعها مرةً أخرى إلى أفقٍ أوسع، أو جناحٍ آخر، العينان اللتان لا يمكن أن نراهما معاً تمنح هذه الطيور دعةً ماء، أشعر أنني أمنح إحدى العينين من الجانب الذي أراه فرصةً أكبر لادعاء الوداعة، بينما الأخرى على الجانب الآخر، تستريح من الكذب.

لأن المشاعر في لندن دائماً مشكوك في صدقها، حتى في وجوه الأوز.

أحياناً يأتي ديار في موعده، وأحياناً يمنحني شروداً يتلذذ هو بانتزاعي منه، غير أن فوضى حضوره لا تتغير، دائماً يجيء مثل الموج الذي يكسر القصور الرملية أولاً، ثم يُعيد ترتيب الشاطئ، هو الذي اكتشف نفاق الأوزات قبلي، كان يعلن عن مجيئه بحصاة صغيرة، ثم فوق رأسي، لتقع في مستقر نظرتي، وتشجّ شرودي، وتحدث فرعاً بين الأوزات، بحجم الدوائر التي تتسع وراء أجنتها الخائفة.

ديار معي، وكوبي قهوة، وثرثرة صباحية عمرها شهر خرجت من صدره، هو الذي تدرب على الصمت قبل أن آتية بسبع سنوات، وأفسده بوح العام والنصف اللذين قضيتهما معه، هاهو يعرّي لندن أمامي يوماً يوماً، لندن أخرى غير التي أعرفها، عليها ملامح ديار، وأحكامه المطلقة التي يطلقها على الناس والأشياء دون ترو، والأدهى، دون تراجع.

سيعمل ديار مديراً صغيراً في شركة نقل رأت أن خبرته التي قضاها سائقاً متنقلاً تؤهله لذلك، أشفقت كثيراً عليه، هذا الذي عرفته لا يعبأ بالدنيا قد صار يهتم بأمورها، ويسعى لتحسين مستقبله الوظيفي الذي بدا أنه لن يتغير في كندا، ولكني شعرت بالرضا أنه بدأ يتحرك في هذا الاتجاه.

كنت أبارك قراره بقدر ما كنت أشعر أنني سأفتقده كثيراً، كنت أتخيل مسبقاً كيف ستطحنني الوحدة هناك قبل أحد في فانكوفر كلها كوب قهوة له مثل طعم ديار. أين أحد حقلاً أخضر ترعى فيه همومي أوسع من صدره، وأين أحد متكاً أكثر راحة من كفه.

تعودت كثيراً على هذا الرجل، ألفت حديثه، وحرارته، وصدقته، وفوضاه، وقناعاته، وتناقضاته، ولا مبالاته بالكون كل الكون.

سأفتقد شقته، وشاحنته، ومواويله، وارتعاشه وتره، وسجائره، وجرائده، وكؤوسه، وألوان مزاجه المتقلب.

عجيب أمر الصداقة، هذه العلاقة التي لا قيد عليها من التكون في أي وسط، وأي محيط، وبين أي اثنين قادرين على وصلها بين روحيهما، وهي الصداقة أيضاً تلك العلاقة التي تنشأ داخل العلاقات الأخرى، بل تقيم نفسها كضرورة لاستمرارها، إنه الشعور الذي يقف جانب الحب، بنفس المستوى، ودون أن تتعلق به أي من عيوب الحب ومساوئه.

ما أنا فيه الآن أحلى عيوب الحب، فهل لو كنت صديقي يا ترى كان حالي أفضل مما أنا فيه؟، لو أننا تحكّمنا في اندفاعنا بادئ الأمر، وسيطرنا على نشوتنا، هل كنا حفظنا دموعنا أكثر، دون أن نمشي حتى آخر الشوط؟

لم أكن لأرضى منك بالقليل دون أن أشتاق للمزيد، ولم تكوني أنت لتقفي قبل أن تكتشفي تماماً آخر نقطة في جسدي.

كانت جميلة سعاد الصباح عندما هتفت:

((كن صديقي..

ليس في الأمر انتقاص للرجولة..

غير أن الشرقيّ

لا يرضى بدور..

غير أدوار البطولة))

لو أزيد عليها قلت، حتى الشرقية أيضاً تتوق لدور بطولة ما، الفرق بينهما أن الشرقي لديه القدرة، أو الرغبة، في تعدد أدوار البطولة، بينما تكنفي الشرقية بدور وحيد، أو أنها لا تستطيع أن تلعب دوري بطولة في زمن واحد، وإلا تمزقت عاطفياً.

هذه المرأة التي تسأل رجلاً ما صداقته فقط في قصيدة سعاد ليست زاهدة في الرجال، ولكن دور البطولة في قلبها أخذه رجل آخر، وهي لا تريد أن تخسر الرجلين إذا جمعت بينهما، لذلك تحتفظ بحب أحدهم، وتسعى إلى صداقة الآخر، إنها توزع الأدوار فقط، تقسم أنوثتها بينهم بأنصبة متفاوتة، وتحاول أن ترضي الجميع.

ثم إن الوطن عموماً لا يفرق كثيراً بين صداقة وحب، فلو كنتُ أنا صديقك فحسب لحُرمتُ منك كما أنا محرومُ الآن، ليس عندك ما تعلقين به وجودي في حياتك أمام المدينة، يبدو أن حبنا كان لا بد منه، وما دمنا مجبرين على تجشّم عناء علاقتنا البشرية أياً كانت، فلنتحملها حباً لأن التعب واحدٌ في النهاية، أنا لن أخدش الجدران، وأتسلل إلى غرف النوم، وأعاكس التيار الزمني لمجتمع بأكمله، من أجل صداقة.

أريد أن أسأل أنوثتك، ولا أسألك أنت، لأني أخشى أن تلتأت إجابتك بخوفك من تبعية الإجابة، وما قد يطالبك به رجلٌ مثلي وقد صرت زوجة رجلٍ آخر، أسأل مها الأنتى التي أحببت: هل تمنين لو أن الذي بيننا كان صداقة فحسب؟

هل كنتُ ساقع في حب امرأة أخرى، وأزف إليك أنتِ كصديقة كل يوم ما دار بيني وبينها، وكيف أعشقها، وكم هي جميلة وفاتنة، وكيف عرفتها؟، وأين التقيتها؟، ومتى سأتزوجه؟، وكيف تسللت يوماً إلى غرفة نومها، وأقرأ عليك مساءً قصيدتي الأخيرة في عينيها، وأبثك عتابنا، وتباريحنا، وخصامنا، وأشكو إليك استبداد حبها، وقسوة أنوثتها، وطغيان جمالها، وأحكي لك ذات يوم قبلتنا الأولى، وجنوننا الأول، وتفاصيل لقائنا الأخير.

سمة الصداقة، تكرر الأدوار، قد يكون لنا أكثر من صديق دون أن يستنكر الناس من

ذلك، ولكن أن يكون لنا أكثر من حبيب، فهذا العار الذي إما أن يوسم مرتكبه بالدناءة أو العهر، لذلك فكرت منذ البداية أنني عندما أتخذُ صديقةً فإنني أكسرُ بذلك قوانين المجتمع الذي أعيش فيه، ولكن عندما أعشق لا أهمني القوانين الصغيرة، مادمتُ مسيراً بفطرة الحياة الأولى، الحب.

أول خطوة لآدم خطاها على الأرض كانت بحثاً عن حواء، لأن الله فطره وعلمه أن الأنتى هي الحياة، وأنا أجرُّ خطاي على خطى أبي الأول، أبحثُ عن حياتي، أبحثُ عن ضلعي الحبيب الذي انتزعوه بقسوة من صدري، ناثرين الدم واللحم في كل مكان، تاركين الجرح ملوثاً، والدم نازفاً، والدمع غزيراً، والروح شاردة، وأعطوا ضلعي لرجلٍ غريب، ليزين به الجدار الوحيد الذي بقي خالياً من الزينة في حياته.

وحتى بعد الهول الذي وجدته في فراقك، والأمل الذي يتقلب على فراش المرض، ما زلتُ متمسكاً بالحب، وأظن أن حباً كحبك يستحق كل هذا، لأنه لم يكن حباً عادياً أبداً، كان شيئاً تتجنبه الكلمات والصفات خوفاً من افتراس قصورها.

الشرقي الذي اكتشفته سعاد في قصيدتها هو الرجل القديم الذي لا يتعامل في حياته إلا مع ثلاث نساء: حبيبته، خليلته، محارمه، أما الصديقات، فهنَّ فئة ساقطة من سجله الذكوري المتطرف، فالمرأة التي تدخل حياته إما أن تكون سيدهته، أو يكون سيدها، إما أن يعلو عليها كخليلة، أو تعلو عليه كحبيبة.

ولكننا كنا أصدقاء، أليس كذلك؟، بدأنا أصدقاء، واستمرت صداقتنا حتى الليلة الأخيرة، ولكننا أضفنا إليها حباً بحجم السماوات والأرض، صداقتنا هي التي ولدت حبنا أول الأمر، ثم هي التي جعلته ينمو ويكبر، لأني كنتُ أشعر أنكِ نصفني الكوني الذي لا يتكرر، ولم يخلق الله لي نصفاً غيره.

نترك الكرسي الخشبي الذي نجلس عليه، ونقوم معاً نمشي على حافة البحيرة، كان

يطيب له كثيراً أن يمشي أثناء الحديث، لم يكن يرهقه ذلك كأن مشيته جزء من كلامه.

سألته:

- متى تعلمت المشي؟
- لم أتعلمه، هو يأتي مع التشرد، كما يأتي الظلام مع الليل.
- أشعر وأنا أمشي أحياناً أنني كائنٌ يتحرك على الأرض، فينتفي من داخلي شعور التفاهة، أنا مخلوق، ولي نصيبٌ من هذه الأرض، انتزعه منها مشياً.
- المشي كتابةٌ أيها الشاعر، هل مارست الكتابة على الرصيف؟، إن هذا ما تفعله الأقدام التي تدمن التيه.

يتوقف عن الكلام، ولا يتوقف عن المشي.

تذكرتُ الشاعر الفرنسي آرثر رامبو الذي كان يمشي كل يوم ثلاثين كيلومتراً، لأنه قرر أن يكتب مشياً فوق بلاد الله ويترك الشعر وهو لم يزل في سن العشرين بعد، كان يقول: ((لم أعد شاعراً لأنني لم أعد مجنوناً))، هاهو رجلٌ آخر يحتقر الكتابة، ويحترف المشي مثل ديار.

مات رامبو آلاف الأميال بعيداً عن باريس، ترى أين ستتوقف خطى ديار؟

- هل تمشي سعياً، أم هرباً؟
- مللاً.

يقول كلمته الأخيرة وهو يتسم، يفهم أن أسئلي الساذجة دائماً ما تخفي وراءها رغبةً في البكاء، ليته يكشف رغبتني الآدمية التي كانت تدور بفكري قبل قليل في المشي وراء حواء حتى أجدّها.

هو أيضاً الرجل الذي لا يحترم ذكائي ولا بكائي، لا أدري كيف تحملتُ طيلة هذه الشهور رجلاً يقهقه ضاحكاً كلما غلبني دمةٌ أمامه.

مرةً قال لي:

- خلي الدمة البيضاء لليوم الأسود.

أي سوادٍ ينتظره هو بعد كل هذه الأوجاع؟، وأي يومٍ تراه يدخره له بكاؤه؟ العجيب أنني أستنكف البكاء أمام رجل، بينما يشهد عليّ وجهك، ونحرك، وكتفك، أن دموعي كانت حرّى، وأن انشائها كان هادراً سيالاً لا يتوقف. ومس تنغل كانت إذا بكيتُ أشاحت بوجهها عني قليلاً، ثم اقتربت لتمسح دموعي وعلى جفنها ارتجاج الدمة.

أما أمي، فلکم أبكاه بكائي عليك، وهي لا تدري لماذا أبكي، تغرق سجاداتها بالدموع كل ليلة لما تراه من حالي، ومن كتمانني الذي يرهقه كثيراً، كانت تدرك أن ابنها الذي أصبح يفيق فجرًا، ويكي سرًا، على غير عادته، يخفي بين جنبه هماً ثقيلاً أُلِّمَ به، وسحق عظامه، وأوهى احتماله، وتركه مثل الملدوغ، يركض في عرصات الليل من هول حزنه الذي يراه وهو يصيح: دثروني دثروني.

تجاوزت ابتسامة ديار الساخرة تلك، وألقيتُ عيني في مرمى نظرتها، هذا الرجل الذي يستعد ليغيّر غربةً بغربة، متى سيشعر باليأس؟، متى ستولد في عينيه الدموع؟، متى سينحني أخيراً، ويكف عن صلب قامته ونفخ صدره أمام الحياة، كيف يصمد وهو الذي لا يملك أي شيء، حتى تراب وطن يضمه حين يتوقف عن المشي؟

أجاري مشاه، أحاول في داخلي أن أقارن أحلامنا وأحزاننا، أنا الذي عندي وطنٌ، وأسرةٌ، ومشاعر في قلوب أخرى وُجدت لأجلي، هل تراني سأحتمل شتاتاً

مثل شتاته اللانهائي، أنا الذي يميتني أن امرأة ما تخلت عني؟

إنه الحزن الوحيد، الذي يستبدُّ حتى يقتل، لو كان عندي أحزانٌ غيركٍ لشغلتنِي عنك، ولكنك طويت كل ما في حياتي، وتفردت بكل شيء، العمر، والأحلام، والطموح، وكنت الحب الوحيد، والحزن الوحيد.

والأحزان الوحيدة تفتك بنا دائماً، تخرج، تغوص في العمق، تتسرطن، تتشعب، تتلوث، وتعيثُ فساداً في سائر الجسد، يا حزني أنت، لو تعلمين كم من الأفكار تنبعث كل يوم من جيبني عنك، وكم من الأحلام صارت مثل الفراشات، تولد وتموت، في نفس اليوم.

وديار حزين، والعراقيون هم فنانون الحزن الأعرق في التاريخ، ربما أورثهم التعاقب السياسي السريع على رؤوسهم مآسٍ تشربتها قلوبهم مع الماء والهواء، كم من الدماء اختلطت بمياه النهرين منذ القدم؟، إنهم أغصان الحزن الضارب في عروق الأرض إذا لم يحزنوا اعتسفوا حزنهم اعتسافاً، فكحلوا به عيونهم وبكوا، ولونوا به حناجرهم وغنوا، ورمموا به كربلاءهم، ورجموا به طغاهم، وسقوه لأفواه أطفالهم الجوعى.

كنتُ أودّ لو أظفر من ديار باعتراف لندي ضباي، أن الخوف هو الذي أورثه الصلابة، سألته عن ذلك، فسكت، ثم رمى عليّ ابتسامةً أعلم أن ما بعدها من كلامه سيلقي بي بعيداً.

قال ديار:

- هل تعلم أن الحزن يجد ذاته شجاعة، عندما تحزن فأنت تتخذ موقفاً من الحياة بأن ما تفعله بك لا يناسبك تماماً، وتنجح بذلك في تربية تمرّدك الداخلي على تعسف مثل هذا، أنت، رغم مد الحياة الذي لا يجزر، وجدت مكاناً تبني فيه حزنك.

- وهل تأبه الحياة بحزني يا ديار؟

- الجبن والخوف هو أن تعتقد أن الحياة لن تأبه بك، وأنت إن وقفت للحزن، فستمضي الحياة دونك، وتخلّفك وحيداً، هذا الركض الخائب في أعقاب الحياة، هذا التمسك المذل بأذيالها هو الخوف، هو الجبن بعينه.

* * *

الكتابة بذهنٍ مشتت تشبه النوم أثناء السباحة، كلها تؤدي إلى الغرق، وأنا لا أريد أن أغرق، لاسيما وأنا مازلتُ أتأرجح بين نوبات اليأس ومواسم الأمل حول إكمال ما بدأت في كتابته في دفثري الأخضر الهادئ.

عدتُ من لندن لأجده في انتظاري، عاودني حنين الكتابة القديم، وقررتُ أن أدفن نفسي فيه ما دام ديار لن يعود، بدأتُ في الكتابة كيفما اتفق، ألقي الحروف وتشكّل، وأتذكر الليل وأنقشه سريعاً قبل أن يدركني الصباح، وأرسم شكل الجرح لا أفرّق فيه بين خط القلم وخط الترف، فللكتاب الجراحية، مثل كتابتي، أحكامٌ مختلفة.

كنتُ قد كتبتُ قبل رحيلي عشرين صفحة، الآن أزيد عليها قليلاً، ثم أعد الصفحات التي مرّت، فلا تؤلني ضآلتها بقدر ما يؤلني فقرها المدقع.

أهذا ما تبقى من ذاكرةٍ عمرها عمر حبك؟، لا بد أن اليأس صداً، والحزن صداً، وهذه هي النتيجة.

الأوراق البيضاء تمشي إلى السواد في أبطأ تحول يشهده تاريخ الكتابة منذ المسمارية القديمة، ولكني ما زلتُ أركض، وأحاول، والأمر يبدو لي وكأنه مجرد محاولة لتجميع الأحزان التي تشتتت في بؤرةٍ واحدة، كنتُ أريدها مأتماً صغيراً، فإذا هي سيرة ميت

كاملة، وحدثتُ نفسي أعيد المرور على كل شيء دار بيننا، فأبكي على السعيد، لأنه ولي، وأعيد البكاء على الحزين، لأن بكائي الأول لم يكن كافياً.

ولكني أحتاج إلى بضعة أوراق، أقرب ما تكون إلى رواية، أفرغ فيها أحزاني، وأعزي بها نفسي، وأقدم لك في آخر المطاف وجعي بين دفعتي كتاب، فمنذ البدء خلقتُ الألم والوهم توأمي حياة، وعبر ملايين السنين، ظلّ الألم كما هو وتحوّر الوهم ليصبح كتابة.

إنهم يكتبون لأنهم يتألمون، أو لأنهم تألموا يوماً ما، وهذه هي الهوية الأولى القلم، أداة صغيرة نخلق بها أوهاماً بحجم آلامنا.

طول كتابتي كنتُ أخايل وجهك الحبيب بين نهايات أصابعي وبدايات سطورتي، أمشي على حبي لك محاولاً التوازن حتى لا أهوّم، ولا أترهب، ولا أبتل، فأنا أريدها رواية وليس أخرة معبد، تراتيل الناس مملولة مهما كان إيمانهم، فلن أطيل الترتيل بك، ولكني سأخذ بيدك إليّ، وأعيد على مسامعك ما قلته لك، وما لم أقله، وما رحلت أنت قبل أن أقوله، وما منعتي رحيلك عن قوله.

ولو كنتُ معي يا حبيبي لما كتبت، يكفي أن أرحل إليك ليلاً كما تعودت، وأبكي على صدرك بدلاً من البكاء المهين على الأوراق، ولا حاجة للكلام ولا الكتابة، في آخر الأمر أريدك أن تشعرني أنني أحبك فقط، ولا يهم أن تدركي هومي أو لا تدركيها.

قديمًا، سَمُوا الأوراق بردي، لأنها باردة، وحتى لو لم تكن كذلك، هي، أيًا كانت، أبرد من اشتعال الكاتب فوقها، وأصغر من فكرته، وأهدأ من جمرته، لذلك يحترق هو ويفنى، وتبقى هي من بعده.

أريد من بكائي الوهمي البارد هذا أن يبقى من بعدي، ليس بعد أن أموت، فلا أظن

أن الأمر سيعتيني حينذاك، ولكن بعد أن أسقط من قلبك كما تسقط ورقة الخريف، وأصبح غريباً عنك، بعيداً منك، مسافراً بلا وجهة في سرمد الذاكرة.

أريد أن أموت على أوراق رواية، بدلاً من أن تنثر الريح رمادي في العدم، فقد يدركني الموت فعلاً قبل أن أصل إليك، وقبل أن أكمل سعيي الذي أحته الخطي نحوك، وقبل أن ينتهي جهادي من أجلك، وحلمي الأخير بالزواج منك.

* * *

كتبتُ:

((منذ سنين، في الصميم من مراهقتي، حلمتُ بحبٍ عاصفٍ لا يقي ولا يذر، يملأ قلبي حزناً، وينثر حبوب اللقاح على أوراقتي، ويجعلني أكتب كما لك أكتب من قبل، كنتُ أحلم بالمد والجزر والموج، والبكاء على شيطان لا يرحمها البحر، ولا تفرق بها الريح، مثل صارٍ مرهقٍ محطّم، لا يحنو عليه إلا الرمل وبقايا الأصداف العتيقة.

كنتُ أريد أن تنتزع مني امرأة دمعاتي ولا تعود، وتلقني كل يوم حرفاً من أبجدية الحزن واللوعة، وتركني على حافة الانهيار، وشفا الجنون، معلقاً بين أصابعها حين تومئ وتشير، وبين عينيها حين تقسو وتدمع، أشد على إثرها رجال عروّة، وأهيم على وجهي هيام قيس، كنتُ أريد من امرأة ما، أن تعيدني إنساناً كما ولدت.

كنتُ أظنُّ أن الحب يزدريني حتى ضنَّ عليّ حتى بهذه الأوجاع، جلستُ على عتبات الشعر في انتظاره ولم يأت، وتعلّقتُ بأصنام النساء التي أنحتها بيدي ولم يأت، وخذشت سواد الليل الذي أفضيه ساهراً ولم يأت، فأمنتُ أن هذا الحب مخلوقٌ متطرف، لا يعرف الرجال الرماديين.

لم أدرك كيف يزور الحب هذا الرجل الذي بالكاد يخرج من غرفته، وحدود قصيدته، ونهايات دفتره وكتابه، هل يطرق الحب القلوب الخجولة؟، وهل يملأ الضئيل النجيل الذي يبدو أصغر من عمره بسنين على الأقل قلب امرأة ما؟، وأين تراها ستجده، هو الذي يجتنب من عيون النساء، كما يجتنب من قطرات المطر؟

ولما يأسْتُ من هذا الحب جاء، كأعنف ما يجيء به الحب، صخباً، وجنوناً، وعنفواناً، وجراً، ولما احتلني تماماً أيقنتُ أن هيكلي عظامي لم يكن مهيباً لحجمه، جاء كبيراً على جسدي، وضعفي، وركوني للسلم والهدوء، جاء عاتياً كعاصفة تشقُّ المحيط، وتمزق الساحل، ولم يكن قاربي الصغير يقوى على طوفانه، ولكنني عشت، حتى مضت العاصفة، وخلفتني مرمياً هنا.

كان حزني يفوق تحملي، وخوفي أكبر من شجاعة التراجع، وكان الهم ثقيلاً بحق، والغصة مؤلمة جداً، وصار قلبي أكثر جفافاً، وأوراقه أشدَّ عقمًا، وفكرتي محاصرة بين طريقي بكاء، وخيالي لا يتجول إلا في داخلي، فولدت قصائد مشوهة، لا تعني شيئاً، ولا تلقي خبراً، وخاب أمني في هذا الحب الذي ما رعى لهفتي عليه، وطول انتظاري له.

مررت سريعاً يا مها، من أبريل إلى يونيو من العام القادم، وطُويت الصفحة، كنت حلمي الأجل، والأروع، والأشهى، والأسرع زوالاً، مرّت شهوره معك كأجل ما تمر الشهور، وانتهت كأفجع ما تنتهي، أثناءها أتذكر كم تجاهلتُ أجراس الإنذار التي كانت تقرع في عقلي وأنا سائر نحو الهوة، أراهن كل يوم على أن حبنا سيمتد ويكبر حتى يثنيك عن زواجك المخيف، ولكن رهاني سقط مع ورقة التقويم الأخيرة التي كشفت لي عن يوم زفافك.

أتخسر كثيراً لفرط ما أحببتك، وأتخسر ألف مرة لفرط ما أحببتني أنت، كم من

السهل أن يكون الرجل عاشقاً بجوار أن يكون معشوقاً، بهذه الحرارة، من امرأة مثلك، لها كل هذه الأنوثة والذكاء والجمال.

أتساءل، كم ستكون الحياة عادلة لو أنها تحرمنا من كل ما لم نعرف، وكم هي قاسية عندما نعرفنا على الشيء، ثم تسرقه هو وفرحتنا به.

أين أحد بعدك من تغمرني بنصف هذا الحب، بنصف هذا العطاء، بنصف هذا الحريق؟، أين أحد امرأة لا تطرق الأبواب، بل تسرب من شقوق حياتي قطرة قطرة، فلا أشعر بها إلا وهي منتصبة، بكل أنوثتها، في أعماقي.

لو كنتُ واحداً امرأة مثلك، لعقدتُ هدنة مع الحياة، واتفاقاً مع القدر، أظفر به بامرأة تعطيني نصف ما تعطين أنت، وتأخذ هي ما أبقيتها أنت مني، ولكني أظلم النساء لو أحببت منهن امرأة بعدك، أعلم أنني لو وفيتُ لها بجسدي، ما وفيتُ لها بقلبي، وأما ستبقى طوال حياتها معي معلقة في ميزان مائل، تجلسين أنت وحدك على كفته الراححة)).

لأنني لا أمنح السطور حقها من الوجد، أود كثيراً لو أترجع، فلقد منحني القدر حزناً كما يفعل بالجميع، ولكنه لم يمنحني لساناً بفصاحة حزني، ولا قلماً بسيولته، أشعر أنني أحتلس من مشاعري وأنا أكتب، ثم إذا التفت للوراء، اكتشفتُ أنني تركتُ بين كلماتي فراغات كثيرة، تتمدد في جسد الرواية مثل مرض جلدي قبيح.

أين ذكرياتي معك؟، كأنني بودلير عندما قال: ((عندي من الذكريات أكثر مما لو كان عمري ألف عام))، وأنا عمري أربعة عشر شهراً من الحب، وضعفها من الحزن، وليس عندي قلمٌ يستطيع أن يكتب شيئاً من هذا؟

أحياناً أقول لا بأس، فما زال هناك من منحه القدر نسخة أخرى من حزني، مدونة باسمه، فمثل هذا حتماً سيغفر وهي لأنه جرب الوهن مثلي، ولأنه تسكع

على رصيف عشق فسيفهمني، ولأنه آمن أن الحب حياة والفراق موت فسيزور قيري، ومن انتظر أناته الحلم طويلاً، ثم أفاق ليجد بين يديه حباً مرهوناً بعقري ساعة، وورقة تقويم، ثم ترحل حبيبته إلى كنف رجلٍ آخر، فسيبكي طويلاً، مثلما يبكي الأرملة على الأرملة، والشكل على الشكل، والعاشق على العاشق.

منذ أحبتك وأنا أكتب لك، وأحمل ما كتبتك إليك مثل طفلٍ لتريه حالماً أنتهي منه، فتكافئني بكلمة، بنظرة إعجاب، بدمعة، بقبلة، ما زلتُ أذكر تعليقك على كل قصيدة، بل وأذكر شكل نظرتك إذا قرأتها أمامك، أو صدى تنهدك إذا أسمعك إياها في الهاتف، وما زلتُ أكتب لك.

لن أتمسك كثيراً بشكل كتابة أدبي في دفتر الأخصر هذا، يكفي أن أكتب وأكتب، ثم أبعثها لك كما تعودت، لعلك تدركين أن حيي لك لم يكن نزوة رجل، ولا ضعف بشر، ولا تهويم شاعر، وإنما كان قدراً محفوراً بعمق في هويتي البشرية.

ما أكتبه الآن هو إما شهادة وفاقي، أو تبشير عودتي، فلا تستعجلي البكاء أو الضحك قبل إكمالها، أو حتى بعد انتهائك منها مباشرة، فبعض الدموع تشوه الحقائق، وبعضها تختصر النهايات الشاقة، واعلمي أنها كتابة بلا نهاية، لأن نهايتها عندك أنت، وما زالت معلقة على ما يمكن أن يسفر عنه سلوكك البشري تجاه رجل يموت.

اتركيني أحجز مقعداً في ذاكرتك قبل أن تزعني الأيام، فرمما تنتخب لنا الحياة قدراً جديداً من مجاهل ذاكرة قديمة، أنا أكتب لك بنفس يدي التي كنت تقبلينها ثم تدسينها في صدرك بحنان، وعليها نفس الخاتم الذي قلت أنك تغارين من التصاقه الدائم بي، وبنفس قلم الرصاص الذي أهديتي إياه عفويّاً في أيامنا الأخيرة، لا شيء جديد عليك إلا الدفتر، وأحزاني.

من الحياة أكتب لك، تلك التي جمعتنا وفرقتنا، وتبقينا الآن على بعد أميال لا أعلمها ولا أحصيتها، أصارع هذا الغثيان اليومي من البشر، مشرداً إلا من شقةٍ ودفتر، آوي إليهما إذا اشتدت الأمطار وعصفت الرياح.

أفكاري سافرت وراءك، تركتُ لها الخيار بعد رحيلك بين البقاء معي أو الذهاب معك، فلم يبق لي منها شيء، تبعتك جميعاً، وأظنها فقدت أثرك بعد أشهر، وظلت حائرة بين انقسامات رجل وامرأة.

كلما استغرقني ذكرى رحيلك أنسى أنني أروي، وأنسحب بذاكرتي إلى غيبه الوجع، أنا الذي ما أفاق من صدمة حبك حتى ارتطم بصدمة فقدك، أعرف من قبل أن أوجع الصدمات تنفجر بعنف، ثم تخبو نيرانها يوماً بعد يوم حتى تصل على حد الجمرة الأخيرة التي لا تقنى، وتظل محتبئة في أعطاف الذاكرة، ولكن صدمتي بك تمشي في الاتجاه المعاكس، إنها تكرّر كل يوم، وتواصل انفجارها في وجهي الذي غابت ملامحه تقريباً.

لا أريد أن أكتب رسائل لوعة، بل قصة حب فحسب، أريدها أن تجي كما تجي قصص الحب عادة، فليس في أوراقك شيء جديد، إنني أعيد أطلال ناجي، وآلام فتر، وأكرر تقريباً مشاعر بول وفرجين في غابتهما تلك، ربما يكرر القدر نفسه آلاف المرات في الجيل الواحد، فما دام هناك قلوب فلا بد للحب أن يجد مكاناً لبذاره، وما دامت السماء فوق الأرض فلن يعدم الحزن بينهما مكاناً للتناسل.

ولكن أعظم فصول الرواية كانت تدور هنا في داخلي، هنا المسرح الحقيقي لحدث الحب هذا، هنا كانت تقع الوقائع، وتدور المعارك، وتنكشف الحقائق، وتلتبس الأمور، وتحقق النبوءات، هنا في داخلي كانت ورشة التأليف، ورزم الأوراق، وخرائط الأفلام، ومستودع الألم، إنني أكتب مذكرات قلبي معك، وهو يملئها

عليّ بشيخوخةٍ وسعال.

ربما تملين الرثم الرومانسي الكتيب الذي يغلف الكلمات، ولكن القصة لا تحتل أكثر من ذلك، فلم يمنحني القدر أسطورةً أحكيها، ولكنه غمرني بكل ما في هامش الأسطورة من أحزان، وحرمني من مجدها نفسه.

ربما تشعرين أنما لا تستحق القراءة، ربما لا ترينها إلا بكائيةً غابرةً على جدار قديم، أنا أكتب لك ولا أهتم بما أكتبه، يكفي أن تعلمي ما قلت لك أني أحبك، أما الرواية فهي نبأٌ مني، وقد فكرت أن أجعل نبأً هو عزائي، وعزائي هو وفائي، مادمت حاضرةً في القلب مثل بمامة، ومادامت عيناك تدقان في نفسي مثل أجراس الكنائس، ومادام كل ما في حياتي يسألني عنك.

قبل الفجر بساعة، كان هاتف أمي يخبرني أن جدتي أقرأتني السلام كما أقرأته أحفادها، قبل أن تصعد روحها إلى بارئها منذ ساعات، وعلى وجهها سكينه الرضا، وشهادة الحق.

تركتُ أمي تعزيني وأنا أجتاز بعيني زجاج النافذة، وأتأمل عن بعد نافذة مس تغل المغلقة منذ أشهر، وأعشاش العصافير التي هجرتها، والأعشاب التي تناولت على عتبات البيت، والأزهار التي انتحرت في أصصها.

داهمني دمةٌ قبل أن تنتهي مكالمه أمي، وتأملت الدفتر، والليل الغارق في صمت مدينة غريبة، وراح الحزن يعيد ترتيب أشيائه في صدري بعد أن كان قد استعدَّ للرحيل منه، وخرجتُ إلى الشرفة، وفي داخلي أصداء صوت أمي، وعليه آثار

بكائها القريب، تركتُ نسيمات الليل الباردة ترتطم بوجهي وبجهدٍ عجيب، لولا بعض الدموع.

كم كنت أتمنى أن تري جدتي يا مها.

جلسةٌ جلسْتُها معها أثناء حبنا كنتُ أشتهي فيها لو كنت معنا، أتذكرُ أبي هاتفتك حالما خلوتُ بنفسي، وأقسمتُ لك أني تمنيتُ بكل الدنيا أن تكوني بيننا وأنت زوجةً لي، أشاكسك مع جدتي، نمزح، وتحتكمن إليها، وتُنصفني، ثم تضحكُ بيننا كأنها طفلة.

هي جدتي، ينبوع طيبةٍ أصيل، وأنا حفيدها المدلل، التي ما زالت تفاخر بنبوغي والمعيي كل امرأة، لاسيما من يكون عندها فتاة لم تتزوج بعد.

كم من أفراد أسرتي سيموتُ يا ترى قبل أن تعودِي؟

فانكوفر، حان وقت رحيلي، هل ثمة ندفة ثلجٍ أخيرةٍ أحملها إلى قلب أمي المحترق في وطني؟، هل تسمحين لي أن أوقف جلساتٍ علاجي فيك أيتها المنتجع الحزين؟، مرَّ بي صيفاك وشتاءك، وأربعة فصولٍ أخرى دون أسماء، اثنان يحييان الأوراق، والآخرون يقتلونها، وكلها شاركت في غرفة الجراحة، وكلها جسّت نبضي، وقاست حزني، وغمست في جسدي مبضعاً ما.

لم يعد باستطاعتي البقاء هنا، لملتُ أشيائي وصباح فانكوفر المقرب مهدوء يراقبني بضجر، هذه المرة أصبح الموت يدفعني لقرار بعد أن ظلّ طوال حياتي يحرضني على الهمود.

لستُ أدري كيف أبصرتُ حياتي قصيرةً جداً وأنا أقلب أفكاري كما أقلب أشيائي وأحشرها في حقيبة، مات أبي، ورحلت مها، وماتت مس تغل، وماتت جدتي، ثلاثة

موتى، وامرأة غائبة، وليس لي إلا أن أتمسك بها قبل أن تلتفت حياتي بموسم الموت هذا، لا بد أن أتعلق بحياة.

تأجل مشروع الكتابة في فانكوفر، هذه المدينة لن تمنحني قلماً ولا ورقة، ستظل كتابتي موسومة بمدنيتي الصحراوية الكبيرة، قريباً من ذكرياتي معك، وأحلامي التي ولدت هناك، وماتت هناك، وأريد أنا العاجز أن أعيد بعثها من هنا.

هناك في الرياض، سأنفض ذاكرتي عن عامين من الوجد، سأكتب دون أن النفث للأسئلة التي تحاصرني عن جدوى ما أكتبه، ربما كان خريشة على هامش حي لك، ربما كان رسالة إلى عينين أشتاق إليهما بموت، فأشكال كثيرة قد يأخذها شكل الرواية.

فتق في معطف شتائي قديم، تأمر على دفئي.

انخاء عائد إلى الكتابة من أجل النجاة.

احتراق أخير أظهر به كل آثامي القديمة.

يأس بحجم الأرض، أو بكاء بغزارة النجوم، أو هات في مضمار العدم، أو اشتها لشبق الأوراق، أو استجداء للأكتاف المعرضة، أو ربما استئناف لحكم فراقنا أمام محكمة القدر.

ليس عندي فكرة، وهذا الموت في جبين كاتب يعني الكثير، سوف أمضغ ذاكرتي ثم أبصقها يوماً يوماً على صفحات الدفتر، لن يميزني شيء عن الآخرين، فقريحي أصبحت مثل محرك صدى من عصر النهضة، يحتاج من الزيت أكثر مما ينتج من القطع.

ربما كان خيراً للكاتب أن لا يمارس الكتابة بعد الصدا، حتى لا يخسر ما قد بدأ به،

أما أنا، ذلك الذي صدى قبل أن يبدأ، فليس لدي ما أخسره بعدك، علي أن أكتب مصحوباً بصريير عقلي، وأتحمل ضحيجه، فحتى عيونهم لا أبحث عنها، دفعت ثمن هذا الدفتر، وأصبح مملوكاً لي في الحياة، ومن حقي أن أخربش عليه بما أريد، لأثبت ملكيتي له يوماً ما لمن بعدي.

الفصل الأخير

مقاهي لندن ليست كمقاهي فانكوفر، هنا عربٌ، وحذام، وعناوين
صحف، وجنود مغلفٌ في أوراق تبغ، ووجوه كثيرة أعرفها ولا ألفها، لا
يكفييني معطفي الثقيل برد الشوارع، فالريح هنا تعرف أين نقطة الضعف
في جلدي.

تعلمتُ كيف أجعل ثلوج فانكوفر أليفة، تمنحني دفء السماء إذا بردت
الأرض، وعلمتُ هنا أن السماء تخدعني وأن البرد يدهمني من حيث لا
أدرك، ولم أتعود، ولم أحسب، إنه يدهمني من قلبي، جرح الإنسان
الدائم الذي إذا سكن، مات الإنسان.
لعلك بخير يا صديقي..

.....))

طويتُ رسالته واغرورقت عيناى بالدموع.

إذا شعر ديار بالبرد، أيُّ رجلٍ في الدنيا يستطيع أن يعيش وحيداً ودافئاً؟

سأعود إلى خبز أُمي كما قال درويش.

لأن بقائي في الغربة كان استلهاماً للتسييح بعد أن كفرت بي مها، آن لهذا الحوت
أن يلفظني عند شجرة اليقطين الآمنة، فليس عندي إيمان الأنبياء، ولا صبر الصالحين.

أريد رائحة أُمي، إنها الأنتى الوحيدة التي لن تتخلى عني كرجل.

سأقبل يديها، وقدميها، وأرقد طويلاً على سجادتها، وأختزن في رثتي رائحة جسمها
الطاهر، فهي أم وفي كل أحوالها الأثوية، لن ترفضني.

أوديب الجديد يتكوّن في كندا، ولكنه أكثر تحفظاً هذه المرة، فقد علمه حزنه أن

نَفَسُ الليل الأول، أريد أن أنام، ورسالة ديار طويلة جداً.

جاءتني رسالته قبل أن أرحل من فانكوفر بأيام، وكانت غريبة، لأن كبرياءه الذي
كان يعلمني الأمان انحنى كثيراً فيها، هاهو إنسانُ غربته يحتضر.

قال:

((سأموت وحيداً.

كما تموت النخلات، كما يموت العراقيون.

لا أدري ماذا ينتابني هذه الأيام، أنا الذي ركمتُ على جراحي ألف
سنة من الغربة، وحسبتُ أنني خدّرتها تماماً، ولكنها لندن..
تجيد تعرية الجراح.

لندن، ملهاة العرب ومنفاهم، هنا يسيحون، وهنا يكون، وهنا تتسلخ
وجوه غربتهم أمام برودة الشعب، لقد قتلتني هذه المدينة يا صديقي،
مزّقت كبريائي وصمودي، عرّت خطاي على الرصيف، أعماي ضباها
الممقوت، أودى بي لوها الرمادي، مالت بي الريح، جمعتُ، وبكيت،
وانغرس التايغر مثل خنجرٍ ملوّث في صميم صدري.

تغيير الأحوال لا يحتاج دائماً إلى انقلاب، وأن الحزن وحده لا يكفي لإشعال ثورة. ديار يحتضر، لأنه استعصم أمام العاصفة الثلجية، ظن أن جلده يتحملها، وعاش، ولكن دمائه تجمدت عروقها، وتوقفت عن الجريان في لندن. لأنه لم يشعل النار في داخله، لأنه لم يخلق الهدف، ويتبنى السعي، لأنه جابه مأساته كما جابهتها أنا، الفرق أي جلسست أبكي على الحياة، وهو جلس يصق عليها. كنا وجهين لعملة واحدة إذن، لهذا خيّل لي أننا التقينا في النهاية؟، ولكن لماذا لحقتُ به أنا سريعاً، الآن مشيي أسرع، أم لأن أحماله أثقل؟ هأنذا عائدٌ لأكرس حياتي لاسترداد حبيبتي، وديار ماذا يفعل في لندن؟، ترى ماذا حلّ به؟، لماذا أبكتني رسالته طويلاً، أيّ عرقٍ انفجر عندك يا صديقي؟

* * *

سوف تحملني طائرةٌ صباحيةً إلى لندن مرةً أخرى، في طريقي إلى الوطن. هذه المرة أيضاً يستقبلني ديار في هيثرو العتيد، أو أن ساحة المطار، صورة المنفى، والبرد، والمسافات كانت تستقبلني في جسد ديار. وجهه كان غائماً، وكانت سماء لندن تشح باللامبالاة، من بدّل الأدوار يا ترى؟ واضحٌ أنكما تبادلتما الوجوه يا ديار، ولكن أيكما خلع وجهه أولاً؟ أعانقه عناقاً يشبه عناقات من هم حولنا، وأهمس في إذنه:

- ماذا فعلت بك الرمادية يا صديقي؟

- إن الله يعاقبني أخيراً.

- ماذا تفعل؟

- أموت، ومن خلفي اثنتين وثلاثين حفنةً من الرماد، هكذا يقضي من لا وطن له.

- ولكنك تملك وطناً، وإن كنت لا تبلغ ترابه، إنه مجمّد في حساب الزمن فحسب، يوماً ما يغيّر دجلة أقدار ضفتيه كما تعود منذ قرون.

- قتلوه، هذه المرة كانوا أكثر دهاءً إذ بدأوا به.

يأخذنا صخب المطار، يبقى على رحلتي ساعات، أجلس مع ديار على كرسي مترو في صالة السفر، يأخذنا الوهم، والتعب، والتدخين، يسألني ديار عن المدينة التي تركناها معاً، هل ما زالت تأتيها الشمس؟

يتركني ليجري مكالمةً هاتفية، أسلم ظهري لاعوجاج الكرسي، وأسترسل في العابرين.

دائماً صالات السفر مزارع قلق..

حتى وجوه الموظفين فيها، كأنها تتساقط كل يوم، وتتهدل جلودها، مهما ابتسموا، نراها قاسية.

من هنا وغيرها، تبدأ جرثومة الغربة رحلتها في أحسادنا.

يعود ديار، يجلس مكانه، ويشعل سيجارة:

- أكثر المسافرين تأنقاً هو من يعود بعد أيام، وأقلهم هنداماً لن يعود، مالا نقدر عليه نواجهه بأقل عدةٍ ممكنة، كأن في اليأس آخر قطرات القوة.

ديار..

ديار..

ولأول مرةٍ يشرد ديار منذ عرفته، هو الذي لا يجعل ترفاً فكرياً مثل الشرود يراوده،

انتزعته قديماً من عقله، وكأنه يريد أن يتحكم حتى في حضوره وغيباه، عندما يريد أن يشرد يشرب، وعندما لا يريد يتجنب الكأس، حتى الشرود لا يمكنه أن يأخذ ديار عنوة.

سكتُ لعله يعود، باعد بين فخذه، واستند بمرفقيه على الركبتين، ودفن وجهه في كفيه بإرهاق، ومكث لحظات قبل أن يغلغل أصابعه في شعره الطويل، ويرفعه عن عينيه، ويتنفس بعمق وكأنه صاعدٌ من أعماق البحر، ثم يلتفت لي، ويكلمني بصوت خفيض:

- قبل أسبوعين، كنتُ أجالس عراقياً أعمى، ما زالت عصاه تشمُ طريقها الأولى في طرقات لندن، قالوا لي إنه من المنصور، حيناً القدم، سعتُ أن ألتقيه لعلني أعرفه، وكان أبا يوسف.

- من أبو يوسف؟
- نائبٌ سابق، وكاتبٌ صحفي مرموق، حي المنصور لم يكن يسكنه إلا العلية، قضيتُ فيه طفولتي قبل أن يؤخذ أبي، ثم تعرض أُمي، وأنتقل لأقيم مع عمي في الحيدرخانة.
- هل نفي؟
- ظننته هاجر بادئ الأمر، ولما التقيته كان على وجهه جراحٌ غائرة، وعلى يديه آثار حروق.

- معارض؟
- قل رجلٌ ما زال يتنفس.
- هل أحزنك مرآه؟

وقام ديار..

هجرني بضع خطوات، وأنا أتذكر طبعه الذي لم يتغير.

كلما أخطأت في حديث ديار أثناء بوحه، كلما أُلقيت سؤالاً خارج مده، كان يعاقبني بخطوات كهذه، وإذا تعذّر عليه الوقوف، كان يشعل سيجارة، وينفث دخانها إلى حيث يود لو يرحل، ويتوقف عن الكلام.

لم يتغيّر مزاجه أبداً، بقي على طائرتي سويغات وهو يصرُّ على معاقبتي، ابتعد عني قرابة المترين، وكان ظهره يشبه جدران مقبرة فرعونية، يتكلم بصمت لغة لا أفهمها، يتغير ديار وقوفاً وجلساً، له حالاتٌ لا تنتهي، وخط شخصيته يوحد بينها.

كلمني دون أن ينظر إليّ، من وراء ظهره:

- قبضوا عليه قبل ميلٍ من الأردن، وعادوا به إلى بغداد، ليسجن، ويعذب.
- ماذا فعل؟
- كان يخاطب جرائد المعارضة خارج البلاد، ويكتب فيها باسم مستعار، ولم كُفّ بصره صار أقل حذراً، أو ربما أقل صبراً، فبدأ يجتمع بخلايا سرية داخل البلاد، وانكشف أمر الشبكة، الشبكة التي كانت تربط شيعة الجنوب وأكراد الشمال لأول مرة، ثمة يد تركية خفية اشتمها النظام، ولما حاول الهرب، كانوا لخطواته البطيئة بالمرصاد.

صمت ديار دقائق، ثم قال:

- أتدري من كان يحقق معه في السجن، ويعذبه لينتزع اعترافه؟
- من؟
- عدنان مهدي، أخي.
- أخوك؟، أخوك أنت؟

أهمل ديار سؤال الدهشة، تركني أراوح النظرات استجداءً لجوابٍ نافٍ لم يأت، كل شيء في هيثرو كان يقول: نعم.

كثيراً ما أفقد القدرة على احتواء الآخرين، أنا الذي لا أعرف كيف أحتوي وجعي، أشعر أن نظراتي فقط لا تستطيع أن تكمل دورة واحدة على ظهر ديار، على شعره المتناثر فوق ياقة قميصه، على عروق يديه الثائرة وهو يعقد هماً وراءه، كنت في انتظار رجلٍ في بدايات اغتياره، وأهيم لساناً لأشد من أزره بما أستطيع، ولكنه الآن يفجعي معي.

كان يبدو لي أن قناعاته الصامدة بدأت في التآكل، وأن أضلاعه اعوجت كثيراً وهي تلملم بعضها بعضاً حتى تشابكت، وأن آخر فوهة قارورة بيرة أخبرته أنه لم يعد هناك جدوى من التماسك.

لم أكن أنتظر هذا الديار، كنت أنخيل دياراً آخر.

لا أتحمّل أن أراه منكفئاً على أثر صدمة، قد أراه متخاذلاً، متعباً، مشتتاً، ولكني لا أريد ديار ميتاً، هأنذا أنفض كل أفكار الساعات التسع التي قضيتها بين المطارين، فلم تكن ذات جدوى، حتى الكلمات، أفرغتها في بالوعة الصمت، وبقيت مطرقةً أحرق في أكتاف الرجل، وفوضى الأرض.

عاد ديار من خطاه، جلس، وتنهد، وابتسم، وربت على كتفي، وتأملي بود، وأنا أشعر بارتباكٍ ما، ربما لأني عاجزٌ عن مواساته، من ذا يواسي رجلاً مثله؟

حقيقة الأمر، لم أكن أدري إن كان حزناً لما حلّ بجاره القدم، أو لما آل إليه أخوه، أو أنه يشعر بالعار والقرف فحسب، قررت أن أصمت، حتى يحدد ديار شكل حزنه هذه المرة، قال:

- أخي يستدرجني للعودة.

- لماذا؟، كيف؟

مازلت مضطرباً، يكمل ديار:

- بعث لي رسالة، هذا السافل، تذكر أخاه بعد تسع سنوات، ثم هاتفني مرتين، وما زال أحقماً، لم يدرك أنني قد أتساءل كيف عرف عنواي وهاتفي، أنا الذي لم ألبث طويلاً في لندن.

- ولكن ماذا يريد منك؟

- لقد صرتُ عضواً في المعارضة العراقية.

-

- بادئ الأمر ظننتُ أن أخي يبحث عني مدفوعاً بحنين الطفولة، أمه حملته بعيداً عند أهلها بعد وفاة أبي، ولكني مذ التقيتُ أبا يوسف، علمتُ أن أخي ينتظر ليكون جلادي القادم.

- أمتأكد أنت يا ديار؟

- أجل يا صديقي، المعارضة في لندن بدأت تشتد، قيادات كبيرة في الوطن بدأت تنضم لنا، وصرنا مدعومين من دول وأنظمة كثيرة، إن عضواً في التنظيم اللندني يعتبر صيداً ثميناً للنظام هناك، ولو كان أحملاً.

- ولكن لماذا المعارضة؟

- ولماذا الحياة؟

سكتُ وأنا لا أحر شيئاً، أهذا إذن ما جاء بديار إلى لندن؟، كان هذا علّة تغييره الطفيف الذي شعرت به في كالجري، لقد ألقى ديار وشاح لامبالته بالكون، وقرر أن يحيا من أجل عقيدة، من أجل وطن، من أجل حياة لها معنى.

وبمجرد أن قرر تغيير حياته، اجتمعت عليه أحزانٌ لا يدري من أين جاءت، هاهو

ذا يُدرجُ اسمه ضمن قائمة المطلوبين للنظام، وهاهو ذا يُفجع في أخيه لأبيه، عدنان، وهاهو ذا يبصر بأَم عينه ما حلَّ بجاره، وما يمكن أن يحل به هو، وهاهي لندن فعلاً كما قال، تجيد تعرية الجراح.

يا إلهي، لندن، جرحنا العربي الكبير الضارب في جذور التاريخ، كل مآسينا العربية أصلها لندن، كل أوجاعنا مصدرها لندن، كل الاستعمار ومخلفاته، والفقر وفجائعه، والعمالة وأذناها، والشعوب التي نسيت شكل المجد، وطعم الانتصار، منشؤها لندن. أنت عربيّ يا ديار، لهذا فقط تضطهدك لندن.

هانحن نتعانق مرة أخرى للرحيل، ويترك ديار دمةً على كفّي ويرحل.

يضيع في داخلي الشعور بالوطن الذي ينتظري، بعثري ديار في شتات عينيه، هذا الرجل الذي أصر أن يعبئ حقيبي حزناً، كما ملأ جبيبي قبلاً.

كم أنا قلقٌ عليه، لأن ذوي القامات الطويلة عندما يسقطون، تكون سقطتهم مميتة.

عندما علّمني ديار دون أن يدري كيف أحرق الدنيا من أجل حيي، لم أكن أدري أنني سأشهد سقوط معلّمي قبل أن أبدأ في تطبيق ما تعلمته.

عراقيّ آخر يحتضر، ابنٌ جديدٌ يموت من أبنائك، هل تسمعه؟

طيب الله ثراك يا هارون الرشيد.

ليل الطائرات طويل، وأنا مثقلٌ بصوت أمي، وثلوج غربي، وغموض

مستقبلي، ودمة ديار على كفّي.

الكثير من الأسئلة تفتك بنا أكثر من همومنا، وأنا أطحن عقلي منذ ساعات.

متى يتوقف البشر عن البكاء؟

إننا مخلوقاتٌ باكية، ما زلنا نصنع أحزاننا، ونصنع أحزان غيرنا، وندبٌ على وجه الأرض.

وديار..

أين تنتهي يا ترى حلقة الوطن، الإنسان التي تدور عليها هذه البسيطة منذ ملايين السنين؟

متى يتوقف جرح الرجل عن التزييف؟، ومتى يتوقف هو عن إطفاء سجائره على طريقة مواطنه بلند الحيدري: ((أطفئُ سيجارةً في كلّ جرح))؟

أو متى تنتهي السجائر في علبة ديار، أو غربة ديار؟

وحده هذا الرجل يعلمني كيف تطلع الأحران أحياناً على حجمنا البشري الضئيل، وحده أراي كيف تترك عوامل التعرية آثارها في الجبال الشاهقة، وحده رمّمني طيلة سنتين، ثم لما اقتربت من العودة، هشّمني معه على أرضية هيثرو الباردة.

من قال أننا قادرون على حمل الأمانة؟، إننا أضعف المخلوقات في هذا الكون، ألسنا المخلوقات الوحيدة التي تبكي؟

ولكنها فطرة حياة، لا أدري لماذا يرفضها البعض رغم اعتدالها، أن نعيش حزان، فلماذا التشاؤم، لقد كفانا خالقنا هذه الفلسفة ((لقد خلقنا الإنسان في كبد))

إنه قدرٌ إلهيٌ إذن.

ماذا نملك نحن البشر أمام أقدارنا الإلهية؟

الحزن هو طعامنا الأول على الأرض، تتغير الأحوال، والأقدار، ويأتينا حزنٌ ما، مهما كانت الظروف، ومهما كانت التقية.

أنا أحب مها وهي هجرتني كأحزن رجلٍ في الدنيا، وسالم راح يكتشف كل يومٍ في حبيبي شهوةً جديدة، ويوماً ما ستفرُّ نطفةً منه لتصنع جنيناً، وقبل مها، كبرتُ يتيماً وبسيطاً، ومات يوسف، والآن ماتت جدتي، وبكى صديقي على كفتي قبل ساعتين، لو لم تكن لي هذه الأحزان، فأني أحزانٍ أخرى كانت ستحملها لي الأقدار يا ترى؟

ربما كان ما أنا فيه أشدُّ وطأة، وربما أخفّ، غير أننا نألف أحزاننا أحياناً، كما نألف بيوتنا.

لو قدّر لي أن أغبّر خريطة حزني الآن لربما تردّدت كثيراً، ولو كانت أحزاني الجديدة أقل وقعاً وألماً على النفس.

يبدو أن الإنسان الذي كتب عليه خالفه الكبد، لم يحرمه نعمة التعايش معه.

تذكّرتُ مقولة طاغور ومضيفة الطائفة تناولني حبي أسيرين: ((أبلغ دروس الحياة، أن ليس هناك ألمٌ لا يمكننا أن نتصادق معه))، كأنك علمتني كيف أتصادق مع أملكٍ فلا أنساه، أنا الذي لم بمنحني الألم فرصة الاختيار هذه.

قد أسعى لحو أحزاني، ولكني لن أجرو على استبدالها بحزنٍ مجهول، لن أقامر على طاولة الحياة، وحشة هذا الحزن المجهول أشدُّ عليّ من حزنٍ قديم أليف.

وعندما أحاول فرز أحزاني، أحتار فيك، أسأل نفسي في ظل ما أنا فيه الآن: هل مها حزنٌ أم حب؟

هل أصنّفك ضمن أحزان عمري، أم ضمن دقائق قلبي؟

لا أدري، ولكن كأني أهتدي أحياناً إلى أن حيي لك شيء، وحزني عليك شيء آخر.

عندما كنت معي، كان عقلي وقلبي يشتركان في صنع قرار الحب، لم تبدي لي راحةً لأني أحبك فقط، ولكني أحببتك، لأنك بدوت لي راحةً حقاً، كما استُخدمت هذه الكلمة لأول مرة في التاريخ.

كان خلف جبينك منطقٌ جذاب، فتاةٌ تجاوزت منطقة الوأد، وحلّقت أنثى، فوق مجتمع الصيادين، ولم تحبّ هذه الفتاة، رغم القضبان الحديدية، رغبة الجناح، ولا حلم السماء الوادعة، تسرّبت إلى قلبي بهدوء، وانزلت فيه كما يتزلق المفتاح في ثقبه، لأنه فصلٌ بحجمك تماماً، أنا الذي ما عرفتُ توأماً لي قبلك، ولا أظن أن لنا توأماً ثالثاً.

لم أتخذ قراراً في حياتي أسهل من قرار حبك، ليس لأني كنتُ متسرعاً، ولكن سبب سهولته ببساطة، أنه كان القرار الوحيد الذي يمكن أن يتخذ، تحت سلطة اعترافي بك كأميرة، لم ألتفت، لم أتردد، لأني كنتُ أعرف أن التردد في الحب الأول قد يصيب قلبي بالشلل.

هذا كان حيي لك، أما حزني عليك فقرارٌ آخر.

قرارٌ انفرد به قلبي المكلم، وكان عقلي أبرأ شيء منه.

لأني لم أطق الانتظار طويلاً من أجل العلاج، فقد اخترتُ حقنني بنفسي، وغرستُ إبرتها المحمومة في ذراعي بعمق، وكان قراراً بالإدمان، هكذا دون أن أندرج في السقوط، دون أن أتدحرج في الهاوية، وجدت نفسي أتعاطى حزنك جرعةً بعد

جرعة حتى تشربته خلاياي تماماً، وتعودت عليه قطرات الدم، وأنسجة الجسد.

بين الحزن والحب، تساءلتُ أيضاً: أن أعيش لحبك، أو أموت بسببه، أيهما أبلغ تأثيراً يا ترى؟

أضواء الرياض ليلاً، تتقاطع بانتظام، ثم يفصل عنها خطان طويلان من الأضواء المتوازية حذاء الطريق الذي يصل المدينة بمطارها.

بعدد ما سافرتُ عن هذه المدينة، وحملتني منها طائرات، وأعادتي إليها أحريرات، إلا أنني في كل مرة أقبل عليها لا أقاوم الرغبة في النظر عبر النافذة إذا كان الوقت ليلاً، إلى عرس الأضواء هذا، ربما هو عناقٌ مالا أستطيع أن أحيطه بذراعي الآن، فأحطته بعيني.

هذه المدينة الملتهبة صيفاً، فلا تتنفس إلا في ثلث الليل الأخير بضعة أنسام يقتسمها الجميع، والباردة شتاءً، فلا تتوقف لفحة الهواء إلا في آخر العظم، والمعتدلة فقط أياماً معدودة تمطرها السماء فيها أواخر السنة الميلادية، هذه مدينتي، حي الحافي الذي يتعل الشوق أياماً فقط.

يدهشني حنيني لها، ويدهش الكثيرين ممن ربوا على هضبتها النجدية الساهمة تعلقهم الشديد بها، رغم جفافها الكبير.

ثم صحراءٌ تحيط بها من كل الجهات، تهادى أحياناً لتتشعب في أحيائها وأطرافها مثل سرطانٍ كبير، وما ينجو من الصحراء لا ينجو من الإسفلت والإسمنت، ولكنها تكبر وتتمو، وتهفو إليها قلوب أهلها، فلا يتخلون عنها.

كلها نقائص هذه المدينة، فيها الفقر والغنى، كعادة المدن الكبيرة، كما أنها خالية من كل ما يجذب سائحاً ما، فلا بحر، ولا احضرار، ولا آثار، ولا قبلة دين، ولكنها تقتلنا شوقاً كلما رحلنا عنها إلى حيث يرحل الراحلون.

يكفيني الآن من طولها وعرضها بيتنا الذي ينتظري، رائحة الأهل، ووجوه الأصحاب، الشوارع التي ابتدأت، والبنائات التي استحدثت، والشمامة التي لا تزال وقفاً على قلوب العشاق، وأنفاس الذي يحترقون حيناً، كما يحترق الغضى المشتعل أمامهم على الكتيب الهادئ، إنها مدينتي الأولى، ذاكرة الطفولة التي لا تُمحى، والمراهقة التي مرّت ولم أشعر بها، والشباب الذي لم ينته بعد، وما زال جرحه مستغلقاً على فهمي وضماذي.

أظنني عدتُ مشرداً كما رحلت، غير أن في أعماقي رغبةً عارمةً في تغيير هذا الواقع المؤلم الذي شردي طويلاً، أريد أن أعيش كما يعيشون، أولئك الذين ابتنوا سعادتهم بأيديهم ولم يفكروا في السماء، إنهم سعداء حتى ولو فشلوا، يبقى لهم مجد المحاولة، وشرف التجربة، ونقاء العنصر البشري الذي لا يصدأ.

إنهم سيكون ربما، غير أن بكاءهم هذا رهين موقف، وأنا بكائي رهين عمر.

لو أنني تخلّيتُ عنك الآن، واجترأتُ ذكراك، وعيرتُ إلى امرأةٍ أخرى، وحياةٍ أخرى، هل تظنين الروح تبرأ؟، إنه عارٌ إنسانيٌّ ضخم سأظل أحمله على أكتافي حتى في شيخوختي، ذلك أنني ثنيتُ العزم دون حلمي، وكررتُ المطي دون مدينتي، وتركتُ طموحي للأقدار تتناهشه كما تشاء، وأكملتُ حياتي ذليلاً على رصيف الدنيا، من يأبه بي؟

الحياة قصيرة بحق، فلماذا أعيشها بهذه الضالة؟، ليس عيباً ألا ندرك ما نتمنى، ولكن العيب الكبير ألا نسعى لما نتمنى.

قد لا أغترب بعد اليوم طويلاً، ولكن ماذا أفعل في تلك الغربة المقيمة في جوانحي؟، صعبٌ أن أنتزع تأشيرة الوهم المتشبهة بعنف في جدران روحي منذ عرفتك، حبك كان جواز سفرٍ يختصر عمري، وفراقك كان التذكرة التي أوردتني منفاي.

شعورٌ بعد الرضا يتغلغل في صدري، وأنفاسي، ومشاعري، في ذاتي المتعبة اللاهثة في مضمار اللاشيء، هذا الضعف العاطفي يؤلمني منذ طفولتي، لماذا دقة الحس بدلاً من مناعة تقيني عوادي الزمن وأحزانه؟، ليتني جئتُ قاسياً، بارداً، لا مبالياً، ترحلين عني فلا آبه بك، وتهجرين قلبي، فيبتلعك النسيان، ولكن هيهات.

ربما حان الوقتُ لسحب السلطات من قلبي، ومنح عقلي فرصة التفكير المفيد، بعيداً عن تهاويم الحزن العاجزة، يبدو أن قلبي كان يحتاج إلى وصيٍّ ما، يدبر شؤونه، ويأخذ بيديه، حتى يفهم أن لنبضته ثمناً، ولاحتلاجه حقاً، ولألمه معنى.

حبك سرطني، عريتُ صدري أمام هذا الشعاع الخفي حتى أهلك خلاياي تماماً، ولم أعلم أن دفأه اللذيد ترك لي بعد رحيلك جسداً مليئاً بالأورام.

* * *

دموعٌ أمي على قميصي كانت حكايةً طويلة.

لأن لجوئي لهذه الأم تعاقب عليه مدٌ وجزرٌ خلال حياتي، منذ الطفولة وأنا أستنشق الطهارة من بياض وجهها، غير أن مراهقتي شيءٌ آخر.

كنتُ منطوياً على كل ما يخصُّ مشاعري وأحاسيسي اليومية، أصر على التماسك، أو ادعاء التماسك، بينما ينهار في داخلي ألف جدار، مشاكلي الصغيرة تنمو، صارت غثباناً، ثم صداعاً، حتى استحالت أوجاعاً دفيناً في أعماقي، ولم تتغير عاداتي تلك، ولا أنا خلعتُ ذلك القناع الكاذب.

لا أدري لماذا كانت الشكوى تكسوني خجلاً كثيفاً كلما هممتُ بها، ربما هو الضعف القديم كَوّن فيّ نقصاً ما، يدفعني دائماً إلى إخفاء شكواي، تظاهراً بالقوة، صغيراً كنتُ، وحولي الكثير من الكبار الأقوياء، ولكني نادراً ما كنتُ أقرأ خلف عيونهم تحاوياً لا يأخذ شكل الشفقة أو اللوم.

حتى أمي الطيبة، لا أدري لماذا تسترسل في عتابي قبل أن يأخذ كلامي معها بجرى الشكوى، كانت رغبتها الفطرية في تربيته تُنسبها أحياناً أن كفاً حانية تجري على جبين مُرهق قد تغَيّر الكثير مما قد يتشكل خلف هذا الجبين، ربما أكثر مما تفعله المحاضرات الطويلة، عن الدين، والحكمة، والمثالية، وكيف تؤخذ الدنيا غلاباً.

اللوم والشفقة، حاجبان مخيفان، يردّان كل شاكٍ عن مجلس من يؤمّله، بعض الإصغاء الصامت أحياناً يجدي أكثر من كلمات المواساة المهينة، ليتهم علموا أن هذين الهاجسين هما ما يجعل شكواي تطير كعصفور حائف في صدري فقط، وقد سُدّت في وجهه منافذ الدموع والكلام، قبل أن يهوي في قعره ميتاً في مقبرة العصافير القديمة.

هذه الليلة اختلفت أمي، كانت دموعها على قميصي لا تلوم ولا تُشفق، كانت تنزل تماماً كما تنزل دموعي على ذراعيها الهزيلتين، جمعتُ شقاء الليل والنهار، ووحشة العمر وغرْبته، وصببتها دمعاً كبيرة كبيرة، لم تجهد طويلاً لتنزل، مثلما تنزل الأقدار على وجوه البشر.

صخب اللقاء، والترحيب، وصالة المطار، وشوارع مدينتي التي تزداد إسمتاً وطوباً، وباب البيت الذي تغير، ووجوه إخوتي التي تضحك، ودموع عائشة التي تتحدر، والأطفال اللذين صرّت لهم عمماً أو خالاً أثناء الغربة، ورائحة العود في المكان، كل هذه البدايات كانت دافئة، ولكن النهاية كانت هناك، قبيل الفجر، في غرفة أمي.

أويتُ إليها بعدما رحل الجميع وقد شيعوني إلى غرفتي لأرتاح من وعناء السفر، خرجتُ إلى الصلاة التي شهدت طفولتي وصباي، وقفتُ أمام باب جدتي المغلق، والظلام الحالك من ورائه، تذكرت باب شقة مس تنغل الذي انغلق على بقايا طبيعتها، ونفضتُ الموت من ذاكرتي، وسعيتُ إلى الحياة.

أُلفتُ أُمِّي جالسةً جلسة التسليم من الصلاة، دخلتُ عليها، قبلتُ رأسها ثم توسدتُ رجلها بعد أن قبلتها أيضاً، واستسلمتُ لحركات يديها في شعري.

- كأني بسجadtك لم تتحرك قيد أنملة من مكانها يا أُمِّي.

- ما تغيّرت القبلة حتى تتغيّر سجadtي يا بني.

حكيتُ لأُمِّي حكاياتي، أخبرتها عن فانكوفر الخصبة، وحزنها الجميل، شقة مس تنغل التي صممت، والمسافات الطويلة في خطى ديار، حفل التخرج الصغير، والشهادة والإطار، وُندف الثلج التي ذابت على جبين حُمّاي، وشقتي وأثاثها، والمقاهي، وأشجار الخريف، وكيف استطاعت تلك المدينة أن تسقيني سائلاً غريباً، لا هو أسكرني، ولا أسعدني، ولكنه داواني بألم، وأبقاني حياً.

كانت أصابعها الحانية تفتش في خصلات شعري عن شيبات نادرة في الرأس الشاب، وتنتشل من ذاكرتي كل وجع لم أقله لأقوله، ولكن ثمة شيء كان يُبعدك عن أصابعها المتماذية، حتى وجدتك أخيراً.

- هل تتزوج يا حبيبي؟

ابتسم لأُمِّي، وأبدي دلال العائد لتوه:

- هل هناك من تستحق ابنك يا أُمِّي؟

- اختر أنت لن أتدخل هذه المرة.

- ماذا لو اخترت فتاة سبق لها الزواج، أو أرملة مثلاً؟

- اظفر بذات الدين يا ولدي، ثم اختر من تسكن إليها نفسك، وتقر بها عينك، أياً كانت.

- قريباً يا أماه، أقرب مما تظنين.

- تروّ في اختيارك، لا تفعلها مرةً أخرى.

كان يبدو أن انفصالي الأول عن الفتاة التي اختارتها أُمِّي ما يزال باقياً في نفسها، مثل جرح صغير كلفته إياها، حياءً وخجلاً من أهل الفتاة. قلت لها:

- لا يا أُمِّي، لن أفعلها مرةً أخرى.

وفي نفسي قلت: لا يا أُمِّي، لن أحاول الزواج بغير منها مرةً أخرى.

تركتها تستغفر، وهمهم بأذكار الصلاة، وتوسدتُ ذراعي، وشردتُ في أنحاء وجهها وكأني أتأمله لأول مرة.

كانت الستون تغزو ملامحها بقسوة، لم أكن أرى شعرها الذي يختفي خلف حجاب الصلاة، ولكن خصلات خرجت لتشرب من بياض وجهها كانت تشي بالكثير من الشعرات البيضاء التي لا أدري أيها نمت حزناً، وأيها نمت هماً.

أصابعها كانت أكثر امتلاءً قبل أن أرحل، والآن بدأ يشوبها هزالٌ قليل، وحول عينيه تشكّلت جعدتان طفيفتان، كانتا الخريشة الأخيرة لريشة الزمن.

بالفعل، كانت دموعها على قميصي حكاية.

للمرة الأولى أشعر أن أُمِّي تعبت، وأنها تنوكتُ على قلب ابنها بعد أن أرهقتها السنون، كنتُ أشعر أنها سعيدة، وراضية، ولكن الزمن يجري ثقيلًا على البشر، ولو كانوا أصحاء، سعداء.

لم أشعر بالخوف، ولكنني شعرتُ أن أحدهم يحتاجني، شعرتُ أن أُمِّي التي أرهاق

العتاء منها صارت ترنو إلى أبنائها بعين رجاء، وقد صاروا رجالاً ونساءً، أن اعتنوا بأنفسكم، فلم يعد لدى أمكم العجوز الكثير مما تقدمه لكم.
قرأتُ هذه في عينيها الغارقتين بدموع الرضا والحنان، شعرتُ في دوامة المشاعر أنه صار لديّ رسالة طويلة أكتبها بدماء السنوات، رداً على رسالة أطول منها، ظلتُ أُمّي تكتبها لي وحدي طوال خمسٍ وعشرين سنة.
قالت لي:

- لم يبق لي من هموم الدنيا وقد رحلت جدتك إلا انتظار مجيئك أنت وأختك أروى، اسأل هذه السجادة يا بنيّ كم كنتُ أغرقها دعاءً ودموعاً لعلك لا تعري، ولا تجوع، ولا تحزن.
- ولا أضلّ يا أُمّي.
- ولا تضلّ يا حبيبي.

ونمتُ تلك الليلة في غرفتها، أترد البقية من ثلوج فانكوفر من أنفاسي، وأبقي رائحة أُمّي في لحم الرئة، تختلط على جدار جفني أحلام، ووجوه، وأجوبة قديمة.

* * *

نُشرت الرواية، قبل أن تنتهي السنة بعشرة أيام.
وجدتها معروضةً في المكتبة التي التقيتُ فيها. بمها قبل ثلاث سنوات.
لأن بعض الأمكنة لا تكفيها البدايات فقط، تمسكُ بطرفي القصة، وطرفي الحزن، وتأرجحنا بينهما مثل الحبلّة التي يقفز من فوقها الأطفال.

جلستُ أحصي أحزاني..

٨٦٥٦ سطرًا..

٩٧٥٢٣ كلمة..

٤١٧٧٥٨ حرفاً..

وأكثر من مائتي علبة سحائر..

حصاً الحزن العبيّ، الحزن الذي يحتاج إلى كل هذه الصفحات ليعرّف بنفسه فقط.
ويبدو أُنّي لم أنقل أحزاني فقط للرواية، الحقيقة أُنّي كنتُ أصدر منها نسخةً أخرى، فقط، بينما ما زالت المخطوطة الأصلية في صدري.

عندما يمنحني الزمن فرصة للراحة، أضيّعها في بوحٍ أحمقٍ كهذا.

ربما أغلقتُ ذلك الدفتر الأخضر أخيراً، ورميته في جحود كاتب في صندوقٍ صغير، بعد أن أفرغت ما في جوفه على أوراقٍ أخرى، مطبوعة، أكثر أناقةً، وأنصعُ بياضاً، وأشدُّ برودة، غير أنه حان الوقت لأكتب في دفترٍ آخر.

دفتر حياتي.

حان الوقتُ لأغير ملامحي، حان الوقتُ لأقتلع منها من عيون الدنيا، وأعيدها إلى قلبي.

وانتظرتُ أياماً حتى تبرّد عاطفتي من حرارة البوح، ثم حمل البريد روايتي إلى بلدٍ بعيد، لم أكن بالغه إلا بشقّ الكتابة.

بعد شهر، كنتُ أجلس في المجلس الصغير الذي كتبتُ فيه الفصول الأخيرة، أكنسُ المكان وراء ذاكرتي مهدوء، عندما دخلتُ مها..

الرياض

٢٠٠١/١٠/٣٠ م